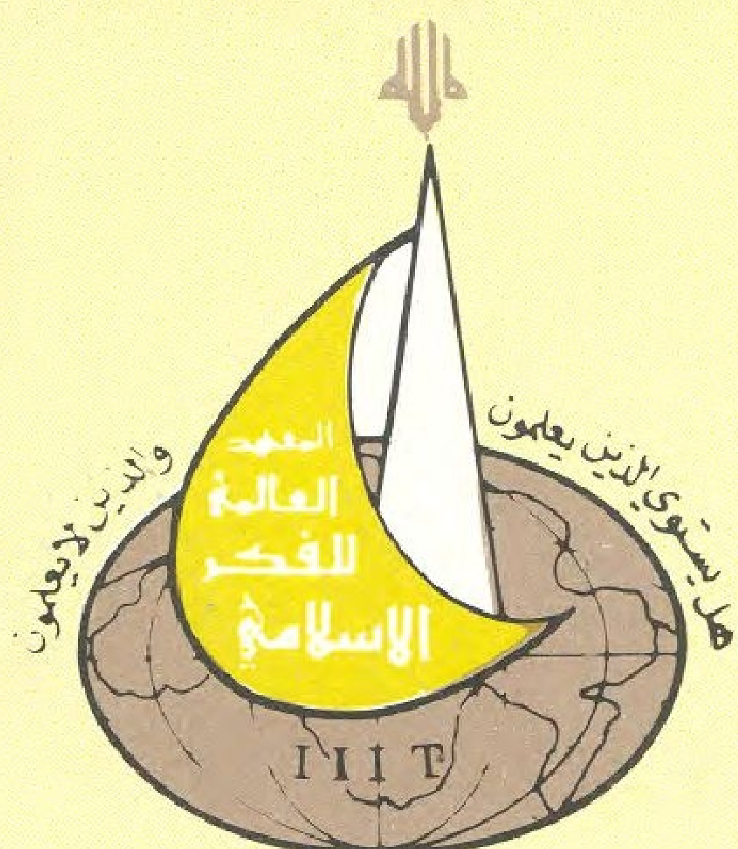
المعهد العالمي للفكر الإسلامي



سلسلة الرسائل الجامعية (٣٠)

سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها

محمد هيشور

هذا الكتاب

دراسة فى سنن القرآن فى قيام الحضارات وتداولها وسقوطها من منطلق القناعة بحاكمية السنن القرآنية فى التدبر والتأمل فى عوامل قيام الحضارات وأسباب انحطاطها وتدهورها .

ويبحث الكتاب فى أهمية الدراسات الحضارية ومعنى السنن القرآنية وتصورات ورؤى بعض المفكرين الغربيين أمثال ماركس ، شبنجلر ، أرنولد ، توينبى ، وبعض المفكرين الإسلاميين أمثال ابن خلدون ، مالك بن نبى ، أبو الأعلى المودودى لقضايا الدورات التاريخية والتعاقب والتداول الحضارى بين الأمم .

ويركز المؤلف فى دراسته حول سنن القرآن فى قيام الحضارات من خلال العقيدة والعبادة والسلوك ، وفى سقوطها من خلال سنن الابتلاء والظلم والتكذيب والفساد الاجتماعى وسنن التجدد والاستبدال الحضارى من خلال التداول والاستخلاف والتمكين وأخيرا سنن وراثة الأرض وأن لكل ما فى الكون أجل مسمى هو بالغه .

محمد هيشور

* مواليد الجزائر ، ١٩٥٦ .

* ليسانس اللغة العربية ، كلية الآداب ، جامعة وهران ، ١٩٨٣ .

* ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٨٨

موضوع " **سنن القرآن فى قيام الحضارات وسقوطها** " .

* دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة وهران ، ١٩٩٤

ضوع " **الظاهرة الأدبية فى محيط القرآن الكريم** " .

* عضو رابطة الأدب الإسلامى العالمية .

* له عدة أبحاث منشورة :

– الإسلام والغرب .

– الانتماء المعرفى والادبى .

– الرؤية الإسلامية من الوحدة الأدبية .

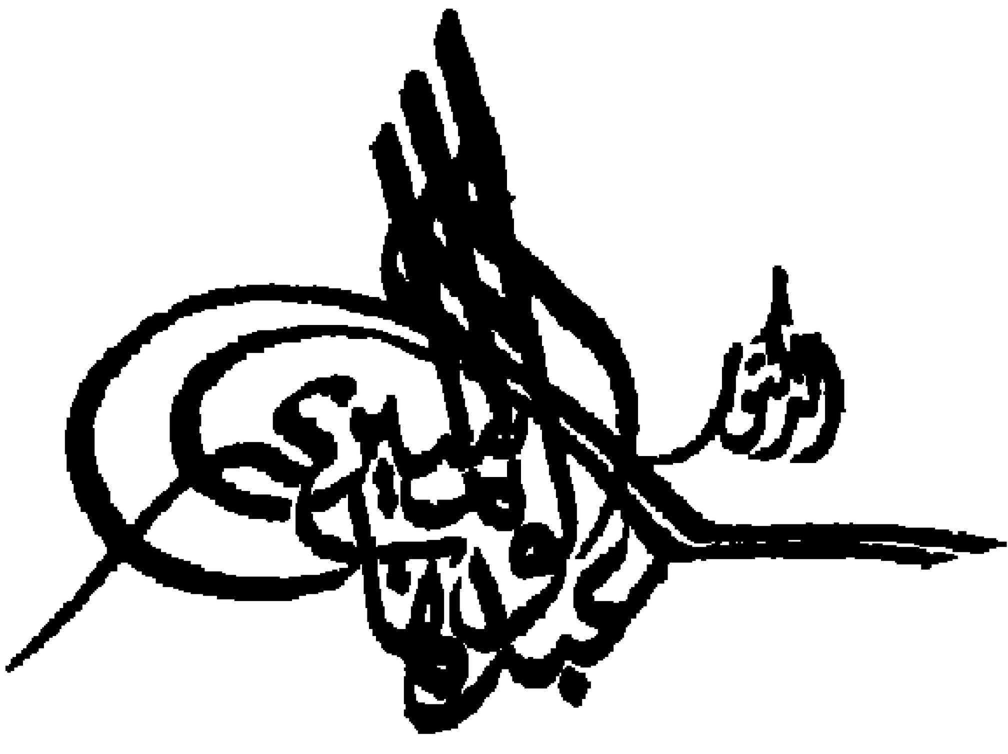
– التاريخ الإسلامى بين المد والجزر .

– مساهمة جمعية العلماء المسلمين فى الصحوة الإسلامية المعاصرة .

اهداءات ٢٠٠٤

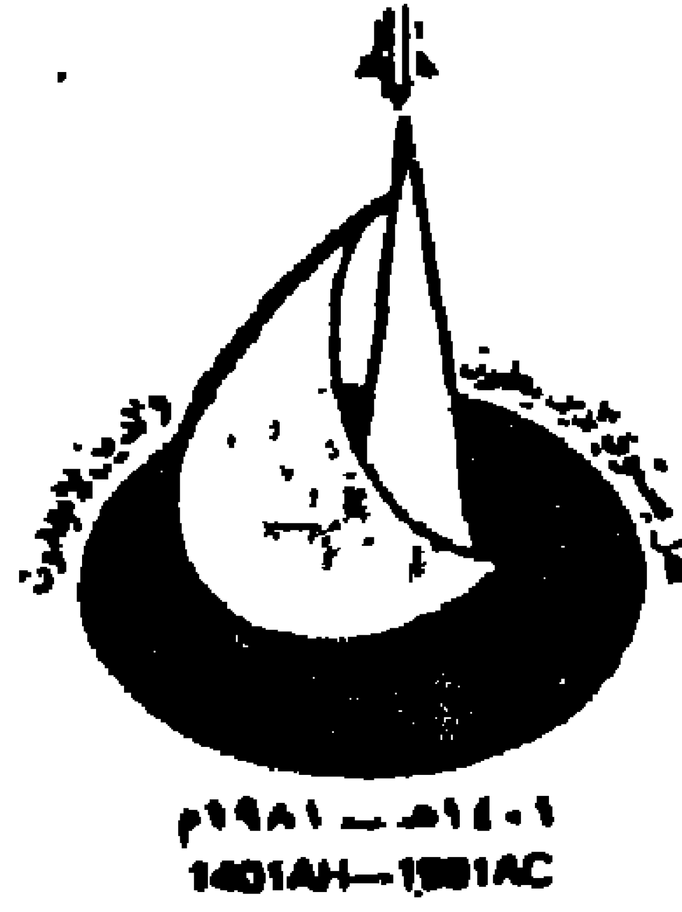
الدكتور / عبد الوهاب المسيرى

القاهرة



سنن القرآن

في قيام الحضارات وسقوطها



الطبعة الأولى

١٤١٧هـ/١٩٩٦م

سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها

محمد هيشور

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
القاهرة
١٤١٧ هـ / ١٩٩٦م

(سلسلة الرسائل الجامعية ؛ ٣٠)

١٤١٧هـ / ١٩٩٦

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

٢٦ ب - ش الجزيرة الوسطى - الزمالك - القاهرة - ج.م.ع.

بيانات الفهرسة أثناء النشر - مكتبة المعهد بالقاهرة.

هيشور، محمد.

سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها / محمد هيشور. - ط ١.

القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦.

٣٢٥ص؛ سم. - (سلسلة الرسائل الجامعية ؛ ٣٠)

يشتمل على إرجاعات بيليوجرافية.

تدمك - ٨٧ - - ٥٢٢٤ - ٩٧٧

١ - قصص القرآن. ٢ - الحضارة - التاريخ

رقم التصنيف: ٢٢٩,٥.

رقم الإيداع: ١٠١١٣ / ١٩٩٦.

المحتويات

تقديم

نبه كثير من العلماء قديما وحديثا إلى موضوع السنن الإلهية، لكن هذا الموضوع لم يحظ باسقلال في البحث حتى يصير علما كما صير المسلمون موضوعات كثيرة علوما.

والواقع أنه في عصرنا هذا الذي تداخلت فيه الأحداث واصبح نمط الحياة أسرع واكثر تعقيدا، أصبحت هناك حاجة ملحة إلى أن يستقل علم من العلوم بدراسة جانب من القرآن يكون عونا للمسلمين على انطلاق رؤاهم الكلية من كتاب ا لله ومن عقيدتهم في الكون والإنسان والحياة لما فيه صالح المسلمين.

وإذا تتبعنا تعريف السنة والسنن لدى علماء المسلمين، نجد أن ابن منظور يعرف السنة على أنها السيرة حسنة كانت أم قبيحة، أما ابن الأثير فيقول في النهاية في غريب الحديث: "الأصل في هذا اللفظ (السنة) .. الطريقة والسيرة"، ويستدل على ذلك بحديث المجوس عن النبي صلى ا لله عليه وسلم: (سنوا بهم سنة أهل الكتاب)، أي خذوهم على طريقتهم وأجروهم في قبول الجزية منهم أجرهم. ويعرفها ابن تيمية، وقد أدرك طرفا من السنن الإلهية في القرآن الكريم، فيقول: "لقد بين ا لله سبحانه وتعالى أن السنة لا تتبدل ولا تتحول في غير موضع. و(السنة) هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول، ولهذا أمر ا لله سبحانه وتعالى بالاعتبار فقال: **﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾**. والاعتبار أن يقرن الشئ بمثله فيعلم أن حكمه مثل حكمه، وأن من عمل مثل أعمالهم - أي الأمم السابقة - جوزي مثل جزائهم. فإذا قال: **﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾**، وقال: **﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾**، أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جُوزي مثل جزائهم، ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار، وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين أتباع الأنبياء، فقال تعالى: **﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾**، والمقصود أن ا لله أخبر أن سنته لن تتبدل ولن تتحول، وسنته عادته التي يساوى فيها بين الشئ وبين نظيره الماضي. ويقتضي هذا أنه سبحانه يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة، ولهذا قال سبحانه: **﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾**. وقال أيضا: **﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾** أي أشباههم ونظائرهم.

ويقول الشيخ رشيد رضا في المنار: السنن جمع سنة وهي الطريقة المعتبرة والسيرة المتبعة أو المثال المتبع، وقيل إنها من سن الماء إذا والى صبه، فشبهت العرب الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب، فإنه لتوالي أجزائه على نهج واحد يكون كالشئ الواحد.

وإذا رجعنا إلى الأصفهاني في مفردات غريب القرآن نجده يقول: "السنن جمع سنة وسنة الوجه طريقته وسنة ا لله قد تقال لطريق حكمته وطريق طاعته، وذلك على نحو

قوله تعالى: ﴿سنة ا لله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة ا لله تبديلا﴾ وقوله أيضاً: ﴿ولن تجد لسنة ا لله تحويلا﴾. وفي هذا تنبيه إلى أن فروع الشرائع وإن اختلفت صورها فإن الغرض المقصود منها لا يختلف ولا يتبدل وهو تطهير النفس للوصول إلى ثواب ا لله تعالى وإلى جواره.

ويقول الإمام محمد عبده: "... فما جاء في الكتاب العزيز مقررا لهذا الأصل وهو الاعتبار بسنن ا لله في الخلق: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ ﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾ ﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة ا لله تبديلا ولن تجد لسنة ا لله تحويلا﴾، ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾. في هذا يصرح الكتاب العزيز أن لله في الأمم والأكوان سنناً لا تتبدل. والسنن الطرائق الثابتة التي تجرى عليها الشؤون وعلى حسبها تكون الآثار، وهي التي تسمى شرائع أو نواميس، ويعبر عنها قوم بالقوانين، ما لنا باختلاف العبارات، الذي ينادي به الكتاب أن نظام الجماعة البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل وعلى من يطلب السعادة في هذه الجماعة أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله ويبني عليها سيرته وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر إلا الشقاء وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه أو اتصل بالمقربين سببه. فمهما بحث الناظر وفكر وكشف وقرر أتى لنا بأحكام تلك السنن فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ولا تنفر منه، فلم لا يعظم تسامحها معه.

وفي موضع آخر يصرح الشيخ محمد عبده بعلم السنن بطريقة مباشرة ويدافع عن مشروعيته فيقول في تفسير قوله تعالى: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾. إن إرشاد ا لله إيانا إلى أن له في خلقه سننا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة لنستمد ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن ا لله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وبينها العلماء بالتفصيل عملا بإرشاده كالتوحيد والأصول والفقه.

وقد وردت لفظة "سنة" بحرفيتها دون اشتقاقات في القرآن الكريم سبع عشرة مرة، وتستخدم في القرآن عادة بمعنى ما بين ا لله للإنسانية من طرق واتجاهات عاشتها ومرت بها الأمم السابقة فكأن ا لله جعلها قوانين ثابتة في البشر والوجود كله دون أن تتغير هذه القوانين أو تتبدل.

ونستخلص مما سبق أن السنن هي القوانين الإلهية الحاكمة في الواقع. ومن ثم فإن دراسة الواقع ضرورة لفهم السنن الإلهية، إذ أنه لا تعارض بين الواقع وبين السنن الإلهية

وإنما هما وجهان لعملة واحدة، وبإدراكهما معا تتم القراءتان لكتاب الله المنظور مع كتاب الله المسطور.

إن معرفة سنن الله تعالى جزء من معرفة الدين، وهذه المعرفة ضرورية وتعد من الواجبات الدينية لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة، وقد أدى إغفال السنن وعدم فقهها - في ميدان الدراسات الحضارية في واقع المسلمين الحالي - إلى ضياع طاقات كثيرة بذلها مفكرون ومربون إسلاميون عظام وذهب الكثير منها سدي في ظل مشكلة الإنسان المسلم صاحب المنهج الفقيه بسنن التحضر الخبير بربط عناصر الكون وطاقاته المعنوية بالحياة الاجتماعية لخدمة الإنسان.

لقد كانت حضارة المسلمين متقدمة يوم كان المسلمون يولدون العلوم وينشئونها إنشاء لخدمة النص ويجعلونه محورا لحضارتهم. إلا أنه بعد القرون الأربعة الأولى سبت هذا التوليد أو نام ولا نقول أنه مات، فعضد الدين الإيجي حاول في القرن السابع الهجري أن يضع علم الوضع، وهو وإن كان ملخصا لعلوم العربية إلا أنه قد إستقل فيما بعد عن باقي العلوم.

ويؤكد الشيخ محمد عبده أهمية وضع علوم السنن بقوله: "…. والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، وتدلنا عليه أحوال الأمم، وأمرنا القرآن أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها". ويضيف الشيخ محمد عبده قائلا: " …. فلا يحتج بعدم تدوين الصحابة لهذا العلم، فإن الصحابة لم يدونوا غير هذا العلم من العلوم الشرعية التي وضعت لها القواعد والأصول، وفرعت منها الفروع والمسائل، ولا شك أن الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن وعالمين بمراد الله من ذكرها، يعني أنهم بما لهم من معرفة بأحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم ومن التجارب والأخبار في الحرب وغيرها، وبما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط، كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم التي استولوا عليها، وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم النظري المحض، وكذلك كانت علومهم كلها، ولما إختلفت حالة العصر إختلافا احتاجت معه الأمة إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد وغيرهما كانت محتاجة أيضا إلى تدوين هذا العلم، ولك أن تسميه علم السنن الإلهية أو علم الاجتماع الديني أو علم السياسة الدينية، سمي بما شئت فلا حرج في التسمية".

ولعل فيما ذكره الشيخ محمد عبده ضابطا أراه مهما في التفرقة بين العلم وبين الفكر، فالعلم يبقى مضبوطا قابلا للتكرار ويمكن أن يدرس في الجامعات ومجالس الدرس، أما الفكر فينبغي أن يكون حرا طليقا من القواعد والاصطلاحات. ففي مرحلة الفكر ينبغي أن يفهم بعضنا على بعض لأنه لم تولد بعد المصطلحات و لم توضع بإزائها

معان محذدة، بل تكون فكرة يحاول المفكر أن يستولدها وأن يستنبطها، ثم بعد ذلك تجلس الجماعة العلمية وتحاول أن تجعل لها لفظا وأن تضع لها مصطلحا وتسير عليه فيتحول الفكر إلى علم. ومن هنا فلابد لنا من أن نرجع بالفكر لكي يغذي العلم ويطور طرق نقله ومضمونه كما كان الأمر في القرون الأولى وكما هو الحال في الأمم المتقدمة.

وإذا كان السلف الصالح قد أبدعوا علوما فريدة تميزوا بها عن سائر الأمم بما يشهد على شريعتهم بالصلاحية لكل زمان ومكان، مثل علم الفقه الذي يعالج وصف الأفعال البشرية وبيان حكم الله فيها، فإن الواجب يحتم علينا في عصرنا هذا أن نظهر هذا العلم المكنون في القرآن الكريم وهو علم السنن ليكون معينا لنا على التبصر بكيفية السلوك الصحيح في الحياة، وحتى لا نقع في الخطأ والغرور والأماني الكاذبة، وبذلك ننجو مما حذرنا الله منه ونظفر بما وعد الله به عباده المؤمنين المتقين.

وكما سبق وذكرنا فإن قضية السنن، التي تعد واحدة من الحقائق في القرآن الكريم - لم توف حقها من البحث والدراسة سواء من المفسرين القدامى أو المحدثين، فرغم قيام عدد من الدارسين بالحديث عن السنن الإلهية، ووضعهم بعض المؤلفات فيها، إلا أن هذا لا يتناسب مع أهميتها في منظومة المعرفة الإسلامية. وإذا استثنينا ما ذكره ابن تيمية وما نبه إليه الشيخ الإمام محمد عبده، فإن الدراسات الحديثة في موضوع السنن تكاد تنحصر في عدد محدود جدا من المؤلفات والدراسات الأكاديمية، هي على وجه التحديد:

- مؤلف الشيخ محمد الصادق عرجون "سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم".

- مؤلف الأستاذ جودت سعيد "سنن الله في الافاق والأنفس".

- مؤلف الأستاذ عبدالله التليدي "أسباب هلاك الأمم وسنة الله تعالى في القوم المجرمين والمنحرفين".

- مؤلف الدكتور عبدالكريم زيدان "السنن الإلهية في القرآن الكريم".

- رسالة الماجستير التي أعدها الأستاذ محمد هيشور بجامعة عين شمس، بعنوان "سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها".

- رسالة الماجستير التي أعدها الأستاذ فايز صالح الخطيب بجامعة الأزهر، بعنوان "عوامل فساد الأمم كما تصورها سورة "الأعراف".

وعلى الرغم من أهمية هذه المؤلفات والدراسات إلا أنها جميعها يربطها توجه واحد، وهو أنها تتحدث عن السنن لا فيها، وبالتالي لم تعن بضوابط هذه السنن

وكيفية إستنباطها من القرآن الكريم، وشبكة العلاقات المتداخلة بين السنن المختلفة بما يظهرها في خريطة متكاملة ذات فاعلية وتشغيل لكثير من المناحي الإنسانية والاجتماعية لتكون المنطلق للعلوم الاجتماعية والإنسانية وتأصيل لها. وبناء على ذلك فإن موضوع السنن في القرآن يحتاج إلى تفسير خاص للقرآن يُجلي مفهومها ويوضح حقائقها ومكنوناتها بما يحقق مدلول قول الله سبحانه وتعالى: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**.

إن أية محاولات لبناء علم السنن – الذي نأمل أن يوقظ الهمم للتأمل والتدبر في القرآن الكريم – يجب أن تبدأ في تحديد استمدادات هذا العلم. فلكل علم استمداد، ويمكن أن نجعل إستمداد علم السنن من علوم كثيرة .. منها ما يتعلق بالنص كعلم أصول الفقه وعلم التفسير ومقدماته .. إلى آخره، ومنها ما يتعلق بالواقع مثل مجموعة العلوم الاجتماعية والإنسانية. وهنا يجب أن ندرك أن العلوم الاجتماعية والإنسانية والمعاصرة هي علوم غربية، والغرب له طريقة منضبطة في التفكير لها قواعدها ومناهجها وأساليبها وأداوتها، ونحن نريد من خلال أحكامنا الشرعية، ومن خلال عقيدتنا عن الإنسان والكون والحياة، ومن خلال المقاصد، ومن خلال وصف الله لكونه، أن نعمل من خلال السنن الإلهية حتى ننشيء تلك الأدوات والمناهج وحتى نتوصل من خلالها إلى المسائل المكونة لتلك العلوم الاجتماعية والإنسانية.

الأمر – إذن – له طرفان، ونريد أن ندخل من كل من الطرفين معا لأننا تأخرنا كثيرا، وكان يجب لمثل هذه الدراسات أن تبدأ من القرن الماضي، ولكننا تأخرنا إلى نهايات القرن العشرين.

إن القرآن الكريم لا تنتهي عجائبه ولا يخرق ولا يبلى من كثرة ترتيله أو البحث فيه، فهو دائماً جديد ومعطاء، وبالتأمل المبدئي في القرآن الكريم نجد أنه يتحدث عن الكون وكأنه مبني على سنة الاتساق، في حين أن الفكر الغربي يستبطن الصراع في تصوره للكون ويسحب هذا الصراع على مختلف العلاقات، إذ نجده في الصراع بين الإنسان، والآلهة في الفكر الإغريقي، وفي كل العلوم الاجتماعية والإنسانية تقريباً، فالصراع في هذا الفكر فكرة كلية وقانون يسعى إليه الكون، وكثير من الأمور لا يمكن تفسيرها – من وجه نظر الفكر الغربي – إلا من خلال قانون الصراع. في المقابل نجد في القرآن سنن الاتساق والزوجية والتكامل والتداول والتعارف، وسنن التكوين والتسخير، فالكون كله مسخر .. يسبح .. يسجد .. متسق في طريق عبادة الله تعالى. أما الصراع في السنن الإلهية فهو صراع مؤطر .. صراع يؤول إلى وفاق .. وينتهي ولا يتم تكريسه.

والواقع أن السنن الإلهية في كتاب الله تعالى يمكن أن تقسم إلى سنن كونية تتعلق

بالكون، وسنن نفسية تتعلق بـالنفس البشرية، وسـنن احتماعيـة تتعلـق بالاحتمـاع البشري، وسنن تاريخية تتعلق بحركة الزمان، ومن هذه السنن سنن نصية ذكرت صراحة في القرآن الكريم، وسنن مستنبطة لم تذكـر صراحـة وإنمـا يمكـن استنباطها مـن داخـل النص القرآني. كمـا أن منهـا سنن كليـة، وسـنن جزئيـة، أي قوانـين عامـة لا تختلـف باختلاف الزمان أو المكان أوالأشخاص، وقوانين خاصة لطوائف أو أنواع أو أحـوال أو أمكنة أو أزمنة معينة، ومن بين السنن الإلهية هناك سننٍ قطعيـة لا يختلـف حولهـا أحـد، وسنن ظنية تختلف فيها وجهات النظـر، وهنـاك أيضـاً سـنن ظـاهرة لا ينكرهـا مسـلم، وسنن خفية تحتاج إلى مزيد تأمل وإلى إدراك معين حتى تصل إليها. كما أن هناك سـننا إيجابية وسننا سلبية وسننا محايدة.

من الضروري ونحن نتعرض لقضية السنن الإلهية أن نضع فروقا واضحة بين أمور قد يشتبه على بعض الناس أنها من السنن، مثل المقاصد العامة، والقواعـد الكليـة، والقيـم: العدل - الإحسان - الجمال، فكل هذه قيم وليست سنن، ومثل المباديء العامة كتقرير المسؤولية الفردية أو العلم للمؤاخذة ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**﴾، أو السـعي ﴿**وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**﴾، أو الأثر الفـوري للقوانـين ﴿**إلا مـا قـد سـلف**﴾، وهذه كلها قواعد ومباديء عامة يستفيد منها أهل العلوم الاحتماعية والإنسانية ولكنها ليست من السنن. كما يجب التفرقة بين السنة وبين كل من الوعد والوعيد، أو الحقائق، ﴿**إن الله على كل شيء قدير**﴾، ﴿**وقال ربكم أدعوني أستجب لكـم**﴾، فكـل هـذه ليست من السنن ولكن من الحقائق الإيمانية.

مما سبق نستطيع أن نقول إن المراد بالسنن تلك القوانين التي تجري على الناس جميعـا مؤمنين أو غير مؤمنين. والواقع أنه لم يتوصل بعـد إلى تعريف جـامع مـانع سـوى هـذا التعريف، لأن المسألة لا زالت في بدايتها وتحتاج إلى مزيد مـن الجهـد والتفـاعل العقلـي الجماعي.

ونستطيع أن نقدم نماذج مبدئية متعددة من السنن وفق التقسيمات التي سبق وأشـرنا إليها، ففي التقسيم الأول الذي يفرق بين السنن الكونية والنفسية، والسـنن الاحتماعيـة والتاريخية، يمكن أن نشير إلى سنة النكران ﴿**إن الإنسان لربه لكنود**﴾، و﴿**فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه**﴾، و﴿**وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه**﴾ إلى آخر هذه الآيات الـتي تبين طبيعـة الإنسـان كإنسـان وتؤكـد وجـود صفـة النكران فيه، ويمكن أن نوظـف هـذه السنة في الواقـع في معالجتنـا للنفـس البشـرية وفي خطط وبرامج التربية وفي محاولتنا لإقرار المفاهيم الاحتماعيـة وطـرق التغلـب علـى مثـل هذه السنن السلبية.

كما أن هناك سنة الاستزادة، إذ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ﴿**ويـوم يعـض الظـالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا**﴾.

وهناك سنة القنوط ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾، ﴿وإن مسه الشر فيئوس قنوط﴾، وسنة الهلع ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً﴾، ﴿قل أرأيتم أن أتاكم عذاب ا لله أو أتتكم الساعة أغير ا لله تدعون إن كنتم صادقين ... ﴾، ﴿وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة نسي ما كان يدعو إليه من قبل﴾.

هناك أيضاً سنة التعجل ﴿خلق الإنسان من عجل﴾، ﴿سأريكم آياتي فلا تستعجلون﴾، ﴿كلا بل تحبون العاجلة﴾، ﴿وكان الإنسان عجولا﴾، وسنة الاستغناء، كمجلبة للطغيان ﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾، ﴿ولو بسط ا لله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾، ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾، ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون إنهم كانوا قبل ذلك مترفين وكانوا يصرون على الحنث العظيم﴾. بالإضافة إلى سنة القابلية، ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾، ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾. فالإنسان قابل للأمرين.

ومن السنن الأخرى التي يمكن إستنباطها من القرآن الكريم، سنة التيسير وسنة المقابلة ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾، وسنة الإخفاء ﴿فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن﴾، وسنة الزيادة الإيجابية أوالسلبية أو المحايدة ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾، ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾، ﴿وأُملي لهم إن كيدي متين﴾، ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾.

إلى جانب ما سبق فإن هناك أمثلة متعددة للسنن الاجتماعية، مثل سنة التعارف ﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾، وسنة التكامل ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾، وسنة ارتباط المبدأ بالقوة ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾، ﴿فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾.

إن كل ما سبق يصلح لأن يكون ضوابط يصنع منها منظومة يمكن أن تكون منطلقا لعلم يتأمل السنن في القرآن الكريم. وإذا حاولنا وضع عدد من الضوابط المبدئية لاستنباط السنن من القرآن الكريم، نجد أن أهم هذه الضوابط هي:

١ - ورود لفظ السنة ومشتقاته في الآية القرآنية، مثل قوله تعالى: ﴿سنة من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا ولن تجد لسنتنا تحويلا﴾.

٢ - ورود فعل ا لله المتعلق بوصف معين، مثل قوله تعالى ﴿إن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾، وفي هذه الآية سنة التقدير، وقوله تعالى: ﴿وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾، وفيه سنة التوازن.

٣ - ورود فعل ا لله مع تعليله، كما في قوله تعالى: ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم﴾ وفيه سنة التفاوت، وقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا

خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ وفيه سنة التعارف.

٤ - وورود فعل الله في سياق جملة الشرط وترتب الجزاء على الفعل أوامتناعه بسبب الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ وفيه سنة التدافع.

٥- وورد فعل الله في سياق الحديث عن الأمم السابقة في معرض تقويمهم أو الأعتبار بهم كما في قوله تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين أستضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾.

٦ - تقرر الآية نتيجة معينة أو تعليق حكم الله على سبب أو شرط، كما في قوله تعالى: ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾ وفيه سنة السببية، وقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ وفيه سنة التغيير.

هذه الضوابط الستة يمكن أن تطبق في استنباط السنن الاجتماعية والتاريخية والكونية، أما السنن النفسية فإنها غالباً ما تأتي على هيئة حقيقة أو وصف مرتبط بموصوف، مثل قوله تعالى: ﴿وكان الإنسان عجولا﴾، ﴿وخلق الإنسان من عجل﴾، ﴿إن الإنسان خلق هلوعا .. ﴾، ﴿وتحبون المال حبا جما﴾، إلى آخر تلك الآيات التي تدل على سنن نفسية.

إن محاولة استنباط السنن من القرآن الكريم ومعالجتها يجب ان تتم في إطار متسق يبدأ بوضع تعريف دقيق للسنة بما يحقق ماهيتها، وبالتالي يفرق بينها وبين كل من الحقائق الإيمانية والصفات الإلهية والوعد والوعيد والقيم والمقاصد والأحكام الشرعية والمبادىء العامة. ويلي ذلك وضع الضوابط والأسس التي من خلالها تستنبط السنن، ثم التمييز بين أنواع السنن المختلفة (كونية ونفسية واجتماعية وتاريخية)، وأخيراً وضع تصور عام أو خريطة تشمل السنن الكلية العامة وما يندرج تحتها من سنن جزئية أو خاصة، توطئة لعمل شبكة علاقات متداخلة للسنن الإلهية كلها لتكون على نسق واحد فعال.

ولعل في الكتاب الذي بين أيدينا ما يقربنا من هذا التصور المنشود وما يعد خطوة على طريق محاولة استنباط السنن من القرآن الكريم.

والله يقول الحق. وهو يهدي السبيل.

د. علي جمعة
المستشار الأكاديمي
المعهد العالمي للفكر الإسلامي
(القاهرة)

المقدمة

تمر في حياة كل فرد لحظات أو ساعات يحس فيها بالسعادة تغمر قلبه وبروح السرور يسود كيانه، وقد يكون ذلك إثر كتاب قرأه أو خبر سمعه أو هدف حققه في حياته. وكذلك الأمم تمر في حياتها فترات صحو ورشد تحس فيها بحادي البحث والعمل والإبداع.. فإذا هي تعيش حضارة زاهية أو فترة ذهبية من تاريخها. وقد يكون هذا وليد بعثة نبوية أو ظهور قائد أو عظيم من عظماء الحياة أو نتيجة بواعث داخلية جماعية أو عوامل خارجية. كما قد تحل بالأفراد والأمم مناسبات وأوقات تتعس روحها وتنغص حياتها وتذهب قوتها وعزتها، فتهون بعد تمكين وتضعف بعد شدة وقوة. وهكذا تنقلب الأمم والشعوب بين الازدهار والتأخر والبعث والتقهقر. وتلك سنة الله في حياة الأمم لها أسبابها وعواملها.

ولعل في دراستي هذه كما يبدو من خلال عنوانها "**سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها**" الكثير من التحليلات والتعليلات التي تبين وتدرس هذه الثنائية الحضارية من الإقبال والإدبار والذهاب والإياب والقيام والسقوط.

وقد اخترت القرآن الكريم لدراسة هذه الظواهر مع أن الكثير من المفكرين الغربيين والمسلمين قد حاولوا دراسة ذلك، لأن العديد من هؤلاء المفكرين والمؤرخين يعتبرون القرآن كتاب هداية دينية ومواعظ روحية ولا دخل له في شئون التحضر والملك والسياسة والعلوم والمعارف. كما قد يبالغ فريق آخر من المعاصرين خاصة في تحميل آيات القرآن من المعاني العلمية والمفاهيم الاجتماعية والسياسية التي لم تكن من مقاصده.

وعلى كل فإن القرآن يظل حاضرا في قلب أحداث الحياة الإنسانية لأنه كتاب مبادئ وأحكام ولا يمكن أن يكون له موقف الحياد. وبالمقابل فإنه كتاب طرح أمام الإنسانية مناهج التدبر والتأمل والعمل في كل مجالات الحياة ومناكبها. هذه هي الحقيقة الأولى. أما الثانية في أن القرآن جاء كتابا شاملا ليغطي كافة جوانب الحياة الرئيسية وليستوعب قضايا الإنسانية الأساسية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتاريخية وله طريقته وأسلوبه في هذا. ولعل من أكبر ما يميز الأسلوب أو المنهج القرآني في هذا الموضوع أنه لا يحدد الألفاظ والمصطلحات إلا لضرورة. ولو جاء كل شئ في القرآن مفصلا مسميا بأسمائه لتجمدت معانيه. ووقفت مفاهيمه عند حدود أزمنة بعينها ولكان القرآن قد خاطب الله فيه الإنسانية بلغة لا تعرف الكثير منها وخاصة أهل زمن نزوله. ولقد وعد الله الناس بأن يريهم أياته في الآفاق وفي الأنفس حتى يتبين لهم أن هذا القرآن حق. قال تعالى: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**.

ولقد أرى الله الإنسانية عجائب آياته في الآفاق والأنفس من قرون من نزول هذه الآية. ومازال الإعجاز القرآني مستمرا يؤكد لعقلاء البشر أن هذا القرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم حق. ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولا يعقلون.

ولعل من المبادئ والحقائق الكامنة والمستترة وراء نصوص الآيات القرآنية والتي ربما عجز كثير من علماء الإسلام وغيرهم على استخراجها واستقرائها وحتى الإحساس بها. فيها من أسرار التقدم ما يذهل البشرية.

وبعد لئن كانت هذه المقدمة قد تأخرت بنا عن المواجهة المباشرة لموضوع الدراسة، فلعل عذري هو محاولة بيان هذه الحقائق المذكورة التي أحس بضرورة بيانها وتوضيحها لما لها من أهمية كبرى في تصحيح تصور الآخرين.

دوافع اختيار الموضوع:

هذا ولقد دعاني للكتابة في هذا الموضوع ما للدراسة القرآنية من حضور دائم في حياة المسلمين حتى تعد من أهم أعمال المسلمين في بيان مناهج شئون الحياة والمعارف العلمية التي تنبثق عنها بقية مناهج الدراسات الأخرى.

وانطلاقا من كون القرآن أوثق مصدر تاريخي وعقيدي وتشريعي.. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وقد ثبت أمام المحاولات النقدية التي صوبها إليه الموتورون من أعداء الإسلام. وقد حوى أخبارا على ماضي الإنسانية السحيق وأنباء على مستقبلهما البعيد.

ومما زادني اقتناعا ورغبة في هذا الموضوع وجود أسرار في القرآن عن أسباب تقلبات الأمم الحضارية بين العز والتمكين، والذل والهوان، والسعادة والشقاء.. وأنه كشف عن كثير من سنن التحضر وقوانين حركة التاريخ والاجتماع. ولعل هذه القضية، قضية السنن هي واحدة من الحقائق في القرآن التي لم تلق حقها في الدراسة من المفسرين القدامى والمحدثين. -في حدود ما أعلم- إذا استثنينا إشارات بعض المحدثين كالشيخ محمد رشيد رضا -تفسير المنار و سيد قطب -في ظلال القرآن وبعض الدراسات لكل من الأساتذة مالك بن نبي ومحمد صادق عرجون و جودت سعيد.

ولقد كان لي عامل آخر كَمِنَ في نفسي منذ سنين عديدة لعلها من مرحلة التعليم الثانوي ذلك أني قرأت دراسة في مجلة الأصالة[1] عن توينبي تذكر أنه قال: إن حضارة المسلمين كحضارة الهنود الحمر ذهبت ولن تعود. فكان لهذا القول أثر سيئ في نفسي وعلى تصوري شككني في قدرة الأمة الإسلامية على النهوض والتجديد الحضاري مرة

(١) مجلة كانت تصدر عن وزارة الشئون الدينية بالجزائر.

أخرى. فكان هذا دافعاً من دوافع اختياري لهذه الدراسة. حاولت الرد عليه في الفصل الخامس والأخير من هذه الدراسة.

كتابة بعض المفكرين الغربيين -كشبجلر- في كتابه -تدهور الغرب، و أرنولد توني -في كتابه- مختصر دراسة التاريخ، وكولن ويلسن -في كتابه سقوط الحضارة "عن ظاهرة السقوط الحضاري". و لم أجد في حدود ما أعلم من كتب عن هذه الظاهرة من رؤية إسلامية مع علمي أني لست أهلا لملء هذه الثغرة. ولكن ما ترك جله لم يترك كله.

ذهب فريق من المؤرخين والمفكرين المسلمين إلى عرض منجزات الحضارة الإسلامية التاريخية. والتعريف بموسوعاتها النفيسة وأسفارها العلمية والفكرية العظيمة. وذهب فريق ثاني إلى محاولة التوفيق بين الحضارتين الإسلامية والغربية الحديثة. ولقد تناست هذه الدراسات وتلك سر قيام الحضارات وسقوطها وهى القضية التي شرفت ببحثها في هذه الدراسة فإن سما البحث إلى أن يكون لبنة في هذا الموضوع فتلك غاية أعتز بها. وإن كانت الثانية فحسبي أني بحثت كثيراً، وبذلت جهداً كبيراً، و لم أدخر لبلوغ هذه الغاية شيئاً، كما أني تعلمت أكثر مما كتبت.

منهج الدراسة:

وجاءت هذه الرسالة محاولة متواضعة في هذا الموضوع الذي أحسبه كان ومازال جديرا بالبحث والدراسة. وقد بدا لي أثناء إعدادي أياه أن هناك اهتماماً مشتركاً بيني وبين بعض المفكرين المسلمين الساعين إلى تجديد حياة الأمة الإسلامية تجديداً حضارياً وشاملاً. ولعل في مقدمة هؤلاء المفكرين الذين تعلمت منهم الكثير الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله والدكتور عماد الدين خليل والدكتور عبد الحليم عويس.

كما يسعدني أن تأتي هذه الدراسة في وقت بدأت فيه الأمة.الإسلامية تتهيأ لقيام حضارة قرآنية إسلامية من جديد وسيادة عالمية إسلامية ثانية تريح الإنسانية المعذبة بالقلق والحيرة... والمهددة بالحروب المفنية.

وتعيد للمسلمين عزتهم ودورهم القيادي وتمكن لدين الله الحق في الأرض وما ذلك على الله بعزيز ولا على أبناء المسلمين بمستحيل وقد برقت آمال ذلك في سماء دنيا الناس. وأصبحت كثير من الأحلام والأماني حقائق موجودة في الواقع وتأكد لكثير من المفكرين أن المستقبل للإسلام(١).

---

(١) المستقبل لهذا الدين -سيد قطب-. الإسلام ومستقبل البشرية -د/ عبد الله عزام، الإسلام دين المستقبل - رجاء جارودي، البديل الحضاري للمجتمع المعاصر -د/ عزت جرادات.

ولقد عهدت الأمم واعتادت في المسلمين تاريخياً منذ عصر الخلفاء الراشدين مواجهة الحضارات المختلفة واستيعابها في إطار روح الإسلام وملك دنياها لخدمة الحق وعرفت سنة المد والجزر في تاريخ الإسلام.

كما أحس أن هذا البحث المتواضع جاء في وقت تجتاز فيه الإنسانية مرحلة لعلها من أخطر مراحلها التاريخية تلك هي مرحلة الإضطربات والفوضى في كافة موازن الحياة النفسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية.. هذا الاضطراب الذي جعل الإنسانية مهددة بوسائل الهلاك والدمار المتعددة. وتهفو إلى رشف كأس الأمان وإدراك طريق النجاة لاستغلال تلك المنجزات المادية العظمى التي أراحت الإنسان في كثير من جوانب حياته.

ولقد جاءت هذه الرسالة في مقدمة وخمسة فصول. وكل فصل اشتمل على مباحث تقدر بما يقتضيه الموضوع ويستوجبه المنهج.

فالمقدمة فيها بيان أهمية الدراسات الحضارية في ضوء القرآن ودوافع اختبار هذا الموضوع والمنهج المتبع ثم بيان أهم المصادر المعتمدة.

الفصل الأول وقصدنا فيه بحث معنى السنن لغة واصطلاحاً. وبينا أن السنن من الناحية الفكرية قسمان: سنن جبرية لا إرادية يشترك فيها الإنسان مع سائر الموجودات كولادته وموته وصفاته الخلقية.. وسنن إرادية داخلة تحت قدرة التحكم لدى الإنسان.

ثم قصدنا بحث صلة السنن ببعض القضايا الفكرية والفلسفية وهي الصدفة والحتمية والصراع وختمنا هذه الفقرات بالحديث عن سنة التوازن في الوجود. وخلال هذا كله بحثنا التشابه بين السنن الكونية كحركة الكواكب والنجوم والفيزيائية كقانون الجاذبية والسنن الحضارية من حيث عمومها وسريان عملها في كل الأزمنة والأمكنة وفي مختلف الأجناس والأقوام وعلى مختلف أهل العقائد والملل.

ثم قصدنا بحث مفهوم الحضارة في القرآن ووجدنا أن القرآن في سائر مناهجه لا يقدم تعاريفاً ومصطلحات للقضايا لأنه دعوة الإنسانية إلى التدبر والتأمل والتحول من وضع قائم إلى وضع حضاري مرجو. ولعل في التعريفات والاصطلاحات ما يحول دون هذه الغاية.

وعلى كل فقد وجدنا لمفهوم الحضارة أصلاً في معاني القرآن من حيث الاشتقاق اللغوي والمعنى الاصطلاحي. وذكرت مستويات التحضر عن الأمم الخالية في القرآن بالشدة والقوة ولعل هذا أقرب معنى وصلنا إليه في بيان مفهوم الحضارة في القرآن.

أما في الفصل الثاني فبحثنا فيه تصورات بعض المفكرين الغربيين والمسلمين ممن كان

لهم اهتمام كبير بقضايا الحضارات وحركة التاريخ والاجتماع وكان هذا الفصل بمثابة دراسة مقارنة نقدية مع بقية فصول الدراسة الأخرى وخص البحث المفكرين الغربيين بالحديث قبل غيرهم من المسلمين لكون الغربيين أبعد في تصوراتهم عن القرآن وقد رتبتهم ترتيبا تاريخيا حتى يتسنى تتبع التطور الفكري لتصورات الغربيين لقضايا الإنسانية ثم معرفة مدى تأثر اللاحق منهم بالسابق وكذلك من حيث الترتيب التاريخي فُعِلَ الأمر نفسه بالنسبة للمفكرين المسلمين. ثم ناقش البحث قضية الدورة التاريخية والتعاقب أو التداول الحضاري بين الأمم وصلتها بفكرة التقدم الصاعد لدى اتجاه الفكر المادي.

أما في الفصل الثالث فقصدنا بحث سنن القرآن في قيام الحضارات وبينا أن سنن التحضر في القرآن سنن إرادية تقوم على حرية الإنسان واختياره، وبينا أن عملية التحضر تتم وفق إدراك الإنسان لغاية وجوده في الحياة وذلك بالتزام الأوامر الشرعية واجتناب النواهي وأداء الأفعال التعبدية من صلاة وصوم وزكاة وحج وربط الصلة بين القصد والقول وبين التصور والعمل وبين العقيدة والسلوك. في حين يفصل الفكر المادي واللاإسلامي بين هذه القضايا. ويرى الأفعال التعبدية أشياء خاصة بين الإنسان والله ومجردة عن واقع الناس الحضاري ولا أثر لها في حياة الأمم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية.

وفي الفصل الرابع قصدنا بحث سنن القرآن في سقوط الحضارات وبينا أن المتتبع لأحداث الأمم الحضارية يجد أن أساس التغيرات والتحولات في حياة الأمم عوامل داخلية مع أن جل المفكرين والمؤرخين يعزون هذه التقلبات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية... إلى عوامل خارجية ويميلون إلى دراسة الأسباب المباشرة والعوامل الظاهرة لها في حين تبين لنا من خلال بحث سنن القرآن أن للمقاصد والنوايا والاعتقادات أثرا في توجيه حياة الأمم لما ينتج عنها من سلوكات.اجتماعية وتصرفات سياسية... وبينا أن السقوط الحضاري لا يعني دائما الزوال والاستئصال البدني والمادي. وأنه لا يتم فجأة وإنما له مقدمات وعلامات تنذر أهل تلك الحضارات إنذارا كافيا لتقيم الحجة عليهم من أنفسهم وبينا أن عادة ما تكون هذه النذر أزمات روحية أو فتنا اجتماعية أو أمراضا أو أوجاعا صحية أو قحطا ومجاعات اقتصادية، وغدا يقينا أن الحضارات لا تسقط إلا إذا تجمعت لدى أهلها مجموعة أدواء وعلل تورثهم الضعف والهوان.

وفي الفصل الخامس والأخير قصدنا بحث سنن التجدد والتداول الحضاري وسنن الاستخلاف والتمكين في الأرض وبينا أن لكل ظاهرة في الكون قضية أجل مسمى هو بالغه كما بينا الفرق بين الهلاك والسقوط. وبينا أن التجدد أو التجديد سنة أجراها الله

على كثير من الكائنات الحية والظواهر الاجتماعية. وختمت الدراسة بالحديث عن فكرة المصير التي ظلت تؤرق الفلاسفة والمفكرين والشعراء والفنانين منذ غابر الزمان.

الفصل الأول

معنى السنن ومفهوم الحضارة
كما يصورهما القرآن

الفصل الأول

معنى السنن ومفهوم الحضارة

كما يصورهما القرآن

السنة في اللغة والاصطلاح:

السنة في اللغة جمعها سنن. والسنن -بفتح السين وتشديدها- تعني نهج الطريق وسنة الكتاب منهجه وطريقته التي كتب بها. والسنن -بفتح السين دون تشديدها- هي ظهر الخيل وتقول العرب تنحى الرجل عن سنن الخيل أي نزل عن ظهرها[1].

والسنن -بكسر السين وتشديدها- تعني السكة التي يحرث بها في الأرض[2]. كما تعني السنن -بكسر السين دون تشديدها- الغفلة والنعاس كما في قوله تعالى: ﴿..**لا تأخذه سِنة ولا نوم له ما في السموات والأرض**﴾[3].

والسنن بضم السين وتشديدها لها معانٍ منها السنة بمعنى الفهدة والدبة ودائرة الوجه[4].

وللكلمة أصل صحيح بهذا[5] المعاني كلها وغيرها في كلام العرب والقرآن الكريم ومن ذلك الدوام والثبات على الأمر كما في قولهم "سن الماء إذا داوم على صبه"، وسن الإبل بمعنى داوم على رعيها والإحسان إليها. وسن النصل إذا صقلها وحدها.

والسنة في لسان العرب هى الطريقة المحمودة والمستقيمة[6] وجاء لفظ سنة بحرفية الأصلين دون اشتقاقه في القرآن سبع عشرة مرة[7].

ولقد جاءت كلمة سنة في القرآن الكريم عادة بمعنى ما بين الله للإنسانية من طرق واتجاهات الأمم السابقة التي جعلها الله قوانينا ثابتة في البشر والوجود كله، دون أن تتغير هذه القوانين أو تتبدل. كما قال تعالى: ﴿**فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه**﴾[8].

---

(١) انظر المثلث لابن السيد البطليموسي "مادة السنن".

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) سورة البقرة (الآية ٢٥٣).

(٤) انظر المثلث لابن السيد البطليموسي "مادة السين".

(٥) انظر السنة الإسلامية بين إنكار الجاهلين وإثبات الفاهمين (صـ٢).

(٦) انظر لسان العرب "مادة السنن".

(٧) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم "مادة السنن".

(٨) سورة البقر (الآية ٢٥٨).

أي لم يتغير[1].

وهكذا أفادت جل استعمالات كلمة سنة في القرآن معنى واحدا وهو الطريقة والقانون وإن تشعبت تصريفاتها من حيث الإفراد والجمع، والإسناد إلى ضمير المتكلم وهو لفظ الجلالة حينا، والإضافة إليه سبحانه، وإلى الأمم الخالية من الأولين أحيانا أخرى[2].

وبمجيء الإسلام وازدهار العلوم الإسلامية التي قامت حول القرآن نظر العلماء إلى لفظ أو كلمة سنة كمصطلح من خلال اختصاصهم واهتمامهم، فالسنة عند المحدثين تطلق على سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو صفة خلقية راجعة إلى طبائعه النفسية في حالة الرضا والغضب، سواء كانت قبل البعثة أو بعدها، وزاد بعضهم أو إشارة منه أو ما همَّ به وبهذا ترادف السنة الحديث في المضمون والمنزلة[3].

والسنة القولية هي الأحاديث التي قالها عليه الصلاة والسلام في مختلف الأغراض والمناسبات كخطبة الجمعة والأعياد وتوجيهاته بالتربية والإرشاد وتعليم أمور الدين.

والسنة الفعلية هي أفعاله وكيفية القيام بها كأدائه للصلاة والحج في الأفعال والأقوال وجميع الحركات.

والسنة التقريرية هي ما أقر صحابته عليه من أقوال وأفعال بسكوته وعدم إنكاره أو بموافقته وإظهار استحسانه، مثل ما روى عن الصحابيين اللذين خرجا في سفر فحضرتهما الصلاة و لم يجدا ماءً فتيمما وصليا ثم وجدا الماء في الوقت فأعاد أحدهما الصلاة و لم يعيدها الآخر فلما قصا أمرهما على رسول الله قر كلاً منهما على ما فعل. فقال عليه الصلاة والسلام للذي لم يعد الصلاة: "أصبت السنة وأجزأتك صلاتك" وقال للذي أعاد صلاته: "لك الأجر مرتين" وتقابل السنة عند أهل الحديث البدعة وهي ما لم يكن عليه المسلمون في عهد النبوة والراشدين أي ما استحدث في الدين في القرون التالية ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام "كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة". كما ورد هذا اللفظ كثيرا في كلام رسول الله وأريد به الطريقة سواء طريقته العملية أو القولية، وفي كل تشريع منه عليه الصلاة والسلام للمسلمين لكي يتعلموا أمور دينهم ودنياهم، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام "من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا[4].

---

(١) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٣٧.

(٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم "مادة السين".

(٣) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (صـ ٤٧)، د/ مصطفى السباعي.

(٤) السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين (صـ٢٢)، عبد الرؤوف شلبي.

والسنة من حيث النظرة التشريعية العملية والتقريرية مختلفة عن الحديث الذي هو السنة القولية أما من حيث العمل والمنزلة التشريعية فيتفقان. ولعل الدليل هو أن مجاميع الحديث تُعَنْوَنُ باسم "السنن" كسنن أبي داود والنسائي وابن ماجة.. وهى مجاميع لسنة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وليس لآحاديثه فقط[1].

كما أصبحت السنة هى المصطلح المأثور الذي يطلق على أراء أهل السنة والجماعة الذين ينأون عن الانحراف العقيدي ويحاربون البدع. واستعمل المصطلح بهذا المعنى مقابلا لمصطلح الشيعة، وانقسام المسلمين إلى سنة وشيعة أمر معروف في الفكر الإسلامي والغربي على السواء. ونجد في القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى أهمية سنة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى**﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿**وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا ا لله إن ا لله شديد العقاب**﴾[3].

أما السنة عند الفقهاء فترد بمعان كثيرة على حسب استعمالها في فروع الفقه. ففي العبادات ترد في مقابل الفروض أو الفرائض فيقولون فرائض الصلاة وسننها وفرائض الصوم والحج وسننهما وهكذا. ويريدون بالسنة في أحكام الطلاق ما قابل البدعة، فيقولون طلاق سني وهو ما كان في طهر لم يمسها فيه. وطلاق بدعي وهو ما كان على غير ما عليه السني. كما تنقسم السنة عند الفقهاء إلى عدة أقسام أخرى. فهى من جهة تنقسم إلى سنة هدى وسنة زوائد. فما فعله عليه الصلاة والسلام على سبيل العبادة فهى سنة هدى، وما فعله على سبيل العادة فهى سنة زوائد، ومن جهة ثانية تنقسم إلى سنة مؤكدة وسنة غير مؤكدة أو خفية، كما تعني السنة عند الفقهاء بأنها عمل يرجح ويستحسن فعله على تركه فهى صفة لفعل المكلف كالحرام، والفرض، والمكروه بما ثبت عن طريق فعل النبي، وتعتبر وحى من ا لله على أرجح الأقوال والدليل قوله تعالى: ﴿**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى**﴾[4]. وإن لم نؤمر بكتابته وتلاوته كما أن ا لله لم يتول حفظه بنفسه كما هو الأمر في القرآن[5].

أما السنة في التشريع الإسلامي فهى المصدر الثاني بعد القرآن الكريم في إثبات الأحكام الشرعية وهى ثلاثة أقسام أيضا فعلية وقولية وتقريرية وهذا على أرجح الأراء.

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية "مادة سنة".

(٢) سورة النجم (الأيات ١-٣).

(٣) سورة الحشر (الآيه ٧).

(٤) سورة النجم (الآية ٢).

(٥) بحث مقدم من الأستاذ مصطفى كمال، (صـ ٩) إلى ملتقى السنة بالجزائر ١٤٠٢-١٩٨٢.

ولقد اهتم علماء الإسلام في مختلف العصور بالسنة قدر اهتمامهم بالقرآن الكريم وكان الصحابة رضى الله عنهم يترقبون النبي عليه الصلاة والسلام عند مشيه وقعوده ونومه ويقظته وأكله وشربه وركوبه الخيل وعبادته واستغفاره لأن كل ما صدر منه صلى الله عليه وسلم فهو تشريع على سبيل الوجوب، أو على سبيل الاستحسان. ولقد دون علماء الإسلام وخدام السنة هذه الأشياء وصنفوا أحكامها، من حيث نسبتها إلى القرآن الكريم من جهة الاستدلال والاحتجاج، فما لم ينص عليه القرآن حكمت فيه السنة. وفي هذه الحالة لا تعد السنة إلا واحدة من ثلاث:

١- إما أن تكون مقررة ومؤكدة حكماً جاء في القرآن فيكون له مصدران وقائم على دليلين مثبت من القرآن ودليل مؤيد من السنة، ومن هذه الأحكام الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والنهي عن الشرك وشهادة الزور.

٢- وإما أن تكون سنة مفصلة ومفسرة لما قيد وأجمل في القرآن الكريم أو مقيدة ومخصصة لما فصل وأطلق في القرآن فيكون هذا التقييد أو التفصيل تفسيراً لما أجمل أو أطلق والعكس وهذا الذي ترد به السنة من أحكام هو بيان للمراد. ومن السنن التي فصلت العبادة وأداء الشعائر مثلاً أعماله عليه الصلاة والسلام حين قال للمسلمين: "صلوا كما رأيتموني أصلي وحجوا كما رأيتموني أحج".

٣- وإما أن تكون السنة مثبتة ومنشئة حكما سكت عنه القرآن كاجتهادات الصحابة في أمور الدنيا كالحروب والفلاحة والصناعة وغيرها من باب أنتم أعلم بأمور دنياكم. فتكون هذه الأعمال وما يقاس عليها مباحة بالسنة الإقرارية أو التقريرية. ومن هذه الأمور بعض الأحكام الفقهية في أمور الدين كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو المرأة وخالتها في عصمة زوج واحد في زواج واحد. وعلى هذا الاعتبار والترتيب فإنه لا يمكن أن يقع بين أحكام القرآن وأحكام السنة تعارض أو خلاف وتضارب(١).

ولقد تعرضت السنة قديماً وحديثاً لهجمات الأعداء المغرضين ودسائس الضالين والمارقين من أهل الأغراض والأطماع في الفرق الإسلامية، وكانت أسباب الوضع والدس معروفة في العصور القديمة والحديثة عند المهتمين بالسنة ففندت الآراء الباطلة وكشفت طرق الدس، وإن كان حدوث الفتن والاضطرابات السياسية قد عرّضت السنة للدس والوضع فقد أفادتها فائدة كبيرة في تأصيل الأخبار، والمرويات وإبراز المناهج والأساليب وخاب ظن الشكاك قديماً والمستشرقين المتكئين على هذه الأحداث والوقائع باعتبارها مصدر تشكيك وتقليل من قدر السنة في العصر الحديث، وعلم هؤلاء وغيرهم أن السنة أخذت من هذه الأحوال والظروف من المغانم أكثر مما دفعت

---

(١) انظر موازين القرآن والسنة (صـ ٢٢) وما بعدها د/ عز الدين بليق.

المغارم[1].

ولا نريد الوقوف كثيراً عند هـذه القضايا لأنها ليست موضـوع بحثنا وإنما نريد دراسة السنة كقانون وأحكام إلهية جارية ثابتة مطردة تتحكم في حركة التاريخ، وتبدل الحضارات بين الأمم.

والسنة في الفكر هي مجموعة القوانين التي يسير وفقها الوجود كله وتتحرك بمقتضاها الحياة. وتحكم جزئياتها ومفرداتها فلا يشذ عنها مخلوق وما في الكون ذرة أو حركة إلا ولها قانون وسنة فكل الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات... إلا وله قانون وما من كوكب أو نجم إلا وله قانون لا إرادي أو لا ذاتي يسير وفقه.. وما من حركة نفسية أو اجتماعية أو نقلة حضارية إلا ولها قانون أيضا يتجلى في الأسباب والعوامل المؤدية إليها. وسلبت الإرادة من كل الكائنات المخلوقة إلا للإنسان. ولذلك كان هو وحده المطالب بالبحث عن هذه السنن ومعرفتها في الحياة المبثوثة فيها بمثابة الأسرار والألغاز للإضطلاع بإعمار الأرض وأعباء الاستخلاف. وبهذا المعنى تنقسم السنة إلى قسمين:

١- سنة إجبارية، تجري على كل الكائنات الحية بما فيها الإنسان. وذلك كالولادة والموت والحياة وكالأوصاف الخلقية والحالات الفطرية للإنسان وكل ما في عالم الغيب بما اختصت به القدرة والمشيئة الإلهية من الأمور التي لا طاقة للإنسان بها.

٢- وسنة اختيارية، وهي القائمة على مستوى إرادة الإنسان الداخلة في دائرة القدرة الإنسانية. وما يمكن أن يناله الإنسان أو يسخره في الحياة باستخدام هذه القدرة العقلية وغيرها مما أوتى من الحواس الأخرى كالسمع والبصر التي زود بها هذا الإنسان لغرض تحقيق غاية خلقه. وسبب وجوده في استعمار الأرض والاستخلاف فيها. وعلى قدر اتساع هذه الدائرة وتفاوتها بين بني الإنسان يكون البشر مسؤولاً عن نتائج أعماله وتصرفاته[2].

وفي حدود هذا المجال الإرادي كلف الإنسان باستخدام قدراته العقلية وغيرها للكشف عن سنن قيام الحضارات وسقوطها. وليكون كما أراد الله له ويحقق سنة التوازن في نفسه وفي الحياة من حوله. ويسير على دراية بأمره وبما أمر به دون شعوره بذاتية قادرة وأنانية متضخمة بالاستكبار والغرور. ونسيانه حالات ضعفه ومواطن عجزه. فينتهي به ذلك إلى حالات من التجبر والجحود والطغيان والتأله ودون شعوره من ناحية أخرى بضآلة وجوده وإحقاره دوره، وجريان الأمر كله بمشيئة الله. كما قد

---

(١) انظر الفكر المنهجي عند المحدثين (صـ ٥٧-٥٨) د/ همام عبد الحليم سعيد.

(٢) على مشارف القرن الخامس عشر الهجري، دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر(صـ٧) إبراهيم بن الوزير.

ينتهي بكثير من الأفراد والجماعات في فترات من التاريخ إلى القعود وترك العمل ونبذ ملذات الحياة الدنيا. ظنا أن ذلك هو طريق الحق المنجي من أهوال يوم القيامة.

والسنن من حيث هي قانون رباني في الوجود متاحة لكل إنسان لا تتبع لعقيدة البشر أمؤمن هو أم ملحد. إلا ما كان من السنن الخاصة بالمؤمنين أو الكافرين.

ولا شك أن معرفة السنن وفقه طبيعتها يفند تلك المزاعم والادعاءات التي ترى بدور العرق أو اللون. وتوعز تطور الأمم وازدهار الحضارات إلى ذلك. ولعل منشأ هذا الادعاء كان أصله اليهود الذين وصفوا أنفسهم بأنهم أبناء ا لله وأحبائه وأنهم شعب ا لله المختار، **﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾**.

ولقد أثبتت كثير من الدراسات التاريخية والاجتماعية والنفسية بطلان هذا الافتراء وأن كثيرا من الحضارات قامت بدوافع عقيدية. وانبثقت عن جهود أجيال وشعوب مختلفة الأجناس وممتزجة العروق في بقع من الأرض بروابط عقيدية. واستقرت عن هجرات متعددة من بلدان كثيرة عن طريق الفتوحات الحضارية أو الاكتشافات الجغرافية أو التجارة أو المصاهرة[1].

وإنما السنن هي قانون ا لله العادل في الخلق المؤثر في حياة الناس لا يحابي أحداً. ويعز ا لله الأمم حين تأخذ بسنن العزة والتمكين، ويذيقها من جزاء ما عملت حين تركن إلى الباطل والهوان وهذا ما هو مشاهد في تاريخ الأمم ولعل من ذلك الأمة المسلمة أو الإسلامية التي أنعم ا لله عليها بالتمكين والاستخلاف والتأمين وفتح عليها بركات من السماء والأرض كما وعدها خلال فترة من التاريخ. ويوم أن تخلت عن السنن التي وصلت بها إلى هذا المقام تغير حالها من الاستخلاف والتأمين إلى الضعف والهوان، وصارت إلى الصورة التي هي عليها الآن[2].

ويبدو أن العامل الأساسي في البناء الحضاري وسعادة الأمم هو فقه سنن ا لله في الحياة والتزامها منهجاً وشريعة في حياة الناس وبذلك ترقى الأمم وتزدهر الحياة وتحقق الأماني وتوصل النتائج بالمقدمات لأن ا لله قضى ألا تكون حياة سعيدة إلا بتحقيق التوازن والتزام سننه في الوجود. ولا مبدل لأمر ا لله ولا مغير لحكمه وعلى هذا الأساس أقام ا لله الحياة مزودة بشحنات سالبة وموجبة. وعلى قدر حسن استخدامها تتولد الطاقات المبدعة الباعثة على العمل والتحضر، كما أنه لا يمكن أن يكون لكائن حي وجود إلا عن طريق أب وأم ما دام الأمر يسير في إطار السنن العادية علم الناس هذا أم جهلوه. والجهل لا يقدم ولا يؤخر في هذه القضايا، ولا يوقف سنة ولا يعطل أو يقدم

---

(١) السنن النفسية لتطور الأمم (صـ ١١)، د/ غستاف لوبون، ترجمة د/ عادل زعيتر.

(٢) مفاهيم ينبغي أن تصحح (صـ ١٠)، محمد قطب.

قضاءا أو قدرا.. ولقد ظل قانون الجاذبية قرونا يعيق حركة الإنسان وصعوده، ويقلل نشاطه ويشل حركته دون أن يستطيع الإنسان تحقيق شيئا ضده إلا يوم أن اكتشف قانون الطاقة، فحقق الإنسان تقدما خدم أغراضه وسهل سبل الاتصال بين القارات والقارات وبين الأرض وبعض الكواكب الأخرى. وكذلك ظل الإنسان منذ عصور الكهوف يرزح في ظلام الليل الدامس إلا بصيصا أو نزرا قليلا من النور حتى يوم فقه قانون أو طريقة اكتشاف الكهرباء فأنار المساحات الشاسعة وزين الحياة بالمصابيح والأضواء المختلفة وإن الجهل بتلك السنن والقوانين لم يؤثر في وجود سر أثرها في الحياة طيلة زمن جهل الإنسان لها. وعدم إدراك أثرها في الحياة وإن كان الإنسان يدرك حالة التخلف التي كان يعيشها، وأنه ينقصه شئ لا يعرفه وهو النور أو الطاقة التي عرفها بعد اكتشافها. وإن كان الإنسان قد استطاع أن يحقق قدرا كبيرا من النجاح في ميدان اكتشاف القوانين المادية. فإنه ما زال يحس بأثر تخلفه في مجال المعنويات والروحيات. وما زال يعاني أثر فقد هذا التوازن ولذلك ما زال الإنسان يرزح تحت ثقل مشكلات الحياة المعنوية، وشدة القلق والحيرة والملل وما إلى ذلك. وشأن المعاصر في هذا المجال شأن نظيره الإنسان القديم في ميدان التخلف المادي الذي أتعبه كثيرا، وأنهك قواه البدنية قرونا طويلة من خلال السفر والسير في الأرض والفقر وتقلبات ظروف الطبيعة وقساوتها، حتى أن الإنسان عبد الظواهر الطبيعية كالرياح والأمطار في كثير من الأزمان والأماكن وظن أنها الخالق الذي يجب أن يطاع كرها وقهرا، فكان في ذلك فريسة الجهل والانحطاط، كما ما زال اليوم ضحية الجهل لما حوى القرآن الكريم. والبعد عن الله خالق الكون ومدبر شؤونه، وهذا هو أصل الانحراف والضلال الذي وقعت فيه بعض الأمم التي ترى بفصل الكون عن الله. وتعتقد بعدم تدخل الله في شؤون العباد وتسييره سبحانه للحياة وفق أعمال الناس وأخلاقهم[(١)].

وإن كانت أكثر السنن الربانية في هذا المجال ما زالت أمرا مستقرا في عالم الغيب ومضمر في جنبات الكون ومبهماً أووهماً في عقول مفكري المادة. فإن الحياة لا تستقيم إلا باتباع السنن الربانية، وما مارسته الأجيال واتبعته الأمم كضرورة في الحياة فإنها آمنت بنتائجها التي حققتها كأمنيات لها، وما زالت لم تؤمن بوجود هذه السنن وتدرك ذاتها كحقائق كائنة وثابتة في الحياة. وخاصة في الفكر الغربي الذي دأب أن يبحث في أثر الأشياء وعللها لا في ذواتها وكنهها، ويبدو أن هذه سمة بارزة في الفكر الغربي إن لم تكن فجوة من فجواته أو ورطة من ورطاته الفلسفية والفكرية العقيدية.

ويبدو أن هذا الذي تحدثنا عنه من تخرّص حول السنن الربانية هو من بين العوامل الكبرى، إن لم يكن العامل الوحيد الذي أقعد أمما كثيرة عن التقدم والتحضر. كما سام

---

(١) الفكر المنهجي عند المحدثين (صـ ١٦)، د/ همام عبد الرحيم سعيد.

تلك الأمم المتمدنة ويلات وهي التي أدركت المردود العملي للسنن فصنعت حضارة سادها القلق واليأس وغيره من الويلات والمصائب. كما داهمها الإنحلال والخراب والشيخوخة والهرم قبل الأوان فهي تسير نحو الانتحار أو الفناء التدريجي إن لم تتدارك أمرها وهذا بشهادة أهلها. ويكفي في حياة كل أمة وحضارة بل في حياة كل فرد وجماعة من التجارب التي عرفتها لاستخلاص العبر والدروس لإثبات وجود السنن ومعرفة أثرها في الحياة الحضارية. وبمقدار تلك التطبيقات التي تستخلص وتستنبط من تجارب الحياة الاجتماعية والسياسية تحرز النتائج العملية المؤثرة في الحياة سلبا وإيجابا شرا وخيرا. وميزان الله في الخلق أمر دقيق وعليه تتحرك الحياة الإنسانية وتدور عجلة الحضارات. والذي أعنية هنا من ميزان الله هو سيادة الأمم حسب سنة الصلاحية العامة والتداول بين الناس[١].

وهكذا ما انتشر الجهل والظلم في مجتمع أو حضارة إلا ودبّ فيها القلق والاضطراب، والضعف والهوان، ثم أصابها التدهور والانهيار ومن ألوان الظلم ظلم الفطرة البشرية والحقيقة العلمية. ومن أنواع العدل العدالة في الوجود كله لعدم انكار مكوناته وجزئياته المادية والمعنوية التي هي أساس بنائه وفي الوقت نفسه سنن تسييره وتدبيره. والعدل واحد والظلم واحد في أشمل صورهما وأخصهما. ولا يمكن أن يكون الظلم مرفوضا في عصر أو مصر ثم يكون مقبولا في زمان أو مكان آخر، وكذلك العدل وبقية القيم والرذائل. فالظلم الذي أهلك المجتمعات ودمر الحضارات والدول وأخلد الإنسان إلى الأرض قديما هو ذاته الذي ما زال يفعل فعلته هذا اليوم، والعدل الذي جعله الله سنة ثابتة في الحياة عليه تقوم الحضارات وتزدهر. وبه تسعد الأجيال وترقى الأمم هو ذاته منذ الأزل وإلى الأبد. ومن هنا كان من العبث والفوضى أن تحاول أية أمة السيادة والتحضر دون الأخذ بسنن الله في قيام الحضارات الأولى وتكوين الأمم الخالية التي تألق نجمها في سماء الدنيا دهرا من الزمان ثم سادها الظلم فانهارت وهوت خلال فترة من الزمان.

وكون البشر يجهلون هذه الحقيقة في السنن الربانية فإن هذا لا يغير من طبيعتها ولا يوقف مفعولها وأثرها في حياة الناس كما أسلفنا القول. ولقد اعتقد كثير من الناس أفكاراً ومفاهيم خاطئة كانت وما زالت بمثابة الحقائق الثابتة التي لا شك فيها عندهم فقديماً فهم بعض المفكرين حركة الشمس والقمر وكثيراً من الكواكب فهما خاطئاً و لم يؤثر هذا الفهم في حقيقة هذه الكواكب والسنن التي تسير وفقها، وحديثاً أنكر قوم حتى وجود الله الذي أوجد الموجودين وأقام السموات والأرضين وهذا لم يغن من الحق شيئاً ﴿ومن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾.

(١) انظر على مشارف القرن الخامس العشر،دراسة في السنن والمسلم المعاصر(ص١٢)،على ابراهيم بن الوزير.

ونجد القرآن الكريم دائماً يؤكد خصائص السنة الربانية في الكون الذي يسير بما فيه من أصغر ذرة إلى أكبر حجم وفق قانون وناموس وتحكمه قواعد وسنن لا يخرج عنها بمفرداته ومكوناته وما أودع فيها من خصائص ومميزات إلا بسنة أخرى خارقة كالمعجزة أو الاستدراج وما آل إليهما. ولا يمكن أن يخرج شيء عن المشيئة الإلهية والسنن الربانية الجارية والخارقة أبدا، وتلك هي سنة من سنن الوجود. وإن تطبيق نظرية السنن في المجالات الحضارية على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والفكري والعلاقات الإنسانية، وعلى مستوى العلاقات الشخصية والمؤسسات الإدارية يعتمد على توفير الشروط والوسائل والأخذ بالأسباب الذاتية والموضوعية بطريقة صحيحة تلائم طبيعة الأشياء وتساير واقع الأحوال النفسية والعقيدية والاجتماعية والاقتصادية في حياة الناس فتؤدي إلى غايات وأهداف سليمة فيها يسعد الإنسان ولا يشقى. وفي الأقوال العربية: من جد وجد ومن زرع حصد.

وليس معنى هذا أن النتائج والأهداف تتحقق طردياً وتلقائياً لا بل هناك عوامل لا يعلمها الإنسان وحكم لا يدركها، وإلا أصبح يعلم الغيب ولا يحتاج لأحد. والفكر الإسلامي يؤمن بالسنن والاحتمالات لا بالجبرية والحتميات. وقد توجد العوامل ولا توجد معمولاتها أو تتعطل المسببات مع وجود أسبابها وذلك لحكمة غيبية قد لا يدركها الإنسان ولا يعرفها عن طريق حواسه الذاتية ووسائله العقلية بل حتى عن طريق الموحى إليه به.

وفي الواقع المشاهد في الطبيعة أن السماء قد تتلبد بالغيوم ولا تنزل الأمطار، كما قد تتوفر شروط بعض القضايا وتنتفي مشروطاتها الأسباب أو عوامل خارقة وتلك سنة من سنن الله بها ترفع التكاليف عن البشر وتسقط الواجبات ويبدو لو استخدمت نظرية السنن وفق هذا التصور وبهذه الطريقة في تطوير الأمم والمجتمعات، وتوظيف الطاقات والقدرات البشرية والاقتصادية في بناء الدول وقيام الحضارات لتحققت كثير من المنجزات.

ولعل اغفال السنن الربانية وعدم فقهها في ميدان الدراسات الحضارية في واقع المسلمين الحالي قد أدى إلى ضياع طاقات كثيرة بذلها مفكرون ومربون إسلاميون عظام، وذهب الكثير منها سدى في غياهب مشكلات المجتمعات المتكدسة التي يظهر أنها مشكلة واحدة وهي مشكلة الإنسان المؤمن المسلم صاحب المنهج الفقيه بسنن التحضر، الخبير بربط عناصر الكون الطبيعية وطاقاته المعنوية بالحياة الاجتماعية لخدمة الإنسان[1].

ويعد القرآن الكريم الإطار العظيم والبحر الوفير الذي تجمعت فيه سنن الحياة التي لن تتغير ولن تتحول.

---

(١) انظر سنن الله في المجتمع من خلال القرآن (صـ ١٦)، محمد صادق عرجون.

السنن من خلال القرآن:

وللخوض في موضوع السنن من خلال القرآن الكريم وما يتعلق بها من قضايا فكرية يتوجب توضيح بعض خصائص السنة وهي أن سنة الله وحدة كلية مرتبطة بعضها ببعض أشد الارتباط فالنظم الاقتصادية والنظم الاجتماعية والسياسية والتربوية وغيرها كلها نظم جزئية أو أحداث صغرى داخل العملية أو النظام الحضاري والدائرة الكبرى، كما أن هذه الجزئيات ليست منعزلة التأثير بعضها في بعض، بل هي كالجسد الواحد. وأساسها ومحورها الإنسان وروحها العدل. ولذا تقرر على الأمم الواعية والشعوب المستنيرة أن تراعي حركة التاريخ وأثر كل العوامل الموجودة حتى تكون ضمن السنن المرسومة، والسنن الجارية في طريقها تؤكدها تجارب وأحداث الزمان علمت الأمم هذا أم جهلته، وفي التاريخ عبر لأولي الألباب.

ولا يمكن الزعم أن موضوع السنن يوضحه بحث كهذا وإنما يحتاج إلى جهود أكبر من ذوى الكفاءة والقدرة العلمية. ولا زلنا نحسب أن موضوع السنن من أهم القضايا الجديرة بالبحث والدراسة في القرآن الكريم التي غفل عنها المفكرون والمفسرون. ولعل هذا من بين الأسرار في تأخر أمم هي أهل للقيادة البشرية وتقدم أخرى ذاقت الإنسانية بسيطرتها على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية ويلات وهموم لا تشفى جروحها وأثارها إلا حضارة قائمة على هدى. وأساسها التواد والتراحم. والتناصح، لا الصراع والحروب والاقتتال والتآمر السري والعلني. وإن كانت قضية السنن في القرآن تحتاج إلى تفسير خاص للقرآن يجلى مفهومها ويوضح حقائقها ومكنونها كما دعا إلى ذلك الأستاذ المرحوم محمد صادق عرجون[1]. فإني أحسب أن هذه الدراسة من الخطوات الأولى في هذا الطريق ونزر من يسير في هذا الموضوع. والبناء العظيم أساسه ذر الرمال والتراب. والله تعالى يقول: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾[2] فما زلنا ننتظر من ذوى العلم ليرونا آيات ربنا في الأنفس والأفاق، وأن الإشارات التي تضمنها القرآن إلى سنن الله تستوجب على المسلمين أن يجعلوا من السنن علما من العلوم القرآنية تختص فيه طائفة من كل فرقة من أبناء الأمة الإسلامية لتبين للإنسانية التي كذب كثير منها بما لم يعلموا كما قال تعالى عن المشركين المكذبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله**﴾[3].

---

(١) انظر سنن الله في المجتمع من خلال القرآن ص٧٢ محمد صادق عرجون.

(٢) سورة فصلت (الآية ٥٢).

(٣) سورة يونس (الآية ٣٩).

أي بما لم يدركه علمهم ولم يعرفوا عاقبته في القرآن[1].

وبقيت سنن الله من سار عليها من البشرية في أي جانب من جوانب الحياة فاز وظفر وإن كان ملحداً أو وثنياً مشركاً ومن حاد عنها خسر وإن كان مؤمناً موحداً، وعلى هذه القاعدة يفسر انحطاط المسلمين وتقدم غيرهم. وفى معركة أحد لحق صحابة رسول الله بقيادته عليه الصلاة والسلام من المشركين أذى كبيراً لا حباً في المشركين وبغضاً للمؤمنين كلا وإنما بسبب بعد المسلمين عن الأخذ بعوامل النصر وسننه. ولذلك فالمسلمون أجدر الأمم بمعرفة هذه السنن لأنهم أجدر الأمم بقيادة الإنسانية لما لهم من معارف عن الخالق والخلق حواها القرآن، ولتجربتهم التاريخية في القيادة حيث سادت حضارتهم وهيمنت على الدنيا ما يزيد عن إحدى عشر قرناً فما اشتكى من ظلمهم عدو ولا صديق بحق ويفهم من سنن الله أن صاحب الحق ينتصر ويرث الأرض إن عمل وصبر طال الزمن أم قصر. وأن أهل الباطل يتنحون عن قيادة الأمم وإن سادوا وينهزمون طال الزمن أم قصر و لله عاقبة الأمور[2].

ولذلك تتكرر الدعوة في القرآن الكريم إلى السير في الأرض لاستقراء ما حل بالأمم الخالية والحضارات الغابرة... ليحصل العلم الصحيح القائم على المشاهدة والتجربة.

ولقد فطن الإنسان منذ القدم إلى خضوع الكواكب والنجوم في بزوغها وأفولها لقوانين ثابتة مطردة هدته إلى التأمل فيها مشاهدته اليومية واطراد نظم الأجرام في سيرها. ثم أخذ الاعتقاد يقوى في خضوع كثير من الكائنات الحية لقوانين وسنن حتى كاد يشمل كل جوانب الحياة الطبيعية مما أدى إلى اكتشاف قوانين العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء والرياضيات. وفى مجال النفس نشط الفكر الإسلامي في البحث عن علل العمليات النفسية على يد الغزالى وابن سينا وغيرهم. أما في مجال الظواهر الاجتماعية فإنه لم يفطن أحد – في حدود ما أعلم – قبل ابن خلدون إلى خضوعها لقوانين وسنن ثابتة مطردة كالقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية والقوانين العلمية[3].

ولا شك أن هذه الاكتشافات التي توصل إليها أبناء الإسلام من العلماء والمفكرين كانت وليدة قراءة القرآن وتدبر معانيه وفهم أسرار لغته ومعرفة مقاصده العلمية والتشريعية... إلا أن هناك فرقاً أريد أن أوضحه بين القوانين العلمية والسنن التاريخية والاجتماعية والنفسية هو أن الأولى حتمية الوقوع أما الثانية فليست كذلك.

ولقد سلك ابن خلدون فى دراسته التاريخية والحضارية ثلاث طرق: طريقة

---

(١) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص١٧٤.

(٢) تفسير المنار، سورة يونس، (الآيه ٣٩).

(٣) تعليق الدكتور على عبد الواحد وافى على مقدمة ابن خلدون ص٢٣٧.

الوصف، وطريقة الدعوة إلى المبادئ والقيم التي ينبغي أن يكون عليها المجتمع كما فعل أفلاطون في جمهوريته، والفارابي في مدينته الفاضلة.. وطريقة التحليل وكشف العوامل المؤثرة في المجتمعات. وسنن حركة التاريخ وتبدل الدول وتداول الحضارات بين الأمم[1].

ويرى الدكتور طه حسين أن هذا هو الجديد الذي جاء به ابن خلدون في عصره[2].

ولقد كان ابن خلدون كشأن علماء الإسلام ومفكريه الذين انطلقوا في تصوراتهم لمناهج الحياة العلمية والعملية من القرآن وسارت حركة التحضر وحياة المسلمين كلها في ظل القرآن دهراً طويلاً إلى يوم دب إلى كيانهم النفسي والاجتماعي والسلوكي داء الفساد والسقم فتخلوا عن تلك المناهج التي أقاموها حول القرآن واستنبطوا أسسها من معانيه. كما هو منهج التوثيق ودراسة الحديث النبوي والتشريع والتحكيم القضائي قائما على معنى قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾**[3].

إلا أنه يبدو أن مستوى المسلمين في مجال العلوم الشرعية والدراسات الإنسانية اللغوية والفلسفية الكلامية. لم يكن مساوياً أو مقارباً لمستواهم في ميدان العلوم المادية والكونية حيث لم يعرف المسلمون بتفوق في هذا الميدان قدر معرفتهم بمستواهم العلمي القوى في مجال العلوم الإنسانية، لعل التفوق الفكري والعلمي في مجال العلوم المجردة اللامادية يحتاج إلى عقل أقوى ويتطلب جهداً أكبر لكون العلوم الإنسانية لاتقوم في مجال المحسوسات ولا تدخل في إطار الإحاطة والتجربة العلمية الملموسة.

ويبدو كذلك أن المسلمين قد عرفوا نقصاً في المعرفة بسنن حركة التاريخ والحضارة وإن عايشوا هذه السنن ومارسوها عملياً. ولذلك لم تظهر الاهتمامات بحقيقة السنن كأبحاث ونظريات إلا في عصور متأخرة بدأت فيها نجوم الحضارة الإسلامية تغيب كما هو معروف في حياة ابن خلدون الذي كان آخر مصباح اتقد فأنار تلك الفترة الأخيرة من العصور الذهبية للأمة الإسلامية. وكان آخر ومضة تألقت في تلك الحقبة التاريخية.

وحتى مع ظهور هذه الومضات الفكرية العلمية بقى فقه المسلمين لسنن الحياة متخلفاً لا يتجاوب مع التكثيف القرآني لقصص الأمم البائدة[4].

ولقد ألهى انشغال علماء الإسلام وفقهائه نظريات كلامية تسربت إليهم من خلال

---

(١) تعليق الدكتور على عبد الواحد وافى على مقدمة ابن خلدون ص٢٣٩.

(٢) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية -تحليل ونقد - ص٨٣ د. طه حسين.

(٣) سورة الحجرات (الآية ٦).

(٤) فقه التاريخ ص١١ د. عبد الحليم عويس.

الفلسفة اليونانية. وافتراضات فقهية وخيالات صوفية أثارتها عقول ظالمة وانتمت إلى الإسلام بحق أو بغير حق. فاهتم المسلمون بهذه القضايا وأمثالها مما يأتي في آخر درجة في سلم الأولويات فكان كل هذا وغيره على حساب فقه سنن التاريخ والحضارات. وكانت هذه عوامل أقعدت حركة الإبداع عن التقدم والازدهار في الحياة الإسلامية، كما مازالت عوامل في عصرنا الحديث تصد المسلمين عن فقه سنن الحياة واستيعابها بالقدر الذي يخرج الأمة من الانحطاط الحضاري الذى تعيش فيه منذ قرون ومنها أن كل صاحب تخصص يرى العلوم والمعارف والحياة كلها في تخصصه ودون أن يربط تخصصه بالسنن التي تحكم الأمم نفسياً واجتماعياً واقتصادياً.. وحتى تلك السنن والقوانين المتعلقة بالأمم السابقة الوارد ذكرها في القرآن قد عولجت بهذا المنطق ودرست أو فسرت مجردة عن بقية العلوم والمعارف الأخرى وبمعزل عن الحياة العامة للناس(١).

وتنبه الفكر الغربي في مطلع القرون الحالية إلى قضية السنن أو بمعنى آخر أدق تنبه إلى اكتشاف القوانين العلمية في ميدان المادة. وذلك نتيجة لعدة عوامل لعل من أهمها أثر الحضارة الإسلامية والتخلص من قبضة الكنيسة وسيطرتها واكتساب قدر كبير من الحرية، ثم انطلق العلماء الغربيون بفضل هذه العوامل وغيرها إلى دراسة الظواهر المادية أكثر من غيرها وركزوا على آثار الأشياء في الحياة دون البحث في ذاتها وأسباب وجودها ومحاولة تعريفها تعريفاً فلسفياً نظرياً، ثم نشطت الأبحاث والدراسات حول حركة التاريخ وتغيير المجتمعات وتبدل الدول والحكومات بتأثير الفكر الخلدوني.

فظهرت اتجاهات كثيرة وبرزت مذاهب فكرية عديدة في الغرب ما زالت حتى اليوم محل اهتمام من أبناء الشرق والغرب نفسه.

وبقى القرآن المصدر والمرجع الموجه الذي يعول عليه في بحث أحوال الإنسانية الحضارية مادياً ومعنوياً لكونه وحي يوحى.

ومحور السنة في القرآن وفى القضية الحضارية هو النفس الإنسانية ومن الظلم أن يتجاهل الفكر الإنساني العلاقة التأثيرية بين النفس الإنسانية والواقع الحياتي لها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وآيات الله مبثوثة في الأنفس والآفاق(٢).

وما اكتشفه العقل الإنساني إلى اليوم بالنسبة إلى ما لم يكتشفه من أسرار المادة والروح في هذا الوجود أحسب أنه نزر من يسير وقليل من كثير وهو أمر لا يكاد يقام له وزن، كجزيرة صغيرة في وسط محيط ضخم لاترى له حدود وصدق الله حين يقول:

---

(١) انظر فقه التاريخ ص١٢ د. عبد الحليم عويس.

(٢) انظر حتى يغيروا ما بأنفسهم (ص١٥) جودت سعيد.

﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾[1].

ولقد عرف هذه الحقيقة بعض كبار العلماء فقال: ".. وإن من خصائص العالم العصري أن يكون متواضعاً لأنه لم يصل إلى شئ يذكر من أسرار هذا الوجود وجزئياته أي العالم العصري لأن المجهولات التي أمامه من الكثرة بحيث لا يفيد في الكشف عنها إلا الجرأة[2].

ولهذا كان الإلحاح بالدعوة في القرآن بالسير في الأرض، وبالنظر إلى سنن الذين خلوا من قبل، والتأمل في مصائر الأمم والحضارات الذاهبة وفقه سنن إقبالها وإدبارها، وعوامل رقيها وأسباب سقوطها وكيف ازدهرت وكيف اندثرت. له دوره وله أهميته في مجال هذه الدراسات.

وسنن التاريخ والحضارة هي تلك الضوابط أو القوانين التي تتحكم في عملية التحضر. ولقد أكد القرآن الكريم أن الساحة التاريخية والاجتماعية للأمم لها سنن وضوابط مثل سائر الساحات الكونية الأخرى الفيزيائية والكيميائية والفلكية والحيوانية والنباتية...

والمقصود بالساحة التاريخية الساحة التي تحتوى تلك الحوادث والقضايا التي يهتم بها المؤرخون. وكل ساحة من ساحات الموجودات في الكون محكومة بسنن. ومن تتبع الآيات القرآنية نجد أن القرآن عندما جعل للقضايا الإنسانية و للأشياء المادية سننها وضوابطها. فإنه قاوم بذلك النظرة القوية العشوائية للحياة الإنسانية التاريخية والاجتماعية[3].

والسنة في القرآن كثيرة لا تحصى وحديثنا عنها في هذه الدراسة هو حديث على السنن العامة خاصة كإشارات وليس إلمام بها كلية.

ويلي الحديث عن السنة الربانية في القرآن عن الإنسان باعتباره محور التغييرات في الحياة ومسئول عن بعض ما يجري فيها، وما يحدث من أسباب وعوامل تؤدي وفق سنن الوجود إلى أهداف ونتائج في حياة الأمم. وبهذا المفهوم تظهر السنن فاعلة في حياة الناس وتقلباتهم الحضارية من خلال النفس الإنسانية. ومرتبطة أشد الارتباط بالإنسان في استقامته بالاعتقاد السليم. والعمل الصالح والقول السديد والسلوك الفاضل حين يظهر الإصلاح في الأرض ويقدر الاستخلاف فيها بالاستعمار ومرتبطة بالإنسان في انحرافه العقيدي، وفسوقه الأخلاقي، وفساد أعماله وأقواله وخروجه عن سنن التحضر

---

(١) سورة الإسراء (الآية ٨٥).

(٢) انظر مقاصد القرآن الكريم (ص٢٥) حسن البنا.

(٣) انظر حركة التاريخ في المفهوم الإسلامي (ص٢١) سميح عاطف الزين.

والحياة الصحيحة. وحينئذ يظهر هذا الإنسان الفساد في الأرض فتؤول الحضارات إلى الدمار والمجتمعات إلى البوار والانحلال. وكل يجري إلى أجل مسمى وفق سنن الله في الوجود التي لا تحيد ولا تميل عن خطها وبهذه الدوافع جاءت الدعوة في القرآن للسير في الأرض لمعرفة سنن الله، في السابقين، وإدراك عواقبهم في الإصلاح والعدل، وفي حالات الفساد والظلم ومن سمة السنن أنها ثابتة لا تتغير بعوامل الزمان والمكان ومن هذا قوله تعالى: **﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾**(1).

وذكر السير في القرآن الكريم بصيغة الأمر سبع مرات(2).

والتفكير الإنساني لا يدعو إلى ربط الأحداث اليومية العالمية النفسية والاجتماعية بالسنن الكونية التي تجري وفقها الحياة لأن هذه فكرة بعيدة عن الإنسان لبعده عن الله ولم تنبع من بيئة اجتماعية أو ثقافية ينتمي إليها. ولهذا لم يهتد الإنسان إلى إثبات السنن الربانية في الوجود المقترنة بالمشيئة الإلهية المطلقة.. وأنه إلى الله تصير الأمور، فتكون الحركة التاريخية والاجتماعية والقدرة البشرية والإرادة الربانية في توازن بين السنن العادية وطلاقة المشيئة الإلهية وهذه حقيقة ثابته في سير الحياة منذ الخليقة الأولى، ولعل هذه من العبر المقصود اكتشافها من السير في الأرض في قوله تعالى: **﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾**. وفي معرفة سنن الله من السير في الأرض ما يطمئن القلوب المؤمنة أن العاقبة لها. وما يحذر من الانزلاق مع المكذبين والأرض والتاريخ كله مسرح لنشاط البشرية. وعلى أثر معرفة هذه السنن يتجاوب الناس مع نداء الحق فيدركون النتيجة(3).

﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ أي مضت قوانين إلهية مما سنه الله من السنن التي تجري على خلقه وبإرادته وقدرته ومنها ما هو خاص بالأنبياء والمرسلين ومنها ما هو خاص بالمؤمنين وما هو عام في شئون الأمم وتقلباتهم نحو الوحدة والتفكك والتحضر والتخلف والسعادة والشقاء... وهذه حقائق واردة في الكتاب لا يعرفها إلا عالم به ومن اكتشفها استطاع أن يعرف الحاضر ويتحسس المستقبل ومن سننه تعالى أن جعل العاقبة للمتقين وجعل النهاية تدور على المكذبين الظالمين.. ولهذا قال تعالى: **﴿سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾** أي نهايتهم وهي العذاب والهلاك، والفوز والتمكين للمتقين وفي قوله تعالى: **﴿ هذا بيان للناس﴾** أي هذا القرآن فيه توضيح

---

(1) سورة آل عمران (الآيتين ١٣٧-١٣٨).

(2) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي.

(3) في ظلال القرآن جـ١ صـ ٤٧٩، سيد قطب.

وتوجيه في كل ما تحتاجه الإنسانية(١).

وقال الإمام الزمخشري: إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه الكفار من التكذيب ويعني حثهم على النظر في سوء عواقب المكذبين قبلهم والاعتبار بما يعانون من آثار هلاكهم "وهدى وموعظة" يعني مع كونه بياناً وتنبيهاً للمكذبين فهو زيادة تثبيت وموعظة للذين اتقوا من المؤمنين.

ومن صريح الآية ﴿**هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين**﴾، أن هذه سنة عامة لا تتعلق بعقيدة أو جنس، ولكن الموعظة والاهتداء بها خاصة بأهل التقوى لأنهم هم الذين يعملون حواسهم ويشغلون عقولهم في التماس سنن ا لله في الحياة باجتناب المحارم والتزام الاستقامة وهي طاعة ا لله(٢).

وقال تعالى: ﴿**يريد ا لله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم وا لله عليم حكيم**﴾(٣).

يريد ا لله أن يكشف لكم أيها الناس في كل زمان ومكان عن حكمته في الأولين، ومع الآخرين ويبين لكم منهج الإستقامة حتى يعينكم على تجنب المزالق وعلى التسامي في الرقي الحضاري معنويا وماديا. وأوضحت الآية السابقة إرادة ا لله ومشيئته في بيان سنن البناء النفسي والتنظيم الاجتماعي... أما ما يريده الذين يتبعون الشهوات هو أن تطلق الغرائز من كل عقال أخلاقي، وعرف اجتماعي أو قانوني، ولو كان هذا لتحولت الحياة إلى فوضى تسوقها الرغبة البهيمية(٤).

ويريد ا لله أن يهديكم إلى ما شرع لكم من الأحكام والآداب الموافقة لمصالحكم المحتوية لمنافعكم وتلك سنته تعالى في الذين أنعم عليهم من الأمم السابقة(٥).

كما يريد سبحانه أن يبين لكم ما خفي عنكم من مصالحكم وأفضل أعمالكم ﴿**يهديكم سنن الذين من قبلكم**﴾ أي مناهج وطرق حياة من كان قبلكم من الأنبياء والأمم الصالحة العادلة الذين سلكوا المنهج القويم منهج التوازن الذي به تسعد الأمم ويقوى ملكها. وعليه تبنى الحضارات وتزدهر. ﴿**ويتوب عليكم**﴾، أي يوفقكم للتوبة وهي مراجعة النفس والاعتراف بالذنب والخطأ أو النقد الذاتي بالتعبير الاجتماعي الحديث، وتوبة الأمم كتوبة الأفراد تبدأ بترك الآثام والإجرام والندم على ما ارتكبت من

---

(١) الأساس في التفسير، سورة آل عمران (الآية ١٣٨).

(٢) تفسير الكشاف، سورة آل عمران (الآيتين ١٣٧-١٣٨).

(٣) سورة النساء (الآية ٢٦).

(٤) في ظلال القرآن حـ ٢ صـ ٦٣١، سيد قطب.

(٥) تفسير المنار، سورة النساء (الآية ٢٦).

الأخطاء في سالف الزمان. ورد المظالم إلى أهلها، وهذا هو العدل والتوازن ﴿وا لله عليم حكيم﴾، عليم بمصالح الخلق حكيم عادل فيما شرع وأحكم وأجرى من قوانين وسنن[1].

وقال الإمام الزمخشري في هذه الآية: إن اللام زيدت في قوله تعالى: ﴿ليبين لكم﴾ لتأكيد إرادته تعالى في البيان[2].

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا ﴾[3].

قال الإمام الزمخشري: ما منع الناس عن الإيمان والاستغفار إلا انتظار سنة الأولين وهى الهلاك أو انتظار العذاب يعنى عذاب الآخرة[4].

ولقد جاء البشرية من الأنبياء والكتب السماوية ما يكفي للاهتداء واتباع الحق والتزام الصراط المستقيم. ولكن عاهة الأمم التكذيب والاستكبار الذى أخرجها عن سنن ا لله. حتى كانت كثير من الأمم تطالب الأنبياء والرسل أن يجلبوا لها العذاب إن كانوا من الصادقين وهذا على سبيل السخرية والاستهزاء المتعدد الأساليب والألوان وطبعا مطالب الأقوام المنحرفة هذه ليست من مهمة الرسل فأخذ المكذبين والمستهزئين من الناس بالعذاب، وقضاء ا لله يأتي بعد الابتلاء والاستدراج وظهور الخوارق والمعجزات على يد الرسل والأنبياء الذين كلفوا بالتبشير والإنذار والتبليغ والنصح لا غير[5].

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا﴾ وماذا صدهم عنه الإيمان وقد جاءتهم أسبابه ورأوا أدلته في الواقع بالخوارق والمعجزات ولمسوها وعرفوها حيث ما لم يبق مانع ولا حجة ولكنها طبيعة الجحود وحالة النفوس المريضة والعقول الضالة التى تأبى التصديق والاستقامة إلا اذا رأت العذاب حين لا ينفع نفس إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل. وقد جبلت الأمم ألا تصدق بالنذر ورؤية الآيات في النفس والآفاق وهى كثيرة لاتحصى تتنوع بمشيئة ا لله وقدرته وما يعلم جنود ربك إلا هو. فهذه عقد نفسيه .. أو أمراض اجتماعية أو أزمات اقتصادية أو أوجاع بدنية أو كوارث طبيعية كالزلازل و البراكين، وكلها مس بالبأساء والضراء ولعل القوم يحذرون ويرجعون. ولكن طبيعة الكفر والتكذيب... دائماً تحول دون إدراك السنن والوقوف على العبر والرجوع إلى الطريق

---

(١) الأساس في التفسير، سورة النساء (الآية ٢٦).
(٢) تفسير الكشاف، سورة النساء (الآية ٢٦).
(٣) سورة الكهف (الآية٥٤).
(٤) تفسير الكشاف، سورة الكهف (الآية ٥٤).
(٥) في ظلال القرآن جـ٤، ص٢٢٧٦. سيد قطب.

المستقيم طريق التوازن والاعتدال و لله شأن في خلقه(١).

وخاطب الله تعالى المؤمنين لبيان سنته سبحانه في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين فقال تعالى: **﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾**(٢).

وردت سنة الله هنا في موضع المصدر المؤكد أي سنّ الله غلبة أنبيائه سنة وهي قوله تعالى **﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾**(٣). ونقل الإمام الزمخشري أن أبا حنيفة استشهد بهذه الآية على أن مكة فتحت عنوة لا صلحاً(٤).

وكان المسلمون يعرفون أن نصرهم وهزيمة أعدائهم يجري وفق سنة عادية تبذل فيها الجهود العظيمة. ويستعمل العقل قواه بالتفكير والتدبير فلم يتقاعسوا أو يتواكلوا بل بذلوا النفس والنفيس من أجل نيل نصر الله وإلحاق الهزيمة بأعدائه. وإذا أراد الله إحقاق الحق وإبطال الباطل هيأ لذلك أسباباً تتعلق بمشيئة الإنسان نفسه فينشئ الله في نفوس أهل النصر عوامله. ويوجد في أهل الهزيمة أسبابها النفسية والاقتصادية كالذى نجده بالنسبة لليهود في قوله تعالى **﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾**(٥). لقد استشهد سيد قطب في هذه الآية في هذا الموضوع(٦).

ومن سنة الله في الأمم السابقة واللاحقة أن ينصر أهل العدل أو الإيمان والحق في مواطن الفصل ومواقف تقرير المبادئ وتثبيت الحقائق والقيم. ويهزم أهل الظلم والكفر والباطل ويوليهم الأدبار ويرفع الله وفق سنته الجارية بإرادته المطلقة راية الحق الذى عليه أقام السموات والأرض(٧).

ومن عادة الأمم الضالة إنكار أعمال الرسل وسلوكهم في الحياة مع أن أعمال الرسل وحي من الله مقدراً ومفروضاً عليهم قال تعالى: **﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾**(٨).

---

(١) الأساس فى التفسير، سورة الكهف (الآية ٥٤).
(٢) سورة الفتح (الآية ٢٢،٢٣).
(٣) سورة المجادلة (الآية ٢٠).
(٤) تفسير الكشاف، سورة المجادلة (الآية ٢٥).
(٥) سورة الحشر (الآية ٢).
(٦) انظر في ظلال القرآن حـ٦، ص٣٣٢٧. سيد قطب
(٧) الأساس في التفسير، سورة الحشر (الآية ٢).
(٨) سورة الأحزاب، (الآية ٣٨).

ورد لفظ السنة فى هـذه الآيـة موضوعـاً موضـع المصـدر، أى سـنة ا لله ألا يخرجـوا الأنبياء ويخرجوا في الإقدام على ما أباح ا لله لهم ووسع عليهم سواء في باب النكاح كما ورد في الآية أو في غيره[1].

فكانت الآية اقرار مبدأ وحكم وازالة عنصر غريب في الفهم اعـترى عقـول المؤمنـين حين رد ا لله أمر الزواج بنساء الأدعياء إلى أصوله الأولى وأبطل عادة الجاهلين العـرب وهي تحريم الزواج بنساء الأدعياء. وليس موقف النبي عليه الصلاة والسلام هـذا جديداً ولا بدعاً في الأمر بل قد مضت سنة ا لله في الأولين من المؤمنين في إباحة الـزواج بنسـاء الأدعياء والإنسانية كلها أمة واحدة وسنة ا لله فيها واحدة. ولقد كـان الأمـر أو الحكـم موقوفاً على إحانـة الوقـت المناسـب لإقـراره وبيانـه رغـم اسـتحياء النـبي عليـه الصـلاة والسلام من بيانه[2].

ومن سنة ا لله في الأولين من أهل الكفر والجحود والعتو والاستكبار حين يـأتى أمـر بالطاعة والتزام الحق شرعة ومنهاجاً مع تمنيهم إياه قبـل المجيء قـال تعـالى: ﴿ **وأقسـموا با لله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم فلما جاءهم نذيـر ما زادهم إلا نفوراً. استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة ا لله تبديلاً ولن تجد لسنة ا لله تحويلاً**﴾[3].

والمراد بسنة الأولين في هذه الآيات هي إنزال العذاب على الذين كذبـوا الرسـل مـن الأمم وجعل استقبالهم للرسل انتظاراً منهـم للعـذاب وبـين سـبحانه أن سـنته في هـؤلاء المكذبين هى الانتقام الذى هو سنة لا يبدلها ولايغيرها، واستشهد ا لله كفار مكة.. وهـم المقصودين في الآيات علي وجه التخصيص بما كانوا يشاهدونه في مسايرهـم ومتـاجرهم في رحيلهم إلى الشام والعراق واليمن من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم[4].

وتحمل هذه الآية جولة من جولات القرآن فـى تـاريخ الأمـم الخاليـة وتكشـف عـن حالات من الحالات النفسية التى عاشـتها تلـك الأمـم ومـا زالـت تعيشـها أمـم أخـرى معاصرة وتسايرها في طريقة تقبل دعوات الحق واستقبال أو معاملة أهلـه. ومـن أولئـك العـرب الذيـن كـانوا يعرفـون أهـل الكتـب المجـاورين لهـم في الجزيـرة العربيـة وانحرفـوا وأعرضوا عن الحق لا عن جهل وعدم اقناع إنما عن استكبار وبطر للحق.

وقد كانوا يقسمون با لله لئن جاءهم نذيـر أى رسـول ليكونـوا أهـدى مـن إحـدى

---

(١) تفسير الكشاف، سورة الأحزاب (الآية ٣٨).

(٢) في ظلال القرآن ج ٥، ص٢٨٧٠.

(٣) سورة فاطر (الآيات ٤٢، ٤٣، ٤٤).

(٤) تفسير الكشاف، سورة فاطر (الآية ٤٣، ٤٤).

الأمم ويعنون بذلك أمة اليهود الذين هم أقرب أمة في التاريخ لجاهلية العرب. وإنه لقبيح بمن كانوا يقسمون جهد إيمانهم أن يكون موقفهم الاستكبار والتكذيب بالنذر وهي سنة الاستدراج التي حذر من عواقبها الأنبياء وأولوا العلم ويتكرر موقوف اليهود نفسه. ولا تمضى سنة الله جزافاً دون سابق انذار ولا سير إلى تحقيق غايات وأهداف وهي من صنع يد البشر، بل لابد أن تتحقق وتنفذ ولا ترد حتى يدركها الناس ولا يعيشون الحياة غافلين عن هذه السنن حاصرين أنظارهم في فترة قصيرة من الزمان وحيز محدود من المكان، وترفع الآيات القرآنية تصور البشر لإدراك ارتباطات مفردات الحياة ومكوناتها بسنن الوجود كله وليعرف الإنسان أيضا ما لحق بالأجيال السابقة وما حل بالأمم الخالية الذاهبة وما نزل بها من عذاب. وكيف توارت وراء الوجود وصارت إلى العدم المادي أو المعنوي، ثم يعيد النص القرآني الذهن البشري إلى تلك الحقيقة الكبرى فى السنن وهى أنها لا تتحول ولا تتبدل سنة الله ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلاً**﴾[1].

﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة. وما كان الله ليعجزه من شئ في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً﴾[2].

وأن العبرة من السير في الأرض بتأمل عقل وإحساس قلب والوقوف على مصارع الغابرين من أهل الاستكبار والغرور ومعرفة آثار الذاهبين تولد في النفس الاحساس بالمسئولية اتجاه الآخرين والشفقة على المنحرفين الضالين، وهذه ظاهرة جديرة بالدراسة لكشف آثارها في النفس ودورها في التربية الروحية والمعنوية والبناء الحضاري الاجتماعي والثقافي وغيره ولعل هذه كبرى الفوائد في دراسة التاريخ بالأسلوب التربوى العلمي لا بأساليب الخرافة والسطورة ومحاولة فك الرموز لذاتها لا لغاية من ورائها.

كما أنه بمثل هذه التأملات والوقفات يعرف الإنسان أن الجنس البشرى وحدة واحدة أمام سنة الله وفى ميزان عدله وأن كثرة المال والولد لا تعصم الأمم من ورود عواقب أمرها وحلول سخط الله عليها. وقوة الصمود والبقاء في الأمم هي الروح، والأمم كالأفراد إذا ذهبت الروح تحول الجسد إلى جثة هامدة لا أثر لها في الحياة، وفي القرآن تنبيه الناس إلى قوة الله التي أخذ بها الأولين عند انحرافهم وفساد فطرتهم وهي سنة باقية قادر سبحانه في أي لحظة أن يأخذ بها الآخرين إن انحرفوا وحادوا عن طريق الاستقامة وسنة التوازن. ويعقب الله عن هذه السنن التي بينتها الآية بقوله تعالى ﴿**إنه كان عليماً قديراً**﴾ وفي هذا بيان وتهديد للذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أي قسماً بليغاً قدر جهدهم ﴿**لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم**﴾ ونقل سعيد

---

(١) سورة الفتح (الآية ٢٣).

(٢) سورة فاطر (الآية ٤٥).

حـوي عن ابن كثير انه قال: من جميع الأمم الذين أرسلت إليهم الرسل.

والمقسمون في الآية هم العرب الذين دعاهم القرآن على وجه التخصيص كما أسلفنا القول إلى النظر في سنن الأولين التي تأتي مستحقيها من غير تحويل عن وقتها أو تبديل في ذاتها[1].

وقال تعالى: ﴿ **قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين** ﴾[2].

هذه سنة في الكفار الذين تحزبوا على أنبيائهم في الأمم فدمروا، فليتوقع ذلك كفار قريش وقد حاق بهم يوم بدر جزء من مكرهم، وقيل معنى الآية أن الكفار إذا انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر الله لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي[3].

والآية خطاب للذين كفروا في كل عصر ومصر والمعنى أن الفرصة أمام أهل الكفر سانحة لينتهوا عما هم فيه من تجمع وتحزب لمحاربة أهل الحق والإيمان وفي الآية ما يشبه الإنذار والوعيد. والنذر سنة من سنن الله تسبق التعذيب والهلاك وتأتي بعد التبليغ والنصح[4].

فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فالأمرعلى سبيل الخيار فلا جبر ولا قهر لا على الكفر والعصيان. ولا على الإيمان والطاعة. وللكفار أن يفعلوا ما أمروا به ويلتزموا منهج الحق ويتركوا الصد عن سبيل الله والاعتقاد بالباطل والسلوك الخاطئ وإلا فسنة الله ماضية أي سائرة في الأولين والآخرين. وهي إنزال العقاب واحلال الدمار بأهله ومستحقيه[5].

والله تعالى يقول: ﴿**ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين**﴾[6].

يخبرنا الله عز وجل أن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليس هو بدعا من الرسل الذين لقوا الاستهزاء والسخرية والمعارضة من المجرمين والمتكبرين وغيرهم من طوائف الباطل. ولكن هذه سنة معروفة وموقف متكرر في الرسالات وهي ظاهرة من الظواهر

---

(١) انظر الأساس في التفسير، سورة فاطر (الآية ٤٥).
(٢) سورة الأنفال (الآية ٣٨).
(٣) تفسير الكشاف، سورة الأنفال (الآية ٣٨).
(٤) انظر في ظلال القرآن ج٣، ص١٥٠٨. سيد قطب.
(٥) انظر حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص١٢٩. جودت سعيد.
(٦) سورة الحجر (الآيات ١٠،١١،١٢،١٣).

المرضية في هؤلاء المنحرفين والمفسدين الذين واجهوا أهل الحق. ولا ينقصهم الدليل والبرهان ولكنه العناد والتكبر الصادر عن الأمراض النفسيةالمانع من اتباع الحق والتزام الطاعة طريقة ومنهجا في الحياة[1].

ولقد بعثت رسل في الفرق والأقوام السابقة من الأمم الخالية وكان هذا موقفهم وما زال دأب الكثير وسنة الله تنفذ وفق المشيئة الربانية[2].

وكثير ما يكون أهل الجهل أقوى من غيرهم في التمسك بباطلهم حتى ولو علموا ما صار إليه نظراؤهم وأقرانهم السابقون، لأن الجهل يعمى عن رؤية الحق. ولقد شهد التاريخ بوجود هذه الظواهر والحالات في الأمم الماضية وظهرت آثارها في حقب التاريخ التالية فكانت عوامل هدم وتخريب وأسباب تدهور وانحطاط حرمت أمما من نيل رضا الله. والوصول إلى السعادة في الدنيا والآخرة والأمر أكثر حيرة وقلق أن تجارب البشرية العريقة في القدم قد ضاعت في أحقاب التاريخ وخاصة جانب الهداية والضلال ولعل كل الذين يدرسون التاريخ لا ينظرون إليه نظرة تدبر واعتبار وتأمل واستقراء لما جرى للأمم وما عرفت من سعادة وشقاء على قدر موقفها من دعوة الحق والتوحيد ولذلك لا زالت كثير من الأمم تقدم ثمن إغفال هذه الحقيقة. وسنة الله جارية ثابتة لاتتغير بتغير الزمان والمكان وكل المعاصرين سيتحولون يوما إلى أولين وكل جديد سيصبح قديما ومن الأخطاء الفادحة أن يتحول تاريخ الأمم إلى أحداث ووقائع متراكمة ومتكدسة دون استفادة واستقراء[3].

وعن سنة الله في المشركين قال تعالى: **﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا * سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾**[4].

يعني أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم فسنة الله أن يهلكهم ونصبت السنة نصب المصدر المؤكد أي سنَّ الله ذلك سنة ثابتة[5]. والآية تجيبنا عن سؤال وهو كيف أمهل الله أهل مكة ولم يهلكهم رغم تكذيبهم وعنادهم؟ والجواب أن السبب واحد وهو وجود رسول الله بينهم ولو خرج لحل بهم الهلاك والدمار وفق هذه السنة. ولقد حاول المشركون استدراج رسول الله إلى الخروج وعندما عجزوا عن تحقيق غايتهم رجعوا إلى الاستفزاز والتهديد والوعيد وغيره من الأساليب لكي يتخلى عن

---

(١) الأساس في التفسير، سورة الحجر (الآيات ١٠ إلى ١٣).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب.

(٣) انظر : حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص١٣١. سعيد جودت.

(٤) سورة الاسراء (الآية ٧٦، ٧٧).

(٥) تفسير الكشاف، سورة الأسراء (الآية ٧٧).

الدعوة إلى الله، ولو خرج عليه الصلاة والسلام عنوةً وقهراً دون وحي من الله لحل بهم الدمار وهلاك الاستئصال والابادة ﴿إذاً لايلبثون خلافك إلا قليلاً﴾[1].

لأن أخراج الرسل كبيرة تستحق الانتقام المادي المباشر والكون تدبره سنة الله المطردة التي لاتتحول أمام أي اعتبار فردي أو جماعي أو نسب أو غيره[2].

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه لحكمة تشريعية - من مكة إلى المدينة وكلاهما بلاد العرب ولهذا لم يستأصلهم الله بالهلاك وإنما أهلك كبارهم وسادتهم من رؤوس الشرك يوم بدر[3].

وعن سنته سبحانه في المنافقين والمرجفين قال تعالى: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً. ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً. سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[4]. قال الإمام الزمخشري " أي سنن الله في الذين ينافقون الأنبياء أن يقتلوا حيثما ثقفوا. ونقل عن مقاتل أنه قال: كما قتلوا مشركي بدر وأسروا[5].

ونبصر في الآية وعيد الله للمنافقين والمرجفين ذوي القلوب المريضة والأخلاق الدنيئة الذين ينشرون الشائعات والأباطيل في صف الحق وفي أوساط المجتمعات. وهؤلاء مرجفي المدينة المنورة إن لم ينتهوا عن أعمالهم وسعيهم هذا فإن الله يسلط عليهم من يشاء من عباده وخلقه ليسومهم سوء العذاب، كما سلط على من سبقهم في التاريخ وإلى السعي في الأرض بالبغي والفساد كبني اسرائيل وغيرهم من الأمم المنحرفة وحقق الله هذه السنة في اليهود حين أخرجهم من المدينة وطهرت من كيدهم ورجسهم وطردوا من مساكنهم ومزارعهم وأبيحت دماؤهم وخربت بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين عبرة لأولي الأبصار، وقتلوا تقتيلاً. وهذه سنة ثابتة في الذين مضوا من قبل عرفتها الأمم بمعرفتها لتاريخ أسلافها ولن تجد لسنة الله تبديلا[6]. والآية تقرر هذه السنة وتبين أن المرجفين هم مروجوا الدعايات الإعلامية المضللة والسياسات الكاذبة. ونقل عن عكرمة في الأساس في التفسير أن المرجفين هم الزناة، والمرض هو كل انحراف. ومعنى قوله تعالى: ﴿لنغرينك بهم﴾ أي لنأمرنك يا محمد- صلى الله عليه وسلم- بقتال هؤلاء المرجفين ولنسلطنك عليهم[7].

---

(١) سورة الإسراء (الآية ٧٦).

(٢) في ظلال القرآن ج ٤، ص٢٢٤٦. سيد قطب.

(٣) انظر الأساس في التفسير، الإسراء (الآيات ٧٦،٧٧).

(٤) سورة الأحزاب (الآية ٦٠،٦١،٦٢).

(٥) تفسير الكشاف، سورة الأحزاب (٦٠،٦١،٦٢).

(٦) انظر في ظلال القرآن، حـ٥، ص٢٨٨٠. سيد قطب.

(٧) انظر الأساس في التفسير، سورة الأحزاب (الآيات ٦٠،٦١،٦٢).

وقال تعالى: ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم. كانوا أكثر منهم وأشدّ قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون. فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون. فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا با لله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة ا لله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون**﴾[1].

في هذه الآيات حديث عن مصارع الغابرين من الأمم التي بعضها ما تزال لها آثار باقية تحكي قصتها وانجازاتها الحضارية في النقوش والمتاحف وبعضها الآخر حوته الكتب والروايات، وفي القرآن الكريم دعوات توجه العقول إلى التأمل والسير في الأرض للكشف عن دلائل الوجود ومعرفة حقائق التاريخ وسنن ا لله في الخلق والقرآن وتخاطب النفس البشرية في أنقى حالاتها وأطهر طبيعتها وفطرتها، ويذكر كيف كانت عواقب الظالمين الذين اغتروا بالقوةالمادية والعددية ﴿ **كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض**﴾، وهنا جاءت الآية تصوب رأى الذين يرون الكثرة والقوة المادية من أسباب التحضر وعوامل الصمود والثبات أمام عاديات الزمن والدهر. فهؤلاء المخبر عنهم قد أصبحوا قصصاً تحكى وأخباراً تروى رغم قوتهم المادية ﴿**فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون**﴾ وأثبتت التجارب التاريخية أن هذه العوامل عادة هي عوامل غرور وزهو بباطل إن لم تكن أسباب شقاء وتعاسة لكثير من الأمم[2]. ﴿**أفلم يسيروا في الأرض**﴾ دعوة إلى الاعتبار بالسير في الأرض والبحث في علل هلاك الأقوام الظالمة الكثيرة. وفي هذه الدعوة ما يشبه التحذير والإنذار لكل المكذبين، أن يكون مصيرهم مصير هؤلاء السابقين.

فمن الذي يعصم المكذبين التاليين إذا علموا أن الهالكين الأولين كانوا أكثر منهم مالاً وأولاداً، وقد خلفوا في الأرض آثاراً ودلائل تبين عظمتهم وتوكد ما وصلوا إليه من قوة وعزة وتمكين في الأرض، وظاهر نص الآية أن الخطاب كان لقريش ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوصية المناسبة -فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون- عندما حل بهم بأس ا لله، لأن هذه العوامل مع التكذيب والاستهزاء والتكبر وعدم الإيمان والطاعة والإستقامة على طريقة الرسل عوامل مغشوشة لا تثبت أمام أحداث الزمان. وسنة ا لله أن الإيمان با لله ومحاولة اتباع الحق عند رؤية البأس حيلة ومخادعة لا تنفع مع عدل ا لله ولا تنجي صاحبها من أمر ا لله، وفي الحديث (أن ا لله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر). وتوبة الأمم كتوبة الأفراد لها شروطها وآدابها، وأولها العزم والصدق والإخلاص في كل

---

(١) سورة غافر (الآية ٨١).

(٢) انظر ظلال القرآن جـ ٥ صـ ٣١٠١، سيد قطب.

ما ظهر وما بطن وما الأمم إلا مجموعة أفراد وأسر[1].

والقرآن الكريم ليس هو حدثا تاريخيا في الحياة ظهر ثم مضى واختفى مخلفا وراءه آثارا وبقايا وإنما هو معايشة ومواجهة لهذه البشرية في كل جوانب حياتها إلى يوم القيامة كما أنه ليس آراء ونظريات جامدة ومجردة إلا عند الذين فقدوا وعيهم وحسهم الإنساني بل هو حقائق وأحكام لا تعرف المحايدة في شئ، وهو المصدر الذي سيبقى يمد الإنسان بمقومات الحياة بحفظه لمدخرات الأمم وتجاربها الحضارية وهذا ما غاب عن الذين يجادلون في امكانية انبثاق الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. عن القرآن[2].

وأن التباين الحضاري بين الأمم لم يأت عبثا وجزافا وإنما كان نتيجة تفاوت في فهم سنن التحضر والتمدن. وكثير من الأمم المعاصرة تسعى إلى الإنشاء المدني والبناء الحضاري دون الاهتمام بقانون الأولويات ويهمل الجزئيات الصغيرة المتناثرة في الحياة ويحسبها غير ذات قيمة حضارية وتريد تخطي الأولويات والقفز فوق الجزئيات وفي القوافي قوة للقوادم وحتى ظاهرة سقوط الحضارات تبدأ أمراض وعلل صغيرة تفكك الجزيئات وتسكن صفريات الأشياء.. وقد تسقط الجرثومة الصغيرة الأشجار الباسقة كما تهلك الفيروسة الأبدان القوية العظيمة، ولعل علاج هذه الجراثيم الصغيرة أصعب من علاج الجروح والكسور الظاهرة الكبيرة في الأجسام والأبدان ولذلك يبدو أنه مهما نبغ النابغون في بعض العلوم والفنون وجمعوا الثروات وكدسوا المستوردات فإنهم لن تقوم لهم قائمة حضارية إلا بإيتاء البيوت من أبوابها وفقه سنن الله في النفس الإنسانية التي هي مناط الأمر كله وذلك بالرؤية الشاملة للإنسان أولا ثم ادراك الغاية من وجوده والهدف من حياته. ولن تستطيع تلك الأشخاص المتناحرة بهذه المعارف المتناثرة من الدرسات النفسية والاجتماعية والفلسفات الفكرية المثالية المتشائمة أو الحاقدة المتعصبة تحقق هذا الغرض الأكبر والهدف الأعظم في حياة الإنسان في الدنيا والآخرة. والمعول عليه والسائر طبق سنن الله هو إيجاد الإنسان المؤمن الذي بوجوده تتوافر شروط التحضر وتوظف القوة الإنسانية في رؤية صحيحة وتصور شامل يدرك الغاية الأساسية من حياة الإنسان ووجوده[3].

والمنهج الذي يجب أن يتبع في هذا السبيل لتحقيق غاية الإنسان من الوجود هو أن تفقه سنن الله بالرجوع إلى القرآن واستقراء سنن الله فيه من خلال تاريخ الأمم الخالية، ومعرفة طريقة تعامل هذه الأمم مع حقائق الوجود وموقفها من الأنبياء

---

(١) انظر الأساس في التفسير، سورة غافر (الآيات ٨١-٨٤).

(٢) انظر الأساس في التفسير، مقدمة جـ١ صـ ٩، سعيد حوي.

(٣) انظر فقه التاريخ صـ ١٦، د/ عبد الحليم عويس.

والرسل. ودعوات الحق وأحكام العدل وما مصير تلك الأمم والأقوام وكيف سادت ثم بادت؟، وأين أصابت وأين أخطأت؟، وما مدى صلتها با لله في كل هذه التقلبات بين العز والتمكين والذل والهوان والسعادة والشقاء..والقواعد المستخلصة والنتائج المتوصلة هي السنن الثوابت التي لا يغيرها الزمان حين يغير الإنسان والمجتمعات، ولهذا فإن أية نهضة حضارية لابد أن تولد وتتم في الظروف التي ولدت وترعرعت فيها الحضارات الأولى، وهذا هو الذي عبر عنه السلف الصالح في الأثر أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها[1].

وما زلنا نشاهد ونقرأ في التاريخ أن الحضارات اللاحقة تسقط أو تموت بنفس الأمراض والعلل التي ماتت بها الأولى، وما زالت الشعوب تغمس في نفس المستنقعات التي تنغمس فيها الأولى، وتعاني من نفس المشاكل والأمراض التي عانتها الأولى.

وأحسب أن هذه هي الرؤية الحضارية في القرآن التي جاءت وفق سننه تتناول مقومات التحضر تناولا حيا ينبض بالحركة والفاعلية كما تعالج مشكلات الحضارات -التي من أكبرها وأجلها بالاهتمام مشكلة القيام والسقوط[2]- بفقه سننها بحيث محطة البدء والانطلاق هو الإنسان والسعي إلى تحقيق الغاية الكبرى والوحيدة من وجود الإنسان وهي رضا ا لله ونيل السعادة في الدارين بعبادة ا لله دون اهمال الجزئيات والصغريات ومبدأ الأولويات. ولعل هذا ما أغفلته جل مناهج الدرسات الحضارية -في حدود ما أعلم- والتي كثيرا ما تناولت الحضارة تناولا شكليا كدراسة مصطلحات الحضارة والمدنية والثقافية.. دراسة جافة كأنها تتناول أو تبحث حقائقا ميتة لا رصيد لها من الحركة والوجود المستمر وعرفتها تعريفا جدليا. ولذا اضطررنا في حالات تعاملنا مع مصطلحات من نوع مصطلح الحضارة أن نلجأ إلى مراجع لا تهتم بالتعريفات الفلسفية قدر اهتمامها بالمدلولات الاصطلاحية والمضمون الفكري حيث لا يطلق المصطلح وكأنه حكم حكم ثابت لا يتغير ولا يناقش وإنما يتتبع المدلول في أطواره وحالاته المختلفة العملية واستعمالاته اللغوية المتعددة المضامين الفكرية منذ كان لفظة محايدة أو مفردة غائبة ذات دلالة خافية إلى أن اصبحت قضية ظاهرة. وربما إلى أن فقدت محتواها وصارت مبتذلة وشعارا ممتهنا أو كلمة سوقية يلوكها الجاهل والمتعلم على حد سواء[3].

وعلى أية حال فإن مشكلة المصطلحات لعلها أصبحت من القضايا الكبيرة التي تحتاج إلى دراسات موضوعية أكاديمية متخصصة تجلي أبعادها وتحد حدودها وتتابع

---

(١) انظر ميلاد مجتمع- شبكة العلاقات الاجتماعية صـ٦٩، مالك بن نبي.

(٢) أقصد بمشكلة الحضارة قضية الحضارة كما بينا سابقا.

(٣) انظر تفسير التاريخ علم إسلامي -نحو نظرية إسلامية في تفسير التاريخ- صـ٢٢٨، د/عبد الحليم عويس.

تطورها التاريخي. وهذا ما يمكن أن نرتكز عليه ونتجنب اثقال الموضوع بالتعاريف وتشابكها ونقدم على توظيف المصطلحات وندرسها في شمولية معانيها بدون خصوصيات ألفاظها وضيق دلالاتها.

فالحضارة هي ولادة داخلية يحس بها المجتمع عندما يعيش ظروفا معينة تسمح بالولادة والنضج. كما لا يوجد الكائن الحي من الفراغ أو العدم فكذلك الحضارة تعتمد في قيامها على بذور احساسية ومقومات صحيحة تضع الأمة على طريق التحضر. ولا يقصد بقيام الحضارة أو ميلادها ظهور أمة فجأة على المسرح الاجتماعي والإنساني في التاريخ. وإنما يقصد بذلك ظهور إرادة بشرية توفرت لديها عناصر الإبداع والانطلاق فسعت إلى القيام بدور حضاري يميزها عن مجرد وجودها الذاتي التاريخي الذي تشترك فيه مع سائر الكائنات الحية الأخرى كالحيوانات والنباتات(١).

ويمكن أن تقف الأمة في مكانها ومستواها قرونا عديدة دون أن يلحقها أي تحضر. وقد عاشت هذه الوقفة أو الظاهرة كثير من أمم الأرض المتقدمة والمتخلفة ومنها الأمة العربية التي تعيش هذه الحالة منذ القرون الثلاثة أو الأربعة الماضية. وحتى عندما تفرض على الأمة بذور أو عوامل حضارية خارجية فإنها تبقى قائمة وتظل واقفة إذا كانت هذه البذور لا تتلائم مع واقعها النفسي والاجتماعي وحتى عندما تتوافر كل الشروط المهيأة للولادة الحضارية، فإنه يجب اتخاذ ضمانات معينة حتى تنمو البذور نموا طبيعيا وتمحص الدوافع الذاتية وتوجه النتائج الخارجية ومن هنا فلا يمكن لأية أمة الزعم بامكانية التحضر تلقائيا أو خارجيا بمعنى أن تشتري أو تستورد أو تسرق التحضر عن الغير لأن هذا اللقيط لن يكون أكثر من مظهر نقص وقتي لا يلبث أن يتلاشى. ولعل هذه الشروط أو عوامل التحضر هي ما يطلق عليها بعض علماء التاريخ الاجتماعي أسس التطور وهو ما يمكن أن نسمية سنن التحضر(٢).

ونؤكد على أن التحضر لا يحدث إلا بالتحولات الداخلية المرتبطة بالتحولات الخارجية مما ينقل الأمة من مرحلة إلى أخرى أعلى في سلم التحضر. ويبدو أن النقلة الحضارية هذه لابد وأن تقوم على أسس ووفق سنن في الكون، وامكانية الأمة الذاتية القائمة على القدرة الذاتية للفرد ثم القوة الاجتماعية الداخلية للأمة ذاتها. ولعل هذه الطريقة أفقه في اتباع سلم الأولويات في عملية الإقلاع الحضاري، ثانيا التصور الفكري أو فلسفة الوجود حيث لم يحدث في التاريخ ميلاد حضارة أو قيام نهضة دون تصور لقضايا الإنسان الذاتية ورسم خطوط وآفاق المستقبل وهو ما يعرف بالمخططات

---

(١) انظر تفسير التاريخ -علم إسلامي- نحو نظرية إسلامية في تفسير التاريخ، صـ١٥٩، د/ عبد الحليم عويس.

(٢) انظر تفسير التاريخ - علم اسلامي - نحو نظرية إسلامية في تفسير التاريخ، صـ٢٤١-٢٤٣، د/ عبدالحليم عويس.

الاقتصادية والتنموية والاستراتيجية في العصر الحديث، وهي التي تبرز من خلالها قوة الأمة النفسية والاجتماعية. ومن هذين المنطلقين قام الإنسان في فترات صحوه يجتاح الصعاب ويبني الحياة بناء قويا واثقا من نفسه وقدرته بعيدا عن كل المصالح الذاتية والغرائز الأنانية الهابطة. وهذا لا يكون إلا بالعقيدة الصحيحة التي تكفل الحياة الهنيئة السعيدة للإنسانية. والعقيدة شيء داخلي قائم في القلب الذي هو موطن الإيمان والإيمان سر السعادة الحقيقية التي هي سعادة النفس في غدوها ورواحها في نومها ويقظتها. وهذا لا يتوافر إلا بالإيمان الذي هو تصديق وجزم بوجود إله مدبر وحكيم[1] ولعل هذا هو مفتاح السر الذي فقدته البشرية في فترات انحطاطها وظلامها.

وإذا كانت الأمم وضعت لنفسها قانونا يضبط شئونها وينظم حياتها فليس هذا إلا تعبيرا عن أهمية الأخلاق في حياة الشعوب وازدهار حضارتها وتماسك مجتمعاتها لأن سلطان الأخلاق أقوى من سطوة القانون على النفوس، لأن الأخلاق قانون داخلي وخارجي معا، ويبدو مؤشر الخطر والسقوط يظهر في الأمة ويستفحل عندما يضعف فيها القانون الأخلاقي وتكثر الضوابط الاصطناعية من أجل استمرار سير الدولة وتماسك الأمة. وتعد ظاهرة كثرة القوانين وتشديد حراسة الشرطة في الدولة علامة مرضية تسير بالأمة والمجتمع نحو الانهيار والتفكك والسقوط[2].

والمجتمع الصحيح هو الذي يحتل فيه القانون الدرجة الثانية بعد الأخلاق وترتبط هذه الأسس بتوفر عنصر آخر ضروري في حياة الأمم وهو الحرية لأن فقدها يؤدي إلى ظهور اللامبالاة وعدم تحمل المسؤوليات وكثرة المطالبة بالحقوق واغفال الواجبات مما يفقد التوازن في حياة الناس ويؤدي إلى انتشار الظلم الذي يقتل ارادة الأفراد والجماعات ويحول دون ظهور الأبطال والعلماء والمصلحين والزعماء. ومن المستحيل حتى التفاؤل بوجود قادة في هيمنة الظلم والحرمان وغياب الحرية والاستقلال. لأن الإنسان المبدع البناء لا يبدع ولاينشئ إلا إذا كان حرا في ذاته وفي مجتمعه ومسؤولا مسئولية داخلية نابعة من ذاته وعن اقتناعه بما يصنع بتأثير إيماني عميق قائما على أسس عقيدية تجيبه على التساؤلات في الوجود، وتكون له نظرية الحياة حكمة وجوده. وبهذا التصور في الأمة يوجد الإنسان القادر على التأليف بين أبناء الأمة وإقامة الحضارة لتحقيق غاية الوجود الإنساني وهو المعيار الذي به تقوم الحضارات وتسعد الأمم وتستقيم دون انحراف، والعلم بهذه الحقيقة الكبرى هو العلم بدين الله والعلم بسننه في الكون وهو العلم أيضا بخواص المادة الذي يعين على استخلاص ما سخر الله للإنسان من طاقات السموات والأرض واستخدامها في عمارة الأرض، كما هو معروف في سنن

---

(١) انظر أسس الدعوة وآداب الدعاة صـ ١٤٣، السيد الوكيل.

(٢) انظر تفسير التاريخ-علم إسلامي-نحو نظرية إسلامية في تفسير التاريخ،ص٢٥٢-٢٥٤،د/عبدالحليم عويس.

ا لله في الحياة البشرية التي يقوم على أساسها المجتمع الصالح. والعلم بتاريخ البشرية وما فيه من فترات والهدى والاستقامة وما فيه من فترات ضلال والانحراف، والنتائج المترتبة على العلم والمعرفة بسنن المادة وسنن الحياة الإنسانية التاريخية والاجتماعية وطبائعها، كلها تؤدي إلى فقه الواقع وفق السنن الربانية المبثوثة فيه. وكما أن العلوم والمعارف بمختلف فروعها هي جزء من مفهوم الحضارة[1] القائمة على القاعدة الأخلاقية التي تكون كل أنواع النشاط الإنساني فتكون السياسة ذات الأخلاق القائمة على البر والتقوى والاستحياء والتواضع وعدم التكبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحق والعدل والصدق، ويكون للاقتصاد أخلاق قائمة على الالتزام بما أحلَّ ا لله من الطيبات وتحريم ما حرم من الخبائث من الربا واحتكار وغش وسلب ونهب وسرقة وأكل أموال الناس بالباطل وعدم الإنفاق في سرف وترف. وفي الناحية الاجتماعية تكون علاقات الناس قائمة على التواد والتحاب والتكافل والتعاون والوفاء بالمواثيق يستوي في ذلك المواثيق والعهود الفردية أو المعاهدات الدولية وإقامة الحياة كلها على هذه القاعدة الأخلاقية جزء من المفهوم الاسلامي للحضارة[2]، واقامة فنون نظيفة تلتفت إلى الجمال في الكون وفي الحياة البشرية وتعبر عنه في أداء جميل.. فنون لا تزين الفاحشة لأن الفاحشة ليست جمالا ولكنها هبوط. ولا تزين لحظة الضعف لأنها ليست جمالا وإنما هي لحظة غفلة عن إدراك الوجود الأنساني.. ولا تزين الانحراف والشذوذ لأنه ليس جمالا وإنما هو نشاز نافر عن الجمال ولا تزين عبادة الشيطان وعبادة الهوى والشهوات لأنها ليست جمالا وإنما هي حطة للإنسان الذي كرمه ا لله وفضله وأن اقامة مثل هذه الفنون جزء من المفهوم الاسلامي للحضارة[3].

وليست استخلاص الطاقات الكونية المادية هي أهم ما يقوم به الإنسان في سبيل التحضر ولو وصل الي القمر أو المريخ... وإنما الأهم من ذلك هو الغاية التي تسعى إليها الحضارة والأسلوب الذي تسير عليه في جانبها المادي والمعنوي في توازن واستقامة، فالقيم المعنوية والنظم العادلة وحدها لا تملأ المعدات الخاوية إن لم يكن هناك خبزا، ولا تسير السيارات والقطارات والطائرات إن لم يكن هناك قوة وقود، والإنسان بدون القيم المعنوية يهبط الي أسفل السافلين في الحياة الحيوانية ويعيش عيشة الضنك والشقاء ولعل الحضارة الغربية المعاصرة هي عنوان هذا الانحراف والانزلاق[4].

ولقد قامت الحضارة الإسلامية على أعظم قدر من القيم تقوم عليه حضارة في تاريخ

(١) انظر مفاهيم ينبغي أن تصحح، صـ٣٤٤.

(٢) مفاهيم ينبغي أن تصحح صـ٢٤٣، محمد قطب.

(٣) مفاهيم ينبغي أن تصحح صـ٢٤٤، محمد قطب.

(٤) مفاهيم ينبغي أن تصحح صـ٢٤٦، ٢٤٧، محمد قطب.

البشرية وعلى أقل قدرمن المظاهر المادية التي كانت مجموعة من الخيام وبيوت الطين وبساتين النخل ومجموعة من الخيل والابل والأغنام والسهام والسيوف ولكن هذه القيم صنعت رحال الحضارة[1] الذين استطاعوا أن يعوضوا النقص المادي بفضل البناء العقيدي للإنسان والتصور الفكري للحضارة. وكل الحضارات الثاوية لم يستطع الكم الهائل من الانتاج المادي الذي وصلت اليه أن يعوض التخلف الروحي والمعنوي وتحقيق التوازن الحضاري الذي يؤدي فقده إلى الانهيار والسقوط، ولعل هذه القوة التي انطلقت بها الحضارة الاسلامية في اعمار الأرض عمارة مادية ومعنوية من صناعة وتجارة وحركة علمية وحركة جغرافية اكتشفت بها مجاهيل الدنيا وحددت الحدود والمواقع التي كانت أساس الاكتشافات الغربية في القرن التاسع عشر، وبهذا وغيره من الحقائق والأسرار استطاعت الحضارة الإسلامية الصمود أمام عاديات الزمان وظروف الدهر الداخلية والخارجية واستحال على عوامل الهلاك افنائها لأنها الحق والحق لايفنى.

السنن والصدفة:

كل ما في الكون من حركة النجوم والكواكب، وما يحدث فيه من تقلبات تاريخية واجتماعية، ومن انخفاض وارتفاع في الدول والحكومات ومن رقي وانحطاط في الأمم والحضارات التي توالت علي الدنيا منذ وجود السموات والأرض وخلق الجن والإنس، لم تكن لتوجد وتتكون وتسير وتتحرك صدفة خبط عشواء وإنما كانت وتحركت وفق سنة مطردة حكيمة. ولعل هذا لم يعرفه أحد من المخلوقات ويحس به سوى من اتخذ الله ربا واعتنق عقيدة التوحيد منهجا واستخدم العقل استخداما صحيحا، واتبع العلم مسلكا قويا. وبهذا يرى المؤمن الحق ضرورة تكون الصلة بين ما أملاه الوحي وأظهره العلم واكتشفه البحث. حيث أظهر العلم أسرارا عجيبة. وتحدث الوحي عن أنباء غريبة، ودل على آيات عظيمة في الآفاق وفي النفس، لو تأملها الانسان لوصل الي نتائج كبيرة في الاعتقاد والعلم وفي المجتمع والحضارة. فلو عرف الإنسان مثلا كيف يتحول ثاني أكسيد الكربون إلى أكسجين بعد أن تمتصه النباتات ثم تعيد افرازه في الحياة ليزرعه الهواء في الجو أكسجينا تنعم به الكائنات الحية لادراك العاقل أن للكون مدبرا وأنه يسير وفق قانون وسنن ربانية أزلية ﴿**ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار**﴾[2].

وليتخيل العاقل أن الكون أوالعالم يسير فوضى وبصدفة عشوائية دون نظام ولا قانون ولا مدبر كما تعتقد بعض المذاهب الفلسفية الضالة فكيف تكون الحياة. وأن استقلالية الكون وانفصاله عن الخالق وسير حركة التاريخ تلقائيا قضية ساورت قدماء

---

(١) المرجع السابق صـ٢٤٨، محمد قطب.

(٢) سورة آل عمران (الآية ١٩١).

فلاسفة الحضارات الغابرة وكان الاعتقاد سائدا إلى عهد قريب أو لعله ما زال قائما وأن للكواكب والنجوم والأفلاك... إرادة ذاتية بمعنى أنها قادرة على تحريك نفسها بنفسها وعلى التأثير في مجرى الحياة حولها[1].

ولعل الانشغال بحركة الكواكب والأجرام كان عاملا من عوامل اكتشاف القوانين الطبيعية أو بمعني أصح السنن الربانية في الكون. والحركة الذاتية تؤدي إلى انكار الألوهية وابعاد وجود منظم للحياة وعلى هذا الأساس قامت الاتجاهات المادية المعاصرة ترى أنه ما دام الأمر هكذا فلا مانع من أن يسير الإنسان على هواه ومزاجه يفعل ما يشاء من غير خوف من عقاب أو طمع في ثواب وجزاء. وبهذا يكون مفهوم المصادفة أوالصدفة دخيل على سنة النظام والتوازن. وغدت المصادفة في حس الناس موقفا معينا يتخذ ازاء الظواهر والقضايا لما تتركه في النفس من استشعار بالفجائية والتلقائية[2].

والصدفة ليست احساس فقط بل هي أمر موجود غير قابل للتعليل ليجهل الإنسان أسبابه وعوامله ولكنها ليست القاعدة بل حالة استثنائية. والحق أن الكون بني على قواعد ونظم فلم يترك أمر تكوينه ومجرى الأحداث فيه للمصادفة أو للأهواء. وتعرف هذه القواعد والنظم بالقوانين الطبيعية أوالسنن الربانية التي لا تتغير ولا تتبدل، وما أمر السنن في نظام الكون والحضارة إلا كأمر القوانين في نظام الدول والحكومات بل أدق وأعدل. وأن سنن الكون الربانية قانون الجاذبية التي تعمل دائبة على تجميع أشتات الأجرام المادية المتقاربة في صعيد واحد ولولا قوة هذا القانون لسقطت الكائنات في محيط الفضاء الأعظم وتشتت مفرداته وتبعثرت جزئياته وإلا استحالت الحياة على الأرض، وكقانون الغازات التي تملأ الفضاء وقانون التسخين الذاتي والخسوف والكسوف[3]... وا لله تعالى ﴿ **كل يوم هو في شأن** ﴾[4].

وكل التغيرات الجارية تحدث ليلا أو نهارا وفق سنة ثابتة عادلة وكم تبدلت الحياة وتحولت أحوالها فهذه المدائن العامرة وتلك الحقول الزاهرة والجبال الشاهقة لعلها كانت يوما ما ظلاما دامسا داخل المحيطات تلاطم الأمواج وتزاحم وحوش البحار والحياة وكم من أرض تزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فأتاها أمرنا ليلا أو نهارا فأصبحت هشيما تذروه الرياح وكأن لم تغن بالأمس شيئا، فهل كل هذا التحول بالصدفة، سبحان ا لله وليس في منهج القرآن صدفة وإنما كما قال تعالى: ﴿ **وخلق كل شيء فقدره تقديرا** ﴾[5].

---

(١) قصة السموات والأرض صـ٥،٧ د/محمد جمال الدين الفندي، د/محمد يوسف حسن.

(٢) انظر فلسفة المصادفة، صـ٣٤، محمود أمين العالم.

(٣) انظر قصة السموات والأرض صـ٢٢، د/محمد جمال الدين الفندي، د/ محمد يوسف حسن.

(٤) سورة الرحمن (الآية ٢٧).

(٥) سورة الفرقان (الآية ٢).

بحيث ليس ثمة مصادفة جغرافية ولا زمانية ولا انسانية وليس ثمة حادث عارض فالكون كله آية واحدة متماسكة في التكوين والحركة والذين يرون بفوضوية الحياة لا يرون سنة الله وحكمته في الخلق كما لا ينفذ تفكيرهم إلى مستوى ادراك علاقات الظواهر وعلل الأشياء لاعتمادهم على اجتهادات العقل دون املاء الوحي. فالموقع الجغرافي الذي بعث فيه الأنبياء عليهم السلام -في الشرق القديم- لم يحدث بالصدفة وانما اختير وفق سنة ربانية لحكمة الهية، كما لم يكن الزمان الذي بعثوا فيه صدفة. وما كان قيام الحضارات ثم فناؤها أو سقوطها صدفة خاضع للعشوائية وانما سادت وبادت وفق السنة الربانية التي ارتضاها الله لها، ولكن الذين لم تبرأ نفوسهم عندما يغيب عنهم منطق التعليل والتحليل للموجودات ويعجزون عن الإدراك، يستترون وراء الصدفة. والحق كالنور قد يراه الإنسان ولا يستطيع تحديق النظر فيه. ومن سنة الله أن كل موجود في الحياة يحمل حكمة وجوده وسنة كينونته وحياته[1].

والفكر البشري إن لم يدرك السنن فإن جهل شئ لا يعني نفيه واثبات نقيضه فعدم معرفة السنن لا يعني وجود الصدفة ولا زال العابثون يقولون بخضوع الكون وحركة التاريخ للصدفة كما أسلفنا القول، وحتى الذين يفسرون حركة التاريخ والمجتمع تفسيرا ماديا ينكرون الصدفة في هذا المجال ويرون بالجدلية والسببية الحتمية التي لا يرفضها الفكر الإسلامي كلية ولكن يقبلها بشرط تحررها من الجبرية الضيقة والغائية المسبقة وفي إطار المشيئة الإلهية القائمة على العدالة في السنن، ومن هنا كانت ضرورة سنة التوازن في الحياة وتفكير الناس وأعمالهم وتصرفاتهم وأثبت يقينا أن القدرة البشرية المجردة من الوحي لا يمكن أن تحقق شيئا سليما ذا بال بعوامل ذاتية ومقومات إنسانية. كما أنها لا يمكن أن ترقى رقيا دائما أو ثابتا بمقومات غيبية قائمة على الخوارق لأن ذلك يتنافى مع سنن الحياة العادية الجاري بها أمر الله في البشر[2].

والثابت من الناحية التاريخية أن ظهور أية حضارة لم يكن تلقائيا بل كانت له أسباب وعوامل. هذه الأسباب هى ما نقصده بالسنن. وهو ما اختلفت فيه آراء الفلاسفة والمفكرين كما سنرى. وهناك أمم ومجتمعات لم تعرف التحضر وما زالت تعيش مرحلة ما قبل الحضارة لعدم أخذها بالسنن الربانية في التحضر وعدم توفيرها لعوامل التحضر وهى ما يطلق عليه مصطلح المجتمعات البدائية[3].

ولكي يهدى الله البشر إلى سننه في الحياة أرسل رسلا يتولون هذه المهمة بالتبليغ والإرشاد والتبشير والإنذار، ومن العبث ألا يُحاسب إنسان أودعه الله في هذا الكون

---

(١) انظر العالمية الإسلامية الثانية، صـ ١٨٢-١٨٣، محمد أبو القاسم حاج حمد.

(٢) انظر العالمية الإسلامية الثانية، صـ ١٨٧، محمد أبو القاسم حاج أحمد.

(٣) انظر ميلاد مجتمع -شبكة العلاقات الاجتماعية- صـ ٥٠، مالك بن نبي.

وآتاه العقل وعلمه الحكم وأعطاه القانون الكوني ووسائل إعماله وتنفيذه وهي الحواس التي كثيرا ما يعطلها هذا الإنسان في فترات ضلاله وانحرافه عن الحق. ومن هنا جاءت التكاليف الشرعية للإنسان البالغ العاقل السوي. فهل يعقل أن يكون كل هذا وغيره يجري بالصدفة والفوضى دون حدوث اصطدام بين مفردات الكون أو تعطيل وحدة من هذه الوحدات المنظمة المسيرة كل في وظيفته وفيما خلق له.

والخلاصة في هذه النقطة أن الصدفة ممكنة الوقوع ولكنها تتلاشى أمام الاتقان حتى تصير في حالة العدم بزيادة الاتقان والصنع والله تعالى يقول: **﴿إن كل شيء خلقناه بقدر﴾**[1]. أي خلقناه بقدر محكما مرتبا على حسب ما تقتضيه الحكمة أو مقدر يعني مكتوبا في اللوح معلوما قبل وقوعه في علم الزمان والمكان[2].

وفي قوله تعالى: **﴿وخلق كل شيء فقدره تقديرا﴾**[3]، والخلق هو الافتعال والمعنى أنه سبحانه أحدث كل شيء احداثا مراعيا فيه التقدير والتسوية فقدره وهيأه بما يصلح له. مثاله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوي للتكاليف والمصالح المنوطة به[4].

كما كان الأمر في الأرض وبقية المخلوقات، قال تعالى: **﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾**[5]. "موزون" أي وزن بميزان الحكمة وقدر بمقدار يقتضيه لا يصلح فيه زيادة أو نقصان[6].

وقال تعالى: **﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾**[7]، والمعنى ما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به وما نعطيه إلا بمقدار معلوم نعلم أن له مصلحة ضرب الله مثلا بالخزائن لبيان القدرة المطلقة، وإن هذا لا يتنافى مع كرمه المطلق[8]، وسبحان الله **﴿الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين﴾**[9]، أي ما من شيء إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى الحسن وأحسن

---

(١) سورة القمر (الآية ٤٩).
(٢) تفسير الكشاف، سورة القمر الآية ٤٩.
(٣) سورة الفرقان (الآية ٢).
(٤) تفسير الكشاف، سورة الفرقان الآية ٢.
(٥) سورة الحجر (الآية ١٩).
(٦) تفسير الكشاف، سورة الحجر الآية ١٩.
(٧) سورة الحجر (الآية ٢١).
(٨) تفسير الكشاف، سورة الحجر الآية ٢١.
(٩) سورة السجدة (الآية ٦).

بتحقيق واتقان[1].

فهذه الآيات وغيرها كثير في هذا الموضوع تنفي الصدفة وتثبت الخالقية أو الخالق الأول هو لله وحده، ولكل شئ حي أصل في هذه المخلوقات متفرع عنه أو مشتق منه إلا ما شاء الله كما لهذه المخلوقات سنن تحكمها.

وهذه بديهية انتهى إليها عقل الإنسان في فترات رشده وصحوه بفعل اتباعه الوحي منذ زمن بعيد، ولعل هذا ما يفسر تلك التعقيدات المحيرة في أجسام الكائنات الحية كالحيوانات والنباتات والطيور، وينفي بدعة التوالد الذاتي التي تعتقد أن الكائنات الحية تنشأ من غير أب ولا أم من موالد الأرض وظل هذا الاعتقاد سائدا حتى القرن السابع عشر الميلادي، ثم حصر تفكير نظرية التوالد الذاتي بالنسبة للحيوانات والنباتات الدنيئة فقط ثم لقيت هذه النظرية أو الوهم حتفها على يد عالم لم اكتشاف الجراثيم باستور "١٨٢٢-١٨٩٥م"، حين أجرى تجاربه في التعقيم وأثبت أن الحياة (لا تأتي من العدم وإنما من الحياة) ﴿**وجعلنا من الماء كل شئ حي**﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿**ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون**﴾[3].

وهكذا قبعت هذه النظرية في ركن ذميم بين خرافات الأقدمين[4]. وقال تعالى: ﴿**سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون**﴾[5]، والأزواج هي الأجناس والأصناف (ومما لا يعلمون) من أزواج لم يطلعهم الله عليها، و لم يتوصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم[6].

ومهما اكتشفت العلوم والأبحاث من أسرار هذه الزوجية أو الثنائية في الكون أو في الأنفس والآفاق فستظل جوانب ومجالات كثيرة بحاجة إلى مزيد من الجهود البشرية للكشف عن السر الكامل لهذا التكاثر الزوجي أو الثنائي ودوره في تحريك الأمة واستمرارية الحياة في كل نوع فيها[7].

ويقرر القرآن أن أصل الحياة كلها من ماء ودخان -الغاز- ويقيننا أن الله أبدع المادة الأولى للكون من العدم، كما هو يبدع اليوم أشياء أخرى من العدم كالرياح وما تحتويه من عناصر الموت والحياة "كالكربون" و"الأكسجين" ولقد احتارت الأفكار والنظريات في كيفية بدء الوجود الأول وقامت آراء على الوهم والافتراض كنظرية أرسطو قديما في

---

(١) تفسير الكشاف، سورة السجدة الآية ٦.
(٢) سورة الأنبياء (الآية ٣٠).
(٣) سورة الذاريات (الآية ٤٩).
(٤) انظر قصة السموات والأرض صـ٦٠-٦١، د/ محمد الفندي و د/ محمد يوسف حسن.
(٥) سورة يس (الآية ٣٥).
(٦) تفسير الكشاف، سورة يس الآية ٣٥.
(٧) انظر التفسير الإسلامي للتاريخ صـ٢٣٥، د/ عماد الدين خليل.

الفكر اليوناني، ونظرية "درون" في الفكر الغربي الحديث و لم تكن هذه الافتراضات أو النظريات إجابات عن أسئلة وإنما فوتت الفرصة فقط عن البشرية في أن تفكر في أصل الوجود الطبيعي والبشري عندما اعتقدت فيها الصواب، وفي القرآن الكريم تفسير وتعليل لأصل الوجود يقبله المنطق السليم ويؤمن به العقل القويم قال تعالى: **﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾**[1].

وقوله تعالى: **﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شئ قدير﴾**[2].

وهناك آيات كثيرة تتحدث عن موضوع الخلق وقد مر بنا بعضها، والكون لا يملك قدرة ذاتيه ولا فعلا مرسوما ومخططا لمواجهة الإنسان، ووفق هذه المعطيات نعلم أن الكون والطبيعة مسخران للإنسان، وا لله هو الذي حدد أبعادها وسنن نظمها وقوانينها بما يتلائم والمهمة الأساسية للإنسان في الاستخلاف والإعمار وأقدره على التعامل معها بما فيها تعاملا إيجابيا ليحقق مهمته[3].

---

(١) سورة هود (الآية ٦).

(٢) سورة فصلت (الآية ٣٨).

(٣) انظر التفسير الإسلامي للتاريخ صـ ١٩٩، د/ عماد الدين خليل.

الصراع فكرة معاصرة ظهرت في الوجود نتيجة استفحال الظلم وفقدان طريقة مقاومته والفكر الإسلامي لا ينكر ظاهرة الصراع حين الانحراف عن سنن الله وإنما الذي ينكر ضرورته في الحياة لبناء المجتمعات وقيام الحضارات أو أساسيته في حركة التاريخ لأن هذا دور الإيمان الذي يحيل الحياة إلى وحدة متكاملة بالتواد والتحاب والتعاون، وفقدان الإيمان والانحراف عن السنن كما ذكرنا يتولد الظلم، ويظهر الصراع، قال تعالى: **﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾**[1].

في (شقاق) أي في مناوأه ومعاندة لا غير، وليسوا من طلب الحق في شيئ[2] والذين لا يعرفون سنن الله في الحياة يعمدون إلى تفسير الأحداث التاريخية والصور الاجتماعية والحضارية بأهوائهم وعواطفهم وقدراتهم القاصرة، فتختلف الأهواء وتتضارب الآراء الصادرة عنها حتى تصبح عقيدة أو حقيقة لاجدال فيها فلا ينتهوا إلى الحق وسنن التوازن في التفكير فتجمد عقولهم على ما حسبته صحيحا وتغلق منافذ التجربة. وخط الرجوع إلى الحق والصواب ويفقد الاعتدال في التصور والاعتقاد وكشف أسباب الظواهر وعلل الأشياء وبحث قضايا التاريخ والإجتماع، ولذا ليس بغريب عند الذين يجهلون سنن الأنفس والآفاق أن يحركوا العداء والبغضاء بين الناس، ويتبنون الصراع والاقتتال من أجل المادة كمنهج لدراسة حركة التاريخ وتصادم الهوى والتعقل، والرغبة والإرادة، والظن واليقين داخل النفس يؤدي إلى القلق والاضطراب والحيرة والشك. وداخل المجتمع يؤدي هذا التصادم والتضارب إلى النتيجة نفسها على المستوى الجماعي ومع هذا يعتقد دعاة الصراع أن هذه النوازع الذاتية هى الأصل ويجب تقويتها في النفس والمجتمع ليقوى النشاط والحيوية في الأمة.

والحق أن هذه النظرة عامل تفكك يذهب بقوة الأمة ويزرع بها الروح الفردية والنزعة الأنانية والعرقية والتكتلات المتباغضة المتعادية فتتبدد الأرواح وتتباعد النفوس وقد تسود بين أفراد الأمة المجاملة المكلفة المصطنعة وتتسع الهوة بين الفئات والطبقات.

ولقد ثبت أن أصغر شئ في الوجود ولعله الذرة له مساحة أو حد أدنى داخله تبطل عنده عملية التنافر والتجاذب بين الموجب والسالب، مما يؤدي إلى الاستقرار والتوازن داخل هذه الذرة، كذلك الأمر وبالكيفية نفسها بالنسبة للإنسان والمجتمع حين تتوافق العقيدة والسلوك والإيمان والعمل والقول والفعل والظاهر والباطن عامة فيذهب التنازع

---

(١) سورة البقرة (الآية ١٣٦).

(٢) الكشاف، سورة البقرة الآية ١٣٦.

والتناهر الداخلي ويتحقق التجانس والتوازن وتستقر مفردات الكون في انسجام وتتناسق في وحدة واحدة فتستقيم حياة الناس في خط واحد وعلى وتيرة واحدة[1].

والباحث في فلسفة التاريخ يجد حركته تخبطت في سبل شتى وسلك بها السياسيون والمفكرون والقادة دروبا عديدة ومناهج كثيرة، فسياسيا من دكتاتورية إلى ديموقراطية إلى اجتماعيا من رهبانية خاضعة ذليلة إلى حيوانية إباحية واقتصاديا من فردية طاغية إلى جماعية متحيزة شرسة، وما كان هذا إلا لفقد الاعتدال وهو سنة الاستقامة والتوازن التي لا تسير الحياة سيرا طبيعيا صحيحا إلا بها ووفقها، ولذا يبدو لنا تصور الماديين لقضية ثنائية الحياة تصورا خاطئا وذلك حين يرون ضرورة وجوب التصارع والتصادم بين هذه الثنائيات لتطور المجتمعات وسير التاريخ وكيف تستقيم الحياة ويسعد بها الناس أن كان العداء والتصارع هو سر استمراريتها وديمومتها وخاصة أن يكون بين المتناقضات المكملة بعضها بعضا كالمرأة والرجل، ومن سنة الله ألا تكون هناك حياة إلا بازدواجية بين الكائنات الحية بحيث لا تكون المواليد إلا من أب وأم، أو ذكر وأنثى أو موجب وسالب، وكذلك خصوبة الحياة الحضارية ثقافيا واجتماعيا، لا ينتج إلا عن وحي وعقل واعتقاد وتصور وإيمان وعمل وكذا حياة الإنسان العملية لا تكون إلا من إرادة وقدرة وهذه أقوى نقطة في دراستنا هذه وهي بمثابة بؤرة الروح فيها، وكذلك بقية مواليد الحياة الأخرى المادية والمعنوية لا بد لها من عامل خارج عن ذاتها وبدونه لا تحقق شيئا ذلك هو ما يأتي من عند الله من نعم لا تحصى ولا تعد، وهكذا تتكامل ازدواجيات الحياة وثنائياتها وتقوم على المحبة والإخاء لا على العداء والتناحر، وجميع الثنائيات تكون بمثابة التزاوج الذي يتم بين متناقضين، لا متضادين في مودة ورحمة لتنشأ الحياة السعيدة، قال تعالى: **﴿ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾**[2].

وفي الكشاف عن الحسن في قوله تعالى: **﴿من كل شئ﴾** أي من السماء والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر والموت والحياة وعدد أشياء أخرى وقال لكل شئ منها زوج والله فرد لا مثل له وقال في (لعلكم تذكرون) أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه[3].

وتبقى كلمة (شئ) نكرة تفيد العموم وهكذا جاءت في الآية لحكمة، وبعد هذا أريد أن أوضح التباسا متوقعا بين مفهومين هما (التدافع والتصارع)، فالتدافع شرع لدفع الظلم ورفع الحق ورد العدوان، قال تعالى: **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض**

---

(١) انظر مجلة المسلم المعاصر، العدد الثالث، صـ ٢٨-٢٩.

(٢) سورة الذرايات (الآية ٤٩).

(٣) تفسير الكشاف، الذاريات الآية ٤٩.

لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾[1]، أي لولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض ويكف بهم فسادهم لغلب المفسدون وفسدت الأرض بعبث الكفار ونزل السخط فاستؤصل أهل الأرض[2].

وتبرز هذه الآية حقيقة هامة من حقائق الحياة وهي ما تموج به الدنيا من طاقات متنافسة في تدافع وزحام إلى غايات وأهداف، ومن وراء كل ذلك قدرة الله المدبرة التي تقود القافلة إلى الخير والصلاح والسعادة، ولولا هذا التدافع لتعفنت الحياة وتأسنت وسادها الكسل والخمول ولكن حكمة الله تستجيش ما في الأنفس والآفاق من مكونات دفينة وقوى كامنة على أساس من التنافس لإحقاق الحق وإبطال الباطل -وفي النهاية تظهر الفئة الصالحة لتقاوم الانحراف وتقود البشرية[3]، وفي قوله تعالى: **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾**[4].

هذه الآية تنفي توهماً قد يعتقده البعض وهو أن هذه الأماكن المقدسة عند جميع أهل الأديان -الصوامع-البيع-الصلوات-المساجد- أن تقديسها يشفع لها عند أهل الباطل فلا يصيبها المكروه والواقع أنه لا يحميها إلا الله بدفع الناس بعضهم ببعض، فالباطل لا يرد إلا بالقوة وهذه قاعدة كلية وسنة ثابتة لا تتبدل ما كان الإنسان على انحرافه[5]، وإذن فالتدافع تعبير ومصطلح قرآني أساسه المحبة والمودة والحق.

والصراع تعبير فلسفي جدلي ذو محتوى عدائي انتقامي، فمثل المصطلحين كمثل الحق والباطل في الدنيا، ومن سنة الله في الوجود غلبة الحق الباطل **﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون﴾**[6]، حيث يجري التعبير في صورة حسية وكأن الحق قذيفة في يد أهله ترمى على الباطل فتدمغه أي يزهقه[7].

وفي الحياة أنواع ومستويات من التدافع: تدافع على مستوى الفرد النفسي بين التقوى والفجور وبين النزعات الروحية والشهوات المادية لتزكيتها واستقامتها، تدافع على مستوى الأمة أو المجتمع بين العدل والظلم وبين أهل الحق والبغي والانحلال والفساد.

---

(١) سورة البقرة (الآية ٢٤٩).
(٢) تفسير الكشاف، سورة البقرة الآية ٢٤٩.
(٣) في ظلال القرآن، جـ١، صـ٢٧٠.
(٤) سورة الحج (الآية ٣٨).
(٥) في ظلال القرآن، جـ٤، صـ٢٤٢٥.
(٦) سورة الأنبياء (الآية ١٨).
(٧) في ظلال القرآن، جـ٤، صـ٢٣٧٢.

تدافع على مستوى الدنيا كلها بين الإيمان والإلحاد والإسلام والكفر، والأصل في الحياة الحسنى والعدل والعمل الصالح.. أما الانحراف والفساد والظلم، فهي طوارئ والحياة لا تسير إلا على سنن عادية تبذل فيها الجهود والأموال والنفوس أما الخوارق فهي استثناءات[1]. ومن قوله تعالى: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾[2]، ندرك أن الله يدافع بل يبالغ في الدفاع عن المؤمنين وجعل العلة في ذلك أنه لا يحب أضدادهم وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله والرسول[3].

إذن لا صراع في الحياة إلا بين الحق والباطل وأما القوى الأخرى فبينها تنافس وتعاون وتكامل واستشارة ولا صراع بين الطبقات ولا بين العمال والملاك ولا بين الرجال والنساء ولا بين الفرد والمجتمع ولا بين الإنسان والطبيعة بل تكامل واستثمار لمختلف القوى حتى الاستشارة والتنافس والغيرة وكيف يكون الصراع ولا غنى للمالك عن العامل ولا للفقير عن الغني ولا للغني عن الفقير ولا للرجل عن المرأة ولا للمرأة عن الرجل، وقد اقتضت سنة الله تركيب الحياة على هذا المنهج بل هذه الثنائيات والمترادفات فلا يمكن أن تستمر الحياة بدونها، فالصيف والشتاء والليل والنهار والرجل والمرأة كلها متقابلة متعاونة وليست متقاتلة متصارعة، لأنه لا يستغنى أي منها عن الآخر وليس الشأن كذلك في المتصارعين كالعدل والظلم والحق والباطل[4]، وعناصر الصراع تحمل في طياتها مبدأ الفناء المقابل لمبدأ البقاء، فعنصر الظلم يحتوي بذور الفناء والإذابة للعدل ولا يمكن أن يجتمعا، وكذلك العدل بالنسبة للظلم، وهكذا بين الحق والباطل والصلاح والفساد وبقية العناصر، كذلك بقدر ما تبني الحضارة بقوة تهدم في الوقت نفسه بنفس القوة المصارعة أو المخالفة الأخرى، ولا بد أن ينتهي ولو بعد أمد بعيد أما ما تراه الماركسية من صراع مع الطبيعة فهو تسخير لا صراع لأنها مخلوقة من أجل الإنسان وأن جمالها وأهميتها وعطاءها لن يتحلى إلا إذا سخرت للإنسان وأعمل فيها عقله ويده، ولقد رفض القرآن الكريم التفسير (العبراني)[5] للعلاقة بين الإنسان والطبيعة وهي علاقة الرغبة والرهبة وكيف هذا وهي خلقت من أجله وكل ما يخيل للإنسان أنه صراع مع الطبيعة ليس إلا من باب التهذيب لكي تضع إمكانتها أو طاقتها تحت تصرفه بإرادته وعمله وتدبيره[6].

---

(١) منهج المعرفة من القرآن صـ١١١.

(٢) سورة الحج (الآية ٣٦).

(٣) تفسير الكشاف، سورة الحج الآية ٣٦.

(٤) فقه التاريخ، صـ٢٣،٥٣.

(٥) يعني الخوف من الطبيعة ومظاهرها.

(٦) انظر تفسير التاريخ –علم إسلامي– نحو نظرية إسلامية في تفسير التاريخ، صـ٢٢١.

والله تعالى يقول ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾[1]، وهو أن كل قوة من قوى هذه الأرض وكل ناموس من نواميس الطبيعة فيها خلق خاضع للإنسان وخلق الإنسان مستعدا لتسخيره لمنفعته، إلا قوة الإغراء بفعل الشر يبقى الإنسان معها في تدافع شبة الصراع بين الحق والباطل وهو ما يعيق الإنسان على السمو والكمال الروحي والمعنوي، فالظاهر أن الإنسان لا يغلب هذه القوة غلبة كلية ولايخضعها لإرادته خضوعا تاما وإلا كانت أعمال الإنسان وتصرفاته وحياته كلها هباء وعبثا[2].

السنن والحتمية:

للسنن علاقة قوية بمبدأ الحتمية الذي اعتنقه كثير من المذاهب الفكرية، واعتقدت بضرورته لفهم الحركة الاجتماعية والتاريخية عامة وفي هذا تجني على عقيدة الغيب التي يقرب لنا القرآن الكريم أسرارها وفق السنن الجارية عليها حركة المجتمع والتاريخ حتى كأن الأمة تستطيع أن تعرف سلفا نتائج ما ستؤدي إليه المقدمات وما ستؤول إليه العوامل والأسباب والدوافع والشروط، وذلك من خلال استقراء أحداث التاريخ والاتعاظ بعبره وتجاربه وفق سننه وقوانينه.

ولو صح أن الإنسان مسوق بقوانين الحتمية خاضع لها كلية كالحيوانات والنباتات وأعمار الكائنات الحية، لكان التاريخ علما مطردا معلوم النتائج معروف النهاية، ولا غدا التفكير والتخطيط والحذر والعمل، عبثا، وفي هذه دعوة إلى الاستسلام والرهبانية والكسل والسلبية، ولو صح أيضا أن الإنسان حر في كل أعماله وتصرفاته ورغباته وغرائزه ومشيئته وإرادته يصنع ما يشاء لتحول إلى إله خالق مدبر وقادر مطلق الإرادة والحرية ولا نعدمت السنن وكان الوجود عبثاً[3].

وحلا لمعادلة "السنن والحتمية" أو "الحرية والجبرية" وهي المسألة التي استعصى فهمها وحلها على المفكرين في الشرق والغرب منذ سالف الزمان، احتذينا طريقة القرآن في فهم واتباع منهج الاستقامة والتزام سنة التوازن في معرفة حقائق الأشياء والظواهر وتفسير أحداث التاريخ، وقضايا المجتمع والحضارة التي تشغل جانبا كبيرا في التوجيه القرآني للإنسان وإرشاده إلى تحقيق رغباته الفطرية دون الإضرار بنفسه وإلى الكشف عن حالاته الروحية ومعرفة أسراره النفسية دون زيغ وانحراف، ومن التوجيه القرآني في هذا المجال ما هو مبين في سنن وقوانين تهيمن على حركة التاريخ والكون وتحكم نهضة الأمم والشعوب كما تحكم كبوتها وانحدارها، ومنه ما هو سر وعبر تستخلص من تاريخ الحركات والدعوات ومواقف الأمم، ومن هنا كان على الباحث في الظواهر

---

(١) سورة البقرة (الآية ٢٨).

(٢) انظر تفسير المنار، سورة البقرة ٢٨، السيد محمد رشيد رضا.

(٣) انظر المسلم المعاصر، العدد الثالث، ص٢٠، عام ١٩٧٥.

الاجتماعية والحضارية في القرآن أن تقوم دراسته على فقه السنن القرآنية في الحياة التي لا تتبدل بتبدل الإنسان والزمان ولا تتحول بتحول الأمم والأجيال، فينسجم الإنسان في فهمه للحياة مع السنن المودعة فيها، ومحاولة اقتحام هذا المبدأ لدى بعض المذاهب الفكرية كمسلمة فلسفية اجتماعية وقضية تاريخية وقانون مجمع عليه يؤدي إلى جمود الحياة والطبيعة الإنسانية(١).

والكون كله من الذرة إلى المجرة "الكواكب" يتحرك فيتخذ أشكالا تاريخية وحضارية شتى دائمة التغير والتطور وفق إرادة الله ومشيئته المطلقة التي تسير هي الأخرى وفق سنة سنها سبحانه في الحياة، فالجو يتغير من فصل إلى فصل والمناخ يتبدل من وقت إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى، والنجوم والشمس والإنسان وخلايا جسمه تتكون وتتهدم وكذلك يقوى ثم يضعف ويتحول من شاب إلى كهل إلى شيخ إلى هرم، وكذلك المجتمعات والحضارات فهي إما إلى تقدم وازدهار أو إلى نكسة وتدهور ونكوص وسقوط ولكن هذه الظاهرة الحركية التي تعم الوجود كله ظاهرة وباطنة لا تعمل بالحتمية ولا بالصدفة والعشوائية، فتجمد الحياة في قوالب خاصة معروفة ومحفوظة لا جديد ولا بديل يطل على الإنسان فيها، أو تحولها إلى فوضى تؤدي إلى اصطدام مفرادته ثم تهشمه وفنائه وإنما تحكمه سنن يتحرك بمقتضاها ومشيئة مطلقة يتحرك داخل دائرتها. قال تعالى: ﴿**لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون**﴾(٢). ونحن نشاهد سير الكواكب دون حدوث اصطدام أو خلل أو تناثر أو تعطيل أو خروج عن مجراها مما يدل قطعا أن وراءها مدبر ومجرى لها، والإنسان نفسه محكوم بهذه السنة في حياته الخاصة محكوم بسنة التنفس للبقاء وبسنة الأكل والشرب ليعيش وسنة الزواج ليحافظ على نسله وبقائه، كما لا يستطيع أن يوقف حركة دمه ودقات قلبه إلا هلك.

هذه السنن يسلم لها الكون والوجود كله طوعا أو كرها من أكبر شئ في الحياة إلى أصغره ﴿**وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون**﴾(٣)، إلا أن حكمة الله اقتضت أن يترك للإنسان جانبا أو دائرة يختار فيها ويقرر ما يشاء وهي دائرة مشيئته الخاصة ليبتلي في عمله ويسأل عن تصرفاته وأفعاله فيترتب على هذا المسؤولية والحساب والعقاب والجزاء في الدنيا والآخرة، وهذه حالة استثنائية أوتيها الإنسان لما أكرمه الله به من صفات وخص من مميزات يتأثر ويؤثر، فيحس بالحرية والاختيار، وكانت مسؤولية الإنسان وقدر مشيئته وحسب قدرته ﴿**لا يكلف الله**

---

(١) انظر الفصل الثاني من هذه الدراسة.

(٢) سورة يس (الآيتان ٣٩-٤٠).

(٣) سورة آل عمران (الآية ٨٢).

نفسا إلا وسعها﴾[1].

فإذا أسلم وعمل كان في اطمئنان وسعادة وإذا لم يسلم نفسه لمشيئة ا لله و لم يعمل بمقتضى سنته تعالى كان مصيره الشقاء والبؤس والانحدار، فالقيم الإيمانية والطاعة والاستسلام مرتبطة بالسنن الطبيعية في الحياة لأنها كلها سنة ا لله في الأرض، فالذنوب والمعاصي بذور هلاك ودمار للنفس والمجتمع تهلك النفوس والأرواح، كما تسبب الوباء والأمراض التي تهلك الأجسام والأبدان، إما بالانحلال البطيء الذي ينخر كيان المجتمع أو بقارعة من ا لله تحل بالأمة **﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾**[2].

وإذا كان الإنسان قد استثنى في كثير من الحالات في خضوعه لقانون أو مبدأ الحتمية فإنه لا بد وأن تجري عليه السنة العامة سنة الهلاك والفناء الكلي قال تعالى: **﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾**[3].

وإذا كان الإنسان يسعى منذ غابر الأزمان وساحق الدهور إلى توسيع دائرة مشيئته في الحرية والاختيار فإنه لن يستطيع الفرار من مشيئة ا لله المطلقة **﴿وا لله على كل شئ قدير﴾**[4].

سواء في انكاره لوجود السنن الربانية في الحياة أو بافتعاله للصراع مع الطبيعة للتحرر من قيودها فالأمر سيان و **لله الأمر من قبل ومن بعد.**

ولقد ظلت إرادة الإنسان ودائرة مشيئته مصدرا لشقائه أو سعادته على مر العصور وكر الدهور، وعلى قدر ما أوتي الإنسان من طاقة وحرية اختيار سن ا لله له سنن التعمير والبناء في الحياة وأعطى التكاليف وحمل الأمانة. ولقد سن الماديون في الفلسفات المعاصرة بالأسباب الظاهرة وسموها بالقوانين الطبيعية ورفضوا تسميتها بالسنن الربانية أو النواميس الكونية لأن الفكر المادي يرفض ربط أي فضل با لله ويرى محايدته سبحانه في شئون الحياة كما ذكرنا، وما دامت القوانين حتمية في حسهم فلا مجال للقدر في تصورهم وماذا يصنع القدر أن كان لا يملك أن يغير ما هو حتمي الوقوع في زعمهم، وإثبات السنن في الكون ذاته قدر مقدار من عند ا لله، وبالغوا في تحكيم الحتمية حتى رفضوا إمكان تغيير هذه السنن بإرادة ا لله حين يشاء فنفوا المعجزات والخوارق[5].

وا لله هو الذي خلق الكون وأودعه السنن التي تسير عليها وبها وفق مشيئته ولكن مشيئته سبحانه لم تعد حبيسة هذه السنن والقوانين لا تملك أن تجري إلا بها، كما قد

---

(١) سورة البقرة (الآية ٢٨٥).

(٢) المسلم المعاصر صـ٢٥ وما بعدها العدد الثالث ١٩٧٥م.

(٣) سورة الرحمن (الآيتين ٢٤-٢٥).

(٤) مفاهيم ينبغي أن تصحح صـ٢٧٣، محمد قطب.

(٥) مفاهيم ينبغي أن تصحح صـ٢٧٣، محمد قطب.

يتوهم البعض، وإذا كانت حكمة الله اقتضت ثبات السنن وعدم تبدلها فإنه لم يكن هذا تقييد لمشيئة الله وحتمية هذه السنن، وحينما ما اقتضت سنة الله جريان أمر من الأمور خارقا لهذه السنن العادية جرت سنته ومشيئته سبحانه، وكل ما يقع في ملكه صار في عمله قبل الوقوع، فالسنن لا تجري جريانا آليا حتميا مسلوب الإرادة والتعقل بل كل بقضاء الله وقدره، يستوي في ذلك السنن الجارية والسنن الخارقة، وهذا ما يخالف مبدأ الحتمية ويفند زعم ما ذهب إليه المؤمنون بها(١).

وفي عقيدة أهل الإيمان بالخوارق أن الأسباب ليست عاملة بذاتها بل لقد ربط الله الأسباب بالمسببات بسنن أيضا، وجعل الثانية تنشأ عن الأولى ولو شاء سبحانه ما نتج شئ عن سبب ولا أثر مؤثر، وهو على كل شئ قدير والإنسان مطالب شرعا أن يؤمن ويعتقد بوجود الخواص والطبائع في الأشياء وهي مستمرة بإرادة الله ومطالب أيضا بأن يسير في أعماله وأقواله وفق ما جرت به السنن العادية، ولو بطل الاعتقاد بأثر الأسباب في المسببات وانتفاء الخواص في الأشياء لقعد الإنسان عن المسعى والعمل والفكر والتدبر ولا يوقف الله السنن الجارية العادية إلا بسنة خارقة كالمعجزة والكرامة، لحكمة يعلمها الله وقد يعلمها الإنسان أو لا يعلمها(٢).

وان كان هناك إيمان في الاتجاه الإسلامي الحديث للتفسير التاريخي يرى بوجود الحتمية في حركة المجتمع والتاريخ تقوم في السنن ولكن هذه الحتمية لا تشل حركة الإنسان الفرد ولا تكبل حركة الأمة أن قررت وأرادت السير في طريق التحضر أو غيره، كما فهم فريق من المسلمين في فترة من فترات الانحطاط في التاريخ، وفسروا الأمراض الاجتماعية والمصائب التاريخية التي حلت بساحة العالم الإسلامي بأنها قضاء وقدر، وفسروا عقيدة القضاء والقدر تفسيرا خاطئا حتى عد فهمها بعض المؤرخين من عوامل تخلف المسلمين وانحطاطهم، كما أن هذه الحتمية ليست من باب الحتمية الماركسية التي تجعل التاريخ كتلة غير واعية تتحرك قدما بطريقة آلية وليس لإرادة الفرد أو الأمة دور فيها وإنما الدور كله لوسائل الإنتاج المادية وهي القوة المحركة(٣).

ومما يبطل الحتمية ويجعلها شيئا استثنائيا في الحياة أو سنة جارية يجهلها الناس أن التاريخ مملوء بالحالات الخاصة والعوارض الخارقة بجانب السنن الثابتة التي تحرك التاريخ وتسير الحضارات(٤).

والفرق أن السنن ليست حتمية الوقوع لأن الله بإمكانه تغيير هذه السنن وتصريفها

---

(١) انظر في ظلال القرآن جـ٩، صـ ١٣٨٣، ط٧، سيد قطب.

(٢) الجوانب الإلهية -أو الإسلام والعلم والفلسفة، صـ٧٤ نديم الجسر.

(٣) فقه التاريخ صـ٢٢، د/ عبد الحليم عويس.

(٤) انظر السنن النفسية لتطور الأمم، صـ٢٥، غستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر.

كيف يشاء وفق حكمته وذلك بالسنن الخارقة وهى طبعا المعجزات وسائر الخوارق التي لم تقم عليها الحياة أساسا وإنما هى حالات استثنائية ولا مجال للخوارق في اعتقاد الحتميين ومفهوم القوانين الطبيعية بل يعدونها خرافة[1].

وفي هذا إغفال وجحود لفترات الرشد والهدى في حياة البشرية التي قادها الأنبياء والرسل والتي كانت قائمة على جانب كبير من الخوارق وفي قصص الأنبياء وكمعجزات عيسى وموسى وداود وسليمان ومحمد صلى الله عليه وسلم، والحياة تسير وفق السنن الربانية لا القوانين الطبيعية التي هى الأخرى سنة من سنن الله في الوجود والسنن الربانية لا تحابي أحدا من الخلق مهما زعم لنفسه من مسوغات، كما قال تعالى عن اليهود والنصارى: **﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلما يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق﴾**[2].

وجرت سنة الله على الأمة الإسلامية لما جنحت إلى أسباب السقوط وأخلدت إلى الأرض رغم مكانتها عند الله وأنها خير أمة أخرجت للناس.

سنة التوازن:

لقد فشلت مناهج التربية والفلسفة الغربية في مواجهة تناقضات العصر و لم تجد الإجابة المقنعة على تساؤلات الإنسان الذي أصبح يعاني انفصاما داخليا ونكدا في العيش، وعلى الرغم من التقدم المادي الذي حققته عقول أبناء المدينة المعاصرة، ورغم وفرة أسباب الراحة والرفاهية الجسدية والإنتاج الصناعي، فقد سلب الإنسان القدر نفسه في الجانب المعنوي والروحي، مما أحدث شروخا في العلاقات الاجتماعية والروابط الإنسانية وأبرز تعددا وتشرذما في مواقف قضايا الإنسانية، وساد الصراع بين مكونات الحياة المادية والمعنوية وبين القيم والأفكار، وبين الفطرة الإنسانية والتطورات العصرية، فغدت مقومات الحياة تتعادى وتتآكل بدلا من التعاون والتكامل. هذا ما يستخلص من الواقع السائد في حياة البشرية المعاصرة وصار الاستخفاف بمقومات الإنسان النفسية والعقيدية والاهتمام بالجوانب الجسدية والمادية لديه، من أكل وشرب وملبس من أبرز مميزات الحضارة القائمة التي تعيش فترة نموذجية في السقوط الذي داهم أو أتى على كثير من حضارات الأمم الخالية ولا مناص للإنسان إن أراد الحياة الكريمة الطيبة من منهج يقوم على ربط كل شئ با لله وعلى تآخي مفردات الكون وتكامل دورها في بناء الحياة وصنع التاريخ حيث لا تعارض بين ما يمثل طبيعة الإنسان الروحية وخصائص فطرته الإنسانية وبين الجانب المادي الذي يحقق له الرفاهية[3].

---

(١) انظر مفاهيم ينبغي أن تصحح ص-٢٧٣، محمد قطب.

(٢) سورة المائدة (الآية ٢٠).

(٣) انظر الإسلام ومستقبل الحضارة ص ٢٨. د/ صبحي صالح.

وإن فداحة الانفصام بين الوجود والذات الإنسانية، وشدة الانقسام بين الأفراد والجماعات وجسامة الصدام بين دوافع البناء ونوازع الهدم وعوامل التقدم وأسباب التدهور ظاهرة قديمة عرفتها حضارات الأمم الغابرة وذاقت ويلاتها الشعوب في فترات غياب دعوة الأنبياء والرسل، ومن سنة الله أن يسود القلق والاضطراب في المجتمعات عند ابتعادها عن أمر الله وخروجها عن سنن سير الحياة، ومن سنته سبحانه أيضاً أن يرسل الرسل مبشرين ومنذرين في وقت تغدو فيه الأمم مرتعا للشرك والظلم، ومن ذلك بعث إبراهيم عليه السلام الذي كان أول داعية إلى التوحيد ونبذ الشرك بعد حادثة الطوفان، فزرع الاطمئنان في القلوب وغرس الصبر والعزم والإرادة في النفوس وعلم الإنسان كيف يحيي الحياة الصحيحة ولذلك كان معنى إبراهيم المهتدي المطمئن[1].

بهذا المعنى جاءت الإشارة في القرآن على لسان إبراهيم عليه السلام فقال تعالى: ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾[2].

ولقد ظل الإنسان في كثير من أحقاب التاريخ يبحث عن الحقيقة الكبرى في حياة البشر وهي السعادة، والسعادة لفظ مبهم المدلول ولكن في أصله يتعلق بإشباع الغرائز والرغائب الفطرية، والمطالب والحاجات المادية والمعنوية إشباعا مطردا منظما يحقق التوازن الذي يوجد بتوحد الفرد داخليا توحدا متكاملا نفسيا وعقليا، فلا تتشعب شخصيته ولا تتعارض تصرفاته وسلوكه مع اعتقاده ورغبته. وقد يضمحل الاهتمام بالجانب المادي لدى الإنسان فيحقق السعادة على حساب هذا الجانب بإشباع الجانب الروحي ولكن تظل سعادة منقوصة قد تنتهي بصاحبها إلى الرهبانية والسلبية الإنسانية[3].

وكذلك شعور الإنسان بذاتيته وطلبه السعادة بالقدرة المادية مع العمل والتصرف ورؤيته لإنتاجه الذي ينتجه بفكره وعضلاته قد ينتهي به إلى التأله والتجبر والطغيان دون تحقيق سعادة شاملة[4].

ومن هنا فلا ملجأ من اتباع منهج الاستقامة وسنة التوازن الذي أحسب أن الفكر الإسلامي قد انفرد به وحده دون سائر المذاهب الفكرية الأخرى التي لا مجال للمقارنة بينها وبين الاسلام لسبب بسيط وهو أن الفكر الإسلامي مصدره الأول الوحي، والمذاهب الفكرية الاخرى مصدرها الإنسان بأهوائه وعواطفه وكرهه وحبه.. ولذا

---

(١) الإسلام ومستقبل الحضارة، ص ١٤١ د/ صبحي صالح.

(٢) سورة الصافات، الآية ٩٩.

(٣) مجلة المسلم المعاصر، ص٣٩، العدد ١٣.

(٤) مفاهيم ينبغي أن تصحح، ص ٢٧٠ محمد قطب.

جاءت سنة التوازن في الفكر الإسلامي تجمع بين ما تراه مناهج الفكر البعيده عن الوحي تناقضا وتعارضا والحقيقة أنه لا هذا ولا ذاك وإنما من مصلحة البشر النظر إلى الحياة وفق السنن الكونية القدرية والسنن التشريعية الهادية المرشدة وبين الكتاب المسطور المدرك بالقراءة والتدبر وكتاب الكون المدرك بالنظر والتأمل، أو بين التنزيل والخلق والتكوين وكلاهما من مصدر واحد لا يمكن أن يتعارضا أو يختلفا وبين ما تقتضيه سنن الكون اكتشافا وبحثا وما تهدي إليه سنن الشريعة قولا وعملا وعلما ومعرفة، وبين الإلزام الضميري والأخلاقي الذي يشيع من داخل الفرد والرقابة الشرعية العامة التي تضبط سيرة المجتمع بالقانون والجبر[1].

لقد صالت الدراسات الإنسانية وجالت ودخلت شتى ميادين البحث وفتشت حل الدروب وكاد التعب أن ينهك عقول القائمين بأمرها ويصيب الملل واليأس نفوس أهلها دون الوصول إلى سنة بناء حضارة تسعد الإنسان وتلبي رغباته وطلباته تلبية صحيحة لا يترتب عليها ضرر من بعد عاجلا أو آجلا في الدنيا أو في الآخرة، والمتأمل في حقائق القرآن ونظراته النفسية والاجتماعية والتاريخية والتشريعية إلى الحياة الإنسانية يدرك ان ما عرفته وحققته هذه الدراسات رغم جهودها المضنية نزرا من يسير وقليلا من كثير، والله تعالى يقول: ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾[2].

كما أنها لم تستطع الوصول والانتهاء إلى كشف سنن معرفة الحقيقة المطلقة ـ الله ـ والغاية المتبعة من الخلق والإنسان خاصة في الدارين إلا في ظل الوحي، وما زالت ثلاثة أسئلة مطروحة على الفكر البشري منذ الأزل وهي لماذا، وكيف، وأين، ولم يجب عليها إلا القرآن، والدارس لأبحاث العلوم الإنسانية في ميدان الروح والمادة والعارف بنتائجها يدرك إلى أي مدى جهل الإنسان حقائق الأشياء المادية والروحية وطبيعة النفس البشرية التي ما زالت قارة مجهولة بالنسبة لما ورد عنها في القرآن الكريم مجملا ومفصلا ومبهما ومصرحا.. وما زال أهل التخصص يرتادون القرآن فتبهرهم أسراره، ويعجزهم إتقانه وصدق من قال لا ينفرد بتفسير القرآن إلا النبي والزمان.

ولذا ما فتئ الذين تذوقوا حلاوة البحث وعرفوا بصيصا من واقع مجاهيل الحياة يجتهدون في البحث فيما أودع الله الحياة من أسرار جعلها دليلا على قدرته وطريقا إلى معرفته ودعا الناس إلى التأمل، والتبصر والنظر في آياته، فقال تعالى: ﴿**وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾[3].

(وفي الأرض آيات) أي كلها دلائل على عظمة الصانع. وهي موافقة لحوائج

---

(١) على مشارف القرن الخامس عشر ـ دراسة في السنن والمسلم المعاصر ص١٢. علي إبراهيم بن الوزير.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٨٥.

(٣) سورة الذاريات، الآية٢٠، ٢١.

سكانها من البشر وغيرهم. وخص "المتقين" بالذكر في الآية لأنهم الموحدون الذين سلكوا الطريق المستقيم الموصل إلى المعرفة الحقة معرفة الله. فهم ناظرون بعيون باصرة وأفهام نافذة إلى آيات الله في الأرض والأنفس أكثر من غيرهم، وهذا هو الأصل، "وفي أنفسكم" في حال نشأتها وابتدائها وتنقلها من طور إلى طور وفي بواطنها وظواهرها[1].

أما الكفار فهم لا ينظرون إلا إلى ظواهر الحياة كما قال الله عنهم: **﴿يعلمون ظاهرا من الحياة وهم عن الآخرة هم غافلون﴾**[2].

تفيد هذه الآية أن للحياة ظاهرا وباطنا، فظاهرها هو ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملذاتها، وباطنها وحقيقتها أنها طريق إلى الآخرة[3].

والأمم التي تجعل أهدافها زيادة الإنتاج المادي وتضع لتحقيق ذلك المناهج والبرامج والخطط الرباعية والخماسية، وتهدف إلى تحقيق الراحة الجسدية والرفاهية المادية ولا تسعى بالقدر نفسه إلى توفير الراحة النفسية والأمن الاجتماعي لأفرادها. هذه أمم تكاد تخرج عن الخط الصحيح في المسيرة الحضارية، وتخرج عن سنة التوازن، ومع ما للأشياء المادية من قيمة في الحياة كما ذكرنا، فإن الحياة لا تستقيم بها وحدها كما أثبتت التجارب وصار معروفا في هذا العصر أن ما يشكوه الإنسان من خصاصه وقلق ويأس ليس مصدره عدم كفاية الدخل الاقتصادي، بقدر ما هو تأوه وتعبير عن فقد التوازن النفسي والاجتماعي، وجل الأمم التي انحرفت عن خط الاستقامة عبر التاريخ خططت لزيادة الإنتاج وتدعيم الاقتصاد ولم يخطر لها على بال إقامة الخطط الاخلاقية والمناهج التربوية على أساس عقيدي يريح الإنسان من الهموم والأحزان التي تساوره ليلا ونهارا وتنكد عليه حياته، ولمعرفة قيمة الجانب الروحي والأخلاقي في الإنسان فإننا نجده عندما تتأزم المواقف وتصعب الحلول تتحرك طبيعته الفطرية ليضحي بالحياة مع ما فيها من رفاهية من أجل تحقيق أو نيل الكرامة والشرف الإنساني الشخصي أو الجماعي ولنا مثل في الذين دخلوا الحروب والمعارك وضحوا بالنفوس والأجسام والمال والأولاد من أجل نشر الحق والعدل أو رفع الذل والهوان وصد الباطل والظلم[4].

ولقد أثبت الإنسان في تاريخ الحروب أنه قادر على التضحية بحياته في سبيل كرامته وشخصيته التي فضله الله بها على سائر المخلوقات وأثبتت التجارب التاريخية السياسية أن الإنسان قادر أيضاً على تحمل العذاب الجسدي والتنكيل والتشريد وغير قادر على تحمل الذل والمهانة، وإن صبر عليها لفترة قصيرة، في حالة غياب وعيه الكلي، فلن يصبر

---

(١) انظر تفسير الكشاف، الذاريات، ٢٠،٢١.

(٢) سورة الروم، الآية ٦.

(٣) انظر تفسير الكشاف، الروم، الآية ٦.

(٤) العمل قدرة وإرادة، ص ١١٨،١١٩. جودت سعيد.

عليها طوال حياته وقد تظل جرحا يؤرقه وهما يفزعه، وهذه حقيقة كائنة وكامنة في مستقر الفطرة البشرية، ولن تنزع من الإنسان إلا بنزوع روحه أو خروجه على طبيعته الإنسانية الآدمية، وإنما المسألة تحتاج إلى تحريك وبث في النفس بطرق صحيحة ولغايات مقبولة لتتحول إلى واقع عملي فتصير قوة محركة في المجتمع وعلى ضوء هذا وعلى قدر إحساسنا بضرورة التوازن في الحياة نسعى إلى تفسير ظاهرة من أكبر ظواهر التاريخ وقضاياه وهي مسألة سقوط الدول والحضارات التي غدت ملء أسماع وأبصار التاريخ عبر أحقابه المختلفة وفتراته المتتالية، فكم من حضارات عظمى وأمبراطوريات شامخات كبرى محيت من خريطة الوجود وتوارت وراء الشمس لأنها فقدت التوازن الذي نستطيع أن نفسره بأنه الاستقامة والعدل، وما أهلك الحضارة الرومانية إلا فقد التوازن حيث قامت على مبادئ مادية وثنية تقدس القوة العضلية والجسمية على حساب حاجات البشرية الأخرى. وهذا ما هو موجود اليوم في الحضارة المعاصرة وهو ما يسجله أبناؤها كشيخلر في كتابه " تدهور الغرب" وكولن ولسن في كتاباته "اللامعقول و اللامنتمي و سقوط الحضارة". والذي بدأت بذوره في العصور الوسطى منذ حدوث الانفصام داخل الإنسان نفسه الذي أصبح يتبع ما لم يقم على دليل ولا إقناع عنده وانقسم الناس إلى رجال دين ورجال علم ورجال سياسة وبين القيم الروحية والوظيفة الاجتماعية لهذه القيم[1].

وكذا الأمر في سقوط الحضارة الإسلامية التي أصابها العطب في الإنسان ذاته بانيها ومقيمها فوهن وأنفصم في شخصيته فيما بين القول والعمل والاعتقاد والأخلاق وبين ما يملك وما هو عليه فركن أحيانا إلى الروحيات السلبية وأحيانا إلى الماديات المطغية وفي كلا الحالتين فقد للتوازن.

مفهوم الحضارة في القرآن:

وبعد معرفة مفهوم الحضارة في الفكر الإسلامي فلا شك أنه من الأحسن أن نعرف المعنى اللغوي للحضارة ثم ننفذ من خلاله إلى ماهية الحضارة ثم سنن قيامها وسقوطها في القرآن، وبما أن مصطلح الحضارة قد تداولته الكتب والمصادر كثيرا حتى أصبح البحث فيه لا يغني كثيرا كما أشرنا.

وإننا إذا نظرنا إلى الحضارة من خلال اللغة العربية فسنجدها تعني الإقامة والاستمرار في المدن والقرى فهي بخلاف البدو، ففي لسان العرب الحضر بفتح الضاد وسكونه ـ الحضر ـ والحاضرة بكسره هي خلاف البادية وهي المدن والقرى.

---

(١) أسس مفهوم الحضارة في الإسلام ص ١٤٠، سليمان الخطيب.

وسميت بذلك لأنه أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي كان لهم بها قرار[١]، وفي اللغة تعني الإقامة والاستقرار في الحضر[٢].

وبهذا المعنى ورد اللفظ في القرآن فأصل الحضارة إذن هو الاستقرار والاستقرار لا ينشأ إلا على زراعة الأرض وإقامة المباني وبهذا السبيل يفسح للإنسان بمجال البناء والتطور، ثم إذا استقر به المقام أكثر بحث الفنون والعلوم وتفنن في إكتساب العيش وبناء المدن وإنشاء البساتين والحدائق وتدوين القوانين والدساتير للانتظام الدافع والخارجي في السياسة والاجتماع والاقتصاد ووضع البرامج والمخططات ولعل هذا التصور عن الحضارة يعفينا من ضرورة بحث معانيها الاصطلاحية وعلاقتها ببعض المصطلحات الأخرى المتشابكة معها كالمدنية والثقافة، والعمران، ولكني أرى من الضروري بحث أصل معنى الحضاري اللغوي المتداول بين الناس اليوم، في القرآن لإثبات انتمائه إلى لغة القرآن أو نفيه ذلك ليتهيأ لنا الاعتماد على الأصل اللغوي لإنشاء مفهوما وتصورا للحضارة من خلال القرآن في هذه الدراسة، وإن كان من منهج القرآن وأسلوبه أنه لا يعطي تعاريف ولا مصطلحات للظواهر والقضايا المتداولة بين الأقوام، وإنما يعتمد القرآن بيان الجانب العملي وأثره في حياة الناس، وهذا هو المنهج الأجدى والأهدى علميا وعمليا من المنهج الفلسفي النظري الذي يزين الفكرة بالتعريف وإقامة الجدل حولها بالتساؤلات ثم لا تلبث هذه الفكرة أن تتحطم في أرض الواقع ولا يظهر لها أثر عملي[٣].

كما أن القرآن الكريم أتى بالمبادئ العامة والكليات وترك الجزئيات والتفصيلات وطرق التطبيق والتنفيذ للبشر، ولذا نحاول أن نكون ملتزمين بالمنهج القرآني وألا نتعسف في بحث القضايا الفكرية والعلمية في القرآن الكريم.

وعلى هذا فالحضارة ليست منجزات مادية أو كثرة علمية تراثية قديمة أو اجتماعية سياسية قائمة، كما أنها ليست كتل بشرية مكدسة في المجتمعات والمدن دون ترابط داخلي أو فعالية اجتماعية تميز الإنسان عن سائر التجمعات الحيوانية وإنما الحضارة هي روح سامية من الفضائل والخصال الأخلاقية الطيبة تجري في نفوس أبناء الأمة وتزين سلوكهم وسائر نشاطهم كما تتجسد في النظم السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية حتى تشمل كافة جوانب الحياة[٤].

والإنسان بطبعة ذو نزعة فطرية نحو التحضر تميزه عن الحيوان، وقد نزل الكهوف

---

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة (حضر).

(٢) المحيط في اللغة كافي الكفاة مادة (حضر).

(٣) انظر الشخصية الإنسانية في ضوء القرآن ص١٢ أحمد عبدالحميد غراب. ط١.

(٤) انظر في معركة الحضارة ص ٤٠.

منذ القدم واكتشف النار، واقتنص الحيوان واصطنع الملابس والأدوات، وكل ما يخدمه ويميزه عن غيره كما انتظم في أسر وما يشبه الدول والحكومات، فعل هذا بدافع الفطرة التي فطر وجبل عليها، وما علمه الله وأوحى إليه به، وبدافع الحاجة والضرورة الإنسانية القائمة على أساس فطرته ووحي الله إليه، فكانت هذه بذور عوامل لحضارات تفتحت وأثمرت رموزا في التمدن والإنتاج المادي والتنظيم المعنوي اللذين قاما على قدر من التعاون والتعاضد، وبفضله وصلت الأمم إلى مستويات من التحضر[1].

ولذا كان الاستقرار النفسي والاجتماعي الحضاري أهم ما في حياة الإنسان وعن الاستقرار تنبثق النظم السياسية والاجتماعية والصناعية والاقتصادية، فعنصر الاستقرار والتعاون والاختراع من ضروريات عملية التحضر.

ولذا كان لابد في الدراسات الإنسانية من التنويه بالإنجازات الأولى التي تحققت في مراحل التاريخ القديمة وإن بدت حقيرة أمام المنجزات الحديثة ومن الذي ينكر فضل مبدع الكتابة على الإنسانية ودورها في نقل تراث الحضارات وأخبار الأمم، ودورها الحالي في النقل والمواصلات بين الدول والحكومات، فضلا عن تثبيتها للأفكار والعلوم في الكتب والسجلات، ومن ينكر إبداعات العصور اللاحقة كاكتشاف الإضاءة الكهربائية، وكقانون الجاذبية والطاقة، ووسائل استقطاب الأجسام وسرعة النقل ووسائل الراحة والترفيه[2].

وبعد هذا نعرف أن فكرة الحضارة أو التحضر الأولي في التاريخ صدرت لدى كثير من الأمم عن الاستجابة لدعوى أنبيائهم، كما هو الأمر بالنسبة للمسلمين في الاستجابة للقرآن بالنظر في الأنفس والآفاق والتأمل في الكون والسير في الأرض، وصدرت حضارتهم وانبثقت عن طلب الفوز في الدارين، والإحساس بمسؤولياتهم في وجوب عمارة الأرض بنشر الحق والعدل وفق سنن الله ومقتضيات الاستخلاف. ومن دعوة القرآن بالتأمل في الكون والسير في الأرض والإحساس بواجب نشر الحق والعدل أقام المسلمين الحضارة الإسلامية التي أساسها القرآن والسنة وما أحدثاه في العقول المسلمة من تفجير للطاقات الكامنة في عملية الإنشاء والإبداع الفكري والفني، وإذا لم يكن للحضارة دلالة محددة في القرآن فذلك ليس من طريقته ومنهجه وحسبنا ما في القرآن من قيم ومبادئ حضارية وصيغ ومفردات لغوية تعبر عن مسألة الحضارة ومن تلك المعاني اللغوية - الاستقرار والحضور- حيث لا تعارض بين كثير من المعاني اللغوية والدلالات الاصطلاحية ومن بين آيات القرآن نبت كثير من العلوم والمعارف والقيم والمبادئ الحضارية والمصطلحات العلمية التي صنعت الحضارة الإسلامية وأثرت

---

(١) انظر نفس المرجع السابق، ص٤٢.

(٢) انظر في معركة الحضارة ص ٤٣،٤٥. قسطنطين زريق.

الحضارات التي تلتها وبين القرآن منهج الحضارة الإنسانية ودل على سنن إقامتها وبين عوامل أو أسباب هلاك الأمم ودمار الحضارات، وألزم الناس باتباعها ليسعدوا في الدنيا والآخرة، ومن ذلك قوله تعالى عن قوم هود: **﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾**[1].أي كلفكم بعمارتها بالحق والعدل والعمل الصالح[2].

ومن الأصول اللغوية لمصطلح الحضارة المتداول كلمة حضر التي ذكرت في القرآن كثيرا كقوله تعالى: **﴿وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا﴾**[3].

وقوله تعالى: **﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين﴾**[4].

والحضارة بمفهوم الاستقرار مشتقة من قر يقر قرار إذا ثبت ثبوتا جامدا، وأصل الفعل من القر وهو البرد الذي يلزم الناس السكون والهدوء، ولعلى هذا المعنى من قبيل المعنى اللغوي لقوله تعالى: **﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾**[5].

ومن معنى قوله تعالى: **﴿الله الذي جعل لكم الأرض قرار﴾**[6]. أي مستقرا[7].

ولعل الاستقرار من الأصول اللغوية لكلمة القرية اسم المكان أو الموضع الذي يتجمع فيه الناس.

القرية اسم المكان أو الموضع الذي يتجمع فيه لتكوين أسرة أو قبيلة أو عشيرة أو دولة، وورد اللفظ في آيات كثيرة من القرآن الكريم[8]. كقوله تعالى: **﴿وَسئَلِ القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنّا لصادقون﴾**[9]. ويطلق لفظ القرية أيضاً على المدينة الكبيرة أو العاصمة والمراد بالقرية في هذه الآية عاصمة مصر[10].

وهي العاصمة التي ازدهر اقتصادها وكثرت غلاتها في عهد يوسف عليه السلام فقصدها التجار من كل حدب وصوب[11].

---

(١) سورة هود، الآية ٦.

(٢) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ص٢٦، د/ محمد سعيد رمضان البوطي.

(٣) سورة النساء الآية ٨.

(٤) سورة البقرة الآية ١٨٠.

(٥) سورة الأحزاب الآية ٣.

(٦) سورة غافر الآية ٦٤.

(٧) انظر تفسير الكشاف، غافر، ٦٤.

(٨) حوالي ثلاث وثلاثين مرة ، انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة قرية.

(٩) سورة يوسف الآية ٨٢.

(١٠) تفسير الكشاف، يوسف ٨٢.

(١١) في ظلال القرآن الكريم ج٤ ص ٢٥-٢٠.

ولقد ارتبطت دعوة الرسل عليهم السلام في القرآن بالقرى التي هي بمعنى المدن، كقوله تعالى: ﴿**وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾[1]. أي مكة والطائف[2].

وكقوله تعالى أيضاً: ﴿**لو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء الأرض**﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى**﴾[4].

وإذا كان القرآن الكريم ظهر في أكثر البيئات العربية آنذاك تحضرا وهي مكة والمدينة وما بينهما فلا شك أنه فرق بين حياتين للعرب، حياة الجاهلية والحياة الإسلامية التي أنشأها، وميز البدو والحضر، وما يلائم كلاً منهما من صفات وخصائص عند مخاطبة كل فئة مركزا على الناحية الإيمانية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**ومن الأعراب من يؤمن با لله واليوم الآخر**﴾[5].

وقال تعالى: ﴿**الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل ا لله على رسوله**﴾[6].

والصفات التي ذكرت في سورة التوبة الآية سبع وتسعين، صفات ثابتة معروفة في أهل البدو ناشئة عن حالات حياتهم البعيدة عن المعرفة والعلم بشؤون الدين والدنيا والإلتزام بالنظام[7].

ولما كانت هذه الصفات في الغلظة والجفاء في أهل البوادي، فلم يبعث ا لله رسولا أو نبيا في البادية، وإنما كانت بعثات الرسل في القرى وهي المدن سنة ثابتة، وقال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى**﴾[8].

كما ورد معنى البادية والبدو بمعناهما الشائعين في التعبير العصري وهم سكان الريف من حول المدينة، قال: ﴿**ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول ا لله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه**﴾[9].

---

(١) الزخرف الآية ٣١.
(٢) تفسير الكشاف، الزخرفة،٣١.
(٣) سورة الاعراف الآية ٩٦.
(٤) سورة يوسف، الآية ١٠٩.
(٥) سورة التوبة، الآية ٩٩.
(٦) سورة التوبة الآية ٩٧.
(٧) في ظلال القرآن ج٣ ص ١٦٩٩، (سيد قطب).
(٨) سورة يوسف، الآية ١٠٩.
(٩) سورة التوبة، الآية ١٢٠.

وفي الآية نهي بليغ وتقبيح لأمر المتخلفين وتوبيخ لهم للتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

ولقد بعث الله صالحا في ثمود ﴿**الذين جابوا الصخرة بالواد**﴾[2]. وهودا إلى عاد ومدينتهم إرم ذات العماد، وشعيباً في مدين بالحجر وفي قصة لوط عليه السلام أوضح القرآن أنه كان يعيش في مدينة وقال تعالى عن قومه: ﴿**وجاء أهل المدينة يستبشرون**﴾[3].

وقال تعالى عنه :﴿**وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون**﴾[4].

وفي قصة إبراهيم عليه السلام أنه كان يعيش ما بين الرافدين في العراق ثم جاء أهله وأرادوا به شرا فنجاه الله إلى الشام بفلسطين[5].

وذكرت قصة الفتية المؤمنين أهل الكهف بقرب مدينة، وبعد أن استيقظوا من سباتهم قال الله عنهم أنهم قالوا ﴿**فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف**﴾[6]. وعاش يوسف عليه السلام، أمينا بين قصور العزيز وعروشه بعد السجن وأرسل إلى أبويه ليأتيا للعيش معه في المدينة قال تعالى: ﴿**ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين أخوتي أن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم**﴾[7].

وورد في القرآن ذكر أخبار أنبياء كثيرون لا على سبيل الحصر والتأريخ ولكن على سبيل الاعتبار بأحوال الأولين والتنبيه على سنن الله في الأمم وذكر الله في القرآن أنه لم يحرم أمة من نبي أو رسول فقال تعالى: ﴿**وإن من أمة إلا خلا فيها نذير**﴾[8]. أي رسولا لكل أهل عصر[9].

ورفع الله المسؤولية عن الأمم حتى يبعث لها رسولا وقال تعالى: ﴿**وما كنا معذبين**

---

(١) تفسير الكشاف، التوبة ١٢١.
(٢) سورة الفجر، الآية ٩.
(٣) الحجر، الآية ٦٧.
(٤) سورة الأعراف، الآية ٨٢.
(٥) تفسير الكشاف، الأعراف الآية ٨٢.
(٦) سورة الكهف، الآية ١٩.
(٧) سورة يوسف، الآية ١٠٠.
(٨)سورة فاطر، آية ٢٤.
(٩) تفسير الكشاف، فاطر، ٢٤.

حتى نبعث رسولا﴾[1].

وفي القرآن تصريح بعدم ذكر كل الأنبياء والرسل قال تعالى: ﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾[2].

وبين الله إن هؤلاء الأنبياء كانوا رجالا كسائر الرجال وإنما خصوا بالوحي وكمال الصفات البشرية واهتموا بشأن الأمم بأمر من الله فكانوا معلمين ومرشدين وبناة حضارة، وقرر العلماء أن الأمور الخارقة - المعجزات - لا تظهر على الأنبياء والرسل إلا بإذن الله وليست ذاتية فيهم وصفة ملازمة لهم إلا في جانبهم النبوي والرسلي وإن الذين غالوا في الأخبار والأنبياء بأحاديث ترقى إلى الحقائق فإن حديثهم هذا كان بلسان التاريخ لا بلسان القرآن[3].

وقد كثر الحديث في القرآن في ذكر مظاهر التقدم السياسي والعمران الاقتصادي والنظام الاجتماعي والعمراني في المجتمعات والمدن التي سكنها الأنبياء والرسل فذكر نظام الملأ وهو الحاشية أو الطبقة المحيطة بالملك أو صاحب السلطان وهي بمثابة هيئة المستشارين في نظم السياسة المعاصرة. ولم يذكر القرآن الملأ بخير إلا قليلا لأنه ما من دعوة من دعوات الحق إلا وكان للملأ موقف منها غير عادل والتأمل في أقوال وآراء ملأ الأقوام المكذبة التي عارضت دعوات الرسل وهذا ملأ قوم نوح عليه السلام ﴿قال الملأ من قومه إن لنراك في ضلال مبين﴾[4].

وفي ملأ عاد قوم هود ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾[5].

وفي ثمود قوم صالح ﴿قال الملأ الذي استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾[6].

وفي ملأ قوم شعيب ﴿قال الملأ الذي استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين﴾[7].

وفي ملأ فرعون ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم

(١) سورة الإسراء، الآية ١٥.
(٢) سورة غافر، الآية ٧٧.
(٣) دائرة المعارف الإسلامية، مادة "إدريس".
(٤) سورة الأعراف، الآية ٥٩.
(٥) سورة الأعراف، الآية ٦٥.
(٦) سورة الأعراف، الآية ٧٤ - ٧٥.
(٧) سورة الأعراف، الآية ٨٧.

قاهرون﴾[1].

وعن المترفين قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون**﴾[2].

ولم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام بدعا من الرسل في بعثته في مكة أكبر مدن الحجاز حتى سماها الله في القرآن بأم القرى فقال تعالى ﴿**وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها**﴾[3].

ولا شك أن لهذه السنة الربانية في إرسال الرسل والأنبياء في القرى وسط التجمع البشري حكمة شرعية وفوائد اجتماعية وحضارية.

ولقد ظلت القرى على مر العصور محطات استقبال الكتب السماوية وأحضان لحياة الأنبياء وتربية الأجيال الربانية، من أهل الإيمان والتقوى وإن اختيار القرى مراكز لنشر دعوات الأنبياء وترشيد الأمم لهي ظاهرة كبيرة في تاريخ الدعوات والمباديء ما أحدر المسلمين أن يدرسوها ويدركوا أبعادها الاجتماعية والسياسية والاستراتيجية للقيام بدورهم القيادي الحضاري في خدمة البشرية، وما ظهرت الحضارات القديمة في الشرق الأدنى - إلا من آثار دعوة الأنبياء"[4].

ولم ترق النظم القديمة في تفكيرها السياسي والاجتماعي أكثر من فكرة القرية أي المدينة وما ارتقى الأغارقة - أهل الحضارات والقانون - قط إلى فوق فكرة المدينة وظلت مدنهم متحاربة على الدوام وفكرة المدينة أضعف من الناحية النظامية من فكرة الوطن وعقيدة الوطنية التي فتنت الأجيال المتأخرة وكانت وما زالت في كثير من الدول والحكومات هي روح الحضارة ورمز التحضر[5].

ويبدو أن القرآن الكريم ما ركز على القرية إلا لكونها الحجارة الأولى والمروع المكاني والاستراتيجي في بناء الحضارات كما أن الحكمة الإلهية كانت تساير الأمم في استعمالاتها اللفظية والاصطلاحية اللغوية المتداولة بين الناس ومن اللامعقول أن تستعمل ألفاظ ومصطلحات في القرآن لا يعرفها أهل عصر نزوله، وفي هذا ما يرد على الذين يرون أن القرآن كتاب تقادم عليه الدهر، ولم يعد يصلح لمواكبة التطورات والمخترعات العصرية الحضارية سياسياً واجتماعياً وتكنولوجياً. بمجرد استعماله ألفاظا خاصة كلفظ الإبل أو الحمير، والبغال التي هي وسائل نقل وتدبر ومنافع ولم ترد فيه ألفاظا معاصرة كالسيارة والصاروخ .. وقد صارت الألفاظ الأولى في حس هؤلاء المعاصرين رموز

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٢٦.

(٢) سورة سبأ، الآية ٣٤.

(٣) سورة الشورى، آية ٥.

(٤) انظر العلوم الطبيعية في القرآن ص ٢٠.

(٥) انظر السنن لنفسية لتطور الأمم، ص ٣٦، غستاف لوبون.

تأخر قديمة "وسبحان الله" ﴿إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا﴾[1] وما هم عليه بالعلم والتيقن لا بالظن والتوهم[2]. ولكن ﴿وأكثر الناس لا يعلمون﴾[3]، ﴿ويحسبون أنهم على شيء﴾[4].

ولعل من باب مخاطبة الناس بما يفقهون في كل عصر جرى الإعجاز القرآني وجاء الحديث في القرآن إخبارا عن القرى وهو أخبار عن أهلها وسنن تقلباتهم الحضارية بين السعادة والشقاء والتقدم والانحطاط، وما صارت إليه تلك القرى من ازدهار وما أمست إليه في كثير من فترات التاريخ مسرحا للدمار والخراب وما يمكن أن تؤول إليه بالامتزاج العقيدي والاخلاقي في شبكة من العلاقات الاجتماعية التي تقوم على المبادىء والقيم السماوية، لأن الحياة الإنسانية لا تقوم على علاقات اصطناعية تحتمها المذاهب الاقتصادية والايديولوجيات الفلسفية بالجبر والقهر، ولعل من مقاصد القرآن الكريم للبناء الحضاري تكوين الأمة التي لابد لها من استقرار وتجمع مكاني يقوم على أسس فطرية وحاجات إنسانية ضرورية في حياة الإنسان.

وأحسب أن هذا هو الأساس في قيام الحضارات وسيادة الأمم هو الذي كان يقصده مالك بن نبي رحمه الله في معادلته الحضارية إنسان + تراب + زمان = حضارة.

ولقد زاول الأنبياء حرفا وألوانا من النشاطات الاقتصادية والصناعية زيادة على مهمتهم الأولى وهي تربية الأمم ورعايتها وتعبيدها لربها، هذه المهمة التي تخرج الإنسان الذي يبني الحياة في مختلف جوانبها الحضارية ولقد كان نوح عليه السلام رائدا في استخدام الخشب والحديد في صناعة السفن التي ينتفع بها في أسفاره وترحاله حتى يوم أن أغرق الله قومه أنجاه في السفينه، وفعل ذلك بأمر ربه حيث قال تعالى: ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا أنهم مغرقون، ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه، قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾[5]. وقال تعالى: ﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها أن ربي لغفور رحيم﴾[6].

والمعنى أصنع السفينة محفوظا بأعيننا لا تتلكأ ولا تزيغ في صنعها عن الصواب ووحينا "أي نوحي إليك ونلهمك كيف تصنع"[7].

وقوله تعالى ﴿وحملنه على ذات ألواح ودسر، تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر،

---

(١) سورة النجم، الآية ٢٨.
(٢) تفسير الكشاف، النجم، ٢٨.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٧٨.
(٤) سورة المجادلة، الآية ١٨.
(٥)سورة هود، الآيات ٣٧ – .
(٦) سورة هود، الآية ٤٠.
(٧) تفسير الكشاف، هود ٤١.

ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾[1] ذات ألواح ودسر "وهي السفينة والدسر جمع دسار وهو المسمار"[2].

وكان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من كبار الرواد في البناء والتشييد حيث بناء أكبر معلم حضاري هندسي في حياة البشرية قديما وحديثا وعهد الله إليهما بنظافته وتطهيره وسن الله شارائعا وقوانينا مازالت حتى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض سننا للمؤمنين. قال تعالى: **﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا أنك أنت السميع العليم﴾**[3].

القواعد جمع قاعدة، وهي الأساس والأصل ما فوقه، ومعنى رفع القواعد رفعها بالبناء وروي أن البيت كان مؤسسا قبل إبراهيم، وروي أن الله أنزل البيت ياقوته من يواقيت الجنة[4].

وقال تعالى: **﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾**[5].

وكان لداود عليه السلام قدرة في تليين الحديد وتحويل المعادن وصناعة أدوات الحروب، قوله تعالى: **﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم ليحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾**[6] واللبوس هو اللباس التي كانت صفائح تستعمل في الحروب وأول من سردها وحلقها داود عليها السلام فجمعت الخفة والتحصين"[7].

وقال تعالى: **﴿ولقد آتينا داوود منا فضلا ياجبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد وأن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير﴾**[8].

وألنا له الحديد "أي جعلناه لينا كالطين والعجين والشمع يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة"[9].

ويخبرنا الله سبحانه عما وصلت إليه حضارة سليمان فيقول الله تعالى حاكيا دهشة بلقيس عند وصولها إلى ملك سليمان ودخولها قصره: **﴿قيل لها أدخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، قال إنه صرح ممرد من قوارير، قالت ربي إني**

---

(١) سورة القمر، الآيتين ١٣، ١٤، ١٥.

(٢) انظر تفسير الكشاف، القمر ١٣.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٢٦.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٢٤.

(٥) سورة الأنبياء، الآية ٧٩.

(٦) تفسير الكشاف، الإنبياء ٧٩، الإمام الزمخشري.

(٧) سورة سبأ، الآيتين ١٠ – ١١.

(٨) تفسير الكشاف، سبأ ١٠، ١١، الإمام الزمخشري.

(٩) سورة النمل، الأيتين ٤٥ – ٤٦.

ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾[1].

والصرح الممرد هو القصر المملس، وروي أن سليمان عليه السلام قبل قدوم بلقيس - ملكة سبأ - أمر فبنى له قصرا على هيئة قصرها من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه من دواب البحر، وفعل ذلك ليزيدها استعظاما لأمره وتحققا لنبوته[2].

وتفوق يوسف عليه السلام في أمور تدبير شؤون الملك والاقتصاد وكان يسير أكبر خزائن حضارة الدنيا أنذاك وهي حضارة قدامى المصريين وأخرج الأمة التي أوشكت أن تهلك بالأزمات الاقتصادية والمجاعات المتتالية بتدبيره عليه السلام في قوله تعالى: **﴿قال يوسف اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾**[3]. أي أمين عالم بوجوه التصرف وهو الشرط الذي كان يشترطه ملوك زمانه لتولية المسؤولية[4].

واتخذ كل الاحتياطات التي تحول دون وقوع الكوارث الاجتماعية والاقتصادية وفي قصة يوسف عليه السلام ما ينبيء على سياسة اقتصادية واجتماعية راشدة ودارية بأحوال الملك والبلدان، ومعرفة جيدة بكيفية خزن الغلال وذلك ببقاء المحصول في سنابله حتى لا يتعرض للتلف والضياع واستطاع يوسف عليه السلام بسماع الملك لنصيحته الا يجنب مصر شرور مجاعة محدقة[5].

وكان ذو القرنين العبد المؤمن من العاملين والعالمين في شؤون السدود ورد يأجوج ومأجوج عن القوم المؤمنين واستعمل مهارته العلمية فيما يرضى الله[6].

ولما كان العلم هو المؤهل الضروري لتربية الأجيال وقيادة الأمم. والعامل الأكبر في بناء الدول وقيام الحضارات فإن الله سبحانه ما شرف بشرا بالنبوة أو الملك والإمامة، إلا أتاه العلم أو الحكمة، وهذا أبو البشرية آدم عليه السلام وقد علمه الله الأسماء كلها فقال تعالى **﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾**[7]، وكان هذا أول درس في التربية والتعليم يتلقاه أبوالبشرية عليه السلام وهكذا مع بقية الأنبياء، وفسر الحكم والعلم في الآيات بالنبوة حينا وبالفهم والبيان أحيانا[8].

ودلت هذه الآيات وغيرها على ضرورة العلم والحكمة وبلوغ الرشد لسياسة الأمم والملك، وكانت هذه القضايا بمثابة شروط تفرضها الضرورة الشرعية وتلزمها الظروف الاجتماعية، كما بينت الآيات أن الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا دعاة عبادة وتقوى،

---

(١) سورة النمل، الآيتين ٤٥ - ٤٦.

(٢) تفسير الكشاف، النحل ٤٥- ٤٦.

(٣) انظر سورة يوسف، الآية ٥٥.

(٤) انظر الكشاف، يوسف ٥٥.

(٥) انظر التفسير القرآني للتاريخ ص ٥٦، د. راشد البراري.

(٦) انظر الآية ٩١ سورة الكهف، وتفسيرها في الفصل الثالث.

(٧) سورة البقرة، الآية ٢٩.

(٨) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص ١٦، ٢٥٦، ٣٢٤.

ومعلمي عقيدة وشريعة فحسب بل كانوا مؤسسي مدنيات وحضارات، وكانت مواقفهم وسيرهم عبرا وهم قدوة ونماذج تحتذى في البطولة والصبر والتفاني في خدمة الإنسانية وهم خير من أشرقت عليهم الشمس من البشر، وكانوا أكبر من البلدان والأرض التي عاشوا على ظهرها، وكذلك كان الأنبياء هم خير الساسة إذ عد الساسة وافتخر بهم، وهم خير الفقهاء والعلماء وأصحاب المبادئ الذين أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وصارعوا الباطل وقاوموا الظلم، وجاهدوا في الله حق جهاده، وهم البشر الذين يعجز الوصف عن بيان حالهم، ويخرس القلم عن ذكر مناقبهم(١).

وبذلك أسسوا حضارات زاهية وأخرجوا الإنسانية من الظلمات إلى النور في كثير من فترات ترديها الحضاري، ولعل من أكبر ما يقف عليه الباحث لهذا الموضوع في القرآن الكريم هو أن الأنبياء عليهم السلام استطاعوا تحقيق المثالية الروحية والمثالية العلمية الحضارية في حياة الناس.

ولقد دفعني إلى بيان هذه الحقيقة التي لعلي استطردت فيها هو ما لاحظته من حديث فلاسفة التاريخ والحضارات عن دور ما يسمى بالصفوة المختارة أو الكتيبة المنتقاة، حيث أكد هؤلاء الفلاسفة أنه ما من حضارة تقوم إلا كان لصفوة من أبناء أمتها دور عظيم في نشأتها.

وكاد المؤرخون يجمعوا على ضرورة الصفوة لقيام الحضارات، ونحن لا نرى العكس، ولكن نرى أن الأنبياء والرسل والسائرين على منهجهم ودربهم هم أولى بالبيان للإقتداء بهم وهم خير من خدموا الإنسانية، والتاريخ يثبت أنه ما قامت حضارة إلا في ظل مبادئ الوحي(٢). وما سقطت حضارة أو انتحرت أمتها إلا في ساحة الفساد الأخلاقي والعقيدي والحروب والقتال والإنصراف عن طريق الأنبياء والرسل وعلماء الكتب السماوية المحفوظة(٣).

وبإجمال فإن فكرة الحضارة في القرآن الكريم تؤكد أن الإنسان خليفة الله في الأرض ومكلف بإعمارها وبناء الحضارات على أساس من الوحي، ولكي يستطيع الإنسان أن يقوم بدوره هذا فلابد له من اتباع سنن الله في البناء الحضاري، والتعرف على الذات الإنسانية في فطرتها وطبيعتها الأولى، وتحقيق غاية الوجود الإنساني من الخلق وهي العبادة، والمادة التاريخية في القرآن الكريم تتضمن قصص الأقوام والحضارات البائدة مثل قصص نوح وإبراهيم ولوط، عليهم السلام وحضارة عاد وثمود والحجر وسبأ، ومن بين الاهدف من إيراد هذه القصص من أخبار السابقين هودفع الإنسان إلى

---

(١) انظر الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٣٣٥.
(٢) مع احتراز هو أن بعض الحضارات قامت على أسس غير الوحي، وهي في عرف الإسلام مدنيات وليست حضارات.
(٣) انظر الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٣٣٦.

التساؤل والبحث عن الأسباب والعلل التي كانت وراء ازدهار هـذه الحضـارات ثـم انطفائها وهو ما يمكن أن يطلق عليه سنن القرآن في الحضارات وهـو مـا يحكـم حركـة التاريخ بشكل منطقي ويدعو إلى الانتقاء والانتخاب لما في الكون من أولويـات التأثير لجلب الإصلاح واستبعاد ما لا يصلح لمهمة الاستعمار والاستخلاف(١).

وما تصل إليها الجماعة البشرية أو الأمة من حالات حضارية دائما هي نتائج طبيعية للدور الذي مارسته قولا أو عملا(٢).

واخلص من مفهوم الحضارة في القرآن إلى أن الله قد ذكر في القرآن الكريم مستوى مـا وصلـت إليـه الأمـم الماضيـة مـن تقـدم ورقـي وتمـدن، واثـراء الأرض بمصطلحـات واستعمالات كان أكثرها ورودا في القرآن الكريم كلمة الشـدة والقـوة، فحـين تحـدث الله عن أهل القرى الغابرة الذين ملكوا أسباب التمكين وسـائل التمتـع بالحيـاة الدنيـا وزينتها، قال تعـالى: **﴿وكـأين من قريـة هـي أشـد قـوة مـن قريتـك الـتي أخرجتـك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾**(٣).

أي كم - وهي للكثر - أهل قرية هي أشد قوة في البدن والمتعة من قريتك يا رسول الله وهي مكة أهلكناهم(٤).

وكذلك كان الحديث في القرآن الكريـم عـن بقيـة أصحـاب تلـك الحضـارات الـتي أنتكست بفعل أبنائها وطغيانهم وظلمهم، قال تعالى **﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة أثاروا الأرض وعمروها أكـثر مما عمروها، وجاءتهم رسلهم بالبينات، فما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**(٥).

وإذا انتقلنا إلى حضارة سبأ نجد التعبير أو المصطلح ذاته عن نفس الحقيقة وهو القوة، ولقد جاء ذلك على لسان ملأ بلقيس ملكة اليمن في معرض الإستعداد لمقابلـة سـليمان عليه السلام وجيشه، قال تعالى **﴿... قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بـأس شـديد والامـر إليك فانظري ماذا تأمرين﴾**(٦).

"والمعنى أي أولوا قوة بالسلاح وأولوا بأس شديد في القتال"(٧). وهذا كعادة الـدول المتحضرة ، والأمم المتمدنة.

وعن حضارة عاد حين وصفهم نبيهـم بالقوة وطلب منهم المحافظـة عليهـا بالاستغفـار

---

(١) انظر الرؤية الحضارية للتاريخ قراءة في التراث التاريخي العربي، ص ٨١، قاسم عبده قاسم.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٨٢.

(٣)سورة محمد - صلى الله عليه وسلم ، الآية ١٤..

(٤) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ٤٢٨.

(٥) سورة الروم، الآية٨.

(٦) سورة النمل، الآيتين ٣٣، ٣٤.

(٧) انظر تنوير المقباس في تفسير ابن عباس، ص ٣١٨.

والاستقامة قال تعالى على لسان هود عليه السلام ﴿**يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين**﴾[1].

ومعنى يزدكم قوة إلى قوتكم أي شدة إلى شدتكم بالمال والبنين[2].

وهكذا ذكر الله كل ما وصلت إليه الامم والأفراد من مستويات التحضر والملك بالقوة وذلك "كقارون وذوي القرنين وغيرهما"[3].

ولقد دعا الله الأمم أن تأخذ القوة بهذا المعنى في كثير من الآيات وذلك كقوله تعالى ﴿**خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون**﴾[4].

ولقد جاءت كلمة القوة في هذه الآيات فكرة مما يفيد شمولية معناها وعموميته على كل ما يمكن أن يصل إليه الإنسان من القوة المعنوية والمادية، ولقد ذكرت كلمة القوة بما يفيد هذا المعنى في ثمان وعشرين مرة[5].

---

(١) سورة هود، الآية ٥٢.

(٢) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص ١٨٦.

(٣) انظر سورة الكهف، الآية ٩١.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٧١.

(٥) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة "قوة" وضع محمد فؤاد عبدالباقي.

الفصل الثاني

مع بعض المفكرين في تصوراتهم للحضارة

الفصل الثاني
مع بعض المفكرين في تصوراتهم للحضارة

لقد شهد العصر الحديث بوادر تفتح مناهج كثيرة لتفسير حركة التاريخ وقد أفسحت هذه المناهج المجال الواسع لدراسة عوامل التحضر المادية والمعنوية والاجتماعية والاقتصادية... ودراسة التاريخ دراسة حضارية شاملة تحليلية لا تقتصر على سرد الأحداث، ورواية أخبار المعارك العسكرية والدسائس السياسية دون بحث عللها والعوامل المؤدية إليها ودون النظر إلى كيان الأمة التاريخي نظرة شاملة تضم كافة جوانب الحياة فيها وبحث علاقاتها.

وعلى هذا الأساس يتكون التصور المتكامل الشامل الذي لايرتكز على جزئيات أو على جوانب دون أخرى، حتى كان هناك ما يعرف بالتاريخ السياسي والتاريخ الاجتماعي والثقافي، وحتى داخل التاريخ الثقافي كان يعرف بتاريخ الأدب، وتاريخ الفلسفة، ولاضير في هذا، إنما ينبغي أن تدرس علاقات القضايا بعضها ببعض، حتى تتكون النظرة الشمولية التي ترى فيها كافة العوامل المؤثرة، وهذا مانجده مفقودا عند جل فلاسفة تاريخ الحضارات الغربيين.

وفي هذا الموضوع يقول الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله، إن أردنا تعبيرا أدق فإننا نقول إن صناعة التاريخ تتم تبعا لتأثير عناصر ثلاثة وهي ما يطلق عليها الأستاذ مالك "عالم الأشخاص" و "عالم الأفكار" و "عالم الأشياء"[١].

وإن مشكلة أي شعب ما في جوهرها هي مشكلة [٢] حضارية، ولايمكن لأي شعب أن يفهم أو يحل مشكلته هذه مالم يرتفع بفكرته إلى مستوى الأحداث الإنسانية، ومالم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات والتي تهدمها، وما الحضارات المعاصرة والحضارات الضاربة في أعماق الماضي وكذلك الحضارات المستقبلة إلا عناصر للملحمة الإنسانية منذ القرون الأولى، وفجر الخليقة البشرية إلى نهاية الدهر.

فهي حلقات متصلة لسلسلة واحدة ويالها من سلسلة تمثلت فيها جهود الأجيال وصنعتها الأيادي وأبدعتها العقول المفكرة في فترات رشدها وصحوها، فسارت في طريق التقدم والرقي، وهكذا يقوم كل شعب بدوره وكل جيل أو أمة تبعث لتكون حلقة في سلسلة الحضارات حين تتوفر لها عوامل التحضر وتستوفي لها شروط ذلك، وفي بداية الوقت ذاته لقيام حضارة يؤذن الله بزوال حضارة أمة أخرى[٣].

---

(١) راجع ميلاد مجتمع – شبكة العلاقات الاجتماعية – ص ٢٣ مالك بن نبي.

(٢) يقصد بالمشكلة في تعبير مالك بن نبي القضية الحضارية.

(٣) انظر شروط النهضة ص ٢. مالك بن نبي.

ولكن القليل من المفكرين من اتجه إلى التأمل والبحث في السر الذي جعل الحضارات الجبارة الباسقة تدبر وتنهار بعد قوة وإقبال وتتحجر بعد نمو وازدهار، ولقد تبددت جهود عظيمة في ميدان سرد الأخبار التاريخية لتلك الحضارات الذاهبة وبيان منجزاتها في عرض واستطناب وتكرار، وكان هذا دون كبير طائل، وقد يستثنى ممن كتبوا في موضوع الحضارة من المعاصرين الأستاذ مالك بن نبي رحمة الله الذي سلك في بحوثه قضايا الحضارات والحضارة الإسلامية خاصة مسلك النابش عن جذورها الأولى، الباحث عن الصلة بين ما وصلت إليه من تقدم وازدهار، ثم ما آلت إليه من تدهور وانحطاط، وبين نفوس أصحابها أو أبنائها، إلا أنه اتجه إلى ذلك من خلال طريق طويل جعله يجتاز بالقارئ مراحل نظرية مجردة قبل أن يأخذ بيده ليدله بشكل عملي على المفتاح الضائع الذي يبحث به عن جوهر القضية، وأعتقد أن مظهر هذا الاضطراب يتجلى في البحث الإضافي الذي أضافه الأستاذ مالك بن نبي في كتابه "شروط النهضة" وجعل عنوانه "أثر الفكرية الدينية في تكوين الحضارة[1]" وكان هذا البحث بمثابة إجابة عن كثير من الأسئلة التي تواردت عليه من القراء[2].

وأحسب أن الذين اخترتهم في هذه الدراسة لمعرفة تصورهم للحضارة نخبة من مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب كانوا أكثر من غيرهم اهتماما بهذا الموضوع وأقرب إلى مانحن بصدد بحثه.

ولعل أغلب تصورات بقية المفكرين والفلاسفة تنحو منحنى المنهج الوصفي المعتمد على العرض وتتبع مراحل الحضارة وبيان منجزاتها التاريخية والمادية، و لم يتجه هذا المنهج الوصفي إلا نادرا إلى التساؤل عن سر إقبال الحضارة وإدبارها، وما هي القوانين والسنن التي تتحكم في هذا التحول والتبدل.

وكثيرا من فلاسفة الحضارة والتاريخ الذين أراحوا أنفسهم مشقة البحث وقرروا أن للحضارات أعمارا كأعمار الكائنات الحية التي تولد صغيرة ضعيفة ثم تشب وتشتد فتبلغ أوج قوتها وازدهارها، ثم يعود إليها الضعف فالشيخوخة فأرذل العمر فالموت، وهكذا تمر في دورات وتبدلات كدورات الكواكب، وتبدلات فصول السنة، ولا مفر لأية حضارة من هذا المصير المحتوم، مصير الغروب والأفول، أو الموت والهلاك، وأنه لا دخل للعوامل الخارجية ولا أثر للأسباب الداخلية في صرف هذا القضاء والحضارة تسير وفق قانون جبري، ليس له من دون الله كاشفة[3].

ولكن هذا الرأي الذي ينظر إلى أعمار الحضارات كأعمار الكائنات الحية رأي لا

---

(١) يقصد بالفكرة الدينية العقيدة والقوة الداخلية للفرد.

(٢) انظر منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ص ٩ د/ محمد سعيد رمضان البوطي.

(٣) انظر منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ص ١٢١ د/ محمد سعيد رمضان البوطي.

يثبت أمام التعليلات العلمية، والنقد الفكري، وتنتج عن عدم وجود مبررات لظاهرة سقوط الحضارات.

والحضارة الحقة تتكون من مقومات مادية تتغير وتتحول بين القوة والضعف، ومن مقومات معنوية ثابتة لا تتبدل ولاتتحول، ولكن الذي يتبدل في الحضارة هو الإنسان مقيمها وبانيها الأول، وهو القادر على أن يزيد الحضارة قوة إلى قوة أو يوردها الدمار والبوار[1].

والحضارة صفة للأمة والمجتمع تتمثل في الرقي والازدهار والقيم والمبادئ والأخلاق والسلوك والروح السائرة بين أفراد الأمة في التنظيم والتخطيط والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية وكل هذه العناصر في ترابط فعال متحرك تؤدى إلى ما يعرف بالحضارة أو التحضر[2].

أ ـ المفكرون الغربيون:

كارل ماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣م)

النظرية أو التصور الماركسي للحضارة يتكون من شقين أساسيين:

المادية الجدلية، والمادية التاريخية، فبينما تتضمن المادية الجدلية النظرة الفلسفية العلمية للعالم، فإن المادية التاريخية هى الفكر الذي يدرس القوانين العامة للتطور الاجتماعي الحضاري التاريخي، وأشكال تحققه في نشاط الناس وتبرز المادية التاريخية كمؤثر فعال يشتمل على الظواهر الطبيعية وظواهر المجتمع الإنساني والفكر الإنساني، وفكرة كيفية القيام بعملية الثورة بالذات، والجدير بالذكر أن المادية التاريخية قد استمدت فلسفتها وتصورها عن الحياة الإنسانية من الظروف التاريخية الاجتماعية، والمحيط الثقافي للمجتمع الأوربي خلال فترة من تاريخها وجاءت الفكرة المادية للفلسفة الماركسية وليدة عن الفلسفة الغربية بعد أن حملت بها قرونا.

ولقد عكف ماركس في مطلع حياته على مؤلفات هيجل[3] وظل عقله متعلقا بها وقلبه راغبا عنها، كما أستحوذت نظرية دارون[4] في التطور على عقل ماركس فنبذ كل "ميتافيزيقية"، ولعل هى السبب الذي صرفه عن التفكير في الخالق والإيمان با لله،

---

(١) انظر منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ص ١٢٢، د/ محمد سعيد رمضان البوطي.

(٢) انظر قيم حضارية في القرآن جـ ١، ص ٤٣، محمد توفيق السبع.

(٣) هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١م).

(٤) دارون (١٨,٩ – ١٨٨٢م).

ونقم ماركس نقمة كبرى على الأخلاق والروح والفكر المثالي، واعتبر هيجل يعالج أشباحا لا واقعا إنسانيا، وغفر ماركس لفلاسفة اليونان اهتمامتهم بهذه الجوانب الروحية، لأن فكرهم في رأيه صار تاريخا وخمدت ريحه، وظل ينقد الفلسفة الألمانية المثالية التي تدافع عن سيادة الأسياد، وتترك الفقراء يموتون جوعا.

وجاءت آراء ماركس أيضا وليدة العقيدة اليهودية التي كانت تنتظر مملكة أرضية تحقق فيها سيادتها المزعومة في قيادة الإنسانية وتلك هي العدالة الاجتماعية المرجوة، فخاب ظنهم.

هذه هي بعض أصول الفكر الماركسي، ومادام الأمر هكذا فإن ما يراه ماركس وهو وليد نفسية متشائمة، وظروف إجتماعية خاصة وعقيدة منحرفة فلا يمكن تعميم آرائه كنظريات وأحكام في تفسير الظواهر الاجتماعية والقضايا الحضارية(١).

ثم حول ماركس فكرة التناقضات العقلية عن هيجل من غاية في ذاتها إلى منهج استقراء وتحليل وكشف عن بنيات التغيير الاجتماعي، وحاول أن يجد معيارا ماديا لتطور الحياة الإنسانية(٢).

وقدمت الماركسية نفسها على أنها نظرية لتغيير العالم لتخرج بذلك عن مسار الفلسفات الأخرى التي تكتفي بتفسير العالم على حد التعبير الماركسي نفسه، وكان هذا التقديم موقفا سياسيا نفسيا لا يعبر عن أية حقيقة علمية، طمعت الماركسية من خلاله لأن تجعل من آرائها الحكم الصارم على قضايا الشعوب وتقلبات التاريخ(٣).

ولكي يدرس الفكر الماركسي في أصوله لتستنبط تصوراته وآراؤه فإنه ينبغي أن تبحث كليات أفكاره، وهي فكرته عن الله، والإنسان، والكون، والحياة، والتاريخ والمجتمع الإنساني، وبما أننا مرتبطون في هذه الدراسة بقضية محددة في الفكر المادي الماركسي وهي ما العوامل التي تتحكم في عملية التطور الاجتماعي التاريخي. أكتفي بهذا، ونجد ماركس قد قسم مراحل التاريخ إلى خمس مراحل:-

١ - المرحلة البدائية إذ كان الإنسان يعيش من صيد الحيوان ويرتع نبات الأرض.

٢ - المرحلة المستعبدة إذ انقسم الناس إلى سادة وعبيد، السادة مالكون لوسائل الانتاج والعبيد عمال، و لم يتعد هذا الطور احتراف الزراعة وتربية المواشي.

٣ - المرحلة الإقطاعية المرتكزة على الفلاح إن يملك السيد الأرض وتقوم بجانب

---

(١) انظر العالمية الإسلامية الثانية ص ١٣ محمد أبوالقاسم حاج أحمد.

(٢) انظر الحب والحضارة ص ١١ "هرترت" ترجمة مطاع صفدى.

(٣) انظر نحو حضارة جديدة ص ٣٨ أحمد حيدر.

هذه الملكية الواسعة ملكية ضئيلة هي ملكية الفلاح والصانع لآلات الحراثة وبعض الآنية المنزلية.

٤ - المرحلة الرأسمالية التي استعبدت العامل وقتلت اليد العاملة، وناقضت هذه المرحلة نفسها مما سبب الأزمات الاقتصادية، وأدى إلى حتمية انتقال الإنسانية إلى مرحلة أخرى عن طريق الصراع الطبقي وهذه هي المرحلة الخامسة أي المرحلة الشيوعية. وهذا التوليد التاريخي للمراحل هو الأساس في الصيرورة التاريخية عند ماركس، وهي التي تدلنا على أن تاريخ البشرية عبارة عن سلسلة من المتناقضات التي هي صراع الطبقات الاجتماعية وهي ظل للصراع الاقتصادي وما الدول والحكومات والنظم سوى وليدات للصراع ونتائج له ومظاهر للطبقة السائدة المسيطرة، وتواصل المادية الماركسية عرض آرائها، فتزعم أن الشيوعية هي القمة في تطور الإنسانية الحضاري[١].

وبذا يكون النجاح النهائي للشيوعية هو زوال الرأسمالية واندثار البرجوازية في كل بقعة من الأرض، ويطلب ماركس من الأمم أن تنتظر النعيم المقيم على الأرض التي آمنت بزاول الطبقات الاجتماعية، وتوقف صراعها لزوال أسبابه وهي الفوارق الاجتماعية المادية بين الأفراد والطبقات، وعندما تصل الأمم إلى هذه الدرجة من التطور الاجتماعي والمرحلة التاريخية، فتلك بداية الفردوس الأبدي الذي تنتظره الإنسانية منذ غابت الملكية الجماعية، وإلى هذه المرحلة تنتهي أطوار التاريخ كلها وتحط الحضارات رحيلها، وتتوقف الحياة عن كل إبداع وتطور لأنها وصلت إلى النهاية الكلية، وهذا مايشبه يوم القيامه عند أهل الإيمان بالآخرة[٢].

ويرى ماركس أن كل شيء أصله الأول المادة، وحتى الأفكار والمفاهيم والوعي مرتبط أولا وبشكل مباشر ودقيق بالنشاط المادي، والصلات المادية للبشر وتلك هي لغة الحياة الحقيقية عند ماركس.

وبالمناسبة يعرف التاريخ فيقول: "ليس التاريخ سوى تعاقب الأجيال المختلفة وكل جيل يستثمر المواد الأولية والخزينة المالية والقوى المنتجة التي استلهمها من الجيل السابق فهو يتابع من جهة النشاط التقليدي في ظروف متغيرة كلية، ومن جهة أخرى يقوم بتعديل الظروف القديمة بنشاط متغير كليا، بحيث يصنع التاريخ الحديث التاريخ السابق الماضي - أي كل جديد يصبح قديما بفعل الإنسان ذاته - وهذا المفهوم يظهر لنا أن التاريخ لاينتهي بالانحلال والذوبان في الروح الإنسانية بمعنى أنه لايتلاشى في أماني

---

(١) انظر الصراع في الوجود ص ١٢٨، ١٣١ سلامة موسى.
(٢) انظر التفسير المادي للتاريخ ص ١١١ جـ ٣. محمود شرقاوي.

وآمال الشعوب الروحية، ولكن ينتهي بإيجاد نتيجة مادية في كل مرحلة من مراحل تاريخ الجيل، وهي كمية من القوى المنتجة تخلق تاريخيا علاقة بين الأفراد، وبينهم وبين الطبيعة وهكذا يستلم الجيل اللاحق من الجيل السابق كتلة من القوى المنتجة، والأموال والظروف التي يعدلها الجيل الجديد من جهة، ولكنها من جهة أخرى تملى عليه شروط حياته وتمنحه تطورا معينا(١).

ويذهب كارل ماركس إلى أنه ينبغي ألا نبحث في النظرة المثالية للتاريخ عن مقولة بل تبقى دائما على الأرض الحقيقية للتاريخ وهى المادة فلا نشرح الممارسة عن طريق الفكرة بل نشرح كيف تتكون الأفكار من الممارسة المادية... والثورة هي القوى الدافعة للتاريخ، وأنها القوى الدافعة للدين والفلسفة وكل الأنماط الأخرى، ومادام الصراع بين "البروليتاريا" و "البرجوازية" هو صراع طبقة ضد طبقة فإن الصراع الذي يصل إلى أعلى تعبيره هو الثورة الشاملة والحقيقة أن أية طبقة مضطهدة هى الشرط الحيوي لكل مجتمع يقوم على صراعات الطبقة، لأن تحرر الطبقة المضطهدة يتضمن بالضرورة خلق مجتمع جديد ومن الضرورة للطبقة المضطهدة حتى تكون قادرة على تحرير نفسها، أن تتمكن من القوى المنتجة، حيث تعد الطبقة الثورية نفسها أعظم قوى انتاجية في الحياة(٢).

أما عن سقوط الحضارات فيرى كارل ماركس أنه يتم بتسلط طبقي جديد يبلغ ذروته في سلطة سياسية جديدة، أي أن أول عامل من عوامل سقوط الحضارة عند ماركس هو تسلط طبقة السلطة السياسية على المجتمع، وليس تاريخ كل مجتمع من قديم العصور حتى يومنا هذا سوى تاريخ صراع الطبقات، فالحر والعبد والسيد والإقطاعي والمعلم وبإختصار المضطهِدون. والمضطهَدون، قد كانوا على مر التاريخ يخوضون غمار حرب مستمرة ظاهرة تارة ومستترة تارة أخرى، حرب انتهت في كل مرة بانقلاب ثوري يشمل المجتمع بأسرة، إما بدمار الطبقتين المتصارعتين، وإما بدمار طبقة الجماهير وتسلط الطبقة القلة وهذا مانجده في المجتمع الروماني في العصور الأولى من التاريخ حيث نرى النبلاء ثم الفرسان يسيطرون على الحياة، وفي القرون الوسطى نجد الإقطاعيين الأسياد ثم المعلمين ثم الصناع، والمجتمع البرجوازي الحديث الذي نشأ على أنقاض المجتمع الإقطاعي، فإنه لم يقض على هذا التناحر بين الطبقات بل لم يفعل سوى تدمير طبقة وتكوين وإقامة طبقات جديدة بدلا من الطبقات القديمة.

وهكذا نرى أن البرجوازية نفسها وليدة طبقات انقرضت ونتيجة تطور طويل عبر سلسلة من الثورات، ولعل كل طبقة كانت تمثل نمط حضاري معين وكان يرافق كل

(١) انظر المادية التاريخية ص ٣٤، ٣٦ ، كارل ماركس، أنجلز - لينين.

(٢) انظر المادية التاريخية ص ٧٢، كارل ماركس، أنجلز - لينين.

مرحلة من مراحل التطور الذي مرت به البرجوازية، رقي سياسي، فقد كانت البرجوازية أول الأمر طبقة مضطهدة تحت عسف الإقطاعيين واستبدادهم ثم كانت جماعة مسلحة تسوس أمورها بنفسها خلال العصور الوسطى ثم كانت جمهوريات مستقلة كإيطاليا وألمانيا وفرنسا. ولقد أدت البرجوازية في نظر ماركس دورا ثوريا إلى درجة بعيدة، فحينما استولت على السلطة حطمت دون رأفة الصلات الإقطاعية التي تربط الإنسان بسيده، ولم تبق على صلة بين الإنسان والإنسان إلا المصلحة الشخصية العادية والدفع نقدا وعدا[1].

والبرجوازية في رأي ماركس لاتعمر طويلا إلا إذا أدخلت تغييرات ثورية مستمرة على أدوات الإنتاج وبالتالي على علاقات الإنتاج، أي على العلاقات الاجتماعية بأثرها، ولقد استطاعت البرجوازية أن تجرف إلى تيار المدنية كل الأمم، حتى أشدها همجية تبعا لسرعة تحسين جميع أدوات الإنتاج وتسهيل وسائل المواصلات، وإن أرخص منتجاتها هو في يدها بمثابة مدفعية ضخمة تقتحم وتخترق كل أسوار الأمم، وتنحى أمامها رؤوس أشد البرابرة وتجبر البرجوازية كل الأمم تحت طائلة الموت أن تقبل الأسلوب البرجوازي في الأنتاج وأن تدخل إليها المدنية المزعومة، ولولا هذا الأسلوب الثوري ما كان لها أن تعيش طويلا[2].

وبمقدار تطور "البرجوازية" تتطور "البروليتاريا" الطبقة العاملة فتمر بمراحل مختلفة، ويبدأ نضالها ضد "البرجوازية" منذ نشأتها، ويقوم بالنضال بادئ ذي بدء عمال فرادى منعزلين، ثم يتكاتف عمال معمل واحد ثم يعم النضال جميع عمال المهنة الواحدة، وفي هذه المرة لايكون الكادحون يؤلفون سوى جمهور غير متماسك مبعثر في عرض البلاد وطولها، ثم تتألف "البروليتاريا" في طبقة وبالتالي في انتظام حزب سياسي يحطمه بصورة مستمرة تنافس العمال فيما بينهم، ولكن هذا الانتظام لايختفي حتى يعود فيولد من جديد وهو أشد قوة وأكثر صلابة، وأقوى بأسا، وأن المصادمات بين الطبقات في المجتمع "البرجوازي" تساعد على تطور "البروليتاريا" وتقدمها[3].

وأن الصراع لن يتوقف إلا بالوصول إلى قاعدة الاستقرار وهى العدالة الاجتماعية وأن الصراع بين الطبقة "البرجوازية" والطبقة العاملة هى المرحلة الأخيرة في حلقات الصراع التي ستنتهي حتما بانتصار الطبقة المسحوقة وبذلك تكون آخر مرحلة في التطور هى مرحلة تنتهي فيها كل الطبقات ويتساوى فيها الناس في كل شيء، ولقد أنكر كارل ماركس كل التحزبات والتكتلات القائمة على أساس غير مادي، ولا

---

(١) انظر المادية التاريخية ص ٧٣، ٧٤، ٧٥، كارل ماركس، انجلز، لينين.

(٢) انظر المادية التاريخية ص ٧٧، كارل ماركس، انجلز، لينين.

(٣) انظر المادية التاريخية ص٨٠، ٨١، كارل ماركس ، انجلز ، لينين.

انتمائي طبقي وعد القومية والوطنية حصونا دفاعية تقيمها الرأسمالية لحماية نفسها من ثورة الجماهير[1].

وماركس ليس هو مبدع نظرية الصراع الطبقي التي هي القوة المحركة للتاريخ وإحداث التغييرات الاجتماعية، ولامكتشف الجدلية التي هي تعبير يتلخص في أن كل شئ يعيش في صراع وتفاعل مع ذاته فتتآكل وتفنى بذلك ظواهر الحياة القديمة وتنشأ على أعقابها ظواهر أخرى أكثر غناء وتعقيدا، ولاتلبث هذه الظواهر الجديدة أن تبلى وتتلاشى هى الأخرى في رحى هذا الصراع المستمر لتقوم على حطامها ظواهر أخرى أكثر جدة وقوة وغناء وهكذا دواليك.

ومن السهل علينا أن نتخيل شيئا ما أو أشياء كلها تتطور تحت سلطان هذا التفاعل والهياج الداخلي متجهة دائما نحو الأفضل والأرقى، ولكن ما مدى تطابق هذا الخيال مع الواقع، وأين مصداق ذلك في التجربة المشاهدة، وينبغي أن يثبت هذا الإدعاء بدليل استقراء كلي تام أن ظاهرة هذا الصراع تنتهي في السير نحو الأفضل والأرقى ويكون ذلك طابع الموجودات كلها، ولعل الثابت حقا بالمشاهدة الواقعية والمعايشة اليومية هو أن الكائنات تتطور نحو الذبول والانهيار لانحو الصعود والبقاء، فالأمر إذن عكس ما تخيله أصحاب الفكر الجدلي والثابت كذلك عند علماء الفلك والطبيعة أن مادة الكون الصلبة في مجموعها آخذه في الانحلال والاضمحلال في أثناء تحولها إلى شعاع، ويصدق هذا القانون نفسه على حياة الإنسان وجسمه، وعلى نسيج الخلايا في كل شئ حي، فالأجسام الحية لا تفتأ تقوم بوظيفة الحياة، وتستمر عملية التجديد والتوريث فيه إلى ميقات محدود، ثم لاتلبث أجهزة الجسم أن تتقاصر عن أداء وظيفتها فتتناقص الحرارة فيه وتعجز الأجهزة عن استخراج الحرارة اللازمة للجسد والخلايا به، ثم ينتهي ذلك بوقوف كل شئ عن أداء وظيفته التي كان دائما قائما عليها، حيث لابد أن يتحقق الموت الذي لامفر منه[2].

ثم إذا كان الصراع الذي أساسه الحقد والعداء قائما بين الطبقات والأفراد فكيف يمكن للناس أن يتجمعوا ليقيموا الحضارة أو المدنية.

ومن هنا غدت فكرة الصراع الطبقي في بناء المجتمعات وتحقيق العدالة فكرة مرفوضة لأنها لاتقدم تحليلا كليا متناسقا متكاملا، كما أنها فكرة لاتستطيع التصدي لتفسير التطور التاريخي، فضلا على أنه لايمكن قبولها تاريخيا، لأن التاريخ سجل حافل بالأمثلة والحقائق التي تناقضها.

---

(١) انظر التفسير المادي للتاريخ م٣ ص ١٠٤ محمود الشرقاوي.

(٢) انظر الإسلام ملاذ المجتمعات لماذا وكيف، ص ٩٥ ، د/ محمد سعيد رمضان البوطي.

أزفالد شبنجلر(١٨٨٨م - ١٩٣٦م):

الشعوب في نظر شبنجلر ثلاثة أنواع: شعوب أولية، شعوب الفلاحة والزراعة، شعوب حضارية أو متحضرة، وإذا نظرنا إلى هذه الشعوب من ناحية ارتباطها بالتاريخ وجدنا الشعوب الأولية أناسا خاضعين لحركة قد تكون اندفاعية طويلة النفس، ولكنها حركة ليست منضبطة وغير عضوية بمعنى لايهيمن عليها قانون، ولاتسودها روح واحدة منظمة، وبالتالي لاتتطور حسب صورة محددة، وكذلك حال شعوب الفلاحين التي دائما عرضه للتأثر بالعوامل الخارجية، وعلى العكس من هذا نجد الشعوب المتحضرة التي تتطور بصورة معينة هى صورة الحضارة التي أنشأها هذا النوع، وهنا يبدو الفرق الأكبر بين النوعين الأولين من الشعب العديم الصورة، بينما الشعوب الحضارية تمتاز بأنها ذات صورة، والشعوب ذات الصورة هى الأمم، لأن الأمة أعظم شعورا بذاتها، وأقدر على الاحتفاظ بمقوماتها وأشد امتناعا على التاثر بغيرها، كما أنها تكون أكثر شعورا بالحرية في خضوعها لصورتها، وبدلا من أن تكون الصورة سيدتها تصبح هى سيدة الصورة[1]. ولكل أمة صورتها الخاصة المميزة لها عن بقية الأمم، ولهذا نجد الاختلاف بالتباين بين الأمم وفي الحضارات سواء بسواء كما أن هناك حواجز وفوارق بين الأمم والحضارات[2].

وفي إطار هذه الوضعية للشعوب التي يعدها شبنجلر قاعدة منهج التاريخ يدعو إلى دراسة واقع الأجيال الحضاري، ثم ينطلق إلى فلسفة الزمان والمكان في الوجود، ويحاول كشف الثابت والمتغير في حياة الأمم والحضارات، فيذهب إلى أن المكان وسط متجانس بمعنى أن كل جزء من أجزائه يشابه الآخر ولايوجد اختلاف فيه من حيث النوع، أما الزمان فهو كيفية خاصة في جوهره فلا ينطبق عليه شئ من القواعد أي الثوابت، وليس ثمة تجانس بين أجزائه وإنما كل لحظة من لحظاته تختلف عن الأخرى اختلافا تاما، ومع هذا فإن وحدات الزمان أي فتراته المتكونة من سنوات وشهور وأيام وساعات... فالوحدة الواحدة منها متداخلة في الأخرى تمام التداخل ولاسبيل لفصل لحظة من اللحظات عن الأخرى، أو تقديمها أو تأخيرها أو استدعائها مرة ثانية لشدة التداخل وأمام هذا التقسيم الزماني إلى أوقات أو عصور تاريخية، نجد أنه لاوجود للتقسيمات التاريخية في تصور شبنجلر، وإنما الزمان وحدة كبرى واحدة وإنما الفكر الإنساني لايقدر أن يدركه، إلا على أساس هذا التقسيم وإن تصور الزمان.

ولهذا يرفض شبنجلر تقسيم التاريخ إلى قديم ووسيط وحديث ويعتبر هذا ناتجا عن

---

(١) لعل مايقصده شبنجلر بالصورة هو التصور أو العقيدة.

(٢) انظر شبنجلر ص ٢٦٢ د/ عبدالرحمن بدوي.

وهم الغربيين بأن أوربا مركز العالم الحضاري[1].

فالزمان متغير تغير مطلق وهو خلق جديد في كل لحظة يتحول باستمرار[2] ولهذا لاتستطيع الأحداث والعوامل أن تسلب الزمان خصائصه أو تبدل أحواله وتقلباته الطبيعية أو تحول سيره وما إلى ذلك من صفاته الملازمة له ومن خلال هذه الصفات التي وصف بها شبنجلر الزمان يرى أن معناه الروح، والروح تتصف بنفس الصفات وزيادة، وهي القوة العاملة في بناء الحضارات أو هدمها، وهي القوة التي لايردها شئ ومن هنا كان السقوط عنده أمر حتمي، واكتفى بتفسير الحضارة تفسيرا بيولوجيا[3].

ومفهوم المكان هو كم خاضع للعدد وأنه وحدات منفصلة لا استمرار بينها وينتقل فيه الإنسان من الوحدة إلى الوحدة على شكل وثبات فجائية وبهذا المعنى فالواضح من صفات المكان هي عينها صفات المادة، فالزمان هو الروح والمكان هو المادة، والروح والمادة صورتان للوجود مختلفتان كل الاختلاف بل ومتناقضتان وهما يعيشان إلى جوار بعضهما البعض بطريقة ما تنفذ لتطورها أو تحركها في المادة لكي تصبح أكثر إدراكا وإحساسا وأقسى عودا وتصير مهيأة للعمل في أشد الظروف وأقساها، وفي نفس الوقت تجد الروح مقاومة من المادة تعوق تيارها في سير الحياة وبمقدار ما يختلف المكان عن الزمان والمادة عن الروح يختلف منهج الفلسفة عن العلم فملكة المعرفة الفلسفية عند شبنجلر هي الوجدان وفي العلم هي العقل والعقل لايدرك إلى الكم والعدد وماهو قابل للوزن والقياس.

ولايدرك الوجدان غير التتابع والاستمرار والكيف والعلاقات الروحية والمعنوية، وماهو غير مرئ وتبعا لهذا فالعقل لايتصور إلا ماهو مادي محسوس وعلى أساس الثبات المطلق بينما الوجدان يدرك المتغير والصيرورة، ولايمكن للعقل أن يدرك الحياة كلها وفي مختلف جوانبها لأنها تحوى المتغير والثابت[4].

وبهذه الفلسفة للوجود العقلي والوجداني أو الروحي للإنسان يجب أن تتجه العناية إلى الناحية الذاتية في الحضارة وهي الأفراد والشعوب أكثر من اتجاهها إلى المشاكل الموضوعية والآثار الناتجة عن العلوم والفنون[5].

ومن هنا يخلص شبنجلر إلى التمييز بين الطبيعة والتاريخ، ويرى أن التاريخ مطبوع بطابع الحدوث والاستمرارية أما الطبيعة فهي ذات نظام ثابت يكون مجموعة حقائق

---

(١) تدهور الغرب جـ ١ ص ٦٥ أزفالد شبنجلر.
(٢) شبنجلر ص ٣٣ د/ عبدالرحمن بدوي.
(٣) شبنجلر ص ٣٤ د/ عبدالرحمن بدوي.
(٤) شبنجلر ص ٤٤ د/ عبدالرحمن بدوي.
(٥) شبنجلر ص ٤٥ د/ عبدالرحمن بدوي.

وقوانين، أما التاريخ فيقوم على وقائع وأحداث تتابع في صيرورة نتيجة دوافع أو لعوامل داخلية وخارجية ناتجة عن أفعال الإنسان وأخلاقه وتصرفاته، وهكذا تختلف "متى" عن "كيف".

ومن ثنائيات الحياة هذه والمقارنة بين الثابت والمتغير فيها، يستنبط شبنجلر منهجه التاريخي لدراسة الحضارات والأمم ويرى أنه من التناقض دراسة التاريخ بمنهج الطبيعة الذي هو العلم، وإنما للتاريخ منهج آخر هو ما يسميه شبنجلر باسم "التوسم" لأن الدارس للتاريخ المعلل لأحداثه يقوم بتوسم الملامح وقراءة "السيماء" فيتخذ من ملامح الحوادث رموزا للروح التي أبرزتها ومن الآثار الباقية آيات على حياة تركتها ومن المظاهر المختلفة شاهد حياة تلك الأمة أو المجتمع المدروس، والتوسم أشبه ما يكون بفن تصوير الشخصيات تصويرا روحيا[1]..

ومنهج التوسم هذا عند شبنجلر لعل فيه ما يشبه الدعوة في القرآن للتأمل والاعتبار لاستخلاص الحكم والدروس واكتشاف سنن الله في الوجود.

وشعار منهج التوسم هو "كل فان رمز" أي كل ظاهرة رمز وتعبير عن روح وكل المظاهر ترد إلى قوة وراءها فاضت بها فعلى التوسم إذن أن ينفذ من وراء الظواهر والصور إلى البواطن والحقائق، والتاريخ ذاته هو تركيب باطنى في تصور شبنجلر وعلى هذا الأساس فسر أحداث التاريخ الحضارية كلها، وبحث قوة الروح في تقلبات الأمم بين التحضر والانحطاط وبين القوة والضعف... وذهب شبنجلر إلى أن الحضارة تولد في الوقت الذي تستمد فيه الروح الفطرية الأولية للأمة، ثم تتطور هذه الروح لتصير قوة معنوية، وتصبح شكلا وكيانا موجودا على رقعة من الأرض، ثم تضعف قوة الروح عندما تتجسد ثم تتحقق في شكل دول وشعوب، ومذاهب، وفنون، ومعارف، وعلوم، وتعود الروح إلى ذاتها وطبيعتها الأولى أمرا كامنا، ولكل حضارة علاقة روحية رمزية عميقة بينها وبين أصحابها وتكاد هذه العلاقة تبلغ درجة الروح الصوفية في شفافيتها وهى ذلك الحنان الذي يربط الناس بأمجادهم الحضارية والتاريخية منها خاصة، وبواسطة هذه العلاقة الروحية الرمزية تناضل الحضارة لكي تحقق ذاتها، وعندما تبلغ هذه الغاية وهى تحقيق الذات يتصلب كيانها ويجمد وجدانها، تتسمم روحها، ثم تخور قواها وتدخل مرحلة المدنية ويغدو حال الحضارة كحال غابة عملاقة جفت أغصانها والتوت أعناقها إلى الأرض، وهذا ما نشاهده في بقايا وأطلال تلك الحضارات العملاقة كحضارة الفرس والروم والهند[2].

---

(١) شبنجلر ص ٨٧ د/ عبدالرحمن بدوي.

(٢) انظر تدهور الغرب جـ ١ ص ٢١٨ أزفالد شبنجلر.

وكأن الحضارة ولدت لتموت، وقامت لتسقط في مرحلة المدنية التي تصبح فيها الفخامة العادية الجامدة، والوفرة العددية أو الكمية صاحبة الحول والطول، تقاس بالباع والذراع وتقدر بالقنطار والدينار، وفي هذه المرحلة تقام المباني الضخمة وتنشأ المدن العظمى، ويغدو سكانها لايمثلون أمة ومجتمعا، بل يمثلون ركاما مكدسا من الجماهير التي تتفاعل بدوافع مادية ومصالح ذاتية، لا تمت بصلة أو بعلاقة إلى الجانب الوجداني الروحي للأمة، وليست منازلهم سوى ملاجئ يأوى إليها أناس لا تربطهم رابطة القرابة والدم أو غيرها، وليس معنى هذا فناء الحضارة فناء نهائيا بل تبقى قادرة على البقاء والاستمرارية قرونا، وتكون كالشجرة التي استنفدت أغصانها أوراقها ثم لازالت تدب داخل عروقها مياه الحياة[1].

ولما كانت الحضارة لكائن البيولوجي عند شبنجلر فإنها تمر بنفس الأدوار التي يمر بها هذا الكائن الحي الإنساني من طفولة وشباب ورشد وشيخوخة، ولما كانت ظاهرة التميز بين الحضارات معروفة فإن كل حضارة ترفع تعبر عن نفسها بما ينبثق عنها من صيغ دينية، وفكرية، واقتصادية، وسياسية... وفق هذا التصور فإن كل حضارة مدفوعة بالضرورة لتحقيق ذاتها في الوقت الذي يستيقظ فيه "الإناء" الروحي للأمة[2].

ويستخلص من تصور شبنجلر عن الحضارة أن فكرة المصير الذي يعني به تلك الضرورة الباطنية الغير قابلة للوصف وهى التي تحرك التاريخ، وتكشف ما في النفس من رغبة وحنين إلى الرقي والتقدم، ولذلك فإن فكرة المصير تسيطر على الرؤية الوجدانية الداخلية للأمة، أو العالم، ثم تصيغ الحقيقة الظاهرة في الوجود، بينما السببية هى صيغة وجود المواد والعوامل التي تطرد خارج عالم الشعور والوجدان[3].

وفي رأي شبنجلر أن كل المفكرين قد أساءوا فهم فكرة المصير إساءة كاملة، ولعل السبب كونها فكرة غير قابلة للرؤية، وغير قادرة على الوجود المادي المترجم أمام الناس[4].

وطبقا لمفهوم المصير بوصفه وجودا عضويا منطقيا غير قابل للرؤية فإن كل حضارة يجب أن تمتلك بالضرورة فكرتها المصيرية الخاص بها والمميزة لها[5].

ولئن حاول شبنجلر فلسفة فكرة المصير وبيان دورها في تحريك التاريخ، فإنها ظلت غير واضحة التصور، وهى أن الحضارات كائنات حية ذات شبه بيولوجي تمر بالمراحل

---

(١) انظر شبنجلر ص ١,٣ د/ عبدالرحمن بدوي.
(٢) انظر تدهور الغرب جـ ١ ص ٢٢٤ ازفالد شبنجلر.
(٣) انظر تدهور الغرب جـ١ ص ٢٣٩ ازفالد شبنجلر.
(٤) انظر نفس المصدر السابق جـ ١ ص ٢٣٨ ازفالد شبنجلر.
(٥) انظر نفس المصدر السابق جـ ١ ص ٢٥٢ ازفالد شبنجلر.

ذاتها التي يمر بها الكائن الحي، وهذا هو الوصف الذي طغى على تفكير شبنجلر وتصوره، مما حال دون تعمقه في بحث العلل والأسباب الداخلية والعوامل الخارجية التي تقود الأمم والأجيال، وتحرك التاريخ والحضارات، ولم يفلح شبنجلر في الوصول إلى القوة الفاعلة المؤثرة في النفس والمجتمع كما سنعرف.

وإن كانت فكرة المصير ومنهج السيمائية[1] من أمتع أفكاره وأقواها في دراسته للحضارات والتي كانت أي دراسته أصلا منصبة على دراسة الحضارة الغربية المعاصرة[2].

هذه الحضارة التي أقلق تدهورها المفكرين وعلماء الاجتماع والمؤرخين كثيرا وخاصة أهل الغرب، لأعتقادهم بأن الفناء قد دب إلى كيانها فجاءت مؤلفاتهم منذ القرن التاسع عشر مليئة بالأمثلة المتشائمة عن هذه الحضارة ومصيرها، وخاصة المفكرين الألمان والذين منهم شبنجلر في كتابه "تدهور الغرب" وبعض المذكرات الأخرى، ولعل روح العقيدة المسيحية المتشائمة قد حلت بتفكير القوم وعقولهم، هذه العقيدة التي كانت ترى قيام القيامة وحدوث الساعة سنة ألفين ميلادي، وهذه النظرة هي التي سيطرت على تصوره وفكره، كما كان للنزعة المثالية في الفكر الألماني التي تشعر بالقلق للاختلاف الشديد بين عالم المثل وعالم الواقع دور في هذا التناقض بين ما يعتقده الألمان من أنهم الأسياد والجنس الراقي السامي وما واجهوه في بعض فترات الحرب في التاريخ[3].

لقد أبدع شبنجلر في وصف الأزمة الروحية التي تعانيها المدنية الغربية اليوم هذه الأزمة التي تسعى بإلحاح لتجد لها منفسا ومخرجا والمدنية الغربية مدنية تشيع القلق والاضطراب في نفس أبنائها وقد أخذت ابتداء من عام ١٩٤٥م تنقل هذا الاضطراب إلى الشرق وبذلك غدا الإنسان فريسة دائمة للانتهازية وهو يستغرب التضحية ويستهجن العطاء ويسخر من كل عمل لايحقق له ربحا ماديا فوريا ومثل هذا الإنسان لايمكن أن يكون لبنة في صرح الحضارة، ولما كانت الأحساسيس لا تشبع بل تنتهك لذلك تصاب المدنية بالسأم والملل ويفتش أهلها على مهرج لا صديق ونديم ورفيق وبهذا تنقلب موازين القيم إلى درجة تجعل أهلها يحسون بعقم الحياة وعدم وجود أي حافز يدفعهم إلى روح التحضر والاستمرارية، وما يقطع سبيل التفاؤل في رأي شبنجلر إيمانه العميق بأن الوقائع الحضارية لاتتكرر أبدا وهو يريد أن يقول لأبناء الحضارات

---

(١) ما يقصده شبنجلر بالسيمائية هو السيمة أي الميزة. وفي تصوره أن لكل حضارة مميزاتها وسيماتها يجب أن تدرس في إطارها.

(٢) انظر تدهور الغرب جـ ١ ص ٣٩ ازفالد شبنجلر.

(٣) انظر الحضارة سلسلة كتابك ص ٥٤ احمد حمدي محمود.

السابقة بأن حضارتهم لاتعود أبدا وينادى ببشارة حضارة جديدة قريبة الولادة كبديل عن الحضارة المدنية المنحدرة الآن، وهذه الفكرة والمرحلة القائمة ستشغل القرون الأولى القادمة والتي نرى الآن طلائعها ونحس بها حولنا وأعنى بها انحطاط الغرب[1].

ويتركز النقد الذي واجهته رؤية شبنجلر للحضارة في نقطتين:-

١ - فيما يتعلق بنبؤته المتصلة بتدهور الغرب وسقوط حضارته التي دخلت مرحلة المدنية ودور الاستمتاع المادي والترف العقلي الذي لاينتظر بعده إلا الفناء الذي لا مفر منه.

٢ - وفي تشبيهه لدورة الحضارة بدورة الكائن الحي إلى مدى بعيد لا يتفق والمنهج العلمي، ذلك أن الكائنات العضوية الحية تبدأ في الضعف والتدهور بعد أن تبلغ درجة معينة من النمو البدني في حين أن الشعوب والأمم يتجدد شبابها ونشاطها مع ميلاد كل جيل، وإن كانت للأمة شيخوخة كشيخوخة الكائنات الحية فإن شيخوخة الأمة الحضارية لها مفهوم آخر في الضعف والفساد وبروز ظواهر اجتماعية وسياسية وثقافية تحل بساحتها وكيانها عندما يدب إليها الهوان نتيجة أسباب وعوامل كثيرة[2].

ولا وجه للشبه بين الكائن الحي والحضارة إلا عن طريق المجاز اللغوي، ثم ينتقد شبنجلر في تفسيره للتاريخ تفسيرا بيولوجيا، فضلا على أن التاريخ يخضع لقانون حتمي كما يفهم من آراء شبنجلر، كما علق النقاد المؤرخون على بعض الأخطاء التاريخية في دراسته الواسعة للتاريخ[3].

وكانت هذه الآراء محل نقد شديد لشبنجلر من فلاسفة التاريخ والحضارة فعدل عن بعض آرائه نتيجة لهذا النقد ولكن صلب رؤيته ظل قائما ويمكن أن يتلخص نقده في رأي أحد تلاميذه عندما ذهب إلى أن هذه الرؤية "الإشبنجلرية".. تمكننا من الحكم على مستقبل أية حضارة بدراسة ما قطعته من أطوار حياتها فتعرف ما بقى من عمرها[4].

ولعل ما زاد حدة النقد ضد شبنجلر أنه حاول إسقاط أو تطبيق آرائه على الحضارة الغربية وأعتقد أنها دخلت مرحلة التأمل والاستمتاع المادي وهى مرحلة النضج والكمال التي تعد آخر طور في أعمار الحضارات، ولم يبق للغرب إلا التنحي عن

---

(١) تدهور الغرب جـ ١ ص ٢١٨ أزفالد شبنجلر.

(٢) التاريخ والمؤرخون ص ١٧٤ د/ حسين مؤنس.

(٣) في فلسفة الحضارة الإسلامية ص ٢،٢ د/ محمد عفت الشرقاوي.

(٤) التاريخ والمؤرخون ص ١٧٦ د/ حسين مؤنس.

كرسي قيادة البشرية لفسح المجال أمام أمة أخرى لقيام حضارة جديدة تكون أكثر استجابة لحاجات الإنسان في أحسن حالاته، وذهب شبنجلر إلى أن إعادة الشباب للحضارة الغربية غدا مستحيلا استحالة إعادة الشباب إلى الإنسان أو الحيوان الذي أدركته الشيخوخة، وكل محاولة ستبوء بالفشل وجاءت في فترة متأخرة بعد استفحال الأدواء بالغرب.

وغضب المفكرون الغربيون على شبنجلر غضبا شديدا بسبب هذه النبوءة السوداء بمستقبل حضارتهم[1].

ومهما يكون من مبالغة شبنجلر في تشبيه الحضارة بالكائن العضوي الحي من حيث نشأته ونموه وشيخوخته وفنائه فإن هذا ينبغي ألا يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه لايدرس الحضارات بوصفها ظواهر روحية منغمسة في بيئاتها الطبيعية إذ الحضارة عنده انبعاث روحي لجماعة من الناس يربطهم مفهوم متقارب للوجود فينعكس ذلك على ألوان نشاطهم في الفن والدين والسياسة والفلسفة والاقتصاد والحرب، وفي ذلك يكون مفهوم هذه الجماعة المتميز للمكان الذي يعيشون فيه ويمارسون نشاطهم فيه وهو مجال التعبير من هذا الانبعاث الروحي ومثل هذا المفهوم المتميز للمكان هو عند شبنجلر الرمز الأولي للحضارة والمفتاح الحقيقي لفهم تاريخها[2].

ومع النقد الذي واجهته رؤية شبنجلر فإنه لم يقدر أحد أن يقدم إجابة شافية وتفسيرا صحيحا يمكن من تحاشي أية حضارة مصير سائر الحضارات التي سقطت في التاريخ القديم والحديث، وما مرت به سائر هذه الحضارات أيضا من تدهور وفناء، ولعل هذه القضية من أكبر القضايا أو المشاكل المستعصى حلها على الإنسانية، وإن كانت آراء شبنجلر لاتتسم بالتحليل العقلي بقدر ما تتسم دراسته للتاريخ بالطابع الروحي الشعري والأحكام الجمالية، فإن ذلك في تصور شبنجلر هو منهج العلم في دراسة الطبيعة.

ولقد كان لأراء شبنجلر تأثير عميق في مفكري الغرب بعد الحرب العالمية الثانية كتوينبي، وكولن ولسن.. اللذين أصبحا أكبر شغلهما مصير الحضارة الغربية، وآزمات الإنسان والإنسان الأوربي بالذات، ولعل كثرة الآراء والاجتهادات تثرى هذا الموضوع، فيتوصل إلى حل مشكلة أو ظاهرة مصير الحضارات والحضارة الغربية بالخصوص فيكون لشبنجلر فضل إثارة القضية لأحساسه الروحي[3].

---

(١) التاريخ والمؤرخون ص ١٧٧، د/ حسين مؤنس.

(٢) في فلسفة الحضارة الإسلامية، ص ١٩٨، د/ محمد عفت الشرقاوي.

(٣) انظر فلسفة التاريخ، ص ٢٥٨، د/ أحمد صبحي.

كما كان لآراء شبنجلر في الدعوة إلى التخلص من فكرة تقسيم التاريخ إلى قديم، ووسيط، وحديث أثر في تصور بعض المؤرخين، ورأي شبنجلر أن هذا تقسيم تافه غير ذي قيمة، وأن هذه فكرة سيطرت على عقول بعض المؤرخين وفلاسفة حضارة الغرب بغير حق، وجاءت نتيجة ظن هو أن أوربا مركز البشرية وأن حضارتها نهاية الإبداع الحضاري الإنساني، وما الحضارة الغربية إلا حلقة من حلقات الحضارات، وقد استحوذ هذا التصور على نفوس وعقول جل أبناء الحضارات الفانية فأصيبوا بالغرور، واعتقدوا أنهم لن يهلكوا لما وصلوا إليه من قوة، وذهب شبنجلر إلى أن سقوط الحضارة الغربية بات أمرا محتوما، وواجه هذا الرأي نقدا من مفكري الغرب والمتعاطفين مع حضارته(١).

ولقد أسرف اشبنجلر في تقدير الطابع الخاص لكل حضارة أو أراد أن يجعل الحضارة خاضعة لنزعة عنصرية أو ثمرة عبقرية خاصة بميسم إبداع أساسي وليست هذه النزعة من شبنجلر الألماني إلا ترجمة لتيار كبير تتسم به معظم المدارس الألمانية في تفسير التاريخ وهي المدارس التي أنجبت "نيتشه" في المجال النظري و "هتلر" في المجال العملي، وحتى الرياضيات والفنون في رأي شبنجلر تختلف من حضارة إلى أخرى(٢).

وحتى الأخلاق والمثل العليا تختلف باختلاف الحضارات فهي نسبية ولكل حضارة قيمها الاخلاقية الخاصة بها وحدها لأنها صادرة عن روحها الخاصة الممثلة لرمزها الأولى وهناك فلسفة خاصة أيضا لكل حضارة وتكون جزءا من تعبيرها الرمزي الكلي.

ويختلف تصور الحضارات عن العلوم وحقائق الوجود والألوهية وما إلى ذلك، ويترتب على هذا كله أنه ليس هناك ما يسمى بالحضارة الإنسانية العامة، وإنما هناك حضارات مختلفة لها خصائصها المختلفة وأعمارها المحدودة بوصفها كائنات بيولوجية يجرى عليها مايجرى على الكائنات الحية في تطورها الطبيعي(٣).

وكان من الضروري لفهم أراء وأفكار شبنجلر أو أي فيلسوف آخر من معرفة شيئا ولو بسيطا عن نفسياته وطريقته التي انبجست عنها فلسفته ونظرياته، وخاصة أن فلسفته فلسفة جديدة في فهم تطور التاريخ البشري للحضارات التي شكلت شعوبها هذا التاريخ، وثاني شئ هو أن فلسفته فلسفة تشاؤمية بأوسع معنى ومفهوم التشاؤم، ولعل سبب ذلك إيمانه العميق بالطبقية في المجتمع وقناعته بأن النبلاء هم الطبقة الوحيدة التي تمثل الأمة حق التمثيل في المجتمع وقد رآها تتهاوى أمام ثورة الجماهير الشيوعية(٤).

---

(١) انظر في فلسفة الحضارة الإسلامية ص ١٩٥ - ٢,٢ د/ محمد عفت الشرقاوي.

(٢) التفسير الإسلامي للتاريخ - نحو نظرية إسلامية - ص ٢,٢ د/ عبدالحليم عويس.

(٣) في فلسفة الحضارة الإسلامية ص ٢,١ د/ محمد عفت الشرقاوي.

(٤) تدهور الغرب جـ ١ ص ٩ المترجم.

وتلازمه لعصر أنتشرت فيه المذاهب اللادينية مع توسّع الاستعمار الأوربي فتهيأ له أن ذلك بداية تدهور الغرب ولشدة قوة الشر يستحيل تجديد شباب هذا الحضارة كما يتعذر استرجاع شباب الكائنات العضوية ولايمكن أن نفعل شيئا إذا كنا ولدنا في أول شتاء هذه الحضارة وأنها ليست أزمة طارئة ولكنها مأساة لايمكن تجنبها إذ لا مفر من المصير المحتوم[(١)].

وهذا ما أدى به إلى دراسة الحضارات دراسة تميل إلى الاعتماد على الحس الذاتي والرؤية العقيدية أكثر من ميلها إلى العرض المنهجي المنظم والتحليل المنطقي المرتب[(٢)].

أرنولد توينبي١٨٨٩م:

درس توينبي تاريخ البشرية دراسة عامة واستنتج أن التاريخ يتكون من سلسلة من التجارب والأحداث يصل كل منها إلى قمته في صورة حضارة قائمة[(٣)].

واختار من حضارات العالم أحدى وعشرين حضارة ومضى يدرس كل واحدة دراسة عميقة شاملة فتجمعت له ثروة من المعلومات والأفكار وتبين له أن حضارة كل أمة من الأمم التي اختارها موضوعا لدراسته إنما هي استجابة لتحدى الظروف التي وجدت فيها هذه الأمة، كما تبين له أن الحضارات التي درسها مرت بمراحل وأطوار متشابهة في النمو واستمرار التقدم وزيادة القوة ثم أعقبتها مراحل أخرى من المصائب والمحن الداخلية والخارجية ثم تلاها تصدع في العناصر التي قامت عليها، وأن هذا التفكك أو التصدع في أي من الحضارات الآفلة يأخذ صورة انشقاق في صفوف الصفوة القائدة ويؤدي إلى العجز عن الاستجابة وشيئا فشيئا تفقد القيادة سيادتها الإبداعية فتحيل الأمور إلى الاضطراب والفوضى[(٤)].

ورأى أن أي مخلوق حي يجد نفسه بمجرد خلقه أمام عوامل تعمل على إفنائه وعوامل تعمل أيضا على قوته وإسعاده.

ومن هنا تولدت نظرية التحدي والاستجابة لدى توينبي التي تعتبر أم أفكاره وركيزة آرائه في ميدان الدراسات التاريخية وبحث شؤون الحضارات والأمم، واتضح أن المجتمعات أو المجموعات البشرية دائما تقودها الزمرة المختارة وأصحاب الرأي في الأمة نحو التحضر استجابة للتحدي المضروب على الناس، وتكون الاستجابة هي الإبداع

---

(١) فلسفة التاريخ ص ٢٥٧ د/ أحمد صبحي.
(٢) في فلسفة الحضارة الإسلامية ص ١٩٣ د/ محمد عفت الشرقاوي.
(٣) انظر التاريخ والمورخون ص ١٧٧ د/ حسين مؤنس.
(٤) نفس المرجع – ص ١٧٩ د/ حسين مؤنس.

والابتكار في الأفكار والمناهج ووسائل المعاشية والترفهية... وعندما تصل عملية ما إلى ذروة الإنتاج والاختراع تتوقف وتتجمد القرائح وتتصرف الصفوة المبدعة إلى انشغالات أخرى وتبدأ الحضارة في التدهور والانحطاط ثم الأفول والسقوط، وهكذا تعود الجماعة البشرية من حيث بدأت[1].

ويفرق توينبي بين مجموعتين من المجتمعات البشرية الأولى بدائية والثانية حضارية ويوضح أن هناك مجتمعات اندثرت قبل أن تبلغ شأنا في التحضر، واندثرت أكثر الحضارات الإنسانية وأفنتها عوامل الدهر ولم يبق منها إلا ست تمر الان بمرحلة أو دور الانحلال وكلها تدور في فلك الحضارة الغربية، وهي الأرثوذكسية المسيحية البيزنطية والأرثوذكسية الروسية، والإسلامية، والهندوكية، والصينية، والكورية، والحضارة الغربية القائمة والسؤال الذي أقام عليه توينبي منهجه في دراسته هو ما الذي أخرج الإنسان من طور الجمود والسكون الذي قبع فيه فترات طويلة من الزمان إلى أجواء الطور الحضاري الزاخر بالنشاط والحركة، وهل يمكن اعتبار العرقية أو المناخية في الأجناس والبيئات سببا في نشوء الحضارات المعروفة في التاريخ الإنساني؟

تعتقد بعض الآراء أن للجنس والبيئة دور في قيام الحضارات، ولكن توينبي يتلقى هذه الآراء بالتحفظ الشديد لأنها لا تستند إلى واقع تاريخي اجتماعي صحيح أو إلى علم، وإنما هي تخمينات وتأويلات ارتكزت إلى آراء علم النفس الاجتماعي وهو دراسات مازالت لم تأخذ قواعد العلم ولم تتجاوز مرحلة الطفولة، فهي إذن غير موثوق في أبحاثها وبالتالي لاتصح أن تكون علما تبنى عليه أسس نظريات تاريخية حضارية خطيرة النتائج[2].

والحضارات ميراث إنساني مدته مختلف الأجناس والبيئات بعبقريات كثيرة، كما أثرت فيه عوامل شتى في جميع نواحي الإبداع والابتكار، ومهما يكن فإن عوامل البيئة والجنس والاقتصاد وما ناظرهما ما هي إلا عوامل مساعدة في قيام الحضارات وليست عوامل أساسية ولقد ذهبت كثير من هذه الآراء في ميزان الدراسات النقدية تهافتا وجفاء[3].

والعامل الأساسي في نشؤ الحضارات عند توينبي هو التحدي الخارجي والاستجابة الداخلية. ولقد استخلص توينبي هذه النظرية من دراساته لتاريخ الحضارات ونقده لآراء المفكرين وتصوراتهم الفلسفية لعوامل قيام الحضارات وسقوطها ولعل من خير ما تميز به نقد توينبي في هذا الموضوع إنكاره بشده قيام الحضارة أو سقوطها بتأثير عامل

---

(١) التاريخ والمؤرخون، ص ١٧٨، د/ حسين مؤنس.

(٢) انظر مختصر دراسة التاريخ جـ ١، ص ١٠٤، أرنولد توينبي.

(٣) انظر التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٧٢، د/ عماد الدين خليل.

واحد. كما أنكر بالشدة نفسها التفسير البيولوجي للحضارات.

ويرد على الذين يرون أن عامل البيئة الجغرافية هو الأساس في قيام الحضارة بأن هناك جماعات بشرية أقامت حضارات استجابة لعامل الجفاف والفقر، وهناك بلدان أو شعوب غطاها النعيم والثراء، ولم تعرف أي ازدهار حضاري[1].

وأخلص إلى أن العامل الأساسي في رأي توينبي في قيام الحضارات هو التفاعل ما بين التحديات الخارجية الطبيعية والبشرية، والاستجابات الداخلية من الإنسان والمجتمع. ولعل توينبي يشترك مع مالك بن نبي في هذا التصور حيث يرى هذا الأخير أن للاستعمار دور في إيقاظ الشعوب المستعمرة، ويعتبر الاستعمار عاملاً خارجياً، أيقظ بتحديه قوى الأمم الكامنة، ورب ضارة نافعة.

ويرى توينبي أن الاستجابة للتحدى لدى الأقلية المبدعة تتولد وتنشأ عن عوامل نفسية، واجتماعية، وبيئية، ومن ذلك غريزة حب الاستطلاع أو التطلع إلى معرفة المجهول وكشف أسراره، كما هو معروف في حياة الباحثين والمخترعين، وتاريخ الرحالة والفاتحين. ومن هنا يمكن أن تكون أطلال الحضارات البائدة وأخبار الأمم الخالية، وهو ما يعرف في الفكر الإسلامي بالعبر والعواقب - عوامل تجديد وبعث حضاري، للأمة نفسها أو لغيرها من الأمم التي قد تكون لم تعرف أي تحضر ونحن نعيش هذه السنوات ظاهرة بحث التراث ومحاولة إحيائه وبعثه وتوظيفه لإثبات الذات الحضارية. والخروج من التخلف والانحطاط، مع مادخل هذه الظاهرة من شكوك..

ويرى توينبي أن المرء لن يصير مؤرخا أو باحثا، دون أن تتحرك داخله غريزة حب الاستطلاع، والاكتشاف العلمي لكيانه الذاتي الحضاري، وبهذا تنشأ ملكة البحث والاطلاع والتنقيب والاستخبار لدى الأفراد، وبذا تكونت غريزة حب الاستطلاع العلمي لدى كبار المفكرين، والعلماء والمؤرخين والقادة، ونشطت العقول تبدع وتخترع. في الرد على التحديات الطبيعية والإجابة على الأسئلة ذات المغازي الحضارية كقضية تحقيق السعادة والرفاهية للأمم. والإجابة على أحداث التاريخ الكبرى كعوامل قيام الحضارات وعلل انحلالها وسقوطها وما إلى هذا من قضايا التاريخ والأجيال، ولابد أن يكون وراء أي عمل إبداعي دوافع ذاتية وموضوعية، وبفعل جدلية التفاعل بين الذات والموضوع كاستجابة وتحدي في نفس الوقت توجد القيمة أو الناتج الحضاري. والاستجابة لأي تحد صادر عن طبيعة البيئة الجغرافية أو عن الوسط البشري، أو عن كليهما لاتكون إلا في ظل زعامة أقلية مبدعة وتنهار الحضارات والمجتمعات عندما تعجز الأمة عن رد أو إبراز استجابة إبداعية على يد الأقلية أو الصفوة وبدون الاستجابة

---

(١) انظر مختصر دراسة في التاريخ جـ ١ ص ١٥ توينبي.

الذاتية التي يثيرها حب الاستطلاع تبقى معظم أحداث التاريخ وتحديات الطبيعة والمجتمع ترد على نفس خرساء صماء لا تحدث أثرا ولا تثير استجابة.

وعملية الإبداع هي القوة الفعلية المحركة للتاريخ والمغيرة للمجتمع والتي تكمن في الذات البشرية، ولا مناص من أن تقوم نزعة حب التطلع بتعزيز قابلية الاستيعاب وقوة الإبداع، ولذلك لم يكن أهالي الريف يوماً أصحاب عقلية إبداعية في التاريخ، إذ لا تحدثهم بيئتهم الاجتماعية عن التاريخ بل تحدثهم عن الطبيعة فتظل القوة الإبداعية بدائية وعامل الاستجابة كامناً في النفوس(1).

وتؤدى نظرية التحدي والاستجابة دوراً رئيسياً في معرفة عوامل تقلبات الحضارات وتفسير أحداث التاريخ وقضايا الإجماع البشري، ولقد استنبط توينبى نظريته هذه من قراءات كثيرة في تاريخ الأمم الحضاري، ومن مطالعته في العهد القديم - التوراه التي يراها مجموعة من الأسفار كتبت على مدار فترات تاريخية عديدة تمتد إلى مئات الأعوام. ومن معرفة توينبى للتقلبات التاريخية الحضارية لبنى إسرائيل أستقرأ من التاريخ مجموعة أفعال يبرز الله بها تحدياً للبشر ليجابهها البشر باستجابات داخلية مما يولد تفاعلات تظهر في شكل قوة مبدعة، ولعل من أكبر التحديات البشرية في نظر توينبى الصدمات الخارجية للاحتلال الأجنبي التي تستثير الطاقات الإبداعية الكامنة في الأمة فتقابل التحدي بنفس القوة المهاجمة أو أشد(2).

وشبه توينبى حال الأمة في الاستجابة للتحدي الأجنبي بجسم الإنسان حين يبتلى بفقد عضو من أعضائه أو حاسة من حواسه فإنه تجرى له علمية تعويض في عضو آخر. كما نجد مثلا قوة اللمس والإحساس والذكاء عند كثير من المبصرين. وكذلك نجد كيان الأمة الحضاري، فعندما تنصرف الغالبية إلى اللهو واللعب فإنها تعوض بقوة عمل فئة قليلة من الأمة ذاتها، وغالبا ماتكون هذه الفئة من العلماء والمفكرين والقادة والأبطال، يتفانون في خدمة بقية القطاع العريض الطويل من الأمة الذي تقاعس وتكاسل، ولعل هذا مايقصده توينبى بالأقلية المبدعة أو الإبداعية والأغلبية المحاكية(3).

ويذهب توينبى إلى أن الملاحم والأنشودات العقيدية والتاريخية التي تطرب الأمة بتحريك المشاعر الكامنة وإثارة العواطف والوجدان هي من أقوى العوامل في إلهاب حماس الفئة المبدعة، وكذلك الحملات القتالية والمواقف العنيفة التي يسطرها المفكرون والقادة ويخوضها الأبطال والزعماء بالشعوب مما يحول الاستجابة إلى كتلة من العواطف والأفكار المشحونة بالرغبات والميول إلى تكوين الأمجاد وطلب العز والخلود وهذا ما

---

(1) منهج توينبى التاريخي ص ٧ - ٩ د/ محمد فؤاد شبل.

(2) انظر منهج توينبى التاريخي ص ٥٣ د/ محمد فؤاد شبل.

(3) منهج توينبى التاريخي ص ٥٥ د/ محمد فؤاد شبل.

يؤدى إلى الانتحار الجماعي إن فقدت الحركة التصوّر الصحيح وغلب على أمرها الطمع والحماس وهذا شئ ظاهر في تاريخ الثورات والحركات الأيديولوجية، كما صار للشيوعية والنازية الهتلرية اللتان ربتا أفرادا وجماعات على التفاني والقتال دون رسم هدف إنساني صحيح، وقد عرفت حركة الجهاد الإسلامي في العصور الأولى شيئا من هذا إلا أنها كانت هادفة وقائمة على أساس صحيح وضبطت بمقاييس عقيدية سليمة، مما جعل التضحية والاستشهاد أسمى أماني المسلمين في إطار ما أباح الله، وفي مثل هذه المواقف تصل الجماعات الإنسانية إلى مستوى من الرقي الروحي بحيث يصير المبدأ أفضل من الحياه[1] ويهون كل غال من أجل الهدف ويعتمد توينبى في تعليل عملية أو ظاهرة سقوط الحضارات وانهيارها على نظرية التحدي والاستجابة، فاستمرار التحدي وتكراره على حضارة من الحضارات يضعف تلك الحضارة، وينتهي بتدهور شديد في قواها، وعندئذ تخفق في إيجاد استجابات أمام سلسلة التحديات المتكررة، فتكون هذه التحديات الفواجع الحضارية التي عرفت الإنسانية كثيرا منها، وبالرغم من وجوب تعرض الحضارات للتحديات كشرط أساسي للاستمرارية في الصيرورة التاريخية والارتقاء لأنها هنا تكون حافزا على المضي في الطريق الصاعد، أما إذا كان التحدي ضئيلا ضعيفا فإنه عندئذ لايكون حافزا ارتقائيا، بل يكون عاملا مدمرا، وكذلك إذا كان التحدي عنيفا شديد الوطأة فإن القوة المبدعة في المجتمع تعجز عن تحقيق استجابة ملائمة ومتكافئة تؤدي إلى الاستمرارية والإبداع فيصيب الأمة الهوان والحضارة والانحلال والضعف ثم السقوط وظاهرة التقدم الحضاري تنتج عن قوة الإبداع. ونشاط حركة القوة المبدعة وهى ما يطلق عليها توينبى الوسط الذهبي الذي يضمن دفع الحضارة المستجيبة إلى التحضر الأكثر ازدهارا والأدوم استمرارية وبقاء، وأحسن وضعيات الحضارة عندما تتكافأ قوى التحدي والأستجابة وإذا حدث اختلال في التوازن أدى ذلك إلى اختلال فينمو الحضارة واستمرار رقيها[2].

وثاني العوامل في اختلال التوازن الحضاري المنذر ببداية السقوط وحدوث الانهيار هو تحول القيادة أو الأقلية المبدعة إلى أقلية مسيطرة مستبدة فتتحرك الفتن وتثور الانتقادات في الأغلبية أو الأكثرية، فتتبادل التهم والانتقادات، فتعجز القيادة عن فك الخصومات وتوفير المطالب وتحقيق العدل، فتحكم بالقهر والظلم، فيشتد التحدي الداخلي المنبعث من الأغلبية، ويظهر ما يطلق عليه "البروليتاريا" وهى طبقة جديدة تعقد العزم على خلاص نفسها من الظلم وتثير في المجتمع نزعة الشعور أو الإحساس بالظلم والقهر ضد الأقلية الحاكمة. ويشتد الصراع بين هاتين المشيئتين المتضادتين إلى أن يصل

(١) انظر منهج التأريخ وفلسفة التاريخ، ص ٧٥ .
(٢) انظر منهج التأريخ وفلسفة التاريخ، ص ٧٠ .

بالحضارة إلى الأفول وتغرب شمسها وتنزوي في عالم الفناء، وقد تطول هذه المرحلة لتكافؤ "المشيئتين" وتعيش خلالها الأمة في الفوضى والاضطراب والحروب وتنتشر مساوئ الأخلاق والمعاملات ولكن النهاية الحتمية للسقوط إما عن طريق "بروليتاريا" خارجية تغزو البلاد، أو عن طريق تآكل القوى الداخلية المتناحرة[1].

ويركز توينبى على خطورة عامل ثالث عادة ما يأتي في مرحلة متأخرة من التدهور الحضاري في الأمة ذلك هو عامل الانشقاق أو الانشطار، وهو تفكك الوحدة النفسية والاجتماعية للأمة وينشأ هذا العامل عن تفشي الخلافات الداخلية أو بمعنى آخر هو حصيلة حركتين سلبيتين متناقضين في الأمة، الأولى تتمثل في محاولة الأقلية المسيطرة المحافظة بالقوة على مركزها والثانية مواجهة "البروليتاريا" الداخلية القوة بالقوة.

والانشقاق نوعان: - انشقاقات رأسية، وانشقاقات أفقية وقد يكون الانشقاق تناسخا أي وسيلة لتوليد حركة بناءة من باب حدوث الشئ من ضده أو إذا بلغ الشئ حده انقلب إلى ضده.

أي أن الانشقاق قد يصل إلى التكتل والتعاون فيصبح قوة إنتاجية مبدعة وليس حتما أن تتسع زاوية الخلاف كلما بعدت عن نقطة الانطلاق وهذا مايراه توينبى ولكن غالبا ما يؤدى الانشقاق وغيره من الظواهر السلبية في الأمة إلى خطورة الموقف أو إلى تدهور كيان الأمة الحضاري وإن حدث العكس إنما هى حالة شاذة وليست القاعدة[2].

ويرى توينبى أن الانشطار العمودي أو الرأسي هو الذي يمهد للتدهور والسقوط الحضاري، بمعنى أن الفساد يبدأ من القمة وليس من القاعدة، ويقصد به الاضطرابات الكبرى التي شهدتها المجتمعات التي انتهت بالانحلال والتدهور التدريجي أو السريع إلى الاندثار وأفرزت عوامل الانهيار جراثيم الخراب إلى الحضارات الأخرى التي ورثتها الأفكار والقيم والنظم والدساتير.

والانشطارات الأفقية من شأنها أن تحدث تمزقا في جسد المجتمع وتنتهي بقيام دويلات وجماعات متناحرة داخليا تتآكل ولا تتكامل مما يولد أو يفرز ظواهر بربرية همجية كعصبات الجرائم، وكلما قضى على ظواهر الانشقاق ازداد ضعف المجتمع وفقد قوة السيطرة على ذاته وفقد المقاومة الداخلية، ويمضى توينبى في استقصاء نماذج هذه الشروخ ويتتبع أخطارها في جسد المجتمع والحضارة، وحتى لايبقى في الأمة كيان حي ينبض بالحركة والعمل الجماعي، ويسود ما يسميه توينبى بالفراغ التاريخي الذي تتولد

---

(١) انظر مختصر دراسة للتاريخ ص ١٤٢ - ١٤٣ جـ ٢ . أرنولد توينبى.

(٢) انظر مختصر دراسة للتاريخ جـ ٢ ص ١٥١ - ١٥٥ . أرنولد توينبى.

منه بذور قيام دورة حضارية ثانية على أنقاض الأولى تخالفها في السلوك والتصور[1].

وهكذا يأذن الله لأمة من أمم الأرض بقيادة البشرية قيادة جديدة.

ولقد نقد توينبى أساليب ومناهج المؤرخين السابقين له ولاحظ أنه لايمكن دراسة تاريخ أية أمة بمفردها أو عصرا بذاته بل البحث التاريخي يجب أن ينصب على بحث قضايا الحضارة ككل والتي تعتبر الدول والأمم والأجيال أجزاء منها وبهذا يستحيل دراسة تاريخ أمة أو دولة بمعزل عن تاريخ بقية الأمم، ويترتب على هذه النظرة أن العوامل المؤثرة في تاريخ الأمم ضعفا وقوة ليست دائما ذات طابع قومي أو عرقي... ولكنها أوسع من الحدود والعرقية والقومية لأن الإنسانية كل متكامل شاءت أم أبت حست بذلك أم لم تحس وهذا أمر ثابت منذ الأزل وفي هذا الإطار ومن هذا المنطلق يجب أن ينظر إلى قضايا المجتمع ودراسة الحضارة كأجزاء في سلسلة واحدة هي الحقل التاريخي والمجتمع الإنساني وحتى العامل الواحد قد يؤثر في الأجزاء المختلفة تأثيرات تختلف من جزء إلى جزء آخر[2].

ولا ريب أن هناك حقيقة مسلمة وهي وجود عملية التأثير والتأثر وهي عبارة عن إنجازات إنسانية في شتى الميادين ظلت متبادلة ومتوارثة بين الحضارات التي سمت إلى مستوى عال كانتقال النظم والأفكار والمعارف والعلوم بين الحضارات وليس ثمة أدنى شك في أن كثيرا من المخترعات قد ابتدعت مرة واحدة في التاريخ فأصبحت كسب للإنسانية تتناقلها الأجيال وتكررها التجارب[3].

ويقدم توينبى تصورات مختلفة عن تصورات شبنجلر في شرح قضايا الحضارات والتاريخ مستفيدا من أخطائه، واستخدم توينبى المنهج التجريبي، ووقف على أسباب نشأة الحضارات وأسباب تدهورها من خلال دراسته لواحد وعشرين حضارة.

وبهذا غلبت الواقعية والموضوعية على آرائه عندما أدرك أن كثيرا من الحضارات أفنت أو تدهورت بأسباب مختلفة وتحت عوامل متفرقة، فشبنجلر تغلب عليه النظرة التشاؤمية أو فكرة السقوط الحتمي بينما توينبى يرى أن الحضارات تفنى كأفراد ودول ولكنها لاتفنى كقيم ومبادئ وتاريخ وكذلك الإنسان الذي كتب عليه الفناء بعد أجل محدود وقدر معلوم من العمر، ولكن قد يبقى ذكره في التاريخ حي وأثره في الأمة سائر إن كان ذا شأن في حياته وقد يسير التاريخ ويولى وجهه بأفكاره وسيرته أكثر مما كان يسيره في حياته بأقواله وأعماله، ويعترف توينبى أن جل الدول والحضارات قد اندثرت

(١) منهج التاريخ وفلسفة التاريخ ص ٧١ .
(٢) منهج التأريخ وفلسفة التاريخ ص ١٣ .
(٣) منهج التأريخ وفلسفة التاريخ ص٢٠.

بعد عصور لما أرتكبت من حماقات وأخطاء وأن الدهر لايشفع للحضارات المنحرفة مهما كان فضلها على الإنسانية مادامت أخذت بعوامل السقوط والتدهور، وإن استعصت على عوامل الفناء لقوة ذاتية مدة من الزمان[1].

وبديهي أن سقوط حضارة لايحدث طفرة واحدة بل قد يأخذ فترة من الزمان، ويمتد دهرا قد يطول حتى يعد بالقرون، وهذه ظاهرة معروفة في تاريخ الحضارات، ولعل هذا مايتضح لنا من سقوط الحضارة المصرية القديمة التي دام احتضارها منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد، إلى القرن الخامس الميلادي، وخلال هذه الفترة التاريخية ظلت في حالة تحجر وتجمد شبيه بالموت، وكذلك الأمر في حضارة الصين القديمة التي تصدعت في القرن التاسع الميلادي، وبقت ألف سنة حتى افل آخر نجم منها، ولعل الفترة التي تستغرقها ظاهرة السقوط في الحضارات ترجع إلى القوة الذاتية في الحضارة التي تستعصى على عوامل الفناء والاندثار، ويجمل توينبى عوامل السقوط الحضاري في ثلاثة أسباب فشل القوة المبدعة أو الخلاقة وهى القلة والصفوة من الأمة، فتور إيمان الأغلبية والأكثرية في الأمة، فقدان وحدة المجتمع في شمول علاقات أفراده، وترابط أسره وهيئته الاجتماعية والاقتصادية ويحدث هذا بسيطرة الأقلية المبدعة حيث تتحول إلى قوة تحرص على السلطان، فتفقد الأغلبية إعجابها بهذه الأقلية، وتتوقف على محاكاتها وقد ترجع الأغلبية إلى الثورة، أو إلى التصوف الروحاني، وعندئذ ينقسم المجتمع إلى قلة مسيطرة، وأغلبيةمستضعفة، ويسود الكسل طائفة عريضة من المجتمع، قد تكون هي الأكثرية أو الأغلبية، وتنتشر النزعة الفردية، ويسعى الناس وراء المصالح الذاتية الأنانية، وتسود الصراعات والاختلافات الداخلية، وقد تؤدي هذه الصراعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إلى انتقال السلطة إلى طبقة أخرى تبدل نظام الدولة، أو تؤدي إلى قيام حرب أهلية والرجوع إلى الله والتضرع إليه في هذه الظروف عند توينبى هو الحل ونهاية المطاف في التطور، وبالرغم من أن توينبى يؤمن بالدورة الحضارية في التاريخ إلا أنه يرى أن الدين هو العامل الوحيد الذي يمثل في حركة التاريخ التقدم الصاعد[2].

وقد يكون توينبى هو المورخ أو الفيلسوف الوحيد من فلاسفة التاريخ والحضارة في الغرب الذي اعتمد معظم العوامل والبواعث في تفسيره لحركة التاريخ الحضارية، إلا أنه أساء تطبيق المنهج العلمي التجريبي، حين ذهب ينتخب مجموعات من الظاهرات من الحضارات التي أختارها لدراسته الضخمة الطويلة في تاريخ البشرية، فأخذ من كل ذلك ما يخدم افتراضاته وتصوراته الذاتية المتأثرة بعدة عوامل عقيدية وبيئية واجتماعية وتاريخية وعرض الشواهد بالطريقة التي تناسب ما ذهب إليه وفسرها تفسيرا يخدم الفكرة الجاهزة

(١) في فلسفة الحضارة الإسلامية، ص ٤،٢،٤، د/ محمد عفت الشرقاوي.

(٢) انظر الحضارة، سلسلة كتابك، ص ٤٣، ٤٤ .

لديه مع أنه يمكن أن تكون أفضل محاولة لتفسير التاريخ ونشوء الحضارات وسقوطها لو أستطاع أن يتخلص من هواه وميولاته العقيدية التاريخية ويلتزم جانب الحيدة والموضوعية[1].

ويتضح ذلك في موقفه من الحضارة الغربية فقد آثر الحياد ولم يصدر حكما أو رأيا قاطعا رغم ظهور أعراض التصدع في الحضارة الغربية، وكأنه كان يتوقع تخلف السنة الجارية أو حدوث المعجزة الخارقة المنقذة[2].

أما عن التحدي والاستجابة فإن في العالم تحديا مناسبا للإنسان وليس معجزا له ولاهو دون الحد المطلوب لإثار التوتر الإرادي للبشر من أجل عمارة الأرض وكان الله سبحانه شاء أن يمهد العالم تمهيدا كاملا ليحقق الإنسان المدى الممكن من الحوار والتحرك المبدع في الحياة ويكشف عن أسرار وقوانين الكون بالقدر الذي يجعله يستطيع أن يؤدى دوره فلا يركن إلى السلبية المطلقة نتيجة قوة التحدي وعنفه، ولا نتيجة سهولة الحياة وضعف التحدي، إذن التحدي أمر ثابت من قبل الله ويسير وفق قانون عادل وإنما الإنسان هو الذي يضعف ويقوى في فترات من عمره[3].

فلا تحد من الطبيعة وإنما التحدي يكون من البشرية نفسها.

ب ـ المفكرون المسلمون:

عبدالرحمن بن خلدون ٧٣٢ – ٨٠٨هـ

نظر ابن خلدون إلى الناس في زمانه فوجدهم مستقطبين في فئتين لا ثالث لهما هما أهل البدو والحضر، ثم نظر إلى هاتين الفئتين، فرأى صفات إحداهما مخالفة للأخرى فتساءل عن سر هذا الاختلاف وأسبابه، ومن هنا راح يستنبط قوانين وسنن التطور والتحول في الأمم والدول[4].

ويرى أن الحضارة غاية البداوة، والعمران كله من بداوة وحضارة له عمر محسوس، كما أن لكل شخص وكيان حي عمرا محسوسا، وتبين له من المعقول والمنقول أن الأربعين سنة للإنسان غاية في تزايد قواه ونموها، وبلوغ أشده، ولعل ابن خلدون كان يستدل بالمنقول بقوله تعالى: **﴿ ... حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا**

---

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ نحو نظرية إسلامية، ص ٢١، د/ عبدالحليم عويس.

(٢) الحضارة سلسلة كتابك، ص ٤٤، احمد حمدي محمود.

(٣) العقل المسلم والرؤية والحضارية، ص ١٠، د/ عماد الدين خليل.

(٤) انظر منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته، ص ٧٧، د/ علي الوردي.

ترضاه﴾[1]. والحديث في الآية عن عبدالرحمن بن أبي بكر وأبيه أبوبكر بن قحافة[2].

وفي آية أخرى عن يوسف عليه السلام قال تعالى: ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين﴾[3]. والمراد بالحكم النبوة والملك[4].

فدلت الآيتان وغيرهما كثير في هذا المجال أن بلوغ الشدة، واستكمال القوة يتمان للإنسان إذا بلغ سن الأربعين، ولعل هذه السنة الربانية في القرآن هي التي استوقفت ابن خلدون وهو عالم من كبار علماء الإسلام، وجعلته يقيس على هذا حتى أعمار الدول والحكومات، ورأى أن الحضارة تبلغ ذروتها في الأربعين وهي غاية لامزيد بعدها لحصول الترف وكثرة النعم المادية بها، حيث الحضارة تعني عند ابن خلدون التفنن في الترف واستجادة أمواله والتمتع بعوائده.

والعمران هو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشيرة، واقتضاء الحاجات لما في طبائعهم من التعاون والتعايش، ومن العمران ما يكون بدويا وهو الذي يكون في الضواحي والجبال، ومنه ما يكون حضاريا[5].

وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمدائر - جمع مدرة - للاعتصام بها والتحصن بجدرانها[6].

وعندما تعظم نفقات أهل الحضارة تخرج عن القصد إلى الإسراف ولايجدون وليجة في ذلك لما ملكهم من أثر العوائد وطاعتها وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات ويتتابعون في الإملاق والخصاصة ويغلب عليهم الفقر ويقل المستامون للمبايع، فتكسد الأسواق، ويفسد حال المدينة وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف وهذه مفسدات في المدينة على العموم في الأسواق والعمران وأما فساد أهلها في ذاتهم واحدا واحدا على الخصوص، فمن الكسد والتعب في حاجات العوائد والتلون بألوان الشر في تحصيلها، فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش، وتتصرف النفس إلى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له، فتجدهم أجرياء على الكذب والمقارمة والغش والسرقة والفجور في الإيمان والربا في المبيعات، ثم تجدهم أبصر بطرق الفسق، ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه واطراح الحشمة عند الخوض فيه[7].

ومن مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف فيقع

---

(١) سورة الأحقاف الآية ١٤ .
(٢) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص ٤٢٤ .
(٣) سورة يوسف الآية ٢٢ .
(٤) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص ١٩٥ .
(٥) انظر المقدمة، جـ ٣، ص ٨٧٦، تحقيق علي عبدالواحد وافي.
(٦) انظر المقدمة جـ ١، ص ٤١٩، تحقيق وتعليق د/ علي عبدالواحد وافي.
(٧) انظر المقدمة، جـ ٣، ص ٨٧٧، تحقيق وتعليق د/ علي عبدالواحد وافي.

التفنن في شهوات البطن من المآكل والملاذ ويتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط فيضفى ذلك على إفساد النوع إما بواسطة اختلاط الأنساب كما في الزنا فيهمل كل واحد ابنه إذ هو لغير رشد لأن المياه مختلطة في الأرحام فتفقد الشفقة الطبيعية علي البنين والقيام عليهم فيهلكون ويؤدي ذلك إلى انقطاع النوع أو يكون فساد النوع.

ومن خلال هذه النصوص وغيرها نستنتج آراء ابن خلدون في الحضارة ومنها أن الأمم والحضارات تمر بثلاث مراحل ففي الأولى تعيش عيشة البدو في الصحاري والقفار كالعرب والبربر أيام ابن خلدون في المغرب أو الشمال الإفريقي ولاتعرف قانون ولاتحكمها سوى حاجات وعادات(١).

والمرحلة الثانية تصل الأمة إلى تأسيس دولة وهناك طرق شتى إلى هذا السبيل ومن ذلك الغزو والحرب، وفي هذه المرحلة تعرف الأمة القوانين وتسن لنفسها النظام، وفي المرحلة الثالثة تنحو الأمة أو الدولة إلى حالة الحضر ثم تنغمس في الترف والملاهى وتنكب على دراسة العلوم والفنون وتتخذ القصور والعروش زينة وتفاخر حتى يدركها الاضمحلال وينالها الفقر، ويذهب ابن خلدون إلى أن حركة التاريخ لاتنقطع وتتوقف نهائيا، ولكن لكل حضارة حد تقف عنده وذلك هو انتهاء عمرها، ومن هذا الحد يستأنف السير مجتمع أو أمة أخرى جديدة، ولعل هذا أهم ما جاء به ابن خلدون من جديد في عصره(٢).

ويهتم ابن خلدون بالأخلاق كضرورة لتماسك الملك واستمرار وجوده الحضاري، وليست الأخلاق ضرورة للرئيس فقط، بل هي ضرورة لكل الناس ويقر ابن خلدون الأخلاق كشرط أساسي لبقاء القبيلة، وأن من كان يطمح في الملك والرئاسة لابد أن يكون عادلا جوادا يكرم أساطين الدين، ويجل العلماء، وكذلك يركز ابن خلدون على ضرورة وجود عقيدة دينية أو سياسية لتأسيس الدولة وقيام الملك، وتحديد الغاية التي تجرى نحوها القوة الاجتماعية، المكونة من قوة العصبية والفضيلة حتى لاتتحول هذه القوة إلى تنازع وتنافر داخلي - كما كان حال العرب قبل الإسلام وغيرهم من الأمم الجاهلية الهمجية التي لا دين سماوي يضبط حركتها، ويوجه قوتها، والعرب مع ما كانوا يتمتعون به من صفات وقيم حضارية كالصبر والشجاعة والذكاء والكرم... فلم تؤهلهم هذه القيم لتكوين حضارة لخلوها من العقيدة السليمة والتصور أو الغاية من الحياة(٣).

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٨٧١ جـ ٣ تحقيق وتعليق د/ علي عبدالواحد وافي.

(٢) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية - تحليل ونقد - ص ٨٣ ، طه حسين.

(٣) انظر كيف دخل العرب التاريخ ، لأبي الحسن الندوى.

وتحضر الإنسان وتمدنه عند ابن خلدون ضرورة بشرية وحتمية إنسانية احتماعية ودليله هو دليل فلاسفة اليونان على رأي طه حسين وهو أن الإنسان مدني بطبعه والمدنية تتفق مع الحاجات الطبيعية للعيش وحفظ الحياة لأن الإنسان عاجز على أن يوفر لنفسه كل ما يحتاج من المأكل والملبس والصنائع وحماية نفسه من الوحوش المفترسة(١).

والحضارة في عرف ابن خلدون عاطفة كامنه في الإنسان وأن الله خلقه كذلك ووهبه من العواطف مايتفق مع حاجاته بالتفاهم وهذا ما يميز المجتمع البشري عن غيره من تجمعات الكائنات الحية الأخرى كالنمل والنحل وقطعان الحيوانات وأسراب الطيور، وبهذا يكون العامل الأول عند ابن خلدون في قيام الحضارات والدول هو الطبيعة الإنسانية والفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها، وإذا تأسست الدولة والمجتمع قامت الحضارة وتصادمت مصالح الأفراد والمجتمعات وثارت الكوامن وانطلقت الغرائز والرغبات ومن هنا يبدأ التفكك والتدهور وتتوقف الحضارة عن الإبداع والتطور والاستمرارية إن لم يتدارك النظام خطر هذه البذور والجراثيم بالتوجيه والتنظيم العادلين أدى ذلك إلى الهلاك والدمار(٢).

ويكون لأعمال القادة والمفكرين والمصلحين حين إدراكهم لمسئوليتهم فيما ينبغي أن تكون عليه المجتمعات وتفانيهم في العمل ونشر العدل دور في قيام الحضارات وازدهارها حيث تصبح أراؤهم ومواقفهم قيما حضارية تقتدي وتحفز حركة الإبداع والعمل والاختراع في المجتمع، ويغدو صورا حية تعلى الهمم وتهيئ النفوس وتحرك الضمائر...

والتاريخ يقدم حشودا من العلماء والمفكرين والزعماء والمصلحين أدوا أدوارا عظيمة في خدمة الإنسانية في سبيل التحضر... ويبدو أن ابن خلدون بالغ في هذا الدور، لأن التاريخ يثبت أيضا أن هناك من أتى من العلماء والمصلحين بل من الرسل والأنبياء بمبادئ وقيم ووحي و لم يستطيعوا تحقيق شيئ في الحياة من التطور والتقدم و لم تلق آراؤهم قبولا واعترافا على الرغم من نبلها وسموها وعلى الرغم مما بذلوه من جهود في سبيل تحقيقها في دنيا الناس لآن النفوس لم تكن مهيئة لقبولها(٣).

ومن هنا يجب التزام النظرة الشمولية في تفحص الوقائع الاجتماعية والنفسية ودراسة تاريخ الأمم والدول وهذا هو المنهج الحضاري في الدراسات، فالصفوة أو الفئة المختارة والمصطفاه من الأمة لاتستطيع أن تحقق شيئا ذا بال بدون القاعدة العريضة من الأمة كما أن الثانية هذه لا تقدر على شئ بدون القمة من العلماء والحكام والقاعدة، وهذا ما أثبته التاريخ وأيدته السنن النفسية والاجتماعية في الأمم والدول، وسيبقى التاريخ

---

(١) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية – تحليل ونقد – ص ٦٧ د/ طه حسين.

(٢) نفس المرجع السابق ص٧٠.

(٣) عبدالرحمن بن خلدون – سلسلة أعلام الفكر – ص ٢١٨ د/ علي عبدالواحد وافي.

شاهدا على هذه النقائص والفجوات يظهر عيوبها وسوءتها حتى تفيئ الأمم والأجيال إلى الحق والصدق.

وللبيئة الجغرافية كذلك دور في لم شتات الجماعات البشرية وتوحيد نشاطها العمراني ويستنتج من هذا سر تمركز جل الأديان والبعثات النبوية في المنطقة المعتدلة من جزيرة العرب والشام ومصر(١).

ولم يعثر - في حدود ما أعلم - في التاريخ على خير بعثة نبي في الأقاليم الشمالية والجنوبية ذلك أن الأنبياء إنما إختصهم الله بأكمل حال في الخلق والأخلاق، وهذه الأقاليم - أقاليم الشرق الأدنى - هي أنسب في الاعتدال والطبائع والأجسام والملابس والمساكن، وإنها بعيدة عن هزات البراكين والزلازل، وهذا له أثر في استقرار الحضارات وازدهارها، ووقوع هذه الأقاليم على سواحل البحرين - المتوسط والأحمر - مما جعلها طريقا تجاريا عالميا على مر العصور هذا وإن للمناخ المعتدل والسواحل وملتقى الطرق دور في ازدهار الحياة، وإن كان إنسان العصر الحديث او القرن العشرين قد تمكن بفضل - الله - ثم العلم والإرادة والعمل من أن يجعل في قلب الصحراء والجبال والأوعار بوادر حضارية ومنجزات مدنية عظيمة وافرة الظلال وتمكن من الاستفادة من كل مكونات البيئة(٢).

ويقول ابن خلدون: أنه لما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين من الحر والبرد، الأول أشد حرارة والثاني أشد برودة، وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلا فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل الحيوانات وجميع ما يكون في هذه الأقاليم المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الشمالية والجنوبية، وتجد أهل هذه المناطق أكمل لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم وهؤلاء هم أهل الغرب والأندلس والشام والحجاز واليمن والعراقيون والهند والسند والصين ومن قرب منهم من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانيين ومن كان مع هؤلاء أو قريبا منهم(٣).

ونسى ابن خلدون بعدا استراتيجيا وعاملا جغرافيا آخر لايقل أهمية في بيان أسباب تمركز البعثات النبوية في هذه المنطقة ذلك هو الموقع العالمي، حيث تقع هذه المنطقة كمحطة لخطوط المواصلات العالمية، مما يسهل على أتباع الرسل وأهل الكتب السماوية

---

(١) انظر ابن خلدون إسلاميا، ص ٤١، د/ عماد الدين خليل.

(٢) قيم حضارية في القرآن جـ ١، ص ٥٩، توفيق محمد سبع.

(٣) المقدمة ص ٨٢، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت بدون تاريخ.

أداء رسالتهم الإنسانية وتبليغ مبادئهم وأفكارهم إلى مشارق الأرض ومغاربها، ونجد هذه المنطقة مازالت حتى اليوم محل صراع وشقاق بين الأمم لقداستها في نفوس الشعوب التي سكنتها ولأهميتها المذكورة، وقيمتها الاقتصادية والعسكرية الحديثة[١].

ولم يقف ابن خلدون على ظاهرة حضارية في دراسته الاجتماعية والتاريخية إلا اعتبرها مدينة للبيئة الجغرافية في صورة ما، كما أرجع اختلاف البشر في الألوان والأشكال والأجسام والميولات والطبائع، وتميز الأمم في العلوم والمعارف والنظم والفنون إلى عوامل بيئية[٢].

ولعل هذه مبالغة غير مقبولة وعليها ردود في كثير من جوانبها، ومن ذلك أننا نرى كثيرا من الأمم ترزح في التخلف مع مالها من بيئات ومواقع جغرافية ممتازة، ولعل دليلنا هو واقع الشرق الحديث ذاته الذي اختير مهبطا للرسالات والكتب السماوية.

أما عن العصبية فقد جعلها ابن خلدون من أكبر مقومات الملك، وخصص للحديث عنها في المقدمة صفحات كثيرة وأدرجها تحت عناوين ومفاهيم عديدة قد توهم القارئ أنها حقائق وقوانين راسخة، وأوحى بكل عنوان إلى القارئ أن مضمونه يشكل حقيقة ثابتة مخالفة للأخرى[٣].

ولذا فهمت نظرية العصبية عند ابن خلدون فهما خاطئا في كثير من جوانبها وليس من غايتنا في هذه الدراسة بحث مفهوم العصبية، وإنما أريد تتبع أثرها في تكوين المجتمع وتماسك كيانه، ومعرفة دورها في تقدم الأمة وتطورها الحضاري، ويوعز ابن خلدون إلى العصبية دورا كبيرا في الحياة السياسية والاجتماعية والتعليمية، ويذهب إلى أن أهل الأنساب والعصبية هم الذين أقاموا بالملة، ومازالوا يعلمون كتاب الله وسنة نبيه[٤].

وكان لأهل العصبية في الدولة الأموية والأندلس مكان معلوم – ولعل ابن خلدون كان يقصد من وراء هذا بيان دور العصبية في صمود الأمويين والأندلسيين أمام عاديات الدهر من المكائد الداخلية والخارجية وقتا طويلا – ولم يكن نيل أهل العصبية ما نالوه من الرياسة والملك بخطة القضاء، كما هي لهذا العهد، بل كان القضاء في الأمر القديم لأهل العصبية من قبيل الدولة ومواليها، كما هي الوزارة لعهدنا بالغرب، وانظر خروجهم بالعساكر في الطوائف وتقليدهم عظائم الأمور التي لاتقلد إلا لمن له الغنى بالعصبية فلا يغلط السامع في ذلك ويحمل الأحوال على غير ماهي عليه وأكثر ما يقع

(١) انظر ابن خلدون إسلاميا ص ٤٢ د/ عماد الدين خليل.
(٢) انظر المقدمة جـ ١ ص ٢٩١ تحقيق د/ علي عبدالواحد وافي.
(٣) انظر الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته ص ١٣ د/ مصطفى الشكعة.
(٤) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٢ تحقيق د/ علي عبدالواحد وافي.

في هذا الغلط ضعفاء البصائر من أهل الأندلس لهذا العهد - يقصد العهد الذي عاش فيه - لفقدان العصبية في مواطنهم منذ أعصار بعيدة لفناء العرب ودولتهم بها وخروجهم عن ملكة أهل العصبيات من البربر فبقيت أنسابهم العربية محفوظة، والذريعة إلى العز من العصبية مفقودة، بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبدهم المذلة[1].

أما عن سنن سقوط الحضارات ودمار الدول وذهاب الملك فيرى ابن خلدون أن الظلم مؤذن بخراب العمران وهي نظرية مشهورة عنه، وإن للأعمال والسلوك نتائج كما أن للعلوم والفنون مقاصد وغايات فيقول "إن الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع وغير ذلك من النتائج وسائر مقاصد القرآن في الأحكام فإنها كلها مبنية على المحافظة على العمران... وهي الحكمة العامة المدعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس، والعقل، والنسل، والمال، فلما كان الظلم كما رأيت مؤذنا بانقطاع النوع ولما أدى إليه من تخريب العمران... وأن الملك لايتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة إلا بالملك ولا عزة للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل والعدل الميزان والعدل بإصلاح العمال وإصلاح العمال باستقامة الوزراء[2].

أما عن الترف فهو مفسدة للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر والسفسفة وعوائدها وبه تذهب خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليل عليه ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر فيكون علامة على الإدبار والانقراض بما جعل في خليقته وتأخذ الدولة مبادئ العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها وقد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم فنجد الكثير منهم يقذفون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم[3].

وإن للدول أعمارا كالأشخاص ويختلف العمر في كل جيل بحسب القرانات ولاتزيد في الغالب أعمار الأشخاص عن مائة وعشرين كما زعم المنجمون والأطباء إلا ما كان صورا نادرة كما وقع في شأن نوح عليه السلام وقليل من قوم عاد وثمود... أما أعمار الدول وإن كانت تختلف بحسب القرانات إلا أن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال.

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٤ تحقيق د/ علي عبدالواحد وافي.

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٣٩ .

(٣) انظر المقدمة ص ١٤١ .

والجيل هو عمر شخص واحد من العمر المتوسط، فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشؤ إلى غايته(١).

ولقد قدم ابن خلدون أصول منهج تفسير حركة التاريخ وانتقل به من طور ومرحلة السرد والعرض، والتجميع، إلى محاولة استخلاص العبر واستكشاف السنن والقوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية والحضارية، وبذلك كان لابن خلدون فضل السبق والإبداع في مجال اكتشاف سنن التاريخ وفلسفة قضايا التحضر والعمران، ولقد فات كثيرا من دارسي ابن خلدون والمعجبين بفكره حقيقة هامة وجوهرية في كل ما ذهب إليه، وهي أنه استخلص منهجه هذا من القرآن في دراسته لقصص الأمم الذاهبة وتاريخ الأنبياء والرسل عليهم السلام التي أثبت من خلالها وجود سنن ونواميس تخضع لها حركة التاريخ وسير الحضارات وتطورها بالانتقال من مرحلة إلى أخرى(٢).

كما لعل من دوافع ابن خلدون إلى التأمل في أحوال الأمم والدول لاكتشاف منهج الضبط والإحصاء للحقائق التاريخية، هو ما رآه من تخبط المؤرخين في عدم التمييز بين الصحيح والسقيم في الأخبار المنقولة عن القدماء فحرص على إيجاد أداة تقييم للتاريخ ولعل رواية المسعودي في حكاية دواب البحر كانت من أكبر حوافز البحث عن أداة التقييم التاريخي عند ابن خلدون(٣).

ومن هذه الحكاية وغيرها أدرك ابن خلدون أن التاريخ يحوى أخطاء كثيرة، لعل منشأ جلها الجهل بسنن ظواهر الحياة الاجتماعية والفيزيائية(٤).

ولاشك أن ابن خلدون قد أخذ نظريته هذه من دراسته لمنهج علماء الحديث والسنة في الجرح والتعديل الذي أخذوه هم بدورهم من القرآن الكريم واستخلصوه من قوله تعالى: **﴿ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾**(٥).

ويرى الدكتور علي عبدالواحد وافي أن جميع قوانين ابن خلدون وأفكاره مستمدة من ملاحظاته لظواهر الاجتماع في الأمم التي شاهدها أو عرف تاريخها بدون أن يستوفى مبدأ فلسفيا أو يتأثر برأي مبيت من قبل كما فعل غيره من فلاسفة الحضارة في الغرب ومن ثم كان منهجه أدق وأقرب إلى المنهج العلمي من غيره(٦).

(١) المقدمة ص ١٤٢ المطبعة الأزهرية بجوار الأزهر القاهرة عام ١٣٤٨هـ ١٩٣٠م.
(٢) انظر موشرات حول الحضارة الإسلامية ص ١٤ د/ عماد الدين خليل.
(٣) انظر المقدمة ص ٣٩ طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت.
(٤) انظر المقدمة ص ٣٩ طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت.
(٥) سورة الحجرات الآية ٦ .
(٦) انظر ابن خلدون – سلسلة أعلام الفكر ص ٢٠٤ د/ علي عبدالواحد وافي.

ويرى الدكتور مصطفى الشكعة أن ابن خلدون كان متأثرا في هذه الفكرة بمنهج التعديل والجرح عند علماء الحديث[1].

ونسى ابن خلدون أن يذكر سبق إشارات القرآن ومنهج المحدثين إلى نظرية السنن التاريخية ومع ذلك كان متأثرا بالخلفية العقيدية له في الرؤية التاريخية الحضارية، وعلى أية حال فإن من بعض المؤرخين المسلمين من ظل متأثرا بالرؤية القرآنية للتاريخ[2].

ولعل أهم ما يمكن أن يؤخذ على ابن خلدون في هذا الموضوع، أن كثيرا من النظريات والقوانين التي انتهى إليها في تفسير شؤون السياسة والملك، وقيام الدول والحكومات وسقوطها لاتصدق إلا على تلك الأمم والمجتمعات التي عاش أحداثها وشهد تقلباتها أو قرأ تاريخها، وهي شعوب الشمال الأفريقي من العرب والبربر خاصة، وهذا لايعني أن ابن خلدون لم يقرأ تاريخ المسلمين في العهود السابقة، وغيرهم من الأمم الأخرى التي تيسر له الاطلاع على تاريخها، ولكن الذي يقصد من هذه الملاحظة هو أن استقراءاته للتاريخ اقتصرت على ظواهر معينة تكاد أن تكون خاصة بشعب المغرب العربي في مرحلة معينة وهي فترة سقوط الدويلات، مما انتهى به إلى استقراء جزئي لقوانين حركة التاريخ، ثم ظن ابن خلدون وبعض الباحثين في حركة التاريخ بمنهجه أن ما انتهى إليه من قوانين وسنن في التحضر عامة تصدق على كل أمة وفي أي زمان[3].

وقد وقع في الخطأ عندما ذهب في مقدمته إلى أنه لم يعثر على أية محاولة في مجال بيان السنن وقوانين الحضارات، ونسى ما تضمنه القرآن الكريم من توجيهات وإرشادات تدل على هذا الطريق وما اتبعه علماء المنهج في الحديث النبوي الشريف وفي قضية الجرح والتعديل بالذات، وكان الأحرى بابن خلدون أن يشير إلى ذلك وهو العالم المسلم[4].

ولقد أسند أكثر الدارسين والباحثين من الشرق والغرب الفضل لابن خلدون واعترفوا له بالجميل فيما وصلوا إليه، إلا أنهم أسلبوه شرف الانتساب إلى علماء الإسلام، وحسبوه رجل علم شرعي وفقه وتفسير قبل أن يكون فيلسوفا أو مؤرخا أو عالما احتماعيا، هذا إذا استثنينا دراسة الدكتور مصطفى الشكعة - الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته - ودراسة الدكتور عماد الدين خليل - ابن خلدون إسلاميا - والتي كان لها فضل السبق في بيان هذه الحقيقة التي تجاهلتها أقلام المؤرخين والباحثين

---

(١) انظر الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، ص ٣٧، د/ مصطفى الشكعة.
(٢) انظر الرؤية الحضارية للتاريخ قراءة في التراث التاريخي العربي، ص ٨٦، د/ قاسم عبده.
(٣) انظر تحقيقات الدكتور علي عبدالواحد وافي، على هامش المقدمة، ص ٢٨٩ .
(٤) انظر فقه التاريخ، ص ٤٥، د/ عبدالحليم عويس .

بقصد أو بغير قصد، إلا أنه فات هذه الدراسة التعمق والإحاطة والفضل الذي فازت به دراسة الدكتور مصطفى الشكعة، والدكتور على عبدالواحد وافي من أعرف الناس بل والمفكرين والمؤرخين بابن خلدون، إلا أنه غفل عن هذه الحقيقة - في حدود ما أعلم - رغم ملاحظاته الكثيرة عليه، والدكتور علي عبدالواحد وافي يفوق الدارسين الغربيين لابن خلدون في أنه أعلم بأسراره لغة كتابته، كما يلتقي مع ابن خلدون في الدين والعقيدة التي لها دور في توحيد التصور والرؤية للأمور، أما علماء الإسلام ومفكرية فيبدو أن الدكتور علي عبدالواحد وافي من أكثرهم أهتماما بأبن خلدون ولذلك كان من أحسن طبعات المقدمة هى التي حققها وعلق عليها.

ولعل من أهم أبحاث ابن خلدون الفكرية والفلسفية قضية السنة وهى قانون الحياة الاجتماعية والتاريخية، والتي اكتشف بها أن الظواهر الاجتماعية لاتجمد على حال واحدة بل تختلف من حال إلى حال وتتطور من مرحلة إلى أخرى عبر التاريخ وفي إطار المكان، كما اكتشف أسرار تقلبات الدول والحكومات وأثبت أن هناك مقاييسا وقيما ثابتة في الحياة وبصدق هذا الأمر على شؤون السياسة والاجتماع والتاريخ والاقتصاد وسائر أنواع الظواهر الإنسانية وأن الذي يتغير ويتبدل هو الإنسان محور الحضارة ومحرك التاريخ وليست السنن، وإن كانت مقاييس الأخلاق والأعراف القانونية والدساتير والنظم تختلف من أمة إلى أخرى مما تراه هذه رذيلة قد تراه الأخرى فضيلة ومما يكون هناك ممنوع، ويعد إجراما وانحرافا يكون هناك مباح وبهذه النظرة تمتاز السنن الاجتماعية عن السنن أو القوانين الطبيعية ذات الطابع الثابت في علوم الجبر والحساب والكيمياء والفلك والعلوم الطبيعية التي لاتختلف باختلاف الأمم ولا تتطور حقائقها إلا في إطار.

إلا أن قوانين وسنن الاجتماع كذلك ثابتة وهى ذات أصل واحد وصفة واحدة فالذي أباح أكل لحم البقر مثلا في المجتمع الإسلامي وبعض المجتمعات الأخرى واعتبر إجراما ومخالفة للقانون والدين كما هو في الهند مثلا فإن الحق واحد والصدق والعدل واحد، وبهذا يكون موقف الهند خاطئا فالسنن في الحياة مطلقة وليست نسبية وهذه حقيقة جوهرية في الفكر العقيدي والأخلاقي أنكرها دعاة التطور الحضاري من الغرب وكثير غيرهم من أهل الشرق الإسلامي، ولعل هذا ما كان يقصده ابن خلدون عندما ذهب إلى الرأي بعمومية السنن وشموليتها وثباتها في نظريته عن العمران البشري(1).

ولقد اعتمد ابن خلدون في تأصيله لمنهج دراسة التاريخ والظواهر الاجتماعية وبحث سنن التقلبات الحضارية بين القوة والضعف والعز والذل، على ما أتيح له الأطلاع عليه

(1) انظر ابن خلدون، سلسلة أعلام الفكر، ص ١٩٧، د/ علي عبدالواحد وافي.

من أحوال الدول والشعوب التي احتك بأهلها، فوازن وتأمل وتدبر واستطاع أن يخرج بهذه النظرية التي عجزت فلسفات الغرب أن تأتي بما يضاهيها أو يناقضها، ورغم هذا فإن للنقاد ملاحظات على ابن خلدون وفكره والتي ظهرت مع تقدم الفكر البشري في الدراسات الاجتماعية والتاريخية وتقادم الفكر الخلدوني ومن ذلك مبالغته في تضخم دور البيئة الجغرافية والذي اعتبره عاملا هاما في مختلف الظواهر الاجتماعية والحضارية عامة ويرى الدكتور على عبدالواحد وافي أنه ما ترك ظاهرة اجتماعية إلا جعلها مدينة للبيئة في صورة ما فإلى البيئة الجغرافية في نظره يرجع اختلاف الألوان والأجسام والميولات النفسية وتميز المجتمعات بعضها عن بعض من حيث المقومات والتقاليد والعادات والعلوم والأفكار ونظم الأسر وأخلاق الأفراد وسلوكهم...إلخ ويبدو أن مبالغة ابن خلدون في دور البيئة الجغرافية في العمران البشري حتى كاد أن يجعله السبب الرئيسي أو الوحيد في قيام الدول والمجتمعات جعلت رأيه هذا يتزعزع في نظر كثير من دارسيه.

والبيئة الجغرافية لايمكن أن تحقق شيئا ذا وزن أو بال إلا بفضل ما يحدث بينها وبين العوامل الأخرى من تفاعل وتكامل ولقد استطاع الإنسان على مر العصور أن يحقق قيما ومنجزات حضارية رغم دور البيئة القاسي ولعل أكبر دليل هو غرس الصحراء وحفر الآبار وبناء السدود وإنشاء المصانع وشق الجبال والأنفاق وتجفيف البحيرات والمستنقعات وتلاقي بين البحار والمحيطات وزرع الغابات وتربية الوحوش ومن جهة ثانية فالإنسان هو الذي يسير الحياة ويصنع التاريخ في البيئة وليست هي التي تسيره والشعوب قد تتفق في ظروف البيئة الجغرافية ولكنها قد تختلف أيضا في مظاهر التقدم الاجتماعي والاقتصادي وتتفاوت حضريا في نفس البيئة وإن المناطق الحضارية اليوم كانت ولاشك أوكارا للتخلف والخراب في وقت مضى، وإن مناطق من الأرض في العالم المتخلف كانت بالأمس مهد حضارات وبساتين وعمران وزينة في الدنيا وهكذا تسود الحضارات وتبيد والبيئة لايكاد يحس لها بتغير إلا قليلا[1].

كما أن ابن خلدون يختلف عن فلاسفة الغرب في أنه يعمد في دراسته إلى بحث جميع نواحي الحياة الاجتماعية والتاريخية من كل الجوانب والبواعث ومن ذلك أحس التطور والاستقرار، وهم لايتناولونها إلا من ناحية التطور، وبحوثه تعتمد على الملاحظة والاستقراء بينما جل بحوث فلاسفة التاريخ آنذاك كانت تعتمد على الأبحاث النظرية والميتافيزيقية وفي العصر الحديث تأثرت النظريات الفلسفية والدراسات الإنسانية بصفة عامة بالأهواء والآراء التي حاولوا أن يخضعوا لها حقائق التاريخ والوجود، ويؤولونها على غير وجهها ويحملونها أكثر ماتطيق أو مالم تتحمل وذلك حتى تنثني لما يقننون من

---

(١) عبدالرحمن ابن خلدون ص ٢١٥ سلسلة أعلام الفكر. د/ علي عبدالواحد وافي.

مذاهب وأفكار ويستطيعون الخروج بنظريات تتفق مع ما يعتقدون وينوون تحقيقه[1].

وعمل ابن خلدون على تعميم نظرية السنن في مختلف مجالات المجتمعات أو العمران البشري وكان من موضوعات دراسته استخلاص القوانين التي تخضع لها زيادة الثروة ونقصها ومظاهر تداولها وتوزيعها واستهلاكها فكانت آراؤه البذور الأولى لنظرية الاقتصاد السياسي المعاصرة[2].

وتعرض لفلسفة القانون ودرس الشرائع والقوانين الوضعية وعلاقتها بالنظم السياسية والظواهر الاجتماعية وخلاصة القول في هذه النقطة أن ابن خلدون تمتاز دراسته بالشمولية بحيث وضع في مقدمته مقدمة لكل العلوم والمعارف، وهدف إلى استخلاص القوانين والسنن التي تحكم تطور الأمم وتعمل على تغييرها وهدف إلى تأصيل وتثبيت قواعد منهج لدراسة العمران البشري[3] وتمكن من استنباط بعض سنن حركة التاريخ من داخل التاريخ نفسه بمعرفة علل الظواهر وأسباب التقلبات وبهذا يعد ابن خلدون المؤرخ والمفكر الذي استطاع بعث سنن التاريخ إلى الوجود وصياغتها في شكل نظرية منطقية علمية تخضع لقواعد وضوابط، وكان يمكن أن يكون أول من أتيح له صياغة قانون وسنة الدورة التاريخية، لولا أن مصطلح عصره – على رأي مالك بن نبي–وقف به عند ناتج معين من منتوجات الحضارة، وهي الدولة، وليس عند الحضارة نفسها التي تنسحب حتى في تصور ابن خلدون ذاته على السلطة والمجتمع والحكومة والدولة، ولذلك لم نجد فيما ترك ابن خلدون في نظريته عن التطور والتبدل غير رأيه في تطور الدولة، في حين كان من الممكن جدا أن ترسم لنا نظريته في التطور والتبدل مراحل تطور الحضارة عامة، إذ لم تكن عبقرية ابن خلدون عاجزة على أن ترسم لنا ذلك التطور في نظرية متكاملة ومنهج قائم بذاته[4].

كما صغّر ابن خلدون من حجم الحضارة حين لم يأخذ إلا جانبا واحدا من جوانبها السلبية، وهو مبالغته في إحاطتها بالترف وغلائه فيما ينجم عنه من الآثار السيئة، وأحسب أن ابن خلدون قد أخلط في هذا الشأن بين الحضارة وعرض من أعراضها الذي يلازمها حينا، وينفصل عنها أحيانا وينيها تارة، ويهدمها تارة أخرى، وليس التفنن في أنواع الترف والنعيم دائما سببا حتميا كافيا وحده لإفساد العمران وتدمير الحضارة وإنهاء عمر الدولة، ويبدو أن ابن خلدون قد طاف بخلده نوع واحد من أنواع الترف ذلك هو الترف الرخيص بين أيدي المفسدين والمصحوب بالترهل، والكسل،

---

(١) انظر عبدالرحمن بن خلدون – سلسلة أعلام الفكر – ص ١٧٦ د/ علي عبدالواحد وافي.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٧٧ .

(٣) انظر عبدالرحمن بن خلدون – سلسلة أعلام الفكر – ص ١٨٠، د/ علي عبدالواحد وافي.

(٤) انظر شروط النهضة ص ٦٢ مالك بن نبي.

والفسق، وفي الوقت نفسه طاف بخلده آيات من القرآن تتحدث على هذا اللون من الترف إذا تفاحش في الأمة وشاع بين أفرادها فإنه ولاشك ينتهي بالعمران إلى الدمار[1].

ولعل جل هذه الملاحظات التي كتبت على فكر ابن خلدون كنقد لنظرياته لم تكن إلا وليدة سوء فهم لمقاصده، وتأويلا لآرائه لتقادم العهد بين ما كتبه ابن خلدون وما قاله فيه الدارسون والنقاد حيث لم يدرس فكر ابن خلدون إلا بعد فترة طويلة من موته، وهذه قضية ليس هنا بمجال بحثها وبالتالي جاءت كثير من آراء المؤرخين والنقاد ذات انحرافات وتهجمات وردود أفعال، وسيظل ابن خلدون علما من أعلام الفكر الإنساني ورائدا من رواد البشرية العظماء.

(١) انظر الإسلام ومستقبل الحضارة ص ١٧ د/ صبحي صالح.

مالـك بن نبـي ١٣٢٥/١٣٩٣هـ - ١٩٠٥/١٩٧٣م:

يرى الأستاذ مالك بن نبي - رحمه الله - أن مشكلة[1] حركة التاريخ، وتطور الأمة يمكن أن تتصور بطريقتين: فإما أن نحلها في نفس الفرد ذاته ناظرين إلى ما يغير الذات الإنسانية، وإما أن نحلها في نطاق ما يحيط به ناظرين إلى مايغير إطاره الاجتماعي، وإذا حاولنا تفسير تقلبات الأمم وفق العوامل النفسية الاجتماعية، فإننا نجد أن حركة التاريخ لاتخرج عن هذين الإطارين - النفسي والاجتماعي - وبهذا فإن حركة تطور الأمم والشعوب مرهونة بالتغيرات النفسية والاجتماعية، وبما أن قواعد حركة التاريخ ثابتة لاتغيرها عوامل البيئة ولا الزمان، فإن أنبعاث أية حضارة وتجديدها لايتم إلا في نفس الظروف التي نشأت فيها أول مرة[2].

ولقيام أية حضارة لابد أن يكون لها نظام تربوي وثقافي جماعي يحسن استخدام كل الطاقات البشرية المادية.

ويرى الأستاذ مالك بن نبي - رحمه الله - أن نظام التربية الاجتماعية العقيدية التعبدية الصحيحة تحدث الأثر والتغيير حتى في سيمات الفرد الخاصة ومظاهره الخارجية، ولقد جاء الحديث عن هذه الحقيقة عن بعض الجماعات في أهل الأديان السابقة فقال تعالى: **﴿...سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار﴾**[3].

وقال تعالى عن المنافقين: **﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم﴾**[4].

وإن مشكلة أية حضارة تنحل في أولها إلى ثلاث مشكلات أولية هي مشكلة الإنسان، ومشكلة الوقت ومشكلة التراب، ولكي نقيم حضارة في تصور مالك بن نبي ولا نكدس أشياء ومنتجات فلابد أن نحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها، وقد تثير هذه المعادلة أو الصيغة التي وضعها مالك بن نبي - رحمه الله - للحضارة أثناء التطبيق اعتراضا هو إذا كانت الحضارة في خلاصتها عبارة عن ناتج لثلاث قضايا هي الإنسان، الوقت، التراب، فلما لاتكون الحضارة تلقائيا حيثما توفرت هذه العناصر الثلاثة، ولعل الأستاذ مالك بن نبي - رحمه الله - كان يقتبس هذه المعادلات الفكرية أو التشبيهات

---

(١) لعل الأستاذ مالك بن نبي يقصد بكلمة المشكلة - مصطلح ظاهرة أو قضية.

(٢) انظر ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية - ص ٧. مالك بن نبي.

(٣) سورة الفتح الآية ٢٩ .

(٤) سورة محمد الآية ٣٠ .

من اختصاصاته العلمية الرياضية والكيميائية، ونجد هذه المعادلات تشبيها بالحقيقة الكيميائية لتركيب الماء الذي هو ناتج عن عنصري الأكسجين والأيدروجين، وهما العنصران الآخران لايكونان الماء تلقائيا إلا بوجود مركب آخر يقتضي تفاعلهما، وبالمثل فللأستاذ مالك الحق في أن يقول إن الحضارة لاتنشأ تلقائيا بتوفر تلك العناصر إلا بوجود عامل يؤثر في مزجها ذلك ما يطلق عليه الأستاذ مالك بن نبي -رحمه الله- العقيدة أو الفكرة الدينية التي رافقت قيام الحضارات عبر التاريخ(١).

والمركب هو ما يتعلق بحالة خاصة وشروط خلقية وعقلية لازمة للإنسان ليبلغ درجة في التقدم والتحضر، والسؤال الضروري على دور العقيدة أو الفكرة الدينية(٢) بهذا المفهوم هو من أين للحضارات بمبدأ الشعور أو الروح إن لم يكن أساسه أو مصدره الوحي(٣).

كما أنه لايمكن أن يتحقق دور حضاري فعال حقا في الأمة إلا بشرط توحد شبكة العلاقات الشخصية والاجتماعية، والعلاقات الثقافية والاقتصادية... التي تكون عوامل التحضر في الأمة، كما أن هذه العوامل تظل عناصر تحتاج إلى مساندة قانون أخلاقي ذا فاعلية قوية في استقامة الإنسان، وتحرره من عبوديته لنفسه بطاعته شهواته وغرائزه الشريرة(٤).

ويرى مالك رحمه الله أن الحضارة تمر بثلاث مراحل:

١ - مرحلة الروح أو نقطة البداية والانطلاقة في فجر كل حضارة مع ظهور فكرة دينية، ويمكن أن توصف هذه المرحلة بقوله تعالى: **﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾**(٥).

وفي هذه المرحلة يكون الإنسان في أحسن حالاته النفسية وذا فعالية اجتماعية وتكون طاقاته الحيوية في أتم استعدادها وتنظيمها، وهذا هو العصر الذهبي للحضارة في أي مجتمع لا لأنها في أوج ازدهارها وإنما لأن الأمة تتمتع بقوة جماعية حركية.

٢ - في المرحلة الثانية تبدأ بعض المظاهر السلبية تطفو على سطح المجتمع، وتبرز بعض النقائص والانحرافات العقيدية، والعقد النفسية والمظالم الاجتماعية وتظهر

---

(١) شروط النهضة ، ص ٥٣ ، مالك بن نبي.
(٢) لعل مايقصده مالك بن نبي بالعقيدة أو الفكرة الدينية هو تلك القوة الروحية الداخلية للإنسان التي يرى نشأتها الدين وهي التي تدفع الإنسان للعمل.
(٣) انظر شروط النهضة ص ٥٧ مالك بن نبي.
(٤) انظر ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية - ص ٤٥٠ مالك بن نبي.
(٥) سورة الصف الآية ٣ .

الأنانيات وتغلب المصالح الفردية على المصالح الجماعية، وعرفت الحضارة الإسلامية هذه الحالة في العصر العباسي حيث ظهرت نزعة الشعوبية في الشرق وبلاد فارس ويواصل المجتمع نموه والحضارة تطورها بفضل الدفعة الروحية الأولى ولاتكون كل القوة الشخصية والاجتماعية للأمة في حركة، وإنما هناك جانبا من الطاقات مضى إلى السكون ومضى جانب إلى الانحراف والاشتغال بالفساد ضد المثل والقيم والمصالح المالية.

وهكذا تتفكك القوى وتنقسم الحركة الاجتماعية إلى حركة مضادة وحركة تبقى في خط الاستقامة خط العمل ومواصلة رسالة التحضر ولعلها هي القلة.

٣ - المرحلة الثالثة مرحلة التفكك النفسي وانطلاق الغرائز وهي مرحلة أو فترة السقوط والانهيار الحضاري وفيها لاتعود العوامل تعمل بشكل منسجم ومتناسق ومتوافق مع سنن التحضر بل بصورة فردية وكل يعمل لحسابه الخاص وبالجملة فإنه من خصائص هذه المرحلة سيادة النزعة الفردية، وتحرر الغرائز من سلطان الأخلاق والقيم وتفكك العلاقات الشخصية والاجتماعية، وهذا مايطلق عليه في تاريخ الحضارات مرحلة الأفول[(١)].

وهنا يمكن أن يشهد دور الفكرة الدينية في الحضارة وفي الأمم دروس وعبر ويعلم أن أعظم التغييرات في التاريخ وأعمقها وقعت في أيام ازدهار الفكرة الدينية في نفوس أبناء الأمة[(٢)].

وأصل الحضارة في تصور مالك بن نبي أنها ليست سوى فكرة تتجسد في رجل مثل إبراهيم عليه السلام الذي ذكر في القرآن بأنه كان أمة[(٣)]. وتاريخ المجتمعات سواء تلك التي توارت وراء الشمس أم التي مازالت قائمة، إنما أصلها فكرة غرست بذرتها في تاريخها الأول، وما قامت الحضارات إلا على أساس الفكرة الدينية أو العقيدة ذات الطابع التقديسي في نفوس المؤمنين بها، ولايقدر دور أو فعالية العقيدة في النفس والمجتمع عبر التاريخ بقدر[(٤)].

والفكرة الدينية قد توجد قوة في الفرد بحيث يغدو الواحد يساوي المجموعة من غيره، والفئة القليلة تفوق الفئة الكثيرة في الشدة والقوة[(٥)] والحضارة في تصور مالك تنطلق من ذاتية الإنسان وهو المحور الأول في التغيير من البدو إلى التحضر ليصير الإنسان من كونه

---

(١) ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية - ص ٧١، ٧٢ مالك بن نبي.

(٢) ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية - ص ٧٣ مالك بن نبي.

(٣) لعله يشير إلى قوله تعالى ﴿إن إبراهيم كان أمة..﴾ سورة النحل الآية ١١٩ .

(٤) راجع ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية - ص ٥٢ مالك بن نبي.

(٥) لعل مالك بن نبي يشير إلى قوله تعالى: ﴿.. كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة﴾ البقرة الآية ٢٤٧ .

فردا عاديا إلى كونه شخصا، والشخص غير الفرد، بحيث يعنى الأول في مفهوم مالك أن يكون إنسانا يحس بمسؤوليته تجاه غيره من البشر وإن عليه واجبات اتجاههم وهذا الإحساس هو بداية النمو الحضاري في جوانب الأمة، وهو بداية كذلك توطد العلاقات الاجتماعية بين الأشخاص الذين تتحد آراؤهم في شكل نظريات فكرية واحدة تجاه ما يسميه مالك بن نبى "عالم الأشياء" فتكون هذه العوالم الثلاثة عوامل بناء حضاري.

وبعد امتزاج أثار هذه العوالم الثلاثة - الأشخاص - الأفكار - الأشياء - تظهر العلاقات الاقتصادية وبقية العلاقات الحضارية بصفة عامة والتي ظلت كلها مشروطة بوجود علاقات شخصية نفسية واجتماعية بين أشخاص المجتمع وهذا عكس ما تعتقده المدرسة الماركسية التي ترجع الشبكة الاجتماعية والشخصية والحضارية بصفة عامة إلى المخطط الاقتصادي وتجعل العلاقات المادية أساسا تقوم عليه كل النشاطات[1].

والأساس في تطور الإنسانية هو ما يحدث من نمو في مشاعرها الدينية المسجلة في واقع الأحداث الاجتماعية تلك التي تطبع حياة الإنسان وعمله وكل نشاطه وكل ملحمة من ملاحم التاريخ هى في الحقيقة نوع من تجسيد الفكرة الدينية[2].

وتظهر الدراسات النفسية أن العنصر العقيدي يتدخل في تكوين الطاقة النفسية لدى الفرد وفي تنظيم الطاقة الحيوية الواقعة في تصرف "أنا" الفرد ثم توجيه هذه الطاقة تبعا لمقتضيات النشاط الخاص بهذه "الأنا" داخل المجتمع وتبعا للنشاط المشترك الذي يؤديه المجتمع في التاريخ[3].

والحضارة أيما حضارة لاتنبعث إلا بالفكرة الدينية وينبغي أن نبحث في تاريخ كل حضارة من حضارات الدنيا عن أصلها الديني الذي بعثها إلى الحياة، ولعله ليس من الغلو في شئ أن يجد البحث التاريخي في البوذية بذور الحضارة البوذية وفي البرهمية نواة البرهمية. والحضارة لاتظهر في أية أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجا أو هى على الأقل تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام للغيب فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية، ومن المعلوم أن جزيرة العرب مثلا لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة يذهب وقته هباء لاينتفع به لذلك كانت العوامل الثلاثة - الإنسان + التراب + الوقت - راكدة مكدسة لا تؤدى دورا حتى تجلت الروح بغار حراء كما تجلت من قبل بالوادى المقدس أو بمياه الأردن فنشأ

---

(١) ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية - ص ٣. مالك بن نبى.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٥٦ .

(٣) ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية - ص ٦٨ مالك بن نبى.

عن العناصر الثلاثة حضارة جديدة كأنها ولدتها كلمة "اقرأ"[1].

وقد يثير هذا التأكد على دور الفكرة الدينية في قيام الحضارات وبناء المجتمعات تساؤلات في الأذهان عما يسمى "الحضارة الشيوعية" إذ لايمكن أن نرى فيها أثرا لدين ويذهب الأستاذ مالك بن نبي – رحمه الله – إلى أن هناك خطأ شائعا حين نعتبر الشيوعية حضارة، والحق أن الشيوعية أزمة إنسانية قد يمتد أثرها وقتا طويلا، لأن الأصل في الحضارة والغاية منها سعادة الإنسان بتوفير العناصر المادية والروحية له، ولم تكن الشيوعية وغيرها من بعض النظم الكثيرة كذلك، وجاءت الشيوعية كغيرها من المذاهب والفلسفات الوضعية وليدة عقول طائفة من المؤمنين بها مدفوعين لنشرها بنفس القوة الداخلية التي دفعت غيرهم من المؤمنين من ذوى العقائد والأفكار الذين شاهدوا فجر مولد الحضارات.

ويبقى تأثير الفكرة في المجتمع أو الأمة مرتبط بشروط منها القابلية الداخلية لأبناء الأمة لهذه الفكرة أو تلك، وعنصر المكان لإحداث التغيير الاجتماعي فالفكرة الإسلامية مثلا ما استطاعت أن تؤدى دورها إلا لكون شبه الجزيرة العربية كانت مكانا ملائما وأرضا عذراء، وكان الإنسان العربي بها مهيأ فطريا قابلا للتحضر، أما الفكرة المسيحية فهي على عكس هذا بحيث ولدت على أرض مزدحمة بالثقافات التاريخية وبقايا العقائد الفانية[2]، فكان من العسير على المسيحية أن تنتشر في هذه الظروف، وتجد لنفسها عناصر اجتماعية حرة كافية كيما تحدث تركيبا جديدا وكانت الثقافة الإغريقية والرومانية والديانة اليهودية تحتل منذ عهد بعيد مجال عملها فلكي تجد المسيحية مجالها المناسب كان عليها أن تهاجر وتغادر مهدها وهذا هو الذي يفسر أن المسيحية قد ولدت قبل الإسلام بستة قرون ولم تبدأ مهمتها التاريخية إلا بعد الإسلام بستة قرون بعيدة عن مسقط رأسها وهذه الحالة تبين لنا أن تأثير فكرة دينية معينة رهن ببعض شروط الجغرافية الإنسانية فإذا لم تجدها في موطنها هاجرت لتجدها في مكان آخر إذن قد غادرت الفكرة المسيحية أرض مولدها "فلسطين" بحثا عن الظروف الملائمة إلى غرب أوربا حيث أنهت الحضارة الرومانية دورتها خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين[3].

ولعل هذا ما يفسر لنا ظاهرة هجرة كثير من الأنبياء كإبراهيم ومحمد صلى الله عليهم وسلم من أرض إلى أخرى، كما تفسر لنا اهتمام بعض مفسري التاريخ بالبيئة الجغرافية كما يسميها ابن خلدون.

---

(١) شروط النهضة ص ٥١ مالك بن نبي.
(٢) انظر ميلاد مجتمع – شبكة العلاقات الاجتماعية – ص ٥٢ مالك بن نبي.
(٣) انظر ميلاد مجتمع – شبكة العلاقات الاجتماعية – ص ٥٤ مالك بن نبي.

وكذلك البوذية اضطرت إلى هجرة مسقط رأسها في الهنـد بحثا عـن ظـروف أكثـر ملائمة هناك في الصين حيث غرست تعاليمها(١).

تكاد نظرة الأستاذ مـالك بـن نبـي - رحمـه الله - عـن سـقوط الحضـارات ومـرض المجتمعات أن تكون صورة شمسـية أو لوحـة فنيـة لمجتمـع أمـة يتـوارى وراء الشـمس أو مريض يحتضر أمام الناس بحيث حوت هذه النظرة جانبا من الإبداع الأدبي وجانبـا مـن التحليل الفلسفي المنطقي حتى إن الدارس لايستطيع أن يختار فقرة عـن فقـرة أو يفضـل فكرة عن أخرى.

فيرى أن تطور المجتمع على أيـة صـورة كـان، فهـو مسـجلا كمـا وكيفـا في شـبكة علاقاته الحضارية وعندما يرتخى التوتر في خيوط هذه الشبكة تصبح قواهـا عـاجزة عـن القيام بالنشاط الاجتماعي المشترك بضورة فعالة فذلك أمارة على أن المجتمع مريض وأنه ماض إلى النهاية(٢) وقد يحدث المرض والتفكـك والمجتمـع متخـم بالأشـخاص والأفكـار والأشياء كما حدث في العالم الإسلامي في نهاية العصـر العباسـي في الشـرق وفي نهايـة عصر الموحدين في المغرب، وكذلك كان حال الإمبراطورية الآشورية في القرن الخـامس قبل الميلاد، عندما اختفت عن الوجود حيث أصبحت عـاجزة علـى أي نشـاط مشـترك لأن شبكة علاقاتها أصبحت ممزقة ومع ذلك فقبل أن يتحلـل المجتمـع تحلـلا كليـا يحتـل المرض جسده الاجتماعي في هيئة انفصالات، أو انفصامات في شبكته الاجتماعية وهذه الحالة المرضية قد تستمر قليلا أو كثيرا قبل أن تبلغ نهايتها في صورة انحلال تـام وتلـك مرحلة التحلل البطئ الذي يسـرى في الجسـد الاجتمـاعي(٣) ويؤكـد الأسـتاذ مـالك أن جميع أسباب الانحلال والتدهور كامنة في شبكة العلاقات وفي العوالم الثلاثة المكونـة لهـا أي في كيان الأمة.

وقد يبدو المجتمع في ظاهره ميسورا ناميا لابـأس عليـه بينمـا شـبكة علاقاتـه مريضـة ويتجلى هذا المرض الاجتماعي في العلاقات بين الأفراد أو الأشخاص وأكبر دليـل علـى وجـوده يتمثـل فيمـا يصيـب "الأنـا" عنـد الفـرد من تضخـم فينتهـي إلى تحلـل الجسـد الاجتماعي لصالح الفردية(٤).

وعند ذلك تنعكس الحياتان النفسية والاجتماعية علـى بقيـة نواحـي الحيـاة الأخـرى فتفسـد جميـع العلاقـات في الأمـة ففـي العلاقـات الشـخصية تصـاب الـذوات الفرديـة بالتضخم فتشل الإرادة ويفتقد الإخلاص وتنتشر الأنانيـة ويصـاب الإنسـان بمـا يسـميه

---

(١) ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية - ص ٥٤ مالك بن نبي.
(٢) ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية - ص ٣١ مالك بن نبي.
(٣) ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية - ص ٤٠ مالك بن نبي.
(٤) ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية - ص ٤٠ مالك بن نبي.

الأستاذ مالك بالكمال المزيف وهو أن يصبح يشعر بوجوده أكثر مما هو في الواقع فيظن أنه محور العالم والتاريخ يدور حوله وإنه ملء أسماع الناس وأبصارهم وأنـه يجيـد معرفـة كل شئ وأنه رمز التقدم والتحضر وغير ذلك من أحلام النفوس المريضة، ويصدق عليـه قول الشاعر الحكيم:

ومما يزهدني في أرض أندلـس .. تلقيب معتصـــم فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها .. كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

ثم تنتقل العدوى من العلاقـات الشـخصية إلى العلاقـات الاجتماعيـة فيصـير العمـل الجماعي أمرا صعبا أو مستحيلا إذ يكثر التنازع والشقاق والاختلاف ويصعب الاتفـاق والاتحاد في المجتمع إلا ما نـدر، فيتفشـى الظـن وتذهـب القـوة الروحيـة، وفي العلاقـات الثقافية والعقيدة يكثر الجدل والقيل والقال لا للعمل وإنما لأغراض ذاتية نفسية، ويـدور النقاش والمراء لا لإيجاد حلول للمشكلات القائمة والمطروحـة علـى الأمـة وإنمـا للعثـور على أدلة وبراهين لإسكات الخصم، وحينئذ لا يتوصل إلى حل للمشكلات، لا لفقر في الأفكار والمعلومات، واستحالة الحلول لأسباب خارجية، ولكن لأسباب داخليـة تكمـن في الإنسان الذي لم يعد سويا في هذه المرحلة أي مرحلة الانهيـار والتدهـور الحضـاري، ويصبح الاهتمام في هذه الفترة منصبـا علـى قضايـا لا تقـدم ولا تؤخـر في حيـاة الأمـة، ولعـل هـذا مـا يشـبه كـان عليـه فقهـاء المسـلمين في فـترة الانحطـاط الحضـاري للأمـــة الإسلامية.

حيث كان البحث في جنس الملائكة والتوضوء من وطء البهائم أكبر اهتمام العلمـاء وفي الوقت نفسه تدك حصون الإسلام وقلعات حضارته على يد الغزاة[1].

ويرى الأستاذ مالك بن نبي أننا إذا أردنا معرفة أمراض المجتمعـات ودراسـة أسـباب سقوط الحضارات، فإنه جدير بنـا دراسـة "الأنـا" النفسـي للأفـراد، الـذي تتجلـى فيـه الأمراض الحضارية ومفاسد الأمة، وإن لم نأخذ بهذه الطريقة أو المنهج فإن نظرتنا لواقع الأمة الحضاري تظل نظرة سطحية وصفية، تصدق على الظواهر والأشـياء ولا تنفـذ إلى جواهر القضايا وكنهها الداخلي لتجسد الأمراض وترصد العلل والأسباب[2].

ولذا نجد العلاقات الفاسدة في "عالم الأشخاص" لها نتائجها السـريعة والسيئة علـى "عالم الأفكار" و "عالم الأشياء" والأمة ليست أكـثر مـن هـذه العوالم الثلاثـة ذلـك أن سيادة المفاسد في عالم الأشخاص، وتفشى أمراضه في المجتمع هو بدايـة منحـى السـقوط الحضاري الذي خلفته واستحدثته عوامل نفسية أحط من مستوى الروح والعقل، والـتي

---

(١) انظر ميلاد مجتمع – شبكة العلاقات الاجتماعية – ص ٤٠ مالك بن نبي.

(٢) انظر ميلاد مجتمع – شبكة العلاقات الاجتماعية – ص ٤١ مالك بن نبي.

تستطيع أن تخترق بطريقة قد تكون لا شعورية من الإنسان وفي غفلة من العقل لتدمدم داخل الأمة وتهيمن على حياتها الاجتماعية والاقتصادية... ومن سنة الله أنه في الوقت الذي تنكمش فيه تأثيرات الروح والعقل تنطلق الغرائز الدنيئة من عقالها لتؤدي بالإنسان إلى التدني إلى الحياة البدائية أو الحيوانية[1].

أبو الأعلى المودودى ١٣٢٣/١٣٩٩هـ - ١٩٠٣/١٩٧٩م:

جاء تصور أبى الأعلي المودودي عن قيام الحضارات وسقوطها في كتابين من خيرة كتبه[2].

وبين كيف تقوم الحضارات وتزدهر ثم تتدهور وتسقط، واستشهد لتصوره قيام الحضارات والحياة الإسلامية كنموذج وتجربة تطبيقية على ما ذهب إليه، وقام تصوره عن قيام الحضارة على أساس الغاية التي بعث الرسل والأنبياء لتحقيقها في الحياة وهي:-

١ - إحداث الانقلابات الفكرية النظرية في عموم الإنسانية.

٢ - تكوين الجماعة المؤمنة بالفكر الجديد.

٣ - إقامة الحكم الإسلامي البديل وتنظيم كافة شعب الحياة على أساسه ثم الانطلاق لتوسيع الدائرة التي يسودها الحكم الإسلامي البديل.

وهذا يكون ضمن خطة أو منهج أوله العقيدة، ثم الجماعة التي تتجسد فيها هذه العقيدة تسعى بين الناس ثم المجتمع الذي تتجسد فيه هذه العقيدة، وتنطلق بالجهاد لتوسيع دائرة الإسلام وتقليص دائرة الجاهلية[3].

وفي محاولة المودودى لإقامة تصور لأسس قيام حضارة إسلامية، واجه فكرة تصور الحضارة الغربية القائمة على القومية السياسية والوطنية المجردة المبنية على وحدة الأرض والمصلحة المادية والسياسية وواجه مفهوم الديموقراطية على النمط الغربي الذي تحكم فيه الأغلبية وتخضع لها الأقلية.

كما واجه العلمانية التي تفصل الدين عن الدولة، وتسيد المادة على الروح، وكان التخلف الموروث هو الجناح الآخر الذي واجهه المودودى والمتمثل في الفكر الإسلامي التقليدي المحسوب على المسلمين وهو الذي طمس تألق الإسلام وشوه صورته فأسهم في دفع الكثير من المسلمين إلى الإيمان بالنمط الحضاري الغربي، وصد الكثير من غير

(١) انظر شروط النهضة ص ٥٣ مالك بن نبي.

(٢) هما الحضارة الإسلامية: أسسها ومبادؤها، ونحن والحضارة الغربية أبو الأعلى المودودى.

(٣) انظر الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري ص ٨٩ محمد عمارة.

المسلمين إلى الدخول في الإسلام.

واعتبر أبو الأعلى المودودى هذه الثلاثية - القومية - الديمقراطية - العلمانية (اللادينية)- قواعد الحضارة الغربية، ثم أعلن بدائله الإسلامية لهذا الثالوث فقال: نقدم مبدأ التسليم لله وطاعته بديلا عن العلمانية، ونقدم مبدأ الإنسانية بديلا عن القومية المحدودة الضيقة، ونقدم مبدأ حاكمية الله وخلافة المؤمنين بديلا عن سيادة الشعب وحاكمية الجماهير - أي الديموقراطية -[1].

ويذهب أبو الأعلى المودودي في تصوره عن قيام الحضارات أن كل حضارة تنبثق عن تصور للوجود ككل وتصور عن الإنسان يحدد أصله ونشأته وغاية وجوده وعلاقاته بما حوله من سائر الموجودات وعلاقته بالكون وما وراءه، كما تنطلق الحضارات بدوافع عقيدية يصدر عنها سلوك الإنسان، وأعماله، وسيرته في الحياة، والعقيدة سواء كانت دينية سماوية أم فلسفية أرضية، هى الأساس في قيام حضارات الأمم وازدهارها، وعنها تنشأ جميع نظم الأمة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية... والعقيدة التي صدرت عنها الحضارة الإسلامية هي الإيمان بوجود خالق للكون، والإيمان بوحدانيته وربوبيته، وأن لا سلطان حقا وصدقا على الحياة إلا سلطانه، وأن لا مالك على الحقيقة الأبدية كلها إلا هو سبحانه، وكل ماعداه فهو مخلوق يمنحه بقدر حيث شاء وما شاء ويسلبه متى أراد، والوجود كله بما فيه الإنسان ملزم باتباع منهج العبودية وطاعة الله، والحضارة الإسلامية حضارة عقيدية فكرية ذات مبادئ ومناهج، وهى نمط فذ في تاريخ الحضارات التي عرفتها الإنسانية في كثير من جوانبها الإنسانية، ولعل هذا ما أهل هذه الحضارة للهيمنة على جزء كبير من العالم خلال فترة قصيرة من الوقت وهو ما يبرر ثقة أصحابها بأن المستقبل للإسلام[2].

ويذهب المودودي إلى أن كثيرا ما يخلط المفكرون والفلاسفة بين الحضارة ونتائجها، ويظنون أن الحضارة هى علومها، وفنونها، ومعارفها، وصنائعها، ومناهجها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية... والحق أن هذه مظاهر الحضارة وأوراق وثمار لشجرتها، والشيء الجدير بالبحث في الحضارات هو ما تصور الحضارة عن الوجود وما نظريتها عن الكون، ومامنزلة الإنسان فيها، وماعلاقته بالله، والكائنات الأخرى من حوله، وما غاية هذا الإنسان في الوجود، ولأي غرض هو يكدح ويسعى، وما العقائد، والأفكار، وما الوسائل المعنوية والطرق التي تملكها لتكوين الإنسان وتحريكه للعمل[3].

---

(١) الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري ص١١٦ نقلا عن الإسلام والمدنية الحديثة ص٣١ لأبي الأعلى المودودي.

(٢) راجع الحضارة الإسلامية: أسسها ومبادؤها ص ٤، ٥ أبو الأعلى المودودي.

(٣) راجع الحضارة الإسلامية: أسسها ومبادؤها ص ٧ أبو الأعلى المودودي.

ويرى أبو الأعلى المودودي أن التعرف على الحضارة ينبغي أن يسبقه تعرف على عقيدتها ومنطلقها الأول وتصورها عن الحياة...

فعوامل قيام الحضارات وتكوينها عند أبي الأعلى المودودى هي:-

تصور الحياة الدنيا - غاية الوجود - العقائد والأفكار الأساسية - تربية الأفراد واعداد الإنسان- النظام الاجتماعي(1).

ويعمم أبو الأعلى المودودي هذه الرؤية فيذهب إلى أنه ما من حضارة في الدنيا إلا وتكونت من هذه العناصر التي يدرسها في كتابه الحضارة الإسلامية أسسها ومبادؤها، ويذكر أن العاملين أو العنصرين الآخرين - تربية الأفراد والنظام الاجتماعي - وإنما تكلم عنهما في أحاديث للإذاعة الباكستانية غير مسجلين(2).

١ - **تصور الحياة الدنيا:**

الحياة الدنيا دار سعادة للإنسان بشرط تحقيق غاية وجوده فيها،وهناك وعود من الله ومواثيق ضمن قانون رباني لايختلف هى سنته الجارية في تحقيق عدله في البشر وإنزال رحمته بالخلق كله.

أول ذلك قوله تعالى **﴿فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾**(3).

فلا خوف إذن ولا حزن على الذي اتبع هدى الله بالتزام أوامره واجتناب نواهيه وهذا وعد من الله وهو لا يخلف الوعد(4).

وبالمقابل قال تعالى: **﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا با لله أولئك هم الخاسرون﴾**(5) فالذي دلت عيه الآيتان أن سعادة الإنسان وأمنه موقوفان ومشروطان باتباع الحق الذي أنزل عليه وتحقيق الغاية التي خلق من أجلها الجن والإنس **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾**(6)وإن الإنسان يدخل امتحانات وابتلاءات لنيل هذه السعادة، وقد تكون سعادته في الابتلاء كما كانت النار سلاماً على إبراهيم عليه السلام والأمثلة كثيرة، وقد ينال الفقير المقتر السعادة ويحرمها الغنى المترف، وكذلك حتى لاتكون الحياة عبثاً وتؤتى خيراتها ونعمها جزافاً، وقد أوتى الإنسان كل الوسائل الذاتية والموضوعية من سمع وبصر وأفئدة وغيرها، وسخر له ما في السموات والأرض.. للاستقرار والهناء، وفي الوقت ذاته قد تكون هذه الوسائل والذاتية خاصة، وسائل شقاء

---

(١) الحضارة الإسلامية: أسسها ومبادؤها ص ٩ أبو الأعلى المودودي.

(٢) انظر الحضارة الإسلامية، أسسها ومبادؤها ص ١٠ أبو الأعلى المودودي.

(٣) سورة البقرة ، الآية ٣٧ .

(٤) الحضارة الإسلامية، أسسها ومبادؤها ص ١٩ .

(٥) سورة العنكبوت ، الآية ٥١ .

(٦) سورة الذاريات ، الآية ٥٥ .

له وتدمير لنعم الله عليه[1].

والحياة الدنيا ليست هي كل شي بل هي زائلة ومتاعها قليل. قال تعالى: **﴿إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور﴾**[2] وهذا نهي للإنسان حتى لايعرض عن الحقيقة وهي حقيقة الدار الآخرة، دار البقاء والإسلام منهج التوازن بين كل الثنائيات[3].

٢ – غاية الوجود :

إن السؤال التمحيصي للحضارات في معرفة درجتها في الصلاح من الفساد، أو النفع من الضرر هو ما إلا للغاية التي تسعى لتحقيقها الحضارة؟

والإنسان بفطرته محكوم بقدرة غيبية تظهر في عجزه، وإنه لايتحرك إلا بإرادة ولا يتوجه في عمله إلا إلى هدف يرنو إلى تحقيقه، وعلى هذا الهدف تتوقف حياته، ولا تكون الغاية صحيحة إلا إذا كانت فطرية في الإنسان غير مكلفة ولا مصطنعة[4].

إن غايات الناس الفطرية ليست هي الغاية التي يكدح الإنسان ويشقى في الوصول اليها لأن لكل إنسان في الحياة غايات وأهدافاً شخصية ذاتية هي جزء من الغاية الكبرى التي خلق الإنسان من أجلها، وهي التي يلتقي عليها كل الناس بل كل الكائنات المخلوقة، فتكون غاية اجتماعية ونفسية وانسانية عامة وهي العبادة بمفهومها العام الشامل[5] وما هذه الغايات الجزئية المتعددة إلا وسائل إلى بلوغ الغاية الوحيدة وهي السعادة النفسية والطمأنينة القلبية في الحياة الدنيا والآخرة برضى الله.

هذا عن الحضارة في تصور الفكر الإسلامي، أما عن الحضارات التي قامت من منطلقات خاطئة فقد رسمت عدة غايات لأتباعها وأبنائها، ولعل من أكبر غايات الفكر المادي طلب الغلبة والسطوة رغبة في التفوق على سائر أمم الأرض بكثرة المال والولد وسبق الشعوب في مظاهر التقدم العمراني باعتبار وسائل القهر والتدمير منجزات حضارية ومآثر مدنية وغايات استمتاع بملذات الدنيا.

ومتى كانت الغاية تبرر الوسيلة فإنه تتناقض الغايات العامة وتصطدم المصالح الجزئية فيظهر الغرور والنفاق والتضاد فيعيش الإنسان في خضم الهموم والصراعات، وهذا ما يتنافى مع غاية الإنسان الفطرية الأصلية[6].

---

(١) الحضارة الإسلامية: أسسها ومبادؤها ص ٢٩ أبو الأعلى المودودي.
(٢) سورة لقمان ، الآية ٣١ .
(٣) الحضارة الإسلامية: أسسها ومبادؤها ص ٣١ أبو الأعلى المودودي.
(٤) أسس الحضارة الإسلامية: أسسها ومبادؤها ص ٥٢ أبو الأعلى المودودي.
(٥) انظر الفصل الثالث من هذه الدراسة.
(٦) الحضارة الإسلامية: أسسها ومبادؤها ص ٥٥ أبو الأعلى المودودي.

أما الحضارات التي انطلقت من قواعدصحيحة ودوافع شريفة فقد جعلت غايتها الله قال تعالى ﴿**قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العاملين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين**﴾(١).

فكانت الغاية العامة في تحركات الإنسان وسكناته في الدارين الدنيا والآخرة هي الله(٢). ولذلك إن كانت عبادة الإنسان غاية غير ثابتة وغيرها هادفة لمنافع دنيوية فهي سبب شقائه في الدنيا والآخرة قال تعالى ﴿**ومن الناس من يعبد ا لله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين**﴾(٣).

والآيات كثيرة وهي تقرر هذه الحقيقة التي هي أكبر فرق بين القيم الإيمانية الإسلامية والقيم الإنسانية، كما كانت هذه الحقيقة العظمى جوهر التوحيد فالذي يعمل أي شئ في حكم الإسلام يجب ألا يعمله إلا لوجه الله ومرضاته، ولعل آية سورة الأنعام (١٦٣) هي أجمع الآيات في هذا الموضوع(٤).

ومن المعلوم أن باطن الإنسان هو المنشأ لكل ما يصدر عنه من الأعمال والسلوك في حياته، فالشئ يستقر داخل الإنسان إيماناً بفكرة أو تصور أو إحساس بمشاعر أو رغبات ثم يتحول إلى حركة عملية بفعل قوة إرادية داخلية، وبقدر ما يكون الإيمان مستقر والإرادة قوية تكون أعمال الإنسان منظمة وذات فعالية، وعلى قدر ما يكون إيمانه متذبذاً وإرادته ضعيفة يأتي عمله غير متقن وأخلاقه وسلوكه متناقضة، ولايكون لحياته نظام متزن وثابت(٥).

ولعل أسس كل هذا الإيمان الذي من مشتقاته الأمن وهو ضد الخوف والتذبذب وهو الاطمئنان وسكون القلب(٦). ودور الإيمان في تكوين الحضارات وبناء الأنفس والمجتمعات قضية مسلمة في كل المذاهب الفكرية والتاريخية وهو الذي يخرج القوى الكامنة في النفس البشرية إلى واقع عملي(٧).

ولعل التقلبات والنقلات التي تحدثها بعثة الأنبياء والرسل وآراء المفكرين والعظماء في الأمم ظاهرة تاريخية احتماعية لا تخفى على أحد فالإنسان هو الإنسان قبل البعثة

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٦٢ - ١٦٣ .
(٢) سيأتي تفسير الآية في الفصل الثالث من هذه الدراسة.
(٣) سورة الحج ، الآية ١١ .
(٤) ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العلمين﴾.
(٥) انظر الحضارة الإسلامية أسسها ومبادؤها ص ٩٠ ، أبو الأعلى المودودي.
(٦) انظر نفس المصدر السابق ص ٩٢ ، أبو الأعلى المودودي.
(٧) انظر مؤشرات حول الحضارة الإسلامية ، عماد الدين خليل.

وبعدها وفي كل الفترات والبلدان، ولكن تفكيره ومواقفـه همـا اللـذان يغيران دوره في الحياة بقدر إيمانه بغايته ومبدئه في الحياة فسيرة الإنسانية التاريخية والحضاريـة لايمكـن أن تؤسس إلا على عقيدة ذات إيمان عميق بحقائق الوجود ومنهـا دور الإنسـان في الأرض، وعلى أفكار قوية صحيحة تخرج إلى حيز الوجود نظامـا أخلاقيـا شـاملا كـل المجـالات الاقتصاديـة والاجتماعيـة والسياسية... وتعد الإنسـان لإحـراز التقـدم والرقـي المـادي والمعنوي لعمارة الأرض عمارة شاملة تحقق له الفوز والنجاح في الدارين.

والذي تقتضيه مصلحة العمران الإنساني ألا تبقى قـوى الإيمـان قصـراً علـى الأفـراد وداخل نفوس أشخاص معينة وأماكن محددة كالمساجد والأماكن المقدسة وفي مناسـبات خاصة كالمآتم فهذه حالة سلبية للايمان، ولكن أن يصبح شـعار النـاس العملـي وهتـافهم الداخلي فيحدث الترابط الاجتمـاعي ويصبح الإيمـان مقياسـاً لعلاقـات النـاس، وبهـذه المواصفات يحدث الإيمان في حياة الأمم أنواعاً من التجانس والتوازن فيخـرج إلى الواقـع حضارة إنسانية صادرة عن رغبة جماعية شريفة تحقق غاية الإنسان وأهدافه[1].

ولعل من أهم ما يميز كتابات أبي الأعلى المودودي - رحمه الله - أنه كان يكتـب في مناسبات كثيرة ومختلفة وفي أزمنة متباعدة قد تمتد أحيانا إلى ربع القرن، لأنـه رحمـه الله لم يكن رجل تأليف أو تحقيق، وإنما كان رجل دعوة وحركـة صحافيـة حضاريـة يتـابع تطورات الحياة من واقع الحياة العملية[2].

ومما يميز فكره الحضـاري رحمـه الله الاهتمـام بـالأصول وكـبرى القضايـا والظواهـر والنفوذ إلى أعماق المسائل لاستنباط الأحكام والحلول[3]. ونفذ المودودي إلى لب المعالم البارزة في فكـر الحضـارة الغربيـة فـرأى أنهـا حضـارة ذات فلسـفة ماديـة وذات طـابع إلحادى موروث منذ جاهليتها اليونانية حتى طوعت المسيحية فغدت فيها مجرد قسمة في حضارة مادية، وغدا التدين الروحي الـذي عرفتـه المسيحية في أصولهـا الأولى وحياتهـا الشرقية القديمة مجرد شكل لايتعدى الطقوس والأحوال الروحية الصوفية، ولا أثـر لـه في الحياة العملية عند الكثرة الكاثرة من الغربيين، والنهضة العلمانية لهذه الحضـارة لم تبشـر بالإلحاد صراحة إلا أن علومها ومعارفها قد تعاونت على تكوين عقل يؤمن بكـون بـلا خالق ويدرك ظواهره معللة بالعلل المادية والمحسوسة مسقطا من تصوره واعتقاده الفاعل الأول لهذا الكون وهو الله سبحانه وتعالى.

ولهـذا تميزت المنـاهج الاجتماعيـة والاقتصاديـة والسياسـية... في الغـرب بـالتطرف والافتقار إلى الوسطية والتوازن، وعجزت علوم وفنون ومعـارف الحضـارة الغربيـة عـن

(١) انظر الحضارة الإسلامية: أسسها ومبادؤها ص ١٠٣ أبو الأعلى المودودي.

(٢) انظر نحن والحضارة الغربية ص ٦ أبو الأعلى المودودي.

(٣) انظر المصدر السابق ص ٣٨ أبو الأعلى المودودي.

النهوض بالمهمة الروحية والإنسانية في الحياة بدلا من الإيمان والأخلاق الربانية. وهذا هو الخلل في الحضارة الغربية وعامل انهيارها وسقوطها[1].

ويعد نقد الأستاذ المودودي للحضارة الغربية وهيمنتها العدوانية على غيرها من الحضارات التاريخية للأمم الأخر ميدانا من أخصب ميادين الفكر التي تجلت فيه عبقريته الإبداعية، وكان نقده للحضارة الغربية والتصدي لهيمنتها أكثر من مجرد قضية فكرية، وأعظم من مجرد خياري ثقافي أو سياسي بل كان عملا من أجل الاستقلال الحضاري الذاتي للأمم المهيمنة عليها حضارة الغرب، ذلك أن الاستقلال شكلي لايتعدى العلم والنشيد الوطني في الميدان السياسي، ولا يتعدى اللغة كوسيلة للحديث والتخاطب بين الناس في الميدان الثقافي، وكذلك يكون الاستقلال الاقتصادي مجرد تنمية للتبعية تربط الأمم بالمركز الحضاري الغربي[2].

وناقش أبو الأعلى المودودي الحضارة الغربية في أصلين من أصول تصور الحضارات للحياه الإنسانية، ذلك هما غاية وجود الإنسان ونظرتها أو تصورها للوجود، ودلل على فساد أصول الحضارة الغربية بالإحصاءات الرسمية التي نشرها ديوان القضاء الأمريكي ما بين عام ١٩١٠م وعام ١٩٣٣م والتي أفادت أنه من أجل تنفيذ قانون منع الخمور في الولايات المتحدة الأمريكية قتل مائتا نسمة وسجن نصف مليون إنسان، وغرم الجناه مايزيد عن نصف مليون جنيه، وصودر من الملاك المنحرفين ما يساوي أربعمائة مليون جنيه وكانت كل هذه الأموال من أجل تعليم أمريكا المتحضرة - عاصمة الحضارة الغربية ذات الإعلام الغزير والوسائل المادية الخارقة، والمناهج الاجتماعية العظيمة - أضرار الخمر الصحية. وفي الأخير خابت الأمة في تحقيق بغيتها، والوصول إلى أهدافها[3].

بينما استطاع التشريع الإسلامي أن يوقف الخمور في عهد النبوة بتلاوة آيات من القرآن الكريم تبين ضرر الخمور، فحق لأبي الأعلى المودودي أن يهتم بالأصول ويناقشها لأن بمعرفتها يحصحص الحق ويبطل الباطل، وهذا قليل من كثير في قضايا الحضارة الغربية.

ويرى الأستاذ أبو الأعلى المودودي أن الفلسفة والعلوم التجريبية التي انبجست عن الحضارة الغربية ونشأت في أحضانها كانت ومازالت ذات نزعة دهرية وإباحية مادية ولذلك ما إن ظهرت المدنية إلى حيز الوجود بهذه القوة حتى قامت تحارب الدين

---

(١) انظر : أبو الأعلى المودودي والصحوة الإسلامية ص ١٢٦، ١٢٧ د/ محمد عمارة.

(٢) انظر نفس المصدر السابق ص ١٢٥ د/ محمد عمارة.

(٣) انظر نحن والحضارة الغربية ص ٥٣، ٥٦ أبو الأعلى المودودي.

وتطارد الإيمان بالغيب ودور الروحيات في استقرار الحياة وحل مشاكل المجتمعات[1].
وكان طابع جو الحضارة الغربية لا دينياً بمعنى أنه لا وزن للنبوة والوحي والاعتقاد بحياة أخرى بعد الموت ولا خوف من المحاسبة على أعمال الدنيا في الآخرة، ولا طمع في الجزاء على الأعمال الصالحة، وبالتالي فلا وجود لمسؤولية للإنسان أمام الله. ولامقصد أو غاية من الحياة الدنيا غير المنافع العاجلة وهذه أقرب إلى العبثية إن لم تكن هي ذاتها[2].

ومن هذا الباب يلج أبو الأعلى المودودي إلى تعليل أسباب سقوط الحضارات وهلاك الأمم، فيعلل سقوط حضارة الإسلام في الهند بفساد القلة من أتباع التابعين الذين لم يكونوا على شئ من خصائص الفاتحين الأولين، حيث فتر إيمانهم واسترخى الحماس الإسلامي في نفوسهم، وغلب عليهم حب المغانم المادية وطالبوا الناس بطاعتهم بدل طاعة الله فكانت النتيجة أن ابتليت البلاد بالحركة الباطنية وبقى السواد الأعظم من أهل شبه جزيرة الهند على غير الإسلام رغم وجود الإسلام في البلاد قرونا عديدة[3].

ويرى المودودي أن من أكبر أسباب الشقاء في العصر الحديث هو أن هذه الحضارة القائمة نشأت في أحضان بعيدة عن الله وبدوافع مادية قد استولت على الإنسانية وأسست هذه الحضارة حكمتها النظرية والعملية على قواعد خاطئة وقامت مناهج فلسفتها، وعلومها، ومعارفها، ونظمها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وبالجملة كل ما يتصل بها أقامته على أرضية عقيدية فاسدة، فراح كل ما يصدر عنها يرتقى في وجهة غير صحيحة، ثم ولت تلك العلوم والمناهج على أصحابها بالشر والندامة وانتهت إلى ما يعانيه الغرب اليوم والإنسانية عامة، ولقد ترتب على أخطاء المقدمات الأولى، أخطاء النتائج التي آلت إليها تلك المقدمات[4].

﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه. والذي خبث لا يخرج إلا نكدا﴾[5].

ذلك مثل عمل المؤمن وعمل الكافر[6]. وجاءت بعض الحلول تسعى إلى إيجاد مخرج لهذا المأزق ولكن كلها اهتمت بالفروع دون الأصول وقلما ينشأ فرع صالح من أصل فاسد[7].

وأبو الأعلى المودودي من الذين يرون أن الحضارات تسقط بعوامل داخلية وأسباب

(١) انظر نحن والحضارة الغربية ص ١٣ أبو الأعلى المودودي.
(٢) انظر نفس المصدر ص ٢١ أبو الأعلى المودودي.
(٣) انظر نفس المصدر ص ٢٧، ٢٨ أبو الأعلى المودودي.
(٤) انظر نحن والحضارة الغربية ص ٢٧، ٢٨، أبو الأعلى المودودي.
(٥) سورة الأعراف: الآية ٥٧ .
(٦) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ١٢٩ .
(٧) انظر نحن والحضارة الغربية ص ٤١ أبو الأعلى المودودي.

ذاتية وإن أية حضارة تنشأ تحمل بذور فنائها[1].

وحتى لاتكون حجة للذين ظلموا على الله ومادامت سنة الله ثابتة في الحياة فهي تتكرر اليوم أمامنا في الذين ظلموا من الشعوب في مختلف أحقاب التاريخ. ووبال الأعمال السيئة والجرائم النكراء اللذين ذاقتهما الأمم السالفة قد حاق بأمم الحضارة الغربية الراهنة وقد أنذرت هذه الأمم بكل درجة ممكنة من الإنذارات، فآفات الحروب ومشكلات الاقتصاد وانتشار الأمراض البدنية والنفسية الفتاكة كل تلك آيات بينات للذين يعلمون سنن الله في الأمم، وهي ثمرات الظلم والعتو في الأرض ومما تدل عليه الأحوال أن مرحلة النذر وفترات الإمهال قد كادت تنتهي، ويرى أبو الأعلى المودودي أن بذور عوامل فناء الحضارة الغربية قد نشأت مع بذور نشأتها الأولى، وأنها قد تأتي من حيث تأمن ولعل هلاكها يكون بقطع أو تعقيم الأرحام وهو عامل من العوامل المرشحة لهلاك الغرب وإلقاء حتفه عليه وقد يكون بذخائر البارود - الأسلحة - أو مراكز الخطر المبثوثة في العالم هنا وهناك، فالحضارة الغربية تنتظر ساعة بعينها - يعلمها الله - إذا حانت فيحل بهم هلاك وخراب[2]. ومن خصائص نظام الكون عدم السكون وهناك حركة دائمة وتبدل مستمر لا يدع شيئاً يستقر على حال فكل بناء يتبعه خراب، وكل ربيع يتلوه خريف وكل صعود بعده هبوط وهكذا والعكس صحيح، فترى الحبة الصغيرة تذروها الرياح اليوم من مكان إلى آخر وغداً تتأصل هذه الحبة في الأرض فهي شجرة باسقة الفروع ثم تذوى هذه الشجرة بعد وتندفن في الأرض، وكل أعمال الرفع والخفض والتبديل والتحويل الجاري في الحياة إنما هو وفق سنة وقانون وليس صدفة وعبث كما زعم البعض[3]، ولاتزال أحداث العالم تجري وتتحرك بما يشبه حركة دورية فالولادة والموت والشباب والشيخوخة والقوة والضعف والربيع والخريف والنضارة والذبول كل أولئك وجوه مختلفة لتلك الحركة الدورية، وتبعاً لهذه الحركة يطرأ على كل كائن حي حال ينمو في أثنائها ويزكو ويظهر من نفسه القوة والشدة، ويعرض ما يتسم به من جمال وبهاء وقسوة حتى يبلغ ذروة رقيه وكماله، ثم يعقب ذلك حال من الإدبار يتناقص فيها ذلك الكائن الحي ويذوى ويأخذه الضعف والاضمحلال حتى تقضى عليه نفس القوة أو العامل الذي أنشأه أول مرة وهذه السنة سائرة في كل الموجودات بما فيها الإنسان في حالته الفردية أو الجماعية، فلايزال يتقلب بين العز والذل والعسر واليسر والصعود والنزول وما إلى ذلك من الحالات التي تنتاب الأفراد والأمم المختلفة وفق تلك الحركة الدورية، وإنا لنرى في التاريخ آثار الأمم السابقة وآيات مدنياتها وروائع حضارتها، وأنها لم تكن أهون من هذه الأمم الراقية اليوم، ولا أقل

---

(١) انظر نفس المصدر ص ٧٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٧٦، ٧٩ .

(٣) انظر نحن والحضارة الغربية ص ٧٢، ٧٣ أبو الأعلى المودودي.

منها شأنا، ولقد كـان مصير تلـك الحضـارات الدمـار والبـوار يـوم حـادت عـن سـنن الاستمرارية الحضارية، والاستقامة، وأدبرت بعد إقبال وذلت وهوت بعد عـز وتمكـين، ولقد كان ظن أهلها يوم عزها وقوتها أنهم من الباقين الخالدين وقالوا مالنا من زوال.

وأخبر الله عن قولهم هذا فقال تعالى: **﴿وأنـذر النـاس يـوم يـأتيهم العـذاب فيقـول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريـب نجب دعوتـك ونتبـع الرسـل. أو لم تكونـوا أقسـمتم من قبل مالكم من زوال. وسكنتم في مساكن الذين ظلمـوا أنفسـهم وتبـين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾**[1].

في الآيتين رد على مزاعم الظالمين الذين حسبوا أن لازوال لهم من الدنيا حتى حلفـوا علـى ذلـك، وقـد سـكنوا منـازل الظـالمين السـابقين وكـانوا يعرفـون مصـيرهم ولكنـه التكذيب والغفلة[2].

والتاريخ شاهد على زوال أمم كانت على شئ مـن القـوة والمناعـة، ففراعنـة مصـر، وأمتا عاد وثمود، واكاسرة فارس، والغزاة اليونانيون العـالميون وملـوك الـروم الحـاكمون علـى أقطـار الأرض في زمنهـم، والفـاتحون المسـلمون للعـالم، والجنـود التتـار المخربـون للبلدان كل أولئك قد مثل دور القوة، والحضارة على مسرح الحياة ردحـا مـن الوقـت، وأدهش العالم بما عرض من مظاهر قوته ومشاهد ذهابه، وإيابـه، وغـدوه، ورواحـه، في أنحاء الأرض، وأسمع العالم دوى شوكته وجبروتها في ربوع الأرض، وخيل إلى بعضهـم أنه لازوال لقوته وسيادته ولكن لكل أجل مسمى هو بالغه، وقـد قضـى بزوالـه القـوى الذى لازوال لقوته أبدا، وعثرت هذه الأمم والشعوب عثرة لم ير لأكثرهـا وجـود بعـد إلا أثار وبقايا[3].

هذا عن تصور أبى الأعلى المودودي للحضارة، وقد آثرت الاقتصار على ما ذكـرت تجنبا للتكرار لأن جـل أراء أبـى الأعلـى وتصوراتـه هـى معـان لآيـات قرآنيـة وهـو مـا سنتحدث عنه في الفصول القادمة إن شاء الله.

---

(١) سورة إبراهيم ، الآيتين ٤٦، ٤٧ .

(٢) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٢١٥ .

(٣) انظر نحن والحضارة الغربية، ص ٧٠، ٧١ أبي الأعلى المودودي.

جـ ـ الدورة التاريخية والتعاقب الحضاري

إن المؤرخين والفلاسفة الذين بحثوا قصص الحضارات وتأملوا مسيرة الإنسانية قد أفزعتهم صور الدماء والأشلاء، والأهوال الفاجعة التي حلت بالأمم وأصابت المجتمعات كما أغرتهم حمائم السلام وفساتين ربيع الإمبراطوريات، وحدائق مدن المدنيات الزاهية، وأعلام الحكومات ودول الحق والعدل، فتأمل المفكرون تلك الصور والظواهر، وحكى المؤرخون قصص تلك الحضارات وأخبارها، وبكى على بقايا وأطلال تلك الديار الفانية والعروش الساقطة الشعراء والفنانون كما كانوا قد تغنوا لحدائقها وقصورها أيام زهوها وازدهارها[1].

فاستثارت هذه الظواهر والأخبار وجدان وعقول طائفة من مفكري الإنسانية ومؤرخيها فغدت تبحث في العلل والأسباب المؤدية إلى ذلك، فتهيأ لفريق من هؤلاء المؤرخين والمفكرين أن البشرية تسير في تقدم صاعد، ولفريق ثان أن البشرية تسير في إتجاه التدهور، ورأى فريق ثالث أن للحضارات دورات وتبدلات، ولقد جاءت هذه النظريات وليدة عوامل ذاتية نفسية وعقيدية.

ولعل ما يهمنا أكثر من غيره في هذه الدراسة هو الرأي الثالث الذي يذهب إلى أن للحضارات تبدلات ودورات، وسأقف عند بعض الآراء والتصورات حول نظرية الدورة الحضارية مع هؤلاء الفلاسفة والمفكرين الذين خصصنا جزءاً من هذه الدراسة لبحث آرائهم ومعرفة تصوراتهم حول قضيتي قيام الحضارات وسقوطها، والأسباب والعوامل المؤدية إلى ذلك.

ولقد بدا لبعض هؤلاء المفكرين الذين نحن بصدد معرفة تصوراتهم ولغيرهم أن الحضارة في سير وتحرك دائمين، وأن لها تقلبات مستمرة بين القوة والضعف والازدهار والتقهقر وليست مستقرة على حال واحد ووتيرة واحدة، لأن ظروف الحياة وأسبابها تتجدد وتتطور وليست ثابتة.

ويقف المؤرخون والفلاسفة وعلماء الاجتماع من قضية التبدلات الاجتماعية والسياسية في الدول والمجتمعات مواقف متباينة، كما يقف فلاسفة التاريخ والحضارة من ظاهرة الدورات التاريخية والتعاقب الحضاري مواقف عديدة ويذهبون في بيان عللها وأسبابها مذاهب شتى وإن كان جلهم كما ذكرنا ينطلق في تعليلاته من منطلقات نفسية وعقيدية وعرقية، وذاتية الحضارة المنتمي إليها، ولقد آمن كثير من المؤرخين وفلاسفة الحضارة بظاهرة التعاقب الحضاري ودورة التاريخ حتى غدت عند بعضهم

---

(١) انظر منهج التاريخ وفلسفة التاريخ ص ٩ .

حقيقة ثابتة لا مراء لها، وقاعدة متفق عليها، ولو لم يكن للتاريخ دورات فإن ما حدث قديما للأمم ما كان يحدث ويتكرر نفسه حديثا، وأن تلك المشكلات الإنسانية بين الأمم والدول من حروب وقتال واختلافات سياسية، وعقيدية، ما كان لها أن تعاد للظهور والطفو على مسرح الحياة مرة ثانية وثالثة ... لو لم يكن للتاريخ دورات، ولعلنا مازلنا نجد كثيرا من القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية القديمة تتكرر في واقع الأمم المعاصرة، ولعل الجديد فيها أنها تطرح بصيغ مختلفة كقضية المرأة التي عالجها الفكر الإغريقي القديم، وبحثت في عواصم الفرس والروم مازالت محل اهتمام عواصم المدنية الحديثة، وكذلك قضية تحديد النسل لأغراض اقتصادية التي طرحت كمشكلة كبيرة في البيئة العربية قبل الإسلام التي أخبر عنها القرآن الكريم: **﴿ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً﴾**[1]. ولقد فعلت بعض القبائل العربية هذا خوفاً من الذل والفقر[2].

ولاشك أن هذه المشكلات القديمة الحديثة لها دور حضاري في حياة الناس اليوم ولذا كانت كثير من الظواهر البشرية كظاهرة قيام الحضارات وسقوطها، وظواهر التقلبات الاجتماعية والسياسية، والتبدلات أو الدورات التاريخية ظواهر قديمة قدم الإنسانية نفسها، ومازالت تتعاقب على الأجيال وتشهد أحداثها الأمم والشعوب حتى اليوم.

وهكذا تتعاقب الحضارات على الأمم وتتبدل بين القوة والضعف وتتحرك على محاور عدة حسب قانون واحد لا مصرف عنه وهو سنة الله كما جاء التعبير عنها في القرآن الكريم، وهذا أمر ثابت منذ كان للحضارة وجود وإلا كانت الإنسانية عرفت حضارة واحدة ظلت قائمة منذ الأزل مستمرة إلى ما شاء الله، وإلا كانت هذه الحضارة أنطمرت وغابت عن الوجود منذ أمد بعيد ثم عاشت الإنسانية في ظلام حضاري لانور بعده، وإنما الظاهر للعيان والقائم في التاريخ أن الحضارات تتبدل وتتحول وتتوارثها الأجيال وتتناولها الأمم، وتأتي عليها أوقات زهو وقوة تستنشق فيها الإنسانية نسيم السعادة وتضيء أنوار الحق، كما تأتي عليها فترات ضعف وهوان وفيها تغرب عن الأمم شمس الحياة وتظلم الدنيا ويبتئس الجو ويكفهر، وكل حدث في التاريخ هو نتيجة لما قبله وفي الوقت نفسه سبب لما سيأتي بعده، وسنة الله ثابتة لاتتبدل ولا تتحول **﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا﴾**[3] **﴿ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾**[4].

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٣١ .

(٢) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٢٣٦ .

(٣) سورة فاطر ، الآية ٤٣ .

(٤) سورة فاطر ، الآية ٤٣ أي نفس الآية.

ولكن تصرفات البشر وأعمال الإنسان هي التي تتبدّل وتتغير فتبدل الحضارات وتغير المجتمعات، وأعمال البشر وأخلاق الإنسان وأقواله ليست قوالب جامدة لا أثر لها في واقع الحياة، بل هي وسائل وأساليب عاملة في تغيير المجتمعات وتبديل أحوال الأمم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وهي القوة المسيرة لشؤون الإنسانية في إطار ما أوتي الإنسان من قوة وقدرة في مجال الحرية والاختيار.

ومن هنا تبدو لنا أقرب فكرة للاعتدال والواقعية من الأفكار الثلاثة: فكرة التقدم الصاعد والتدهور والدورة الحضارية هي الفكرة القائمة بالدورة الحضارية، وقد لازمت أبحاث فلسفة الحضارة منذ اكتشافها، ويرى الدكتور قسطنطين زريق أن أصل هذه الفكرة يعود إلى تأملات الفكر الهندي القديم الذي تساءل ما فائدة الإنسان من دور يمضي ودور يأتي والأرض قائمة والشمس تشرق وتغرب وتسرع إلى موضعها ثانية وثالثة وهكذا حيث تغرب وتشرق ثالثة ورابعة... والريح تذهب إلى الجنوب وتدور إلى الشمال والأنهار تجري إلى البحار والبحار غير ملآنة.

وفي اعتقاد الهندوكية أن الكون بأسره يجوز دورات تبدأ كل منها بمرحلة تتميز بصفاء وفضيلة ثم مراحل أخرى يعم فيها الشر والنزاع ثم ينبعث الكون من جديد، وهكذا دواليك الكون وحياة البشر يدوران دورات حتمية وتلقائية من الوحدة والاكتمال إلى التفرقة ومن الانحلال إلى الانبعاث والتجدد، وكذلك الحياة البشرية فإن لها دوراتها الحتمية من الولادة إلى الموت إلى الولادة مجددا، وكذلك الإنسان يتدرج بالتأمل النفسي والرياضة الروحية عبر مراحل ودورات حتى يتخلص من الشهوات المادية واللذات البدنية فيصل إلى مرحلة الفناء في الروح المطلقة وهو بقاؤه الحقيقي أو الخلود[1].

وغدت فكرة دورات التاريخ وتداول الحضارة من أهم الأفكار والنظريات التي حظيت باهتمام فلاسفة الفكر الحضاري وفي اليونان كذلك نجد هذه النظرة للحضارة عند معظم وأشهر فلاسفة الإغريق، كسقراط، وأفلاطون ومؤرخي العهود القديمة "كهيرودوت"، كما نجد ظلالها عند شعرائهم وكتابهم، وآمن الفكر اليوناني بهذه القضية وعدها تحولات كونية وقوانين طبيعية تشهدها الحضارات والمجتمعات عندما تعيش أيام محن وكوارث "جيولوجية" مدمرة كالزلازل والبراكين والشروخ والتصدعات الأرضية التي أودت في التاريخ الغابر بحياة قارات ودول، أو أحداث اجتماعية وسياسية وعقيدية من التي تحل بالأمم والحضارات كالحروب الأهلية المدمرة والحروب الخارجية الفتاكة والأمراض والمجاعات الاقتصادية. وتلك سنة الله في الحياة

---

(١) انظر معركة الحضارة ص ١٥٧ د/ قسطنطين زريق.

تجرى وفق مشيئة العلي القدير.

والشيء المميز أن تفسيرات المفكرين وتعليلات المؤرخين لهذه الظواهر الحضارية وغيرها تختلف من فكر أمة إلى فكر أمة أخرى ومن تصور جيل إلى تصور جيل آخر، وهكذا فكثير من الفلاسفة المتأملين والمفكرين الاجتماعيين يغفلون أو ينسون أثر الأمراض الإنسانية المعنوية والأخلاقية في هتك الروابط الاجتماعية والشخصية في الأمم وذلك كالذنوب والآثام والفسوق والانحرافات والشذوذ... ولذلك يعجزون عن علاج أدواء المجتمعات واستشفاء علل الأمم، ولا يستخلصون التجارب من واقع تاريخ الحضارات والدول الذاهبة ويغترون بما هم عليه من قوة ورقى مادي، كما هو مشاهد عند أهل الحضارة الحديثة وحسبوا أن ما أصاب غيرهم من السابقين هم في نجاة منه وهذا الإحساس هو من بين أسباب سقوط حضارات كثيرة في التاريخ، والإنسان من حيث كونه جوهر الحضارة هو في الوقت ذاته موضوعها وميدان بحثها ومقومها الأول(١).

وفي الفكر المسيحي القديم أخذت نظرية الدورات الحضارية طابعا يتفق وتعاليم معتقدات رجال الدين، وخرجت عن أسس ومفاهيم الفلسفة اليونانية الوثنية والتي اشتقت فيها هذه الفكرة من سقوط دويلات الإغريق وما حل بها من كوارث حربية وهزات سياسية وعقيدية عنيفة أذهبت قوة هذه الدول ومجدها الحضاري(٢).

وأصبحت أسباب السقوط وعوامل تدمير الدول عند رجال الفكر الديني المسيحي هى "الخطيئة" التي اقترفها الإنسان الأول - آدم عليه السلام - وليس نتيجة اختلال التوازن النفسي والاجتماعي للأمة والخروج عن سنن الحياة وسير الحضارات واستمرارها وسخر رجال الكنيسة من الفلسفة اليونانية التأملية وعدوها كفرا ووثنية لأنها جهلت أو تجاهلت أصل الكون وأنكرت نهايته، وقالت ما الحياة إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر.

وتحول الفكر الغربي في العصر الحديث من التفسير اللاهوتي العقيدي للتاريخ إلى التفسير التجريبي الذي تتحكم فيه القوانين الطبيعية بالمفهوم الغربي واعتقد أنها هى التي تؤجل وتعجل بالأحداث والتغيرات وأهمل الفكر الغربي قضية بدء الخليقة ونهاية الوجود واقتصر على تعليل الواقع.

ورغم ثقل فكرة "الدورة" في أبحاث فلسفة الحضارة والتاريخ وإيمان الكثير من الفلاسفة والمفكرين والمؤرخين بهذه الفكرة أو النظرية ومحاولة تطبيقها حتى في مجالات

---

(١) منهج التاريخ وفلسفة التاريخ عند توينبى ص ١٠ .

(٢) نفس المصدر . ص ١٢ .

بعض العلوم والمعارف كالأدب والفن والدراسات النفسية والاجتماعية وشاعت عبارة التاريخ يعيد نفسه، اعتقد بعض الباحثين أن الحوافز النفسية والبواعث الاجتماعية الداخلية تعيد نفسها لتكرارها في النفس والمجتمع، وسلم فريق كبير من المهتمين بهذه القضية بوجودها في كافة مجالات الحياة الإنسانية[1].

وهناك من أنكر وجود هذه الفكرة إطلاقا واعتبرها مجرد خواطر، لاتستند إلى دليل علمي حاسم، كما أنه لايوجد دليل يؤيد زعم الذاهبين إلى القول بأن الحضارة إذا ازدهرت في الأمة مرة فإنها لن تعود إلى ازدهارها مرة ثانية في نفس الأمة[2].

وهذه الفكرة هي الأخرى واجهت نقدا شديدا من أصحاب فكرة التقدم الصاعد التي أخذت طابع النظرية أو المسلمة عند الماركسيين وسادت فلسفة التاريخ وكثيرا من العلوم والمعارف في تصورهم، وتعتمد هذه الفكرة أو الرؤية في تعليلاتها على كثير مما حققته الإنسانية من تقدم في ميدان الاكتشافات العلمية المادية دون كبير تنظر إلى عجز الإنسانية في مجالات أخرى في الحياة، وراحت فكرة التقدم الصاعد بهذه النظرة، تطمح إلى السيطرة على الطبيعة وقهر الظروف والعقبات التي ظلت في نظرها منذ القرون الأولى تعرقل تقدم الإنسانية، وتعوق رغباتها في إشباع حاجاتها الأساسية، وتذهب الماركسية إلى أن التطور الاجتماعي الحضاري للإنسانية بدأ من الحيوانية أو الشيوعية البدائية وقطعت مراحل حضارية تاريخية كثيرة وهي تسير إلى عهد أو إلى مرحلة حضارية يسودها الرخاء والرفاهية والضمير والحرية، وتغفل فكرة التقدم الصاعد نظرية الدورة الحضارية، وتصل هذه الفكرة إلى نتيجة تعارض منطقها الجدلي ذاته وتعارضه[3].

ولقد أخطأت الماركسية حين تصورت التاريخ تقدما صاعدا مطردا ورحلة استمرارية لا تتوقف ولا تتراجع، والحق أن التاريخ مسرح كبير لتقلبات الحضارات التي سادت ثم بادت وجرت عليها سنة الله[4].

ولو كان الأمر كما اعتقدت النظرية المادية الماركسية هذه الفكرة ما احتجنا اليوم لنقرأ أفكار القدماء من عظماء الحضارات السابقة، ونبحث أراءهم وتصوراتهم ولاكتفى كل لاحق عن سابق، ولما عرفت الإنسانية قانون الخطأ والصواب، ولما تعثرت يوما قط خلال مسيرتها الزاحفة في الحياة منذ أمد بعيد أي منذ الوجود البشري على الأرض.

---

(١) انظر منهج التاريخ وفلسفة التاريخ عند توينبي ص ١٤ .

(٢) انظر الحضارة ص ٤٦ سلسلة كتابك ، أحمد حمدي محمود .

(٣) انظر وجهة العالم الإسلامي ص ٢٤ ، مالك بن نبي.

(٤) انظر فلسفة التاريخ ص ٢٤٤ ، د/ أحمد صبحي.

ونجد لفكرة التقدم الصاعد صلة بفكرة النشوء والارتقاء المحكومة بقانون تنازع البقاء، هذا التنازع الذي يقضي بأن البقاء للأقوى والفناء للضعيف، فهذه الفكرة التي ظهرت في عالم الأحياء على يد "دارون" ثم انتقلت إلى الدراسات الإنسانية، فغزت علوما ومعارفا ومناهجا كثيرة، وكان مغزاها هو اكتساب القوة المطلقة للسيطرة على الطبيعة، ولعل هذه الفكرة هنا مع فكرة التقدم الصاعد التي تعتمد القوة كمنهج في الحياة للكسب والسيطرة، والفكر الغربي كله وليد عقلية واحدة وتصور واحد وناتج عن اعتقاد واحد، وتكاد القوة أن تكون القاسم المشترك عند كبار فلاسفة الحضارة الغربية، ولقد لعبت فلسفتهم هذه دورا كبيرا في تبرير عدوانية الرجل الغربي فوجدناه يفترس الشعوب المستضعفة ووجدنا حضارته تمسخ حضارات المستعمرات تمهيدا لإزالتها والانفراد بالساحة، لأنها هي الأقوى ومادامت هي الأقوى فهي الأصلح للبقاء[1].

ولقد ذهب ماركس إلى اعتماد القوة والصراع في تفسير حركة التطور عبر المتناقضات والمتضادات، وكذلك فعل هيجل ودارون قبله، وإن اختلف مضمون التطور وغاياته بينهم، فهيجل[2] اعتمد القوة العقلية المعنوية في التغيير، ودارون[3] اعتمد القوة عامة وهي الصلاحية، وماركس[4] اعتمد القوة المادية[5].

وبذا يتأكد أن الفكر الغربي ذو أصل واحد ونزعة واحدة، ومنذ قرون وهو أي الفكر الغربي، يمر عبر قنوات ثقافية اجتماعية وسياسية ويتشكل في عدة مناهج مرورا بدارون وهيجل إلى ماركس الذي كان فكره نتيجة أو خلاصة لفلسفات ومعتقدات كثيرة ظلت تبلورها حركة التاريخ[6].

وجاءت فكرة التقدم الصاعد في فلسفة الغرب تحمل ثلاثة اتجاهات داخلها التقدم المادي والتقدم العقلي والتقدم الخلقي السلوكي وتبين تأثر هذا الاتجاه بفكرة التطور الداروينية، وتبين كذلك وجود خلط أو عدم وضوح الرؤية بين التطور في العلوم الطبيعية وسنة التدرج في الفكر المعنوي البشري، فالتطور في عالم الأحياء عملية تلقائية تجري على كل الكائنات الحية مع بقاء هذه الكائنات على أصلها، ويكون من حيث النمو والتحول الجسمي أو البدني وليس بالضرورة أن يكون من الناحية الفكرية العقلية فقد نجد طفلا أعقل وأعلم من شيخ مسن، ولو صح أن كل تطور هو حركة إلى الأمام

---

(١) انظر الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري ص ١٠٤ ، د/ محمد عمارة.
(٢) هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١) .
(٣) دارون (١٨٠٩ – ١٨٨٢) .
(٤) ماركس (١٨١٧ – ١٨٨٣) .
(٥) انظر معركة الحضارة ص ١٥٢ – ١٥٣ قسطنطين .
(٦) انظر العالمية الإسلامية الثانية ص ٥٤، ٤٥ محمد أبو القاسم حاج محمد.

لكان دائما كل حاضر أفضل من كل ماض وكل مستقبل أفضل من كل حاضر، ولما كانت حركة التطور تتأرجح بين النكوص والنهوض.

وإن أحدا لايمكنه الجزم والقطع بأن كل ابن لابد أن يكون خيرا من والديه وأفضل منهما وحتى على المستوى الحضاري فإن ما تعيشه الحضارات في بعض أدوارها في التاريخ قد تفوق فيه مرحلة سابقة أو لاحقه في حياتها أو العكس(١).

ولذلك رغم النوايا الطيبة التي ربما يضمرها دعاة نظرية التقدم الصاعد إلا أنها واجهت انتقادات شديدة كأي نظرية تريد أن تدخل المعترك الفكري للحياة ومن ذلك آراؤهم النقدية العنيفة للعصور الوسطى في الغرب وكيف نظروا إليها بمقاييس ومعايير معاصرة وحملتهم الشديدة على رجال الدين في أوربا والتي تجاوزت إلى الدين كله، وعممت حتى على علماء الإسلام، وأدت انتقاداتهم للخرافة والأساطير إلى نقد الناحية الغيبية في الدين أو العقيدة، وكان قصدهم الوحيد في هذه النقطة هو التخلص من سلطان الكنيسة وإثبات فكرة التقدم الصاعد، مما جعل أفكار هؤلاء المؤمنين بهذه النظرة أفكارا عدائية تولدت عنها مظالم احتماعية وإنسانية كثيرة(٢).

وكذلك ارتبط بفكرة التقدم الصاعد وهم آخر هو أن الأوربي أو الغربي عامة ظن أن حضارته الحديثة هي قمة التحضر في تاريخ الإنسانية كله وأنها تتربع على عرش الحضارات وتجلس على كرسي الأمبراطوريات كلها، ولعل التاريخ القديم عرف حضارات تألق نجمها أكثر من نجم الحضارة الغربية في بعض الجوانب. وجاءت فكرة التقدم الصاعد نتيجة الاعتزاز بالجهد الإنساني وتأكيدا لعمله الحضاري التاريخي. وهي وليدة الفكر الغربي في القرن السابع عشر ميلادي كما نتجت عن عملية الصراع بين القديم والجديد في الفكر الإنساني، فظن أنصار القديم أن القدماء لم يتركوا شيئا قابلا للاكتشاف إلا اكتشفوه. فاضطر أنصار الجديد إلى الدفاع عن رأيهم وموقفهم فاتهموا دعاة القديم بأنهم وقعوا في وهم وقياس خاطئ حين نظروا إلى القدماء بأنهم أسبق وأنهم أرجح عقلا بصفتهم أقدم عهدا. والإنسان كلما كبر زاد نضجا ومعرفة وحكمة وكذلك الإنسانية على مر العصور فهي في تقدم صاعد مستمر. وإن كان للإنسان القديم فضل السبق وقوة الفطرة فإن للاحق فضل التجربة ونمو المعرفة وإن كان أنصار الجديد يشبهون تقدم الحضارات بالإنسان وأنه كلما تقدم به العمر زاد معرفة وحكمة فكذلك لو قدر له أن يعمر طويلا فإنه يرد إلى أرذل العمر ولا يعلم من بعد علمه شيئا فكان هذا التشبيه وارد كحق لأنصار القديم(٣).

---

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ نحو نظرية إسلامية ص ٢٤٢ ، د/ عبدالحليم عويس.

(٢) في فلسفة الحضارة الإسلامية ص ١٧٨ ، د/ محمد عفت الشرقاوي.

(٣) في فلسفة الحضارة الإسلامية ص ١٧٣ ، د/ محمد عفت الشرقاوي.

ويترتب على فكرة التقدم الصاعد أن البشرية ستظل في تقدم مستمر لاتدهور ولا انحطاط بعده. فيحس المنطق العقلي أن البشرية ستحتاز عدة ميزات وخصائص هى من طبعها وفطرتها، كالخطأ والعثرة والنزاع والعداء وبالتالي يعيش الناس ملائكة أو كالملائكة أو تحل فيهم صفات الأنبياء المعصومين كما تواصل البشرية تقدمها فتصل بعد مرحلة من الزمان إلى أن تخرج عن طبع الآدمي وتحقق ما عجزت عن تحقيقه كل الكائنات المخلوقة من جن وملائكة وغيرهم. ويطلع الإنسان على المجهول ويخترق آفاق الغيب وسيكون تفكيره أمام القوة الإلهية غير التفكير الحالي. وإن تذرعت المادية الماركسية بأنها ستصل إلى أرقى درجات التقدم وهي الشيوعية الأممية أو مجتمع الإنسانية اللاطبقي، فالسؤال من الذي أوقفها عند هذا المستوى مادام العقل يبدع والفكر ينتج. ومن هنا ونتيجة لهذا الغلو ظهرت بقوة غير السابقة فكرة التداول الحضاري، ودخلت مجال الدراسات التاريخية والفلسفية الحضارية وإلى جانبها فكرة التدهور أو الانحطاط الحضاري وشاعت فكرة التاريخ يعيد نفسه وهى فكرة قائمة على التوازن وعلى الفطرة الإنسانية التي لاتبديل لخلق الله فيها مهما تغيرت الظروف وتقلبت أحوال الأمم والأجيال. والثابت في التاريخ أن البقاء للأصلح وأن الحياة تنتخب الأمثل والأنقى، وبرزت تصورات ترى أن الحضارات كالأفلاك تدور في خطوط دائرية لدوام الحياة[1].

والحق أن فكرة التقدم الصاعد ما هى إلا إعجاب بحال وشهوة انتصار ونشوة تفوق في بعض مجالات الحياة.

وما فكرة التدهور إلا تعبير أيضا عن حالة نفسية من إحباط ويأس نتجت عن تعقيدات الحضارة المادية وأهوال الحروب ومخاوف الأمراض والأزمات الاجتماعية والاقتصادية والروحية. وهى تعبر عن ميول رومانسية وأذواق مرهفة لبعض الشعراء والفلاسفة ظهرت في تأملات فلسفية وتأوهات وجدانية أدبية، ولا نجد لهذه الفكرة ثقلا في الدراسات التاريخية إلا كظل باهت لدى الفلاسفة المتشائمين في الغرب. وما هى أيضا إلا تعبير عن اختلال في مسيرة التاريخ وما تخللها من مآسي وهموم، وتعبير عن فقد للتوازن الإنساني والاجتماعي بين القيم الأخلاقية والنفسية والحياة العملية والتصورات والمعتقدات النظرية وتضارب المصالح المادية وعدم التوازن بين الحقوق والواجبات في الأمة. كما تذكرنا هذه الرؤية بآراء جان جاك روسو الذي نادى بالعودة إلى الطبيعة واعتبر المدنية ردة وانحطاط وأن الحرية والسعادة هما مايمثلهما العيش في أحضان الطبيعة الأم.

---

(١) الحضارة سلسلة كتابك ص ٣٣ أحمد حمدي محمود.

وإذا كان هذا مقبولا في بعض جوانبه، فالسعادة والحرية ليستا مقياسين للحضارة في الفكر الإسلامي. لأن الحرية قد تكون بمعنى الإباحية كما هي في مفهوم مبادئ الثورة الفرنسية التي ينتمي إليها "روسو"، وكما هو جار في معظم عواصم الغرب والسعادة قد تكون لدى الفقير العاري أو الظالم الطاغي أو الكسول الفاني الذي لا عمل ولا إنتاج له والسعادة الدنيوية في عرف الشرع والعقل هي في الأنفس والأفاق[1].

أي في النفس والمجتمع ولا يكون ذلك إلا برضاء الله، والتحضر هو تحقيق الغاية التي من أجلها خلق الإنسان وهو أمر عام تتحقق داخله كل الجزئيات[2].

وسنة الله ألا تسير حركة التاريخ على خط واحد ووتيرة واحدة وإلا تجمدت الحياة وأمليت الأفكار على العقول وكان الناس أمة في السراء والضراء وهذا ما يتنافى مع سنة الله وما لا تطيقه الطبيعة الإنسانية كما برهنت التجارب عبر التاريخ.

ويرى بعض المفكرين أن قانون الدورات التاريخية لاينطبق على الحضارة الغربية بسبب عالميتها وكثرة البذور التي زرعتها في العالم وكان السقوط أو الانهيار يحدث للحضارات الفانية لافتقارها إلى العبقرية المجددة.

أما الحضارة الغربية فتمتلك عبقرية التجدد وقدرة الاستمرارية وقد تتضاءل قوتها هنا ولكنها سرعان ما تضج وتنمو هناك، وبفضل هذه الأسباب استثنيت الحضارة الغربية من قانون الدورة التاريخية ولعل هذا من أعجب ما كان يؤمن به مالك بن نبي رحمه الله[3].

وإذا سلمنا بعالمية الحضارة الغربية وهي سبب في خلودها فإننا نجد أنها ظلت دوما أسيرة العرق والجنس والقومية والمادية ولم تكن حضارة الإنسان في أي مكان، ولذلك فالحضارة القادمة المرتقبة لابد أن يكون مركز اهتمامها هو "الإنسان". ومتى كانت العالمية سببا في الخلود وقد كانت جل الحضارات السابقة عالمية كاليونانية والرومانية والفارسية والإسلامية وقد أصابها السقوط والانهيار كما حل الفناء الكلي ببعضها ولم تبق منها إلا الأطلال والرموز كتماثيل تشهد بوجود حضارة في هذه الأمة وتلك في يوم ما، وذلك كالرومان الذين عبدوا القوة المادية وكانوا يصارعون الثيران والأسود.

أما بذور الحضارة الغربية التي توزعت في العالم واعتقد البعض أن هذا التوزع أو التوسع والانتشار هو أحد أسباب الخلود فإنها تحمل عوامل فنائها في أحشائها، وما فشل النظم والمبادئ الغربية في بلاد الشرق والغرب نفسه إلا دليل على هذا. فالحضارة

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ١٦ ، السيد محمد رشيد رضا.

(٢) الحضارة الإسلامية أسسها ومبادؤها ص ٢٦ ، أبو الأعلى المودودي.

(٣) الفكر الإسلامي المعاصر – دراسة وتقويم – ص ٦٧، ٦٨ توبة غازي.

الغربية ستسقط حتما ككثير من الحضارات المادية قبلها، وهذا إن لم تفن أصحابها. وقد بدأت بالفعل بوادر الفناء والانهيار تستفحل داخلها وستحل بديارهم قوارع وقوارع، وذلك لأسباب بسيطة جدا هي:

فقد التوازن بين المادة والروح وبقدر تقدمها في الجانب المادي بقدر تأخرها في الجانب الروحي، وفقد مبررات الحركة والعمل وحتى تلك الكلمات البراقة كالحرية والديموقراطية ومصلحة الأمة التي كانت تحرك مشاعر الجماهير وتسير الجيوش من أجل استعمار الشعوب المستضعفة قد أصبحت الآن لا تؤدى أي دور لفقدها محتواها ولبيان زيفها وعدم وفائها بعهودها[1].

وسبب آخر بسيط جدا كذلك وهو مخالفتها للفطرة البشرية وإن استطاع الغرب أن يفلت من التدمير الخارجي خلال الحربين العالميتين التي فقدت فيهما أوربا حوالي ستين مليونا من زهرات شبابها[2]. فإنها لن تفلت-إلا ما رحم الله-من التدمير الداخلي بسبب الأمراض العصبية والعقلية.

ولقد شهد بسقوط الحضارة الغربية كثير من أبنائها ومن هؤلاء شبنجلر وكولن ولسن[3].

وهذا ألبرت شفيتسر يعترف بسقوط الحضارة الغربية وأنه صار أمرا حتميا لا مفر منه، ويرى أن الأزمة الحقيقية ليست في سقوط الغرب بقدر ما هي عدم وجود البديل لأنه على حسب رأيه ليست هناك أمة في الوجود مستعدة لوراثة الحضارة الغربية. ويقول نحن نعرف كل شعوب الأرض وأنه ما من أمة إلا وشاركت بقسط في الحضارة ولم يعد للبشرية فائض إنساني للقيام بهمة الحضارة، وقد استنفذت كل القوى الإنسانية قدرتها في هذا المجال[4].

أما عن الدورة الحضارية في القرآن فيبدو لنا أن هذه الدراسة كلها قائمة على شئ من هذه النظرية وفيها نتناول قيام الحضارات وسقوطها ثم التجدد أو الاستبدال الحضاري بين الأمم، ولكن يبقى الفرق بين المذاهب الفكرية وأحكام القرآن في هذه الظواهر وغيرها. هو كيف يحدث التجدد والاستبدال وما الأسباب المؤدية إليه، والعاملة على حدوثه... وتقف الآية الكريمة ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾[5] كمعلم رئيسي في الرؤية الإسلامية أو الحكم القرآني في هذه القضية. وسادت الفكر الفلسفي

---

(١) انظر الإسلام ومستقبل البشرية ص ٢٩ ، عبدالله عزام.
(٢) انظر الفكر الإسلامي المعاصر – دراسة وتقويم ص ٦٨ توبة غازي.
(٣) انظر تدهور الغرب شبنجلر. وانظر سقوط الحضارة و "اللامنتمى" و "اللامعقول" لكولن ولسن.
(٤) فلسفة الحضارة ، ص ٤ ألبرت شفيتسر.
(٥) سورة آل عمران ، الآية ١٤. سأشرح الآية في موضعها.

الحديث كثير من التصورات والتحليلات والتساؤلات عن علة تفاوت الأمم حضارياً وتغير أحوالها وأوضاعها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية... وقد حاولت بعض الدراسات إثبات وجود الدورة الحضارية كما سعت أخرى إلى نفيها وعدتها خواطر تواردت على أذهان ذوى نزعات فردية وميول خاصة في الحياة، ولكن جل الدراسات تنصب على بحث الأحداث الداخلية والخارجية في الأمم والحضارات كتبدل الأحوال الاقتصادية والاجتماعية وتظلم الحكم... دون أن تطرق لب الحقيقية وجوهر القضية في كل شئ وهو الإنسان كما وجد لبعضها اهتماما بدراسة الثوابت والعموميات في الحياة ومحاولة تقويمها بنظرة عصرية بحجة عدم مسايرتها للواقع المتغير وتبدلات الحياة كما هو الصنيع في الناحية الاقتصادية، والسعى إلى إحلال وإباحة ما حرم الله وتزيين أو منع ما حل الله. وهذا أمر شائع في المعاملات المالية والسياسية وغدت الغاية تبرر الوسيلة حتى أصبحت هذه المناهج لاترى للظلم أو الكذب مثلا أثراً في هدم الحضارات أو ذهاب الدول والحكومات، كما لا ترى للصدق والعدل أثراً طيباً في استمرارية الحياة الكريمة، مادامت مصلحة الأمة أو النظام فوق الجميع وفوق الحق عند هذا الاتجاه.

كما أنكر البعض عدم جرى سنة التبدلات على الحضارات المنتمين إليها والحضارة الغربية بالذات وحاولوا إيجاد مبررات واستثناءات لها في سنة الله. ومن سنة الله الثبات وعدم التحول والتبدل، ولا محاباة لأحد. وهذا ما نجده عند كثير من الفلاسفة ومنهم بعض من الذين أحصيناهم بالبحث في هذه الدراسة. ويبدو أن حقيقة دورة الحضارة مازالت عالقة في تصورات الذين اهتموا بها شأنها شأن كثير من القضايا الفلسفية والفكرية على مر العصور وفي مختلف الأجيال.

ومعظم الدراسات الفكرية والأدبية تنطلق من قواعد خاطئة وتنبثق عن تصورات منحرفة، ومن ذلك إنكار وجود الله والقول بعدم تدخله سبحانه في شئون البشر الحضارية، وكأن الله شاء أن يترك الحياة مسرحا لفساد المفسدين أو عدل المنصفين يصنعون مايشاؤون فيها[1].

كما تجاهل هذا النوع من الدراسات أبوة آدم عليه السلام للبشرية واعتبرت الأديان والعقائد كلها من صنع الإنسان وإبداعه العقلي، وأن الكتب التي يظن أنها وحي في اعتقاد أهل هذا الاتجاه ما حوت شيئاً عن تفسير حركة التاريخ والاجتماع أو التفسير الحضاري للأمم، وما بينت كيف تتكون الحضارات وتزدهر، ولا كيف تسقط وتندثر- ذلك ظن الجاهلين- وقد كذبوا بما لم يحيطوا به علماً. ويرى هذا الاتجاه أن سيادة الأديان يمثل مرحلة طفولة البشرية أو فترة تأخر العقل وانحطاطه، هذا ولقد اتجهت

(١) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٤ محمد مبروك نافع.

الدراسات التاريخية القديمة إلى بحث شؤون الملوك والأبطال، واهتمت بالتقلبات السياسية والعسكرية للدول والحكومات واعتمدت هذه الدراسات على مصادر حلها الذاكرة والروايات الشفهية والدراسة السليمة يجب أن تقوم على التوثيق والإسنادات الكتابية، وبحث البواعث الداخلية والاجتماعية للإبداع، وذلك لاستخراج سنن التطور والثبات والعوامل المحركة للتاريخ، وتسعى إلى تجاوز تلك النظرة الضيقة التي تعتمد على التفسير الواحدي[1] لأحداث التاريخ بدلا من التفسير الشمولي أو تأخذ بتعليل الظواهر تعليلا ماديا يلوى عنق الحقائق وتترك بقية الجوانب الأخرى، ويجب أن تسعى الدراسات الحديثة وفي مجال العلوم الإنسانية خاصة إلى الاهتمام بالإنسان في كل حالاته وتبحث ما يخدمه وما ينفعه أو ما يضره ويشقيه، وأن تتفرس أعماله وتدرس بواعثها وتعرف أفكاره ومشاعره وأحاسيسه ومصادرها، وتبين كيف عاشت الأمم السابقة والأجيال الغابرة وكيف سادت أمم في فترات من التاريخ وعوامل تلك السيادة، ثم كيف ضعفت تلك الأمم نفسها في فترات أخرى من التاريخ والأخبار التي حواها التاريخ عن الحضارات أكثرها ينهج طريقة الاستعراض والوصف واهتمت بالتركيز على أسماء الملوك العريقة ونسجت حولها الأساطير والقصص الخيالية التي هي إلى الخرافة أقرب، وحتى القرآن الكريم يقتصر على أخبار الحضارات التي ظهرت في بلاد العرب ولكنه يدعو إلى الاعتبار بأحوالها والتفقه في أسرارها[2].

والتفكير الإسلامي للتاريخ والحضارات يرى أن الوحي هو الأصل والقاعدة في كل شؤون الحياة بينما الفكر الغربي يحصر الدين والعقيدة في مساحة ضيقة ويعده رافدا من روافد التفكير البشري والفكر العقيدي في الغرب ذاته وترك المساحات الأوسع للعقل يعبث بها على هواه[3].

ويمتاز التفسير الإسلامي للتاريخ بشمولية النظرة والاهتمام بكل العوامل المؤثرة في الحركة التاريخية من فكر واقتصاد وعلاقات اجتماعية وعقيدية وسياسية وعسكرية وكل ما له صلة بالحياة، لأنه في عرف الفكر الإسلامي لايوجد شئ محايد وليس عامل الاقتصاد او السياسه وحده يصنع التاريخ بل لقد كان للعلماء والصناع والتجار والزراع، دور في تكوين التيار الحضاري وتحريك الحياة، ومن ذلك الحضارة الإسلامية التي كانت حضارة عامة دعا إليها التجار والعباد، وحمل مبادءها العلماء والجنود بالقلم والسيف والأخلاق والمعاملات هي من أكبر أسس التفسير الإسلامي للحضارت. وعقيدة الغيب التي يرفضها الفكر البشري اللا إسلامي ويراها ميتافيزيقا لا صلة لها بالواقع وخرافة لا رصيد لها في التجربة العلمية، ولا فرق بين الدنيا والآخرة بل يجعل

---

(١) أقصد الذي يعتمد عاملا واحدا في تفسير القضايا الحضارية كالماركسية.

(٢) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام / م١ ص ٥ د/ جواد علي.

(٣) انظر موشرات حول الحضارة الإسلامية ص ٤ د/ عماد الدين خليل.

الأولى مطية للثانية؛ والأولى دار العمل والثانية دار الجزاء. وكان الذين ينشرون الحضارة الإسلامية الواحد منهم يتوضأ في اليوم خمس مرات ويغتسل كل أسبوع تقربا لربه. وكان الناسك من أهل الحضارة الغربية يومذاك يتباهى بأن جسده لم يمسه الماء منذ سنين لأنه يرى في تعذيب الجسد رحمة بالروح[1].

ويؤمن التفسير الإسلامي للتاريخ إيماناً عميقاً بالوجود الإلهي والإرادة الربانية وأثرها في فعل التاريخ والتحولات الاجتماعية والتداول الحضاري، وخاصة في جانب الخوارق الذي يرفضه الفكر اللاإسلامي كلية ويراه صدفا أو خوارق لا تستند إلى أصل أو فاعل. وإن كان الأصل في حركة التاريخ أنها تسير وفق السنن الجارية. فالمسلمون الذين أقاموا أكبر حضارة من حضارات الدنيا لم يبرحوا من الجزيرة العربية حتى مستهم البأساء والضراء وزلزلوا زلزالا شديدا، وحركة التاريخ بسننها الجارية الخارقة جند من جنود الله[2].

وفي كل الحالات حوادث التاريخ تصنعها يد الله بصيحات الأنبياء والمصلحين وصرخات العظماء والمفكرين[3].

ولقد تجاهلت فلسفات الحضارة الغربية هذه الحقائق وجاءت آراء ونظريات مفكريها متأثرة بمؤثرات ثقافية وعقيدية وسياسية، فحادت عن الموضوعية والنزاهة العلمية. وإن كانت النزاهة والموضوعية يصعب تحقيقها في مجال دراسات العلوم الإنسانية. إذ من الصعوبة علاج الظواهر الفكرية والاجتماعية أو شرح النصوص الأدبية وتوثيق الأخبار التاريخية بطريق حيادي بعيداً عن العوامل الذاتية والعقيدية والانتمائية الحضارية بل العرقية والعنصرية. ولقد أثارت الدراسات النقدية والفلسفية هذه القضايا منذ زمن وأدركت أنها ستظل عقبة تحول دون الالتزام الموضوعي وإيجاد الحقيقة المجردة عن الأهواء والانتماءات الفردية أو النزعات اللاإنسانية[4].

ومع هذا فإن الأمل معقود ومرجو في تحقيق هذه القيم بمراقبة النفس وشطحات العواطف والأهواء والتزام منهج العقل والعقيدة السمحاء، وما الأمر بمستحيل مادام قد تحقق عند نماذج من النقاد والعلماء وخلال فترات من التاريخ، وينبغي ألا يميل بنا الهوى إلى مخاصمة وإدانة من يخالفنا الرأي باسم العلم أو النقد بل يجب كشف الجهل الذي هو سبب الخطأ وإلا أي خطأ أكبر من أن نقول الخطأ نشأ من العلم، فهذا تناقض صريح لأن العلم لايكون سبباً في الضلال وإنما نقص العلم سبب الضلال ويجب أن نكشف ما

(١) انظر فقه التاريخ ص ٢٦ ، د/ عبدالحليم عويس.

(٢) انظر حركة التاريخ في المفهوم الإسلامي ص ٦٢ ، سميح عاطف الزين.

(٣) انظر روائع حضارتنا ص ١٨ ، د/ مصطفى السباعي.

(٤) انظر في فلسفة الحضارة الإسلامية ١٦٣ ، د/ محمد عفت الشرقاوي.

حسبه الناس علما على حقيقته فنبين أنه لايزيد عن كونه ظناً أو علماً ناقصاً غير كامل[1].

كما أن هذه الآراء سيظل يشوبها النقص ويتخللها الظن لكثير من الأسباب منها أن الفكر البشري لايعرف الحقيقة المطلقة ولا يرقى إلى مستوى أحكام الوحي وحل الآراء المعاصرة وليدة الفكر الغربي الذي فقد التصور الصحيح والمعرفة الحقة وخاصة في مجال النفس وعلى مستوى العلاقات بين الإنسان والله وبين الإنسان والإنسان والإنسان والطبيعة أو الكون[2].

وكثير من النظريات الغربية في مجال الدراسات الاجتماعية التاريخية تخلط بين عوامل قيام الحضارات وتكوينها وعوامل تطورها وازدهارها كالعامل الاقتصادي والسياسي[3].

ومعظم مذاهب التفسير الغربي للتاريخ تكاد تجمع على القول بحتمية سقوط الدول والحضارات بشكل أو بآخر. فتوينبي درس مصير إحدى وعشرين حضارة من مجموع ست وعشرين حضارة تضمنت كل منها العديد من التجارب السياسية والدول، وانتهى بها الأمر إلى التدهور والسقوط لأنها كانت تجد نفسها في نهاية المسيرة عاجزة عن الاستجابة للتحديات الداخلية والخارجية فتقف أمام مصير محتوم وتنطوي صفحاتها في التاريخ[4].

أما ماركس فيخضع حركة التاريخ بدولها وحضارتها وتجاربها لتحمية وسائل الإنتاج وانعكاساتها على الظروف وإن كل وضع تاريخي مآله الزوال بمجرد التبدل الديناميكي الدائم. ثم مايلبث ماركس أن يقع في تناقض أساسي مع نظريته حينما يقرر الدوام والثبات لمرحلة حكم طبقة البروليتاريا العاملة حيث لازوال بعدها.

وإن الذي يفرق الموقف هو التفسير القرآني لأنه يطرح إزاء مسألة سقوط الدول والتجارب والحضارات ما يمكن تسميته "بالحتمية التفاؤلية"، ويقرر حتمية السقوط وفي الوقت نفسه امكانية أية أمه أن تعود باستمرار لكي تنشئ دولة أو حضارة أخرى تمارس تجربة جديدة أو تتولى زمام القيادة الحضارية بمجرد استكمالها الشروط اللازمة لذلك وهي عملية التغيير الذاتي الداخلي والإعداد الكلي الشمولي[5].

ولقد تعرضت فكرة الحتمية التفاولية هي الأخرى لعدة انتقادات[6].

---

(١) العمل قدرة وإرادة ص ١٨٧ – ١٨٨ ، جودت سعيد.

(٢) على مشارف القرن الرابع عشر – دراسة السنن والمسلم المعاصر ص ١٥١ .

(٣) روائع حضارتنا ص ٤٦ – ٥٦ ، د/ مصطفى السباعي.

(٤) انظر ابن خلدون إسلاميا ص ٧٢ ، د/ عماد الدين خليل.

(٥) نفس المرجع ص ٧٠ – ٧١ ، د/ عماد الدين خليل.

(٦) انظر فقه التاريخ ص ٥٤ ، د/ عبدالحليم عويس.

الفصـل الثالـث

سنن القرآن في قيام الحضارات

التصـور عن الوجـود

إن حقيقة التصور عن الوجود في القرآن أنه كيان صادر عن إرادة الله المطلقة التي لا تحدها حدود ولا يقيدها عجز. وهو وحدة متكاملة متناسقة الأجزاء والمفـردات، الكـل يصلح لما خلق له ويعمل في طاعة وانقياد فـلا عصيـان ولاتمـرد مـن أي عنصـر فيـه ولا عداء ولا صراع بين أي من مفرداته. قال تعالى يبين هذه الطاعة في الوجود منـذ الأزل: **﴿...ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيـا طوعـاً أو كرهـاً قالتـا أتينا طائعين﴾**[1].

ومعنى استواء الله في هذه الآيـة هـو توجهـه سـبحانه بـالقول إلى السـماء والأرض، وسنة ثابتة من يوم خلق السموات والأرض ومن ذلك الحين هما في طاعة لخالقهمـا و لم يحدث في يوم من الأيام أن كان عصيان من أحد من المخلوقات اللهـم إلا مـا كـان مـن الإنس والجن، ومعنى أمر الله للسماء والأرض بالإتيان هو إرادته سبحانه لهمـا التكويـن بالكيفية التي أرادها وهي كون الأرض مهاداً وقراراً، والسماء بناءً وسقفاً[2].

وقال ابن عباس "ائتيا" بمعنى اعطيا ما فيكما من الماء والنبات،" قالتا أتينا" طائعين له كارهين بجفاء الخلق"[3].

وقال تعالى في آية أخرى تبين جزءً من هـذه السنة والحقيقـة العظمـى **﴿... الـذي خلق سبع سموات طباقاً ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى مـن فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾**(٤).

ومعنـى "مـن تفـاوت" أي لاتنـاقض، وحقيقـة التفـاوت في اللغـة عـدم التناسـب والتناسق، و"هل ترى من فطور": أي من شقوق وصدوع[5].

فهذا الوجود بحكـم صـدوره عـن الإرادة الإلهيـة الواحـدة المطلقـة مهيـأ وصـالح بـل مساعد ومعاون لقيام الحياة السعيدة وتحقيق الحضـارة الزاهيـة في أحضانـه وبـين جنباتـه فليس الكون أو الطبيعة- بتعبير آخر- خصما عنيدا للإنسان يصارعه ويقارعه، لأن هذا الذي تعتقده بعض المذاهـب الفلسـفية وصـورت بـه الحيـاة للنـاس يتنـافى مـع إرادة الله وعدله، فكيف يخلق الله خلقاً ويكلفه بأداء ما لايطيق عليه مـن المهـام فهـذا يتنـافى مـع أبسط بديهيات قواعد المنطق والعقل السليم.

---

(١) سورة فصلت ، الآية ١١ .

(٢) تفسير الكشاف، فصلت ، الآية ١١ .

(٣) تنوير المقباس عن تفسير ابن عباس ص ٤٠١ .

(٤) سورة الملك ، الآيتين ٣، ٤ .

(٥) انظر الكشاف، الملك ، الآية ٣، ٤ .

قال تعالى: ﴿**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**﴾[1].

ونقل في الكشاف عن الزجاج أن معنى هذه الآية أي سهل الله لكم الحركة والسكون في جبالها والتمكين بالسلوك في الجبال هو أبلغ دليل على صور التذليل[2].

فهذه الآيات وغيرها كثير تقرر أن الله خلق الكون عوناً للإنسان على أداء رسالته مع وجود منهج البحث وأدوات السعي والتنفيذ بيد هذا الإنسان من عقل وفؤاد وسمع وبصر حيث لاتعارض ولا تضارب بين حياة الإنسان والموجودات الأخرى، فلا خصام إذن بين مكونات الحياة الإنسانية من مادة وروح أو ماديات ومعنويات، كما لاغنى للفرد عن الجماعة ولا للجماعة عن الفرد ولا توازن ولا عدل بالاعتماد على الواجب دون الحقوق والعكس، ولا على القهر دون الإقناع ولا على القانون دون الأخلاق وهذا التوازن الذي غفلت عن الأخذ به مناهج العمل في الحياة الحضارية المادية هو ما جاء الحديث عنه في القرآن يدعو إلى تكوينه في نظرة شاملة كلية تجمع ما بين أحكام الوحي ومبادئه واجتهادات الإنسان وآرائه في مسيرة البشر، وتجمع ما بين عالم الغيب والشهادة في عقيدة الإنسان المؤمن وما بين الاعتقاد والعمل والاهتمام بالمادة والروح وأنه لافرق في الجزاء عن كل هذا مادام الكل صادراً عن نية طيبة وقصد سليم وهو السعي إلى إخضاع الحياة كلها إلى سنة الله ومشيئته. ويؤكد القرآن نظرة التوازن في الوجود كله حتى يكون الإنسان وحدة متكاملة مركبة من أشواق متطلعة إلى نيل نعيم ومكاسب ما وراء عالم الشهادة، ومن نزعات ورغبات تراعي واقع الإنسان وصلته بالأرض حيث لا انفصام بين هذه الأشواق والرغبات لأن ذلك من طبع الإنسان وفطرة البشر، ولعل من آكبر ما تفتقده الحضارة الغربية المعاصرة كغيرها من الحضارات التي حادت عن خط الاستقامة هو التوازن وهو البديل المطروح اليوم أمام الحضارة التي ستتخلف الحضارة المعاصرة.

ولقد ذم الله المنسلخ عن آياته المخلد إلى الأرض ومثله بالكلب في اللهث وراء الدنيا في غير توازن لأن الخلود إلى الأرض نقص وحط من قدر الإنسان و لم يذم الله المشتاق إلى السماء لأن ذلك سعي إلى الكمال الإنساني، قال تعالى: ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون**﴾[3].

---

(١) سورة الملك ، الآية ١٥ .

(٢) انظر الكشاف، سورة الملك، الآية ١٥ .

(٣) سورة الأعراف ، الآيتين ١٧٥ – ١٧٦ .

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذه الآية على اليهود خاصة لأن المنسلخ من آيات الله هذا هو عالم من علماء بني إسرائيل أوتي علم بعض كتب الله، فانسلخ منها بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين أي من الضالين وأخلد إلى الأرض أي مال إلى الدنيا ورغب فيها وهذا هو الشاهد عندنا، ووجه الاستدلال "فمثله كمثل الكلب" في صفته التي هي مثل في الخسة والضعة كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها وهي حالة دوام اللهث. "فاقصص القصص" يارسول الله قُص عالم بني إسرائيل الضال على الذين يسيرون في طريقه ويتصورون الحياة بتصوره" لعلهم يتفكرون" فيحذرون عاقبته[1].

والحياة الدنيا بما فيها من استمتاع وحرمان ومن طاعة وعصيان ومن استقامة وانحراف هي طريق إلى الحياة الأخرى بما فيها من نعيم وجحيم وجزاء وعقاب وهذه هي نظرة القرآن إلى الوجود وتصور المسلم له وهي التوحيد بين أجزاء الكون والتكامل بين مفردات الحياة والتوحيد بين مقوماتها وطاقاتها والتوحيد بين مكنونات النفس الإنسانية وبين واقع الإنسان وآرائه وتصوراته وبين اعتقاده الداخلي وسلوكه العملي[2].

وكل هذا يسير ويجرى بمشيئة الله إلى أجل معلوم وإلى غاية محددة وفق السنن الربانية القائمة على العدل والتوازن التي لا تتبدل ولا تتحول، فلا جرم أن تكون ركيزة العقيدة التي دعا إليها القرآن الكريم والكتب السابقة هي التوحيد: توحيد الله وتوحيد رسالة الرسل والأنبياء كلهم وهي العبادة لله والاستغفار له وتقواه سبحانه، والدعوة إلى عمارة الأرض بالحق والعدل والاستخلاف فيها لإقرار شرع الله.

ولقد كانت هذه العاقبة بهذا الوصف القبيح لأنه لا انفصام في الميزان بين السماء والأرض ولا بين المجهول أي الغيب والمعلوم المشاهد في طبيعة الكون، كما لا نزلة بين الدنيا والآخرة أو العبادة والسلوك أو العقيدة والشريعة... ولقد جاءت أحكام القرآن وتعاليمه طبقاً لهذا التكامل ووفقاً لهذه السنة الربانية فجعل الله عقاب الذين يحاربون الله ورسوله عذابا في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: **﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾**[3].

وقال تعالى: **﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب﴾**[4].

---

(١) تفسير الكشاف ، الأعراف ١٧٥، ١٧٦ .

(٢) انظر العدالة الاجتماعية ص ٢٤ ، ٢٥ جـ ٨ سيد قطب.

(٣) سورة المائدة ، الآية ٣٣ .

(٤) سورة البقرة الآية ٨٤ .

ووجه الاستدلال من الآيتين أن الله جعل الجزاء في الدارين ثابتا للإنسان لأن اعتقاد المسلم وتصوره قائم على الإيمان بالحياة في الدارين، وذلك هو الحق الذي من ورائه قدرة الله ذات الأزل والتي لا أول لها يعرف ولا آخر لها يوصف.

والإقرار بالتوحيد وإثباته لله منذ ميلاد البشرية بل منذ نشأة الوجود، قال تعالى:﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**﴾[1].

والنظرة إلى الوجود التي يأخذ بها الإنسان ويعتقد بها ويقيم عليها تصوره للحياة ويتخذ منها فلسفة، هي الأصل الذي تنبثق منه جميع نظراته الفكرية واتجاهاته الأخلاقية والسلوكية، وهي المحرك الخفي لأفكاره وسلوكه وهي أساس اختلاف الثقافات والحضارات[2]. وكل حضارة وكل نظام اجتماعي أو سياسي أو حتى اقتصادي لاينبثق إلا عن مفهوم وتصور للوجود وعن الله، وتصور الإنسان هو الذي يحدد موقعه في الوجود وعلاقته بالكون وبما وراء الكون ولا تنطلق الحضارة إلا من اعتقاد يؤمن به الإنسان في هذا المجال أو ذاك. فالعقيدة سواء كانت دينية غيبية أم فلسفة اجتماعية أم سياسية أم تاريخية... هي عقيدة وهي الأساس الذي تقوم عليه وبه الحضارة، وكذلك جميع النظم في تلك الحضارة[3].

وبهذا المفهوم فالشيوعية عقيدة والوجودية عقيدة والديموقراطية عقيدة... وأنه لايمكن أن يوضع لحياة الإنسان منهاج مالم يحصل تصور واضح معين للإنسان وللكون الذي يعيش فيه.. حتى يقوم على هذا التصور وقواعده بنيان للمدنية(٤).

وإذا صرفنا النظر عن المسائل العرقية والفرعية ولم نراع إلا المبادئ والأصول، فإننا نرى أنه لايمكن أن يوضع في شأن الإنسان وشأن الكون إلا أربع نظريات متباينة ليس غير:-

١ - النظرية الأولى التي تقول أن العالم كله حادث قد حدث مصادفة ليس وراءه حكمة تدبره أو غاية موحدة تسير دفته، وإنما ظهر إلى الوجود فجأة وهكذا هو سائر في طريقه بلا قصد أو غاية وسوف يبلغ منتهاه من غير أن تكون له عاقبة... أما البشر فنوع من الحيوان خرج إلى الوجود وحسبه أن له رغبات تدفعه طبيعته إلى تحقيقها ويرى الأرض من حوله مشحونة بأنواع المتع ومرافق العيش يمكنه أن يستغلها بما يملك من وسائل القوة[5]. ومن شأن هذه النظرية

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٩١ .

(٢) انظر نظام الإسلام - العقيدة والعبادة - ص ٣ محمد المبارك.

(٣) نفس المرجع ص ٣٥ محمد المبارك.

(٤) انظر موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ص١٧، أبو الأعلى المودودي.

(٥) انظر موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ص١٨، أبو الأعلى المودودي.

أو التصور أن ينشأ عنه نظام قائم على الافتتان بالمادة وتسير فيه روح الجحود لذات الله والإنكار لليوم الآخر وإن لم يكن أهل هذه الحضارات كلهم منكرين لوجود الله كما هو الحال في الحضارة الغربية.

ثم تسير هذه الروح النظم التعليمية والسياسية والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية فتخرج نماذج من البشر أقدر على الكذب والغش من الصدق وأخبث نفسا وأحذق في الكيد والمكر ويقبضون على أزمة الحكم ومراكز القوة والقيادة في البلدان التي يتسلطون عليها، فيسنون قوانين ومعاملات تسري فيها أرواحهم ويفرغون نفوس الناس من الإيمان بالحق وسلوكهم من الأخلاق والطبائع البشرية، وبذا تروح أعمالهم دليلاً على ما في نفوسهم وأقوالهم تفوح بالنفاق والدهاء، فيقلبون الموازين والقيم ويهلكون الحرث والنسل في الأمم والمجتمعات، وهكذا كان الحال في المدنيات القديمة في بابل وعاد وثمود والهند وفارس وروما وقرون بين ذلك كثيرة[1].

٢ – ومنها النظرية التي ترى أن الدنيا وهذا الوجود الإنساني المجسد دار عذاب وشقاء وما روح الإنسان في هيكل جسده إلا كأسير حبس في السجن جزاء ما قدمت يداه، وما اللذات والرغبات وجميع ما يمس الإنسان من الحوائج في علاقة روحه بجسده إلا أغلال لهذا السجن وسلاسل له، وكلما ازداد الإنسان تعلقاً بهذه الدنيا وما فيها من متع العيش ولذاته ازداد تلوثا بالرجس والنجس، وعلى قدر ذلك استحق زائد العذاب والشقاء. فلا سبيل إذن لنجاة المرء في مآل أمره إلا أن ينقطع عن مشاغل هذه الحياة ويذلل الرغبات ويتجنب اللذات ويجرد القلب من كل ما يتعلق به من أنواع الحب لمتاع الدنيا، وهذه النظرية مع كونها مخالفة لسنن التمدن والعمران، فإنها تعزل أهل الحق أفراداً وجماعات عن تسيير شؤون الحياة، بحيث تخلو الساحة منهم لأهل الفساد الذين يتولون أمر الأرض فيسعون فيها خرابا، كما أن هذه النظرية عندما ينفذ أثرها في حياة الناس وتسير سلوكهم في المجتمع ليكون أهل الحق لقمة سائغة بين أيدي الظالمين الذين يحرصون اليوم خلال فترة انحطاط الأمة الإسلامية على زرع بذور فلسفة التواكل والرهبانية المنحرفة في نفوس الأجيال المؤمنة من أبناء هذه الأمة[2].

٣ – نظرية الشرك التي ترى بتعدد الآلهة في العبودية والطاعة وتصف الكون بالحكومة والله بالحاكم له والملائكة بالوزراء والحشم وهي أقدم النظريات في

(١) انظر نفس المرجع ص ٢٠ أبو الأعلى المودودي.

(٢) انظر نفس المرجع ص ٢٩، ٣٠ أبو الأعلى المودودي.

تصور الوجود.

٤ – النظرية التي دعا إليها الأنبياء والرسل، وهي نظرية تعلل كل ما هو كائن وموجود في عالم الشهادة تعليلاً تحاول أن تعرف به حكمة الله وأسراره في وجود هذه الكائنات. وجماع القول في هذه النظرية الاعتقاد بوجود الله والإقرار بحاكميته في الخلق يدبر أمره بالليل والنهار ويرزق الإنسان في الطاعة والعصيان... ولذلك كانت الحضارات التي تنبثق عن تعاليم الوحي وبجهود الأنبياء والمؤمنين بهم، مخالفة للمدنيات والحضارات الأخرى التي تنشأ على غير هدى الله في الروح حتى في الظاهر من حيث المعاملات والسلوك والملابس وتدبير شئوون الأسر والإدارات والدول، وبقية أمور الحياة اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وعسكرياً[(١)].

ولقد حاول الإنسان منذ أقدم العصور تعليل الظواهر الطبيعية والأحداث الاجتماعية والتاريخية وإيجاد مبررات ومصوغات لوقوعها واتخذ في سبيل الوصول إلى ذلك طرقا وأساليب شتى، وكانت التبدلات والتحولات التي تطرأ على حياة الشعوب هموما وتساؤلات ظلت مبعث اهتمام أهل الفكر والتدبر تؤرقهم في سر هذا التبدل والتحول والإقبال والإدبار في حياة الأمم، وجاءت التعليلات والتفسيرات متعددة ولا تكاد تحصى عدداً كلها تسعى إلى بيان هذا السر، وظل السؤال لماذا تسقط حضارات وتقوم أخرى وتذهب أمم وتستخلفها أخرى سؤالاً قائماً.

وهو سؤال هام وجدير بأهل العلم والفكر بحثه، وحسبي في هذه الدراسة أن بينت تصورات بعض الفلاسفة والمفكرين من الغرب والمسلمين بما يسمح به المجال، وأن أعرف أحكام القرآن الكريم في هذا الموضوع وكيف عالج ظاهرة سقوط الحضارات وقيامها. وكل حضارة يجب أن تقدم تصوراً أو نظرة عن الله والكون والحياة والإنسان لتشيد على ذلك التصور مجتمعاً حضارياً ذا علاقات داخلية وخارجية وإلا كانت هذه الحضارة امتدادا لحضارة أخرى واستمراراً لأصولها[(٢)].

ويرى ألبرت شفيتسر أن مخرج كفاح الغرب من التدهور والانهيار الذي بدأت تستعظم أخطاره مرهون بإيجاد نظرية كونية لحضارته[(٣)].

وبهذا نتبين ضرورة تكوين التصور لقيام الحضارة شأنها في ذلك شأن أي مشروع

---

(١) انظر موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ص٣٧،٣٨ أبو الأعلى المودودي.

(٢) الفكر الإسلامي المعاصر – دراسة وتقويم – ص ٥٩ توبة غازي.

(٣) انظر فلسفة الحضارة ص ٣٠٧ ألبرت شفيتسر.

يستلزم خطة أو برنامجا تتجسد على منواله رغبات العاملين أو المديرين لهذا المشروع. أما التصور عن حركة التاريخ فيبدأ منذ ميلاد الخليقة الأولى، وهذا يدفعنا إلى العودة إلى قصة آدم أبي البشر ومنها يتضح لنا كيف عرف الإنسان منذ فجر الإنسانية أن ينتصر إذا شاء الانتصار وكيف ينحط ويسقط إن أراد لنفسه ذلك، لأن هذا العمر الطويل للإنسانية هو تجربة تربوية وإعداد لإيقاظ قوى الإنسان المذخورة الكامنة في كيانه وتدريب على كيفية تلقي الحق والباطل وتذوق العواقب، ولنأخذ من القصة بعض ما تشير إليه من حقائق كونية وإنسانية ومن تصور عن الوجود، ومن أكبر الإشارات القيمة التي يعطيها التصور الإسلامي من خلال القرآن بالذات للإنسان ولدوره في الأرض هي كونه خليفة فيها.

ومن هذا التصور أو النظرة تنبثق جملة اعتبارات فهو: أي الإنسان إذن أكرم وأغلى من كل شئ مادي ومن أجله كانت الكائنات الأخرى وسخرت، ولذلك فالحضارات التي أهانت الإنسان ليس لها في ميزان الحق شئ ولا يجوز أن يعتدى على أي مقوم من مقوماته الإنسانية مقابل كسب مادي، ودور الإنسان في الأرض هو أن يسود ويحكم ويوجه الحياة من حوله لتحقيق القيم الأدبية والخلقية والمادية بشرط ألا تكون هذه الأخيرة هي الأصل وتطغى على القيم المعنوية كما هو سائد في المذاهب الفلسفية المعاصرة، ونستنتج من هذه التصورات والأوضاع الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية والفلسفية... التي يجب أن تكون عليها الإنسانية الحاضرة والقادمة(1).

ويقيناً أنه لولا رعاية الله التي ظلت ترعى الإنسان في كل شئ ما استطاع تحقيق أدنى انتصار في الحياة رغم ما أوتي من قوة بدنية وعقلية ذات فعالية في المجتمع والطبيعة ولولا تسخير الله للإنسان كثيراً مما خلقه ما استطاع أيضاً أن يحقق أبسط تقدم على الأرض، وقليل من عباد الله العارفون والمتدربون لهذه الأشياء، وكثير من أولئك الذين قالوا إنما أوتينا هذا على علم من عندنا، وإلا كيف نفسر قيادة الإنسان لقوى الموجودات الجمادية والحية وفق سنن وطرق أودعها الله في فطرته وتوليه وانهزامه أمام أبسط الكائنات الحية الأخرى كجراثيم الأمراض المستعصية على العلاج.

وفي عبارة موجزة إن الإنسان مهما عقل وتعلم وكرم وفضل فهو جزء من الوجود وليس بوسع الجزء الإحاطة بالكل، وأن يحيط به علماً بدءاً ونهاية وأن يحسن قيادته في كل صغيرة وكبيرة، ولذا فإن أكبر خطأ وانحراف وقعت فيه البشرية هو خروجها عن إطار الوحي ومنهج السماء وعيشها بعيداً عن ظلال القرآن الكريم(2).

---

(1) انظر في ظلال القرآن الكريم جـ ١ ط ١. ص ٦١ سيد قطب.
(2) انظر مقالات ص ٥٧ راشد الغنوشي.

ولذا فإن مما تكرر من القصص في القرآن قصة خلق آدم وسجود الملائكة وامتناع الشيطان وغوايته لذريته عليه السلام... وقصة مخاصمة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام أقوامهم في باب التوحيد بالعبادة والطاعة والتقوى والاستغفار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وامتناع الأقوام والتضرع بشبه ركيكة، مع ذكر جواب الأنبياء وقيام الأدلة وإيتاء المعجزات وعقوبة الله للأشقياء وظهور نصرة الأنبياء مرة ومرات، وذكرت قصص أخرى إجمالا وتفصيلا بحسب ما اقتضاه أسلوب السور ومدعاة المقام وليس المقصود من هذه القصص هو معرفتها بنفسها بل المقصود هو الاعتبار بالآخرين السابقين والتربية على منهج الحق[1].

ولقد استطاعت تلك المجتمعات الأولى التي سكنت الشرق أن تشكل دولاً وتقيم حضارات عادلة بفضل ما عاش فيها من الرسل والأنبياء عليهم السلام لما دعوا إليه من عقيدة التوحيد وبفضل ما آتاها الله من مناخ معتدل وأرض خصبة؛ فازدهرت تلك الحضارات في ظل الإيمان والعدل والقيم العليا.. ثم انتحرت في ساحة الكفر والظلم وأهلكتها الذنوب والآثام والمعاصي وغيرها من الأمراض البشرية الأخرى.

وعندما نقف على نقطة البدء في حياة البشرية من خلال القرآن نجد أن التاريخ البشري القائم على الفكر المجرد من الوحي مولود حديث العهد جداً بالنسبة لعمر البشرية الطويل، وقد جرت أحداث كبرى قبل ميلاد هذا التاريخ المعروف الآن وهو لايعرف عنها شيئاً ولا يصح أن يسأل عنها، والتاريخ مهما كان فهو إن وعى بعض الأحداث فهو عمل من أعمال البشر يصيبه ما يصيب جميع أعمال الإنسان من القصور والخطأ والهوى.

ونحن نعرف من واقع الدراسات التاريخية على وجه الخصوص أن الخبر الواحد يروى على عدة أوجه والقضية الواحدة تفسر تفسيرات كثيرة متناقضة، وذلك كله يرجع إلى عدم وحدة المصدر وكثرة المذاهب والتيارات ووسائل الاتصال والتبليغ المأخوذ عنها ومثل هذا الزحام في المتناقضات التي تملأ التاريخ لا تكون تصوراً ومنهجاً واحداً صحيحاً، كما لايصح نقله إلى القرآن ولا يتفق مع منهجه وضوابط قواعده، ويبقى القرآن هو المصدر الأصلي لكل شئ والقول الفصل في كل شئ وإن تعددت مشارب فهم الناس له[2].

والمحور الذي تدور حوله حركة التاريخ في الفكر الإسلامي هو تطوير البشرية كلها ودفعها إلى الانطلاق والإرتفاع والخلق والإبداع لإسعاد الإنسان في الدارين – الدنيا

---

(١) انظر معجم آيات القرآن الكريم ص ١٢ محمد فؤاد عبدالباقي.

(٢) انظر في ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٢٩. سيد قطب.

والآخرة. إن الإسلام لايحتقر آلام البشر ولا يبالي بها لكنه لايستخدم الحقد الطبقي لإزالتها لاعتباره أن الحقد ذاته قيد يقعد حركة التاريخ ويضعف قوتها ويحول دون انطلاق البشرية إلى آفاق عليا للإبداع والابتكار، لأن الحضارة ذاتها حركة إبداعية تبدأ في أعماق الضمير الإنساني ثم تحقق نفسها في واقع الحياة شاملة كل الجوانب الإنسانية، كما أن التاريخ ليس هو الحوادث والوقائع فحسب بل هو تعليل وتفسير هذه الأحداث والاهتداء إلى العوامل المحركة لها والروابط الظاهرة والخفية التي تجمعها وتجعل منها وحدة متكاملة الجوانب متصلة الحلقات متفاعلة الجزئيات[1].

إذن ليس التاريخ هو مايطلق عليه تجوزاً أنه مجموعة ذلك الركام من الحوادث والوقائع والحكايات والأحاديث والأخبار والخرافات والأساطير والروايات المتضاربة والآراء المتعارضة[2].

فحركة التاريخ في التفسير الإسلامي هي حركة محكومة بعوامل كثيرة، وتحركها قوة ذاتية إنسانية، وهذه العوامل والقوة المحركة هي التي يختلف فلاسفة التاريخ والمفكرين في تعليل وبيان أسبابها.

ولكل واقعة في التاريخ عدد من الأسباب وقد يكون بعض هذه الأسباب في حدوث الوقائع أكبر أثراً من بعضها الآخر، ولكن من الخطأ أن ننسب واقعة من الوقائع إلى سبب واحد[3] ولهذا وكلت للإنسان قضية الاستخلاف في الأرض، وشاء الله أن يزود هذا المستخلف بوثائق الاستخلاف وحمل الإنسان المسؤولية من يوم هبط ووجد نفسه على الأرض فقال تعالى: **﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾**[4].

والهدى في الآية هو الرسول أو الكتاب[5].

ويبدأ القرآن عمله مع الإنسان بأن يكشف له عن حقائق هامة كامنة في ذاته، ويمعن القرآن في إبراز هذه الحقائق الذاتية أمام فكر البشر ومشاعره، بدعوته إلى التأمل والتدبر في نفسه والنظر في الأرض والسير فيها والاعتبار بحوادث الدهر ومصائر الأمم والشعوب، فإذا انتبه الإنسان إلى هذه الحقائق وصدق بها وعرف أنها من سنن الله في التحضر، أدرك دوره في الحياة وواجبه تجاه نفسه وتجاه الله وتجاه الناس وتجاه الوجود

---

(١) انظر التاريخ فكرة ومنهاج ص ٢٠، ٣٧ سيد قطب.
(٢) انظر نفس المرجع ص ٤٢ سيد قطب.
(٣) انظر مجلة المنابر ص ٤٠ العدد الثاني عشر السنة الثانية ديسمبر ٨٧ مجلة شهرية بيروت.
(٤) سورة البقرة ، الآية ٣٧ .
(٥) انظر تفسير النسفي ، البقرة ٣٧ .

عامة[1].

ومن لوازم معرفة الإنسان نفسه أن يكون على دراية بأنه كائن بين دوافع نفسية داخلية خطيرة، وبين ضوابط إرادية ذاتية وأعراف أخلاقية اجتماعية بشرية. وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم يتوازن كيانه النفسي وتصرفه وسلوكه الخارجي في انضباط بين الدوافع الداخلية والضوابط الخارجية، فيحقق غاية وجوده، والتوازن الفطري العام للإنسان هو منشأ انحرافه ومبدأ فساده الذي يحدث بفقد التوازن وحدوث الاختلال وهو ضعف أو غلبة أحد الطرفين أي بين الدوافع الداخلية الغريزية والضوابط الخارجية الأخلاقية، ومن هنا تبدأ البذور الأولى لظاهرة السقوط الحضاري، وبقدر المحافظة على خط أو نقطة التوازن الفطري العام تكون الاستقامة ويتحقق الإصلاح والاعتدال فيسود الحق والعدل وتلك سنة من سنن الاستمرارية الحضارية وعوامل التقدم والازدهار.

ويبقى الإنسان يتأرجح بين الاستقامة والانحراف وبين الصلاح والفساد وبين التحضر والانحطاط... وقد يستقيم على الحق المبين ويلتزم نهج الله رب العالمين. فيتحضر وتزدهر حضارته وتسعد حياته.

وقد ينحرف الإنسان عن الطريق المستقيم وتضعف قوته وتخور عزائمه ويتمادى في الفساد والفسوق فيهوى إلى ساحة السقوط والبوار، وقد جعل الله لكلا الطريقين أو الخطين سننا يسلكها البشر ويأخذوا بها على دراية وإرادة وعلم.

ولقد شاء الله هذه المشيئة وأثبت هذه السنة يوم قال لعباده:

﴿وهديناه النجدين﴾[2] أي طريقي الخير والشر المفضيين إلى الجنة أو النار[3] وقوله تعالى: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾[4].

أي بينا له - الإنسان - طريق الهدى بأدلة العقل والسمع والبصر، (إما شاكراً) مؤمنا (وإما كفوراً) كافراً، وفي كلا الحالين فقد هديناه الطريق وعرفناه السبيل[5] ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر﴾[6].

أي جاء الحق وبان من الباطل، وأزيحت العلل فلم يبق أمام الإنسان إلا أن يختار لنفسه ماشاء، إما طريق النجاة وإما طريق الهلاك، ثم ذكر الله جزاء من اختار الكفر

---

(١) انظر الإسلام ملاذ المجتمعات ص ٣٣ د/ محمد سعيد رمضان البوطي.

(٢) سورة البلد ، الآية ١٠ .

(٣) انظر تفسير النسفي، سورة البد، الآية ١٠ .

(٤) سورة الإنسان ، الآية ٣ .

(٥) انظر تفسير النسفي ، سورة الإنسان ٣ .

(٦) سورة الكهف ، الآية ٢٩ .

فقال تعالى: ﴿إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها﴾(١).

أي أعددنا للكافرين نارا(٢).

والإيمان بالله واليوم الآخر من أقوى العوامل في حفظ التوازن والاستقرار النفسي والاجتماعي وينبغي أن تكون علاقات الإنسان مع كل الموجودات علاقة إيجابية تؤدى غرضا، فعلاقته بالله علاقة عبادة وخضوع واستغفار وشكر، وعلاقته مع أفراد الأمة والإنسانية عامة، علاقة دعوة إلى الحق وتعاون وتعاضد وتواد وتحاب، وعلاقته بالطبيعة علاقة قائمة على تصور أن هذه الطبيعة مسخرة له في كل مفرداتها وأجزائها يحس الإنسان معها بالمودة والدفء والرحمة واتجاهها بالعدل فلاصراع ولا اقتتال ولا تناقض ولا تضارب وكل يجرى في إطاره إلى أجل مسمى، ويرى أبو الأعلى المودودي أن البشر هم الأحجار التي تشيد بها الجماعة صرح حضارتها، على أن تكون هذه الأحجار مهذبة صقيلة متماسكة بينها(٣).

ويرى مالك بن نبى أن الدخول إلى المجال الحضاري يجب أن يكون عن طريق الإنسان ومن باب القيام بالواجب أكثر من التركيز على المطالبة بالحقوق(٤).

ويبدو أن كثيرا من الجوانب النفسية والعقلية مازالت لم تكشف كشفا كاملا لتوظف قدرات الإنسان في البناء الحضاري، ولو أننا وصلنا إلى هذا الاكتشاف واستطعنا تصحيح معنى الإنسان في أذهاننا، لأدركنا مباشرة كما يرى مالك بن نبى – السبب في أن الإنسان يحرك التاريخ أحيانا وأحيانا أخرى لايحرك ساكنا في حين أن الإنسان في كل الظروف الاجتماعية والاحقاب التاريخية هو الإنسان ذاته الذي كرمه الله يوم خلق آدم عليه السلام، وهذا يدفعنا إلى أن نقدر للإنسان قيمتين: قيمته كإنسان، وقيمته ككائن اجتماعي، وبعبارة أخرى إن الإنسان يمثل في هذا الإطار معادلتين: معادلة تمثل جوهره كإنسان صنعه من أتقن كل شئ صنعا، ومعادلة ثانية تمثله ككائن اجتماعي يصنع المجتمع ويصنعه، ومن الواضح أن المعادلة الأخيرة هى التي تحدد فعالية الإنسان في الحضارة.

الإنسان في جميع الحضارات وفي جميع أطوار التاريخ لايتغير فيه شئ، ولكن تتغير فعاليته من طور إلى طور(٥).

ولا نعجب إذا وجدنا أن القوة الفعلية لتأثيرات التاريخ تكمن في النفس البشرية التي تتغرز بغريزة حب الاستطلاع لإكتشاف المجهول واستيعاب التاريخ وأحداث الحضارة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وبهذه الدوافع تبدأ عملية التغيير الاجتماعي

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٩ .

(٢) انظر تفسير النسفي ، الكهف ٢٩ .

(٣) انظر الحضارة الإسلامية: أسسها ومبادؤها ص ٨، ٩ أبو الأعلى المودودي.

(٤) انظر تأملات، ص ٢٧، مالك بن نبي.

(٥) انظر نفس المرجع ص ١٣٠ – ١٣١، مالك بن نبي.

والنفسي[1].

ولا نعجب كذلك إذا عرفنا أن كثيرا من الشعوب والأمم ظلت فترات تاريخية طويلة تنتظر الباعث والمنقذ أو القدوة، ولقد استطاع القرآن الكريم بسحره البياني وبأسلوبه المقنع أن يخضع كل الطاقات الحيوية لدى الإنسان العربي البدوي وغيره من أبناء الأمم الأخرى إلى فكرة الوحدة والمساواة والعدل وغيره من سنن التحضر فانقاد جموع العرب إلى الإسلام فصارت الجزيرة العربية مجتمعا متحضرا ومأوى العلوم والمعارف ومصدر العظمة والبطولة وغدا الإنسان العربي متحضرا وأستاذ الإنسانية ومعلمها ودانت له شعوب الأرض ردحا من الزمان، والأمثلة على هذا كثيرة ليس هنا مجال ذكرها، والقرآن الكريم يفيدنا من كل قوى الإنسان الغريزية السليمة لتوظفها في الحياة لخدمة غاية الوجود البشري وتحرر كل الأفراد من سائر الغرائز بهيمنة العقيدة على النفس، وذلك هو الطور الأول من أطوار التحضر وهو الطور الذي تنشأ فيه عوامل الحضارة وبذورها الأولى وهي المرحلة التي تروض فيها الغرائز ويسلك طريق البناء وتوجه للإنطلاق بالقوة ذاتها[2].

ولاشك أن أي مجتمع يتألف من كتيبة من الناس تكّون صفوة ما فيه من رجال الفكر والسياسة ومن أهل الرأي والمشورة ومن علماء العقيدة والأخلاق والشريعة، وهذا قبل أن يتكون من علماء طبيعة وأطباء ومهندسين، وإن كان لكل نفعه وضرورته لإستقامة الحياة وسيرها، ولا غنى عن أي عقل مدبر ويد بناءة في الحياة. ويثبت التاريخ أن عملية التحضر وإزدهار الأمم والمجتمعات كانت بفعل عوامل شتى ومؤثرات كثيرة أساسها العقيدة والإيمان ومحورها قوة الإنسان الصالح الذي يصنع مجد الأمة، ويقيم صرحها الحضاري. والمفكرون الأسوياء هم خلاصة عظيمة لشعوبهم ونخبة خيرية في عصورهم، وشأن الأسوياء أن يكونوا سواعد قوية في الحضارات عبر التاريخ، ولايعقل أن يكون الإنسان فاسدا ثم يقدم خيرا للأمم والأجيال، ولقد أثنى التاريخ على أهل الإبداع والاختراع في مختلف حقول المعرفة والعلوم من علماء المادة والروح الذين يبصرون ما لايبصره غيرهم، والذين كانوا قدوة للأجيال والشعوب ونالوا الريادة والسيادة بفضل ما قدموا من جهود وما بذلوا من فضائل أعمال، فاستطاعوا أن يحولوا المجتمعات وينشئوا الحضارات، ومازال تأثيرهم في النفوس قائما وقد تحولت رفاتهم إلى تراب.

ويرى مالك بن نبي أن سر قيام الحضارات وتماسك المجتمعات رجال من أمثال عقبة ابن نافع، وعمر بن عبدالعزيز، والإمام مالك، لأن الأول كان فاتحا كبيرا والثاني خليفة

---

(١) انظر منهج توينبي التاريخي ص ٦ محمد فؤاد شبل.

(٢) انظر ميلاد مجتمع – شبكة العلاقات الاجتماعية – ص ١٠٢ مالك بن نبي.

عظيما والثالث إمام مدرسة كبرى في التشريع، بل لأنّ فضائل الإسلام ومبادئه تجسدت في هؤلاء[1].

إن عملية توفير القدوة في مجالات الحياة ضرورة إنسانية، حيث لاحضارة بدون قدوة، ولعل الرسل والأنبياء هم خير قدوة للشعوب وهم الذين قادوا الأقوام والأمم قيادة حكيمة سليمة من المزالق والانحرافات، على أساس الإيمان الصحيح والاعتقاد الجازم والنصح المبين سواء فيما يتعلق بعالم الشهادة أو عالم الغيب أي الدنيا والآخرة.

ولقد أثبتت التجارب الاجتماعية والتاريخية أن القدوة أو القيادة الحضارية لاتستطيع أن تحدث أثرا كبيرا، إلا إذا كانت أفكارها ذات مضمون عقيدى أو اتجاه دينى وسارت بالشعوب على منهج رباني يحمل تعاليم الوحي في أرقى القيم وأصح الأفكار والمبادئ ويتصف أهله بأفضل الخصال والمناقب، ولقد أثبتت التجارب أيضا أن الذين قاتلوا وناضلوا وعملوا واجتهدوا، لم يفعلوا ذلك إلا بدوافع عقيدية وحوافز إيمانية، وما سارت وراءهم الشعوب والمجتمعات إلا لأنهم مثلوها أحسن تمثيل في المنشط والمكره وفي الفرح والسرور وفي البأساء والضراء، فامتزجت العواطف والأرواح وتوحدت الأفكار والغايات والأهداف، وكانت هذه عوامل وفرت دواعى الثقة والاطمئنان بين أفراد الأقوام والأمم عبر تاريخ الإنسانية، ومن سنة الله أن النفوس والطبائع جبلت ألا تتحد وألا تتآزر وتتآخى إلا بعناصر التعاون والتعاضد وسيادة الشفقة والرحمة والمودة بينها، وهذا ما ينبغي أن يسود بين القيادة والشعوب حتى لا تدفع الأولى بالثانية إلى مهالك الحروب والقتال وويلات الفتن والمحن بلاهدف ولا غاية، إلا بدافع حب السيطرة والملك وغرس العقائد والأيديولوجيات وتحقيق النظم والسياسات بالمعاناة عند هذه الشعوب والمفروضة عليها بالجبر والقهر. ولذلك اتى الله الرسل والأنبياء من الأوصاف الخلقية والخلقية والمؤهلات الحضارية ما يخول لهم أداء دورهم ورسالتهم في الحياة في تعليم الإنسانية الكتاب والحكمة وتعمير الأرض وتعبيد العباد لرب السموات والأرض وخالق الوجود كله. ولقد اخترت في هذه الدراسة الأنبياء كنماذج للحديث عن القدوة الحضارية لاعتبارات شتى: أنهم الصفوة المصطفاة من البشر التي تولى الله تربيتها والإشراف عليها إشرافا مباشرا فكانوا أكمل الخلق في الصدق والفطانة... والسلامة من كل عيب أو مرض منفر وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: **﴿الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير﴾**[2].

أي أن الله يختار من الملائكة رسلا كجبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم وكذلك يختار من الناس رسلا، كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم، والله سميع بصير بمن

---

(١) انظر وجهة العالم الإسلامي ص ٢٦ مالك بن نبي.
(٢) سورة الحج ، الآية ٧٣ .

يختاره لرسالته وبصير بأحوال الأمم في الرد والقبول للحق(١).

فقال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿... **وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني**﴾[٢].

ومعنى الآية أن الله ألقى محبة منه على موسى ما رآه أحد إلا أحبه، وحب الناس للقائد هو سر نجاحه في أداء دوره ورسالته، ومعنى "لتصنع على عيني" أي لتربى بمرأى مني، وأصل المعنى في لغة العرب من صنع الفرس أي حسن القيام عليه[٣]. وبهذا وغيره كثير كان الأنبياء أهلا للاقتداء بهم في الحياة.

ومن سنن الله في إرسال الرسل ألا يبعث رسولا إلا من قومه يتكلم لغتهم ويحس آلامهم وآمالهم ويعرفونه فلا ينكرون فيه شيئا وهو أخوهم وابن بيئتهم وجلدتهم، فعن نوح أبو البشر الثاني قال الله تعالى: ﴿...**إذا قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون**﴾[٤] وعن عاد قوم هود قال تعالى: ﴿**وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون**﴾[٥].

وكذلك في سورة الشعراء دعا هود قومه إلى التقوى ﴿**كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون**﴾[٦].

وعن أخوة صالح لثمود قال تعالى: ﴿**وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾[٧].

وفي سورة الشعراء قال تعالى: ﴿**كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون**﴾[٨].

---

(١) انظر تفسير النسفي ، الحج ٧٣ .
(٢) سورة طه ، الآية ٣٨، ٣٩ .
(٣) انظر تفسير النسفي ، طه ٣٨، ٣٩ .
(٤) سورة الشعراء ، الآية ١٠٦ .
(٥) سورة الأعراف ، الآية ٦٤ .
(٦) سورة الشعراء ، الآية ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٧) سورة الأعراف ، الآية ٧٢ .
(٨) سورة الشعراء ، الآية ١٤١، ١٤٢.

العبـــــــرة

النظرة إلى التاريخ يجب ألا تودى إلى نتائج نظرية فحسب، بل الأصل أن تـؤدى إلى نتائج تطبيقية تتصل بسلوكنا في الحياة وتحدد مواقفنا من الأحداث وما ينجم عنهـا مـن مشكلات، ذلك وأن النظـرة إلى التـاريخ ينبغـي ألا تقتصـر علـى مجـرد كونـه حـوادث ووقائع تتعاقب على الأمم والمجتمعات دون إدراك ومعرفـة السـنن والقوانـين الـتي تحكـم حركة التاريخ، وتسجيل ما تترك في النفوس من آثار على أن حـركة التـاريخ مـن صنـع الإنسان لا على أنها من القضاء والقدر، لايسع الإنسان فيهـا إلا الإذعـان والاستسـلام ومسايرة ظروف الواقع بصحيحه وخطئه، وحلوه ومـره وعدلـه وظلمـه... وإن نظرتنـا إلى التاريخ يجب ألا تودى إلى نتائج نظرية فحسب بل إلى نتائج تطبيقية تتصل بسلوكنا في الحياة، وحينئذ نعلم أن الأسباب الاجتماعية والتاريخية كلها تصدر عن سلوكنا وتنبع مـن أنفسـنا ومـن مواقفنـا حيـال الأحـداث والأشياء وهـذا مـا يحـدد وظيفـة الإنسـان الاجتماعية والتاريخية بحيث يكون ذو فعالية، لأن حـركة المجتمـع والتـاريخ لا تتحـركـان إلا بفعل قوة إرادة الإنسان فإذا تحرك هذا الإنسـان تحـرك المجتمـع والتـاريخ وإذا سـكن سكن معه المجتمع والتاريخ، وهذا ما تشير إليه وتؤكده النظرة إلى تـاريخ الإنسـانية منـذ بدأ التاريخ فنرى المجتمع حينا يزخر بالنشاط وتزدهر فيه الحضارة، وأحيانـا نـراه سـاكنا لا يتحرك ويسوده الكساد وتغمره الظلمات[1].

وعند تحليلنا لعوامل تقـدم المجتمـع وازدهـاره أو لعوامـل وأسـباب تـأخره وانحطاطـه نجدها تعود إلى ذات الإنسان. فعندما يعتقد المرء أن كل ما يصدر منه له دور في الحياة، ويتيقن أن كل ما وصلت إليه الأمم في التاريخ القديم والحديـث مـن تقـدم أو انحطـاط، إنما كان وراءه الإنسان وهو وحده لاغيره يبقـى هـو المسـؤول عـن كـل مـا تصـير إليـه المجتمعات والحضارات، وحينئذ تكون التجربة والعبرة من أكبر عوامل التربيـة والبنـاء في حياة الأمم الحضارية، لأن العبرة تعلـم الصـبر والتجلـد وهـو مـا يسـمى قـوة الإرادة... والشجاعة الأدبية، وقد دعينا في القرآن الكريم إلى ترك اليأس والقنـوط والضجـر وهـى عوامل وأسباب تضعف الإنسان وتهلـك الأمـم، قـال تعـالى **﴿ويـدع الإنسـان بالشـر دعائه بالخير وكان الإنسان عجولا﴾**[2].

أي يدعو الإنسان الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله وولـده، كمـا يدعـو لهم بالنفع العاجل[3]. والمعنى ياعجبا كيف يكون الإنسان عاجلا بالسخط علـى نفسـه والتمنى الشر لها، والحق أن الإنسان إذا عجز في ميدان مـن ميـادين الحيـاة فلاشـك أنـه

---

(١) انظر تأملات ص ١٢٥ – ١٢٦ مالك بن نبي.

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١١ .

(٣) تفسير النسفي ، الإسراء / ١١ .

سيقدر في ميادين أخرى فلا داعي لليأس إذن[1].

وفي القصص التاريخية في القرآن الكريم تركيز على العبر والعظات، ولم يكن هناك اهتمام بالمقومات التاريخية من حيث الزمان والمكان، ولعل من الانحراف أن يشغل الدارسون والمؤرخون أنفسهم بالبحث في هذه المقومات، وإنما المقصد هو استخلاف العبر والدروس وإبراز دورها في النفس والمجتمع حتى تؤثر في النفوس والعقول وتعطي فاعلية وتوجيه في الحياة، ومما يعمم فائدة العبرة أنها غير مقيدة بزمان ولا مكان، والمحللون لأحداث التاريخ بمنهج القرآن لا يسألون عن الأحداث متى كانت بقدر ما يسألون عن هل صحيح وقعت ولماذا وقعت؟ حتى يدركوا مواطن زلل الأمم ومواقع خطواتها الصحيحة السليمة حيث من أحسن مايقدمه المجرب أو المربي لغيره هو أن يصف له طريق حياة الأسوياء من البشر فيتبعها، ويوضح له طريق أهل الانحراف والفسوق فيتجنبها ويتقي شرهم والباطل من أعمالهم[2].

ومعظم الآيات التي تتناول موضوع العبر مكية لأن السور والآيات المكية نزلت لتبني الإنسان باني الحضارات ومنشئ المجتمعات، وفي القرآن المكي ذكرت كثير من قصص الأنبياء والأقوام وعلل الأمم وأمراضها النفسية والعقيدية من شرك ووثنية وتكبر وظلم، وما ترتب على هذا من آثار في جميع نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعمرانية ولقد عدت هذه الآيات في موضوع تاريخ الحضارات صفحات مشرقة في سجل واع وثيق حرك الحق سبحانه أحداثها تحريكا يثير النفس وينبه العقل والحواس.

وجدير بدارس التاريخ أن ينتبه لهذه الآيات التي تحمل أنباء الأمم الغابرة والحضارات الدابرة، ومالها من أثر في تعميق الوعي الاجتماعي والتاريخي لدى الإنسان ومالها من دور في تقويم الإعوجاج وتصحيح الأخطاء لتعرف الأمم اللاحقة، خط ومصير الأمم التي غرقت في الشهوات وحادت عن طبيعة الإنسان بإزاغتها عن معالم الحق فكانت أعمال ومناهج حياة هذه الأمم عوامل هدم نخرت كيان حضارتها وحطمت صروحها الشامخة، ولتعرف أيضا أحوال ومناهج حياة تلك الأمم التي استقامت على الطريق المبين فاستحقت العزة والسعادة والتمكين في الأرض من قبل مدبر شؤون الحياة وخالق الكون فالق الحب والنوى.

ومهما تدعي الإنسانية البعيدة عن القرآن العلمية والدراسة المنهجية في التاريخ والمجتمع فإنها لن تصل إلى مايطمح إليه عقلاء البشر وأسوياء الإنسانية من سعادة إلا في

---

(١) على هامش التفسير ص ١٢٩ عبدالقادر المغربي.

(٢) على هامش التفسير ص ١٢٥ عبدالقادر المغربي.

ظل الوحي القرآني باعتباره أسلم كتاب من الانحراف، وسيظل الإنسان يضرب في أدغال التاريخ وبتيه في شعابه ودروبه كلما تقدم بـه الزمان ما لم يرجع إلى خالقه[1]. وأحداث التاريخ كلها عبر ودروس أي مادة تأمل وتفكير، ولاشك أن الحكمة من الإخبار والاعتبار هي الاستجابة لداعي الخير والاستقامة والحذر من مواطن الانحراف والفسوق.

ولقد كان لآثار الماضين مما عثر عليه الباحثون واكتشفه الدارسون دور في صقل المواهب وتأكيد المعارف الصحيحة، وبيان السقيم والزائف منها، ولاتزال تجارب وخبرات السابقين تكشف للاحقين أخطاءهم وتريهم سلبيات أعمالهم وتقودهم نحو الأفضل والأحسن حتى عقل اللاحقون وفقهوا كثيرا من أصول ومقومات الحضارات السابقة. ولقد كان تفاوت الأمم واستعدادها للتقبل والاعتبار عاملا من عوامل تقدم أمم ونكوص أخرى، ومن هنا كان ما أتى به القرآن من هدى وإرشاد ومن تشريع وتقنين ودعوة إلى التأمل والتدبر في النفس والكون، والسير في الأرض والنظر في التاريخ عوامل بناء في المجتمعات وسننا في قيام الحضارات، وإكثار القرآن من الدعوة إلى السير في الأرض والنظر إلى آثار السابقين دليل على أهمية الموضوع في حياة البشر، لأن القرآن لايكثر من ذكر شئ إلا لتعظيم شأنه[2].

والعبرة كمعنى تعد قضية فكرية ومجال بحث تحتاج إلى دراسة مع أنها لم يدرسها أحد من المفكرين دراسة وافية في جانبها العلمي والاجتماعي والحضاري. ولم يتناولها من القدماء سوى علماء اللغة الذين صرفوا اهتمامهم إلى بيان المقصود البلاغي، وبقي النظر إليها مقصورا على هذا الجانب من غير تدبر دقيق وتمحيص عميق لآثارها في الحياة[3].

والتوجيه الملح في القرآن الكريم ينصب على الاعتبار بأحوال الماضين، ووقائع التاريخ فيهم وأحداث الأيام، كقوله تعالى: **﴿والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار﴾**[4].

وفي هذه الآية حث على دراسة حالات النصر وعوامل تحقيقه، وسنن الوصول إليه، وهذا هو الجانب المهم في العبر الذي ينبغي دراسته، أما من حيث كون العبر عامل تربوي فقد قال تعالى: **﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾**[5] أي في ذلك المذكور من

---

(١) انظر قيم حضارية في القرآن الكريم ج ٢ ص ١٥٣ توفيق محمد السبع.
(٢) انظر تفسير المنار ج ٢ ص ٢٠٩ السيد محمد رشيد رضا.
(٣) الفكر التاريخي في الإسلام ص ١٤ عبداللطيف الشرارة.
(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٣ .
(٥) سورة النازعات ، الآية ٢٦ .

أجوال منكري البعث[1].

وفي اللغة من مشتقات العبرة الإعراب وهو الإفصاح والبيان، واعتبر فلان فلانا أي اختبره، والاختبار والامتحان من أكبر عوامل الحث على العمل والاجتهاد في حياة الناس[2].

أما من حيث الدعوة إلى التأمل والاعتبار في خلق الله كالأنعام فقال تعالى: ﴿**وإن لكم في الأنعام لعبرة**﴾[3].

ومن ناحية النظر إلى الزمان كيف يتقلب ويدور، قال تعالى: ﴿**يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار**﴾[4].

والواضح من خلال هذه الآيات وغيرها أن الدعوة إلى الاعتبار دائما موجهة إلى فئة من الناس وهم أولو الأبصار والألباب وهذه الفئة هي التي تتصف بالعقل الراجح والأحاسيس المرهفة الناشئة عن القلب الحي والعقل المدبر المفكر، وهذه الفئة هي التي تحرك التاريخ وتقود الأجيال وتبني الحضارات وهي القلة التي أثنى عليها ربنا وذكرها بخير في مواطن كثيرة من القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿**وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم**﴾[5].

ولقد استثنى الله القلة المؤمنة من الكثرة الباغية بعضها على بعض من الشركاء والأصحاب أي الخلطاء[6].

وقال تعالى عن بني إسرائيل ﴿**ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون**﴾[7].

وفي هذه الآية استثنى الله أيضا القلة الثابتة على العهد والميثاق من بني إسرائيل حين تولت الكثرة[8]. ومدح الله القلة في مواضع أخرى كثيرة[9]. وذم الكثرة في مواطن عديدة من القرآن واعتبر أهلها من الذين لا يعلمون حينا ومن الذين لا يؤمنون ولا يشكرون ولا يعقلون... أحيانا أخرى[10].

---

(١) تفسير النسفي ، النازعات ٢٦ .
(٢) منجد الطلاب مادة "عبر".
(٣) سورة المؤمنون ، الآية ٢١ .
(٤) سورة النور ، الآية ٤٣ .
(٥) سورة ص ، الآية ٢٣ .
(٦) تفسير النسفي ، سورة ص ٢٣ .
(٧) سورة البقرة ، الآية ٨٣ .
(٨) تفسير النسفي ، البقرة ٨٣ .
(٩) انظر الآية ٢٤٦ من سورة البقرة و ١٣ من سورة المائدة وغيرها..
(١٠) انظر الآية ٢١ سورة يوسف و ٣٨ والآية ١ الرعد وغيرهم..

وبذا يتأكد لنا أن الصفوة هي التي تقود الأمم والشعوب وتبنى الحضارات وهى عادة قلة مؤمنة، قلة عاقلة، قلة متعلمة، وقلة شاكرة... والحاصل أن الوقوف للاعتبار عند هذه المفاهيم وما شاكلها هو الذي يؤدي إلى اكتشاف الطاقات والعقول القيادية والخبرات العلمية العملية.

وكان مفهوم التاريخ عند القدامى يعنى الأخبار ويشمل الأيام والسير والأنساب والأساطير والعبر ولعل هذا ما نفهمه من خطبة قس بن ساعدة الإيادى حين قال ".. إن في السماء لخبرا وفي الأرض لعبرا..." ولعل هذا ما كان يعنيه العلامة ابن خلدون حين سمى موسوعته التاريخية أو العلمية" كتاب ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر" أعنى أيام العرب والبربر عبر.

وإذا كانت العبر في القرآن هى مادة تأمل وتدبر فإن التفكير فيها يحدو إلى دراستها ولم أجزائها وتبويبها حتى توظف كقوة وطاقة بناءة في المجتمع والتاريخ.

ولهذا وغيره دعينا في القرآن الكريم إلى التنقيب في مصائر الأمم الغابرة ومن واجب الإنسان أن يكون دائم الاتعاظ والاعتبار بالأمم الخالية والأجيال السابقة دؤوبا على التفكير في أحوالهم ومصائرهم وما حل بهم من العقاب والعذاب ليكون دائما حي القلب يقظ العقل مرهف الحس، فتنمو حاسة الاتعاظ واليقظة والاعتبار ويسبح في الأرض ليقف على آثار غيره من الذاهبين الأولين، ممن كان أعدل وأقوم وممن كان أظلم وأطغى من أصحاب هذه الحضارات القائمة والأمم المعاصرة الحاضرة، وقد قال تعالى: **﴿وأنه أهلك عادا الأولى وثمودا فما أبقى. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى. والمؤتفكة أهوى. فغشاها ما غشى﴾**(١).

وقد أهلك الله أيضا من كان أشد قوة وأطول أعمارا وأرغد عيشا وأهنأ بالا وأكثر أموالا وأولادا بذنوبهم فقال تعالى: **﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**(٢).

فصاروا ذكرى للذاكرين عبرة للعاصين ودرسا للعارفين فتلك بيوتهم خالية وقصورهم خربة أطلالا وآثارا باقية، بعد أن كانوا في مقام كريم ونعمة فاكهين فأورثها الله قوما آخرين فمابكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين قال تعالى: **﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك**

---

(١) سورة النجم، الآية ٤٩ – ٥٣ .

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٠ .

وأورثناها قوما آخرين. فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾[1].

﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[2].

والحديث في القرآن عن الأمم الخالية وما حل بها من دمار وبوار يدفعنا إلى اعتماد النظر والتمعن والفحص والاختبار للكشف والابتكار والإبداع من أجل بناء حضارة متوازنة يحقق بها الإنسان رسالة الخلافة في الأرض[3].

كما يدعونا إلى النظر في عواقب السابقين للغرض نفسه حيث يقول تعالى: **﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم. كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم. وما كان لهم من الله من واق﴾**[4].

ولقد علم الله أن الإنسان عادة ما يعتبر بمن هو أكثر منه وأشد قوة وأعظم شأنا وبأسا، ولعل في هذا إشارة إلى عاد وثمود، والآثار هي قصور السابقين وحصونهم وعددهم، وكل مايوصف بالشدة من الآثار(٥). ويذكر الله المجادلين في آيات الله من مشركي العرب بعبر التاريخ ويوجههم إلى السير في الأرض ورؤية مصارع الغابرين الذين وقفوا موقفهم وكانوا أشد منهم قوة وآثارا في الأرض ولكنهم كانوا ضعافا أمام بأس الله، وكانت ذنوبهم تعز لهم عن مصدر القوة الحقيقية، وقوى الإيمان التي بها قوة الله العزيز القهار: **﴿فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق﴾** ولا واقٍ إلا الإيمان والعمل الصالح والوقوف في جبهة الإيمان والحق والصلاح[6].

وتكرر طلب السير في الأرض والنظر في عواقب السابقين في القرآن الكريم بهذه الصيغة ثمان مرات[7]. كان الحديث فيها موجها إلى مشركي العرب خاصة والبشرية عامة.

قال تعالى: **﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**[8].

وفي الآية تقرير للسير في البلاد والنظر إلى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهما من

---

(١) سورة الدخان ، الآيات ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ .

(٢) سورة ق ، الآية ٣٧ .

(٣) انظر العقل المسلم والرؤية الحضارية ص ٣١ د/ عماد الدين خليل.

(٤) سورة غافر ، الآية ٢١ .

(٥) تفسير الكشاف ، غافر ٢١ .

(٦) في ظلال القرآن ج ٥ ص ٣٠٧٦ ، ٣٠٧٧ .

(٧) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة "ينظروا".

(٨) سورة الروم ، الآية ٨ .

الأمم العاتية ثم وصف الله أحوالهم وأنهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها " أي أولئك الهالكين كانت عمارتهم في الأرض أكثر من عمارة أهل مكة الذين سكنوا بواد غير ذي زرع ولا ضرع، فما لهم مع ضعف حالهم هذا يستكبرون ويدعون القوة[1].

ودعوة الله إلى التأمل في مصائر الغابرين من أهل الحضارات البائدة الذين عمروا الأرض وعاشوا قبل جيل المشركين في مكة المخاطب الأول بالقرآن ترينا أن هؤلاء السابقين أوتوا القوة المادية التي كثيرا ما يغتر بها أصحابها أكثر من هؤلاء المعاصرين في مكة حيث حرثوا الأرض وشقوا باطنها وكشفوا عن بعض ذخائرها وسخروا بعض أسرارها بإتقان حرفة الزراعة والغرس ومع هذا كله وقف بهم تفكيرهم وإبداعهم المادي عند حدود الدنيا ولم يتجاوزها إلى ما وراء دائرة الكون. ﴿**حتى جاءتهم رسلهم بالبينات**﴾ فلم تتفتح بصائرهم لهذه البينات ومضت فيهم سنة الله ولم تغن عنهم قوة من الله شيئا فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون " أفلا يحق بمن عرف هذا ألا يعتبر ويستقيم على الصراط[2].

ولعل كلمة قوة في هذه المواطن من الآيات القرآنية تذكر ويراد بها الحضارة، كما تذكر القرية ويراد بها المدينة[3].

قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا افلا تعقلون* حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولايرد بأسنا عن القوم المجرمين* لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾(٤).

هذه الآيات تقرر سنة من سنن الله وهي أن الله لم يرسل ملائكة ورسلاً للبشر كما زعم المشركون ولو شاء الله لأرسل ملائكة لا رجالا على أنه لم ينتظم في سلك النبوة امرأة والقرى المقصود بها هنا المدن، أفلم يسير هؤلاء المكذبون في الأرض فينظروا نظرة تفكر وتدبر كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وهم نظراؤهم المكذبون، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا الشرك والفواحش، وآمنوا بالله ورسله حتى إذا استيئس الرسل من إجابة قومهم وظنوا أي تيقنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصر الله، ولا يرد بأسه سبحانه

---

(١) انظر تفسير الكشاف ، الروم ٨ .

(٢) انظر في ظلال القرآن م ٥ ص ٢٧٦. سيد قطب.

(٣) انظر الفصل الأول من هذا البحث.

(٤) انظر سورة يوسف الآيات ١٠٩ - ١١٠ - ١١١ .

عن القوم المجرمين، ولقد كان في قصص هؤلاء السابقين عبرة لأولى الألباب، والضمير في "هم" ليوسف عليه السلام وإخوته أو يعود على الأنبياء السابقين عامة، وما كان هذا القرآن حديثا يفترى أي يبلى ويخلق ولكن تصديق الذي بين يديه من الكتب المنزلة وتبيانا لكل شئ مما يحتاج إليه الخلق من الأحكام والمبادئ والقيم والحلال والحرام والآداب، والأخلاق... وهدى من الضلالة ورحمة من العذاب لقوم يؤمنون[1].

ومعانى الآيات جولات في صفحات الكون وأغوار النفس في آثار الغابرين وفي الغيب المجهول وراء الحاضر المعلوم، ويبدو أن قصص هؤلاء الغابرين لم تكن متداولة بين شعراء الأقوام الذين خاطبهم بها القرآن أولا، إلا ما نذر كصفوة الحنفاء والرهبان العارفين بأخبار الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل، وعادة ما ينسى الحاضر بهمومه وانشغالاته الناس عن التفكير في المستقبل، والتفكر في الماضي مع ما فيه من أسرار وعبر تحتاج إلى دراسة دقيقة ومناهج صحيحة تفككها وتحللها لبناء الحاضر ودفع حركة التقدم. وقد أخبر القرآن بأمم أنساها الزمان مع ما بها وما فيها من عبر وعظات ودعانا إلى الالتفات إلى الماضي ودراسة التاريخ وقص الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم دروسا من ماضي الأمم وبينت الآيات الحكمة من قصصها، ومن هذا قوله تعالى: **﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾**[2].

وهذه القصص وهى من الله وتعليم لخلقه، ومن خلالها تتضح مجموعة من سنن الله كإرسال الرسل والأنبياء بشرا ذكورا. وليسوا ملائكة ولا إناثا، وما بعث الله رسولا إلا في قرية أي مدينة، ولم يسبق بعثة رسول في بادية حيث ينشأ الرسول في أوساط الشعب ومن عامة الخلق، لأن القيادة والريادة الحضارية في ميدان السياسة والثقافة وغيرهما لا يبرزها إلا الواقع حتى تحس بما يحس الناس وتدرك ما يعاني الناس قال تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى﴾**[3].

ويخاطب الله الذين يجهلون هذه السنن وغيرها ويدعوهم إلى السير في الأرض والنظر في قول الله تعالى: **﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون﴾**[4].

والنظر في آثار الغابرين نظرة التأمل والتفكر تهز القلوب الغافلة ولحظات الاسترجاع الخيالي لحركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم وتصورهم أحياء يروحون في هذه

(١) انظر تفسير القاسمي ، يوسف ١٠٩،١١٠ .
(٢) سورة يوسف ، الآية ٣ .
(٣) سورة يوسف ، الآية ١٠٩ .
(٤) سورة يوسف ، الآية ١٠٩ .

الأمكنة ويجيئون يخافون ويرجون يطمعون ويتطلعون... ثم إذا هم ساكنون لاحس ولا حركة، آثارهم خاوية طواهم الفناء، وانطوت مشاعرهم وأفكارهم، وانثوت حضارتهم وغدت حياتهم وأعمالهم خبرا في الصفحات وأسفار التاريخ، وهذه سنة من سنن الواحد القهار الملك الجبار.

وهكذا يأخذ القرآن الكريم بأرواح الأمم وقلوب البشر ليطوف بهم في عالم كان قائما شاهدا، ثم غاب وراح أثرا بعد عين، فلماذا لا يسير هؤلاء المكذبون في الأرض ليعرفوا كيف كان المصير الحزين لمن سبقهم فيحذروه؟

ثم يصور الله ساعات الحرج القاسية في حياة الرسل وكل من اهتدى بهديهم قبيل اللحظات الحاسمة التي يتحقق فيها وعد الله وتمضي سنته التي لا تتخلف ولا تحيد، قال تعالى: ﴿**حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم كذبوا جاءهم نصرنا. فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين**﴾.

ولاشك أن هذه الصورة واللحظة الحرجة لايدرك مغزى أبعادها إلا الذي عاش لحظات اليأس والقنوط في فترات التاريخ القاسية التي تبنى عليها حياة أمم وسيادة نظم وعقائد وأفكار، والناس يواجهون الظلم والإصرار والجحود، وتظلم الحياة ويضيق الأفق أمام القلة التي تناصر الحق وتطغى الكثرة بخيلها وخيلائها، ولكن اليقين في الله والثقة به أقوى وأجلد في الصمود أمام هجمات الباطل، وعندما يظن الرسل والدعاة أنهم كذبوا يأتي نصر الله وبعد العسر يسر وما يعلم جنود ربك إلا هو، وطرق النصر كثيرة وسنن الله التي يجريها الله عليها عديدة، ولابد من الشدائد لاستخراج القلة القوية من الكثرة الغثائية حيث لا يأتي النصر والتمكين إلا بعد الجهد المضني، فيمكن الله الذين يستحقون ذلك ويذهب بالآخرين وفق سنن الهلاك والدمار، ذلك لكي لايكون التمكين رخيصا يناله أي إنسان أو أية أمة، والقلة التي تمكن في الأرض دائما ومن سنة الله أن تكون نماذج وقدوة تحتذى في أخلاقها وأعمالها وتكون سيرها قواعد ومناهج في حياة الأمم والشعوب[1].

قال تعالى: ﴿**أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآية لأولي النهى. ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى**﴾[2].

بداهة أن قريشا والعرب عامة هم أول المخاطبين بالقرآن الكريم، والضمير في كلمة "يمشون" في هذه الآيات يعود على قريش الذين كانوا يتقلبون في بلاد وأرض عاد وثمود ويعيشون في مساكنهم ويعاينون آثار هلاكهم، ولولا الكلمة السابقة بتأخير جزائهم إلى

---

(١) انظر في ظلال القرآن م ٤ ص ٢٠٣٥ - ٢٠٣٦ .

(٢) سورة طه ، الآيتين ١٢٦ ، ١٢٧ .

الآخرة لكان لقريش مثل ما كان لهؤلاء الأقوام البائدة من هلاك، لأن الانحراف والفسوق يلازمه العقاب(١).

وحين تجول العقول والقلوب في مصارع القرون أي الأجيال الأولى، وتطالع العيون آثارهم ومساكنهم عن كثب ترتسم في الخيال الدور والقصور التي كانت قائمة تزهى الدنيا وكيف خلت من أهلها وصارت شخوصهم الذاهبة وحركاتهم وسكناتهم وخواطرهم وآمالهم وآلامهم وحضارتهم كلها أحلاما وأطلالا، فحينئذ تتحرك هذه الظواهر والأشباح للتحول إلى عوامل تربية وبناء في الأمم والمجتمعات، لأنها تزرع الشفقة والرحمة في قلوب الناس كما تغرس الخوف من الله وفى نفس الوقت الاطمئنان إلى عدله سبحانه ورحمته وتعرف قوته وتستنبط سننه تعالى وهى ماضية في طريقها ترتب النتائج على المقدمات والأسباب على المسببات... وعندئذ يعى العاقل أيضا معنى العبر والنذر. و ﴿إن في ذلك لآيات لأولى النهى﴾.

ولولا رحمة الله لحل بهؤلاء المكذبين والمذنبين ما حل بالقرون الأولى ولاستأصلهم الله بعذاب في الدنيا ولكنها كلمة سبقت من ربك فأمهلهم إلى أجل مسمى(٢).

قال تعالى: **﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾**(٣).

أي كم أهلكنا قبل مشركي قريش من أجيال كانوا أكثر من هؤلاء قوة كعاد وثمود المقصودين في كثير من آيات الاعتبار لما كان لهما من شدة وبطش حيث نقبوا في البلاد أي ضربوا فيها وطافوا أقاصيها وعرفوا كثيرا من أسرار الحياة. "هل من محيص" أي فهل من اعتبار واتعاظ بما رأوا من آثار الأمم وخراب الديار "إن في ذلك لذكرى" أي في هلاك تلك القرون قبل قريش "الذكرى" لتذكير واعتبار "لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد" أي أصغى للأخبار التي جاءت عن هذه القرون وكيف أهلكت وأبيدت(٤).

والنفس البشرية شديدة الحساسية بمصارع الغابرين وأقل يقظة فيها وأقل تفتح كافيان لاستجاشة الذكريات والتصورات الموحية في مثل هذه المواقف المؤثرة المثيرة وكثيرا ما نرى الناس يبكون في الذكريات لشدة الفرح والسرور، أو الكرب والأحزان(٥).

---

(١) انظر تفسير الكشاف، طه ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) انظر ظلال القرآن م ٤ ص ٢٣٥٦ سيد قطب.

(٣) سورة ق ، الآية ٣٦، ٣٧ .

(٤) انظر تفسير القاسمى - ق ٣٦ ، ٣٧ .

(٥) في ظلال القرآن م ٦ ص ٣٣٦٦ سيد قطب.

وكثيرا مابكى النبي صلى الله عليه وسلم والصالحون عند تلاوة قوله تعالى: ﴿**هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود بل الذين كفروا في تكذيب والله من ورائهم محيط**﴾[1].

في الآية تأس للنبى عليه الصلاة والسلام حتى يثبت ويحتسب كما كان الذين أرسلوا أي المرسلين السابقين، وأن الله منتقم من العصاة الظلمة والعتاة الكفرة، وفى الحديث عن الجنود فرعون وثمود إشارة إلى كل الذين تجندوا عبر التاريخ لإهلاك الرسل وإبطال دورهم في الحياة الإنسانية والمراد بالجنود كل ما يصدر عنهم من التمادي في الكفر والضلال والانحرافات العقيدية والأخلاقية المعروفة عن جيوش الظالمين، ولقد كان فرعون رمز القيادة الفاسدة وكانت ثمود رمز القاعدة الفاسدة[2]. وهذا نموذج من فعل الله بالأمم والأفراد المنحرفين الضالين، وسموا في هذه الآية بالجنود إشارة إلى قوتهم واستعدادهم[3].

والقرآن الكريم حافل بأخبار فرعون وثمود وما حل بهما وفي مصيرهما عبرة لأولى الألباب. ومعنى "والله من ورائهم محيط" الإحاطة التامة، وأنه سبحانه لايخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء وما بالنفس والمجتمع[4].

قادر على أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون وغيره من الهالكين الأولين والمحاط هو المحاصر [5].

وكل تلك الأمم الخالية والأجيال البائدة التي أفرغت حمولتها الحضارية في هذا الحوض التاريخي الإنساني الممتد الأرجاء طولا وعرضا، قد حوى القرآن أخبارها وأحصى أعمالها ومواقفها للتأمل والاعتبار والاقتداء بالصالح وتجنب الطالح فهل من معتبر.

---

(١) سورة البروج ، الآية ١٧ إلى ٢٠ .

(٢) انظر تفسير القاسمي – البروج ، الآيات من ٧ إلى ٢٠ .

(٣) انظر في ظلال القرآن م ٦ ص ٣٨٧٥ – ٣٨٧٦ .

(٤) انظر تفسير القاسمي ، البروج ٢٠ .

(٥) انظر أحكام القرآن للقرطبي، البروج ٢٠ .

الذي يستقرء تاريخ الأمم العقيدي يجد أن البشرية بدأت حياتها مؤمنة وأن التوحيد أصل عقيدة الإنسان والشرك والانحراف والكفر... حالات طارئة وشذوذ في سيرة البشر ومن المعلوم أن الوجود قام بالحق ولأجل مسمى، فإن حاد وخرج عن هذا الحق، فسد وهلك، تلك سنة ثابتة ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا.

ولقد أخذ الله على البشر العهد قبل إيجادهم في عالم الواقع ويجعلهم خلفاء في الأرض، أن يعترفوا لله بالوحدانية والعبودية، ويقرون له بالربوبية والألوهية.

إذ قال تعالى: **﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم. ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾**[1] وأقام سبحانه حجة الفطرة على البشر لاتباع دين الله الحق فقال تعالى: **﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾**[2].

والفطرة هي الخلقة الأولى والمعنى أنه خلقهم قابلين للتوحيد وهو الإسلام غير نائين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوبا للعقل مساوقا للنظر الصحيح حتى ولو ترك الإنسان حرا لما اختار عليه دينا آخر[3].

وهكذا عاش الإسلام دهرا طويلا على عقيدة التوحيد ثم حدث الفسوق والزيغ وطرأ الاختلاف وكانت ثنائية الاعتقاد والسلوك والتناقض. الإيمان والإلحاد، الإسلام والكفر، والصدق والكذب، والنفاق ومخالفة الأعمال والأقوال...

ومع هذا بقي التوحيد هو الأصل والأساس والمنهج الأصح والحق، وجاءت دعوات الأنبياء والرسل تترى لتوكيد هذه الحقيقة وإثباتها في حياة الناس العقيدية وعدت محور كل رسالة سماوية، وقد قضى الله وجرت سنته أنه كلما حدث الاختلاف بعث الله رسولا أو نبيا لرد البشرية إلى التوحيد بدلا من الشرك وإلى الحق بدلا من الباطل وإلى الإصلاح بدلا من الفساد وإلى العدل بدلا من الظلم... ولكن أبى البشر إلا الانحراف والشرك والفساد، واتسعت رقعة الجدال وفرجة الخلاف وعد الاختلاف سببا من أسباب فساد الأمم وسقوط الحضارات[4].

---

(١) سورة الأعراف، الآيات ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) سورة الروم ، الآية ٢٩ .

(٣) تفسير النسفي ، الروم ٢٩ .

(٤) انظر عوامل فساد الأمم كما تصورها سورة الأعراف ص ٦٩ فايز صالح الخطيب.

ولقد أهلك الله أمما وأباد حضارات كانت ملء الأرض بسبب الفساد العقيدي - الشرك - الذي كان أول انحراف دب إلى عقول الأفراد وكيان الأمم - كما سنرى - ثم اتسع هذا الفساد حتى شمل كل جوانب الحياة.

وكان عهد نوح - عليه السلام - الأب الثاني للبشرية، وكان الطوفان وأنجى الله نوحا ومن آمن معه في الفلك المشحون، وهلك الباقون من الكافرين المشركين، ولم يبق على الأرض من الكافرين ديارا مصداقا لقوله تعالى ﴿**وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا**﴾[1].

وعاش نوح وقومه فترة من الزمان مؤمنين موحدين ثم انقسم الناس عليه إلى قسمين:

قسم الأكثرية المكذبة الكافرة، وقسم القلة المؤمنة الموحدة، وجاء الطوفان وهلك المكذبون واستؤصلوا، ونجا المؤمنون وورثوا الأرض فعمروها فترة من الزمان أيضا ثم دب إليهم الانحراف وحادوا عن التوحيد، حتى إذا جاء هود عليه السلام، وتكرر نفس الموقف وحدث نفس الانحراف، وهكذا كان الحال في كل فترة من غياب الرسل وجرت سنة الله على هذا الأمر على مدار التاريخ حتى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

ويرى سيد قطب أن البشرية بدأت حياتها مؤمنة موحدة ثم انحرفت إلى جاهلية ضالة مشركة بفعل عدة عوامل متشابكة كامنة داخل الإنسان ونابعة من تركيبه النفسي، العقلي - الجسدي، وفي العناصر الخارجية التي يتعامل معها كالبيئة وبعد الانحراف يأتي الرسول بذات الحقيقة. ليحيا من حيا على بينة ويهلك من هلك عن بينة.

ولابد أن أجيالا من ذرية آدم بعد استخلافه في الأرض ولدت مسلمة وعاشت مسلمة، حيث كانت عقيدة التوحيد عقيدته وعقيدة زوجه وأبنائه، ثم انحرفوا بنفس العوامل الذاتية والخارجية التي انحرفت بها البشرية عبر التاريخ[2].

وفي دراسة للمستشرق الألماني - ماكس موللر - المهتم بدراسة تاريخ الهند القديم إثبات أن الناس كانوا على عقيدة التوحيد الخالص وأن الوثنية عرضت عليهم بفعل رؤسائهم الدينيين بغيا بينهم، فكان عمله - المستشرق - إقرارا ودليلا على وجه من وجوه الإعجاز التاريخي للقرآن، إذ فيه نص صريح يذكر هذه الحقيقة[3].

وهو قوله تعالى: ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين**

---

(١) سورة نوح، الآية ٢٧.

(٢) في ظلال القرآن ج ٣ ص ١٣٠٤ سيد قطب.

(٣) انظر تفصيل آيات القرآن ص ٦ للمستشرق جول لا بوم.

وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾(١).

ومعنى "كان الناس أمة واحدة" أي متفقين على دين الإسلام من آدم إلى نوح عليهما السلام، ثم اختلف الناس "بغيا بينهم" أي حسدا بينهم وظلما لأنفسهم وغيرهم لحرصهم على الدنيا الحرص الذميم(٢).

وفي قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾**(٣).

يذهب الشيخ محمد عبده إلى أن هذه الآية تدل على اتفاق حكمة الله مع مشيئته سبحانه في خلق الإنسان وسننه تعالى في شؤون الحياة، حيث لم يخلق الله الناس بقوة محدودة متساوية في جميع الأفراد كالأنعام والطيور، بل جعل لكل عقلا، ونفسا، وسلوكا، وجسما، يتفاوت من كل فرد لآخر، وجعل ارتقاء إدراكه بالتربية والتعليم والاعتبار بحوادث الزمان والمكان والقدوة والتجارب سببا في تفاوت الأمم وتبدل أحوالها وظروفها صعودا وهبوط، تقدما ونكوصا وهكذا إلخ.. وسببا في جعل الهداية إلى الحق واتباع الوحي أمرا اختياريا لا اضطراريا، ومن هنا كان منشأ الاختلاف الذي سببه هو أخذ الناس بالاختيار بسنن الله كل على قدر قدرته العقلية والجسمية والنفسية في التحمل والفهم والصبر... فمنهم من آمن إيمانا قويا واعتقد اعتقادا صحيحا جازما وعمل عملا متقنا مستمرا، فكان التفاوت مدعاة ثانية في التنازع والتنافس والتدافع والتسارع(٤).

ولقد اختلف اليهود في دينهم فاقتتلوا، واختلف النصارى اختلافا شديدا فاقتتلوا، واختلف المسلمون فاقتتلوا، وتوالى الأنبياء والرسل على فترات من الزمان لرد البشرية إلى أصلها ووحدتها حيث كانت الفكرة المركزية في دعوتهم - عليهم السلام - هي الدعوة إلى التوحيد الكامل في العقيدة والأخلاق والتصور والعمل وبالتالي إلى حضارة واحدة إنسانية تنمحي فيها الامتيازات والفوارق القائمة على اختلاف الألوان والأجناس واللغات والحدود الجغرافية(٥).

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢١١ .
(٢) انظر تفسير النسفى البقرة ٢١١ .
(٣) سورة النساء ، الآية ٥٨ .
(١) انظر تفسير المنار، النساء ٥٨ .
(٥) الحضارة الإسلامية أسسها ومبادؤها ص ٧٣ أبو الأعلى المودودي.

وبهذا أخلص إلى أن التوحيد أصل عقيدة البشرية وأن التصور الحضاري في القرآن قائم على أن علاقة الإنسان بالكون علاقة تسخير وإعمار واستمتاع بالطيبات، وفي قوله تعالى: ﴿**وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها. وترى الفلك مواخرفيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿**ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه**﴾[2] ترى أن ما في الأرض من البحار والأنهار والجبال والمعادن والدواب، وكل الكائنات وسائر ما ينفع الإنسان مسخر من لدن الله[3].

وكانت صلة الإنسان بهذه الموجودات هي صلة اعتبار وتأمل بعدة ألفاظ كالفقه والسير، والنظر للوقوف على حقيقة الوجود وعلل الأشياء وأسباب الظواهر والأحداث.

ولقد كان البحث في تاريخ الأديان عند الفرق الإسلامية وغيرها خلال القرون الماضية يتجه إلى البحث في ماهية العقائد وأصلها لإثبات صحتها أو نفيها، ولعل كثيرا من الدراسات والأبحاث وصلت في هذا المجال إلى توثيق هذه العقائد بحق أو بغير حق، وغدت الدراسات العقيدية الحديثة تصبو أكثر من غير ذي قبل إلى بحث فعالية العقائد في النفس والمجتمع وبيان دورها وأثرها في البناء الحضاري، لأن العقيدة هي القوة الذاتية اليقينية عند الإنسان التي تقيم صاحبها أو تقعده عن العمل والإبداع في الحياة، ولذلك ينبغي أن يعتقد المرء أن الحق والعدل والصدق والوفاء هي أسس بناء الأمم، وحتى تكون العقيدة قوة بناءة تنبثق عنها حضارة صحيحة سليمة توفر للإنسان مطالبه وتلبي له حاجاته الروحية والجسدية البدنية، ينبغي أن تكون هذه العقيدة قائمة على التوازن والاعتدال.

ولقد أثبتت التجارب التاريخية أن النظم والعلوم والمعارف والفنون، تولدت في أكناف الاعتقاد والإيمان وفندت فكرة حيادية هذه الأمور، ولقد أكدت الأحداث والوقائع هذه الحقيقة وأثبتت أن العلم وحده لايكفي، لأنه يكشف جزءا من الحقيقة ويخدم جوانب من الإنسان وليس كل الإنسان، والواقع الاجتماعي له دون أن يولد طاقة الإبداع والاختراع أو ينظمها إن وجدت.

والمحرك الحقيقي للإنسان هو فطرته وعقيدته فالإنسان خلق طموحا إلى كشف المجهول وكسب الأشياء والسيطرة على ما حوله، يأنف الوقوف ويأبى الجمود، وإن اعترته فترات من الركود والجمود فهي شواذ في طبعه وفطرته.

---

(١) سورة النحل، الآية ١٤ .

(٢) سورة لقمان، الآية ١٩ .

(٣) تفسير النسفي لقمان ١٩ .

وليست حركات الإنسان ودوافعه كلها سموا ورقيا بل قد تأتي عليها ألوان من التدهور والسقوط نحو الرذيلة والانحطاط[1].

وكلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان، في الأحقاب الزاهرة لحضارته أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي، فإنه يجد سطورا من الفكرة الدينية[2]. ولقد أظهر علم الآثار دائما - من بين الأطلال التي كشف عنها - بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية أيا كانت هذه الشعائر، ولقد سارت هندسة البناء من كهوف العبادة في العصر الحجري إلى عهد المعابد الفخمة جنبا إلى جنب مع الفكرة الدينية التي طبعت قوانين الإنسان وعلومه وكل ما أنشأه وأبدعه ولذلك أنشئت كثير من الحضارات وانطلقت من محاريب المعابد وكانت تشرق حيث يبعث الأنبياء والرسل، لتنير العالم وتزدهر في جامعاته ومدارسه بعد ذلك.

ويرى مالك بن نبي رحمه الله أن قوانين الأمم المتحدة ودساتير سياسات برلمانات الغرب لاهوتية في أساسها وروحها، وما يطلقون عليه قانونهم المدني هو ديني عقيدي في جوهره[3].

ولقد أحدث القرآن الكريم حركة إبداع ونشاط في الجزيرة العربية بدلت الحياة النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية للإنسان والقبيلة، بتبديل التصور العقيدي والبناء الفكري للإنسان، وأحدث القرآن في الأمم ذات الحضارات العريقة السابقة حركة مماثلة حين حررها من عبادة الأصنام والأوثان والأرباب البشرية المصطنعة، وحين حرر أفرادها من الرق والنخاسة، وحول الناس إلى عبادة رب العباد فانطلقت العقول تخترع وتبتكر ونمت المشاعر والعواطف لتبدع، وقامت الأيادي لتنشئ وتبني، فسادت الأخوة والعدالة وعم الحنان والمودة.

والدارس لتاريخ الحضارات يجدها قامت على قاعدة عقيدية انبثقت عنها مجموعة من التصورات والنظم والفضائل الخلقية التي نزلت في المجتمع منزلة طيبة على أساس أنها جزء من العقيدة ذاتها. وكثيرا ما يحدث أن تكون القوانين والنظم غير قابلة للتطبيق والتحقيق حين تحس الأمة أن مصدرها غير الوحي، وبالتالي تؤدى إلى تفكك المجتمع وانهيار قواه بالنزاع والخلاف وتضارب الآراء.

وهذه حقيقة من الحقائق الكبرى التي ينبغي ألا يغفلها القادة والسياسيون، هي نتيجة يؤكدها واقع العالم الإسلامي الراهن ويمكن أن ينتهي إليها دارس علم الاجتماع[4].

---

(١) انظر العلوم الطبيعية في القرآن ص ٢٥ يوسف مروة.

(٢) عادة ما يقصد مالك بن نبي بالفكرة الدينية العقيدة.

(٣) انظر الظاهرة القرآنية ص ٦٨ مالك بن نبي.

(٤) الفكر التاريخي في الإسلام ص ٨٢ عبداللطيف الشرارة.

ولقد أجابت العقيدة على كثير من الأسئلة، التي ظلت تقلق الإنسان وتورقه كرهبته من الكون قديما وكتوهمه الصراع مع الطبيعة حديثا، وفي عقيدة المسلم أن في الكون قوة رحيمة عطوفة ترعاه وتطمئنه، وبالتالي لم يعد الإنسان المؤمن يهاب الكون ويحس بالصراع معه لأنه يعتقد أن الكون رغم ما فيه من جبروت هائل ومناظر مخيفة فهو مسير طبق قانون وهناك إله يقبض عليه ويضمن مسيرة التعادل والعدل فيه.

وهناك سؤال مطروح في تاريخ الحضارات والحضارة الإسلامية بالذات لعل الإجابة عنه ترينا دور العقيدة في تكوين الأمم وبناء المجتمعات وقيام الحضارات وازدهارها. ذلك السؤال هو لما لم تقم للعرب حضارة قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم توافر عوامل كثيرة للتحضر التي يعلل بها الناس اليوم في الفكر المادي والعلماني قيام الحضارات، وهي وحدة الأرض والعرق ووحدة البيئة واللغة والثقافة والتاريخ[1].

ولكل شئ دليل ودليل العقيدة آثارها في قوة النفس وتماسك المجتمع، حين تؤدى دورا تربويا حضاريا فيه يلتزم الإنسان بما يؤمن ويعمل، ويعتقد ويتصرف، كما فعلت العقيدة الإسلامية في أهلها، وصنع معتنقيها حيث حررتهم من عبودية الرغبات والأهواء والإذلال والخنوع للجبابرة والطغاة، ثم كان لهؤلاء المعتنقين لها آثار في الحياة من إنفاق في سبيل الله وجهاد لإحقاق الحق والعدل، والتزام بالمبادئ والمواثيق كالصبر والوفاء بالعهد، وهذا هو الوجه العملي في دراسة العقائد وبحث مفعولها في الحياة.

قال تعالى: **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب. ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وأتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾**[2].

إذ للعقيدة ارتباط بأعمار الأرض وإقامة العدل والحق واتخاذ الأسباب لحماية ذلك. قال تعالى: **﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط. وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز﴾**[3].

في هذه الآية يجب أن نلتفت إلى ذلك التداخل والارتباط بين العقيدة كعامل من عوامل قيام الحضارات وازدهار المجتمعات، وبين الحديد كعامل آخر مطور للحضارات

---

(١) انظر كتاب كيف دخل العرب التاريخ للأستاذ – أبو الحسن الندوى –

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٧٦ .

(٣) سورة الحديد ، الآية ٢٤ .

وحام لمنجزاتها، أي بين إرسال الرسل ومعهم الكتب والميزان لإقامة العدل ونشر موازين الحق بين الناس، وبين إنزال الحديد الذي يحمل في طبيعته الأولية البأس الشديد ثم التأكيد على أن القصد من وراء هذا ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، ونصرة الله ورسله هو إحقاق الحق وإبطال الباطل، وقد مضت سنة الله وشاء سبحانه أن يجرى النصر وفق سنن عادية بتحقيق شروطه وتوفر أسبابه مع أن الله قوى عزيز قادر على أن ينصر الحق وحده، ولكنها عقيدة الحق التي يشد الله بها الإنسان إليه سبحانه دون إغفال قوته الذاتية البشرية، ودون إهمال ما في الأرض من قوة لنصرة الحق وتعمير الحياة بالعدل، وفي عقيدة المؤمن أنه لاينتصر ويتقدم ويزدهر ويسعد في هذه الحياة إلا وفق السنن العادية إلا ما شاء الله.

ولذلك لابد من البحث والإعداد والاعتماد على القوة الذاتية الإنسانية لتمكين وتعمير الأرض وازدهار المجتمعات[1].

وقد يدهش التاريخ الباحث حين يقف على دور العقيدة في بناء الحياة الحضارية للأمة وحين يرى تفانى الأمم في نصرة عقيدتها والاستشهاد من أجلها، ولنا في العقيدة الإسلامية وما صنعته بأهلها وما صنعوا بها، ومن أجلها عبرة ومثل أعلى، حيث ظلت هى العامل القادر على التأثير في توجيهات الأمة والحفاظ على منجزاتها الحضارية. ولقد أدرك هذه الحقيقة بعض مفكري الغرب ومنهم المفكر المؤرخ الفرنسي "غوستاف لوبون" الذي يرى أن الروح الدينية هى التي استطاعت بفضلها فرنسا أن تقف ظافرة منتصرة في كثير من حروبها وأزماتها ذلك أن دينا جديدا كان حينئذ يقوم نافخا روحه في الأمة – الفرنسية – بأسرها ويرى "لوبون" أنه لا مراء في أن تاريخ الأمم السياسي والأدبي والفنى وليد معتقداتها[2].

ومما يدلنا عليه التاريخ أن الأمم لا تلبث أن تنهار وتتوارى في صحراء الفناء بمجرد ذهاب معتقداتها الدينية والأخلاقية بحكم انسلاخها عن الشخصية الإنسانية التي من لوازمها ألا تعيش الأمة بها بدون هذين العاملين، فسنة الله أن تحيا الحضارة بقوتهما وحياتهما وتموت بموتهما[3].

ولذا فلا مراء أن نهوض الأمة حضاريا مرهون بقوة عقيدتها الدينية الثابتة في نفوس أبنائها، ولعل من أنجح الأساليب وأكثر المناهج فعالية في البناء الحضاري هو الحديث عن قضايا الأمة العقيدية ومبادئها الشخصية السامية، لأن العقائد والمبادئ تنزل إلى أعماق الأمة وتخالط وجدان الإنسان وبالتالي تغدو القوة الحقة المحركة للتاريخ الاجتماعي

---

(١) انظر العقل المسلم والرؤية الحضارية ص ٥٠ د/ عماد الدين خليل.

(٢) انظر السنن النفسية لتطور الأمم ص ١٦١ غوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر.

(٣) نفس المرجع ص ١٦٢ .

والحضاري للأمم، ولذلك كانت مناهج الأنبياء تركز على العقيدة قبل غيرها وهذا ما اعتمده القادة المصلحون والثوار الاجتماعيون والمحاربون عبر التاريخ لتحقيق أغراضهم ونيل أهدافهم، وبفضل العقيدة وبذلك المستوى المادى البسيط من الأدوات والقلة القليلة من الرجال الأفذاذ استطاع بدو الصحارى العربية أن يفتحوا قسما من أرض حضارات كانت لها سطوة عظيمة على الأمم وهيمنة كبيرة على الشعوب، وما حققته الاشتراكية والشيوعية في العصر الحديث من ثورات دموية ونفوذ في العالم، لم يكن إلا بنزول أفكارها وأرائها منزلة العقيدة في حس معتنقيها، ووعدها إياهم بوعود السعادة المفقودة في الحياة أو جنة الفردوس الأرضي.

وأن مجرد الإقرار بوجود الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لايكون التصور الحقيقي عن الإيمان، ولا يؤدي دوره في الحياة، وإنما يتأكد دور الإيمان في الوجود بالعمل الصالح والاعتقاد بكون الله حيا قيوما كائنا منذ الأزل وباقيا إلى الأبد، وقادرا حاكما على المطلق، محيطا بكل شئ علما واهبا للحياة مهيئا لأسبابها ووسائلها لحياة البشر وإسعادهم، مهيمنا على حركاتهم وسكناتهم، يعلم ما تخفى صدورهم وما تعلن ألسنتهم، وعند الإيمان بهذا يطمئن الإنسان إلى عدل الله فلا يعيش حياة الرعب والرهب كما صورت الحياة عقائد الأساطير، ولا تضطرب نفوس البشر ولا تضل في البحث على سير الأمم وقيادة الإنسانية.

ولقد أثبت أبو الأعلى المودودي – رحمه الله – تسع فوائد للإيمان كلها عوامل بناء وتكوين للفرد والمجتمع وهى: سعة النظر، وعزة النفس، التواضع، إبطال الآمال الكاذبة، طمأنينة القلب، الصبر، الشجاعة، القناعة، إصلاح الأخلاق، تنظيم الأعمال. وبهذا تتأكد أيضا قوة الإيمان في بناء الحياة الحضارية على أساس متين من الالتزام بالنظام والإقدام على الأعمال الصالحة[1].

وإن أعمال الإنسان وتصرفاته في انضباطها وانسجامها رهينة بأن تكون له في حياته الخاصة والعامة سيرة ذاتية ثابتة يعرف بها وتميزه عن غيره، وسيرة المرء لايقوم بنيانها وتستقيم على الحق إلا على أساس أفكار مستقرة في الذهن وعواطف طيبة في القلب تمتلك كل ما به من القوى وتوجه حياته العملية، بحيث لاتعمل قواه إلا تحت تأثير ما يعتقده وتعد هذه العناصر العقلية والقلبية جزء من الاعتقاد والإيمان الذي يعمل الاستقرار النفسي والفكري[2].

وأن سيرة الإنسان وسلوكه في تشكله الحسن والقبيح والقوى أو الضعيف إنما هى

---

(١) انظر الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها ص ١٥٨ أبو الأعلى المودودي.
(٢) انظر نفس المرجع ص ٩٢ .

ترجمة لصحة هذا الاعتقاد والإيمان عند صاحب هذه السيرة والسلوك، وعندما تتحد أفكار وعواطف بمجموعة من الناس حول قضايا معينة غيبية أو مشاهدة يتكون لهم بها إيمان واحد واعتقاد واحد وتصور واحد فتتكون الجماعة أو الأمة ثم يكون لمجموع أفرادها سيرة واحدة وسلوك واحد بدافع تأثير إيماني وعقيدي واحد تعمل الأمة كلها لتحقيق ذلك في واقع الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية... فتنبت الحضارة وتخرج إلى حيز الوجود، وبهذا وغيره يعرف أن للإيمان دورا فعالا في تكوين الحضارات وصنع التاريخ[1].

وضعف الإيمان والاعتقاد يؤدي إلى الاضطراب والتردد والتناقض وانحلال الروابط الأخلاقية ثم يفضى إلى ضعف القوة العاملة فتؤول كل مقومات حياة الأمة المادية والمعنوية إلى التدهور التلقائي والتداعي الداخلي، حتى تصير الحضارة إلى الانهيار والسقوط النهائي، والإنسان ذو عقل وعواطف فلا ينبغي أن يطغى جانب على آخر، وإلا فقد التوازن وآل حاله إلى القلق والاضطراب أو إلى الفقر والحاجة، ولهذه الضروريات وحفاظا على إنسانية الإنسان ولغايات أخرى دعينا في القرآن الكريم إلى الإيمان والاعتقاد الجازم بمجموعة حقائق هي الأخرى وسائل تحقيق غاية وجود الإنسان وحكمة خلقه.

وهذه الغاية ذاتها هي وسيلة إلى سعادة الإنسان بنيل رضاء الله، وحتى الحضارة في حكم الإسلام ليست غاية في حد ذاتها، كما تعتقد بذلك المذاهب الفكرية الوضعية والمادية خاصة، وما هي أي الحضارة إلا غاية جزئية من جملة الغايات الجزئية في شتى مجالات الحياة.

والآيات التي تدعونا إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كثيرة، وأكتفي بآية واحدة تسلسلت فيها أركان الإيمان كما جاءت في القرآن وهي خمسة في قوله تعالى: **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب. ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين. وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾**[2].

الإيمان بالله هو نقطة التحول في حياة البشر من العبودية لشتى القوى وشتى الآلهة والأرباب الزائفة إلى عبودية واحدة تتحرر بها النفس من كل النوازع والأوهام وهي

---

(١) انظر نفس المرجع ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٧٦ .

عبادة الله الواحد القهار الملك الجبار الرحمن الرحيم العليم الحكيم.

والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بعدالة الله في خلقه حيث يستحيل أن يعيث المجرمون في الأرض فسادا ثم يموتون ويفنون دون محاكمة ولا معاقبة ثم يحاسبون ولا يجزاءون في اليوم الآخر دار البقاء والقرار، وإلا كانت حياة البشر لهوا وعبثا على الأرض تسير فوضى بغير ميزان ولاحق، والإيمان بالملائكة طرف من الإيمان بالغيب الذي فرق الله به بين إدراك الإنسان وأحساس الحيوان، وتصور الإنسان للوجود، وغرائز الحيوان في العيش والإيمان بالكتب والنبيين هو الإيمان بالرسالات جميعا وبالرسل أجمعين وهو الإيمان بوحدة البشرية في العقيدة والمنهج ومطالب الحياة كلها، ولهذا التصور حس في شعور المؤمن، وثقل في عقيدته، وإيتاء المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب، له دور في النفس وهو الانعتاق من ربقة الحرص المذموم والشح والضعف وما إلى ذلك وأحرار النفوس من الشهوات والأهواء، هم أحرار الرؤوس في الأمم والمجتمعات، وله - إيتاء المال - قيمة إنسانية اقتصادية تحقق التكافل والتعاون والتضامن، هذه القيم التي لايمكن للأمة أن تؤدي دورها الاجتماعي والتاريخي بدونها وإقامة الصلاة هي ربط الإنسان بربه ظاهرا وباطنا عقلا وروحا.

ويرى سيد قطب أن الصلاة تلخص فكرة الإسلام الأساسية عن الحياة لأنها مظهر لنشاط قواه الثلاث: الجسمية، العقلية، الروحية، فهي قيام وقعود وركوع وسجود تحقيقا لحركة قوى الجسم وقراءة وتدبرا وتفكيرا في المعاني تحقيقا لنشاط قوى العقل واستسلاما وشعورا بالاطمئنان تحقيقا لنشاط قوى الروح، وإيتاء الزكاة من أكبر مقومات الاقتصاد، والوفاء بالعهد من أكبر سمات الإسلام التي تضبط المواعيد وتحس الإنسان بالثقة والنظام في علاقات الأفراد بعضهم ببعض وسير المؤسسات، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، والخلاصة أن هذه الصفات والقيم كلها وسائل لتربية النفوس، وإعداد الإنسان لكي يقوم بدوره في عمارة الأرض، فلا ينهزم أمام أية فاجعة.

ولابد للأمة التي تتهيأ لأداء دورا حضاريا أن تتصف بهذه الخصال، وهكذا جمعت هذه العوامل كلها في آية واحدة تحت البر والتقوى[1].

ومن الأمور المحببة والمرغوب فيها لدى الإنسان حب الحياة الخالية من الاضطراب النفسي والقلق الفكري والحياة الهادئة المطمئنة هي الحالة التي فقدتها الحضارات المادية، فأهلكت أبناءها كما نشاهد اليوم في الحضارة الغربية المعاصرة. وحياة الاطمئنان مكفولة للإنسان بسلوك طريق الإيمان والتقوى.

(١) انظر في ظلال القرآن مجلد ١، ص ١٥٩ - ١٦١ سيد قطب.

قال تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شئ عليم﴾[1].

هذه دعوة القرآن إلى الإيمان، الإيمان الذي يرد كل شئ إلى الله ويعتقد أن كل ما يصيب من خير ومن شر فهو بإذن الله، و "يهد قلبه" هداية مطلقة ويفتحه على الحقيقة اللدنية المكنونة ويصله بأصل الأشياء والأحداث، ومن ثم يطمئن ويقر ويستريح(٢).

وقال تعالى يعد أهل الإيمان **﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنت النعيم. ولو أنهم آقاموا التوراة والإنجيل. وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾**[3].

وليس هناك إلا طريق واحد لحسن الجزاء في الآخرة وصلاح الحياة في الدنيا، ذلك هو طريق الإيمان والتقوى وتحكيم منهج الله في الأنفس والمجتمعات[4].

وأخبر سبحانه أن الإيمان منجاة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة فقال تعالى: **﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين. وما كان لنفس أن تؤمن إلا بأذن الله﴾**[5] "فلولا كانت قرية آمنت": أي فهلا كانت قرية من القرى المهلكة آمنت قبل معاينة العذاب. ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينته كما فعل فرعون، "فنفعها إيمانها" بأن يقبله الله منها ويكشف عنها بسببه العذاب، "إلا قوم يونس" لما آمنوا نفعهم إيمانهم وكشف عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعوا إلى حين آجلهم المسمى.

وروى أن يونس عليه السلام بعثه الله في أرض الموصل وكانت مدينة عظيمة، وقويت شوكة الآشوريين بها في تلك الأيام حتى خضع لهم أكثر مماليك أسيا، فتجبروا وتمردوا، واقترفوا الموبقات فأنذرهم يونس – عليه السلام – بأن الله ينزل بهم عذابا، وسيحل بهم سخطه ما لم يفيئوا إلى أمر الله خلال أربعين يوما، فخافوا وتابوا ونزل أميرهم عن عرشه، وآمن أهل القرية كلهم، وخرجوا يلبسون المسوح، واجتمعوا في صعيد واحد يعلنون التوبة والإنابة. "ولو شاء ربك لآمن من في الأرض جميعا"، "ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون" أي الخذلان على الذين لايدركون حجج الحق وأدلته لما

---

(١) سورة التغابن ، الآية ١١ .

(٢) انظر في ظلال القرآن م٦ ص ٣٥٨٨ سيد قطب.

(٣) سورة المائدة، ٦٧ – ٦٨ .

(٤) انظر في ظلال القرآن م٦ ص ١٣٠ – ١٣١ .

(٥) سورة يونس ، الآيات ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ .

طبع الله على قلوبهم بسبب التكبر والذنوب وفساد العقيدة والأخلاق(١).

ويرى أبو جرير الطبري أن قوم يونس حالة استثنائية من القرى التي لم ينفع الإيمان أهلها بعد نزول العذاب بساحتهم، وأنجاهم الله من خزي الدنيا وعذاب الآخرة "ومتعناهم إلى حين" أي أخرناهم إلى موعد آجالهم وتركناهم يستمتعون على حسن مماتهم ووقت فنائهم الذي قضى الله به في عالمه(٢).

وفي الآيتين إشارة تنسحب على الماضي وتاريخ القرى المدمرة التي لم تؤمن وإن آمنت منها قلة فقد كانت الصفة الغالبة على أهلها عدم الإيمان، ذلك أن المراد بالقرية هنا قوم يونس عليه السلام، الذين لم تنفصل قصتهم عن قصص تلك القرى الهالكة، وإنما كانت فيها عبرة بينت سنة أخرى من سنن الله وهي فائدة الإيمان قبل وقوع العذاب وزيادة عن كونه عاملا من عوامل القوة البناءة في الحياة، فهو عامل نجاة من سخط الله وبأسه ولقد ربط الله بصريح النص القرآني ازدهار المجتمعات، وهناء الأمم بالإيمان ربطا تاريخيا اقتصاديا وحضاريا، فقال تعالى: **﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض. ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾**(٣).

والغريب كيف أغفل هذه الحقيقة أصحاب الحلول المادية وخاصة أن التاريخ أكد حدوثها في حياة الأمم المؤمنة والقيادة العادلة، كما هو معروف في خلافة عمر بن عبدالعزيز مثلا، والمراد بالقرية المخاطبة أو المشار إليها هنا هي مكة.

والمعنى هو أنه فما كان يكون للناس من إغداق نعم الله عليهم لو أنهم آمنوا بالرسل، وصيغة الأسلوب تفيد الكثرة، كثرة النعم، أي لو أنهم آمنوا بما دعاهم إليه رسلهم من عبادة الله وحده وبما شرعه سبحانه من شرائع في العبادة والعمل والسلوك والحكم والتصور على كل قضايا الحياة الثقافية والاقتصادية والحربية وسائر ما تتطلبه شؤون الدنيا والآخرة، واتقوا ما نهوا عنه من شرك وفساد في الأرض بالظلم والمعاصي وارتكاب الفواحش وأكل أموال الناس بالباطل وسائر الآثام والذنوب المهلكة للأمم والشعوب كما هو ثابت في التاريخ القرآني، فلو تركوا هذه الانحرافات واستقاموا لكانت النتيجة وتحققت الغاية كما وعد بها الله تعالى فقال: **﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾**.

وللمفسرين آراء اجتهادية كثيرة حول بيان المراد ببركات السماء والأرض ففريق

---

(١) انظر تفسير القاسمي ، يونس ٩٨، ٩٩، ١٠٠ .

(٢) انظر تفسير ، يونس ٩٨، ٩٩، ١٠٠ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ٩٥ .

يرى أن أنواع بركات السماء هي معارف الوحي العقلية والإلهامات الربانية الروحانية والعلمية وهي تكملات للفطرة البشرية وغاية ذلك سعادة الدارين: الدنيا والآخرة. وفريق يرى أنه أريد ببركات السماء المطر، وما يتبعه من بركات الأرض من نمو النبات وإصلاح الدواب والثمار، وهذا دليل على سعة الرزق وعلى الثبات والاستقرار(١).

ويبدوا أن الرأيين لم يصيبا القصد، لأن الأول مال إلى تفسير الآية تفسيرا روحيا بحتا والثاني مال إلى تفسيرها تفسيرا ماديا صرفا، وبذا لم يحقق الرأيان شمولية النظرة الإسلامية إلى الأشياء، الخلاصة هي أن الآية تحمل وعدا من وعود الله بالازدهار الحضاري وقوة الاقتصاد خاصة، وهذا هو الذي يستقر في حس المسلم من خلال سماع هذه الآية، وينبغي ألا نسأل أكثر حتى لاتبدو لنا أشياء تسؤنا، وإنما المطلوب الأهم هو أن نتيجة إلى الإيمان والعمل حتى نكون عمليين ويتحقق في بلادنا وعد الله والله لايخلف وعده.

ولقد وعد الله بعض أنبيائه من قبل "بالبركات" فقال سبحانه لنوح عليه السلام **﴿قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾**(٢).

ومعنى "على أمم ممن معك" أي على أمم ستكون على الإيمان من بعدك، "وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم" أي هي أمم الكفر التي يمتعها الله متاعا قليلا في الحياة الدنيا، وهي سنة من سننه تعالى، ثم يكونونا من الأشقياء، وبهذا يكون الوعد في الآية بالسلام والبركات لكل مؤمن في أي زمان ومكان والوعيد بالمتاع القليل ثم المس بالعذاب الأليم لكل كافر عبر الزمان وفي كل مكان، والقاعدة المقررة والسنة المتبعة في القرآن الكريم هي أن الإيمان الصحيح سبب في سعادة البشر في الدارين، والكفار قد يشاركون المؤمنين في الجانب المادي من متع الدنيا وزينتها، ولكنهم محرمون من النعم المعنوية الروحية كالاطمئنان والهناء والعاقبة هي الشقاء والعذاب، وفي سورة الأنعام قال الله عن الكافرين **﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء. حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾**(٣).

والمعنى "فلما نسوا" من البأساء والضراء أي تركوا الاتعاظ والاعتبار به ولم يزجرهم "فتحنا عليهم أبواب كل شيء" من الصحة والسعة وصنوف النعمة" حتى إذا فرحوا بما أوتوا" من الخيرات والنعم" أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون" أي آيسون متحسرون،

---

(١) تفسير المنار ، الأعراف ٩٥ .

(٢) سورة هود ، الآية ١٨ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٤٥ .

وأصل المعنى الإطراق حزنا لما أصابهم والندم على ما فاتهم[1]. والفتح هنا هو ابتلاء ترتب عليه العقاب[2].

وبعد بيان هذه الحقائق وهي الخيرات المترتبة على الإيمان بالحق المنزل من قبل الله، نجد أن مصيبة مصائب الأمم هي التكذيب والإعراض والنسيان وعدم الاتعاظ وما إلى هذا من الفسوق والانحراف الذي تتبعه العاقبة الكالحة سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا، قال تعالى: ﴿ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ من أعمال الشرك والمعاصي والمظالم إلى آخر قائمة عوامل فساد الأمم وإبادة الحضارات فكان العقاب أزلا لازما ويعفو عن كثير[3].

والقرآن هنا لايروى حادثة تاريخية ويعرض سيرة قوم وقعت ومضت، وإنما يكشف عن سنة من سننه، ويعلن خطوات الله في قدره مع الخلق، ومن ثم يتبين أن هناك قانونا ربانيا تجرى عليه حياة البشر المادية والروحية، ويتحرك عليه تاريخ الأمم في الأرض والتزام شرع الله بتنفيذ الأوامر واجتناب النواهي هو الوسيلة الوحيدة التي بين يدي الإنسان للوصول إلى نتائج هذا الوعد الذي شاء الله أن يختار له هذه السنة لما فيها من فوائد للبشر وهي سنة الإيمان الذي يعد وسيلة لفتح بركات السماء والأرض.

وإن إرادة الإنسان وتصرفاته هما العاملان المؤثران في حركة التاريخ الحضارية عندما يكونان في إطار حدود المشيئة، مشيئة الله سبحانه، وهذا هو سر تحرك المجتمع ونهوض الأمة بفعل عامل الإيمان الذي يكون الإنسان باني الحضارة، أما العوامل الأخرى المادية فتكاد تكون عوامل ثانوية أو نتائج تلقائية للعامل الأصلي والأساسي وهو الإنسان المؤمن، وهذه حقيقة أخرى غابت على أصحاب التفاسير المادية في الدراسات الاجتماعية والحضارية، الذين يرون الإيمان بالله واليوم الآخر... والتقوى مسألة بين الإنسان والله ولا صلة لها بالواقع الحضاري للأمة، حتى أنهم قالوا بعدم تدخل الله وتدبيره لشؤون ملكه، وبديهيا وبمنطق الفطرة فهل يعقل أن يملك ملك ملكا ثم يترك تصريفه وتدبيره لغيره؟ أفلا يعقلون؟

ولعموم لفظ بركات في الآية يرى سيد قطب رحمه الله أن المراد بالبركات الحاصلة من الإيمان والتقوى بركات في الإشياء، وبركات في النفوس، وبركات في المشاعر والعواطف وبركات في الأرزاق وطيبات الحياة الدنيا كلها، وليست البركات هي وفرة الماديات فقط[4].

---

(١) انظر تفسير النسفي، الأنعام ٤٥ .

(٢) انظر تفسير المنار ، الأنعام ٤٥ .

(٣) نفس المصدر السابق جـ ٩ ص ٢٥ .

(٤) انظر في ظلال القرآن م٣ ص ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ .

ولقد تكفل الله بتطييب الحياة لأهل الإيمان والعمل الصالح فقال تعالى: ﴿**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة. ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾[1].

فهذا وعد من وعود الله لمن آمن وعمل صالحا وهو العمل التابع للكتاب والسنة، من ذكر أو أنثى، وهو ثابت على الإيمان إلى الموت بأن يحييه الله حياة طيبة، والحياة الطيبة هي التي فيها تثلج الصدور وتطمئن القلوب بلذة اليقين وحلاوة الإيمان، والرغبة في الموعود والرضا بالقضاء والاستكانة إلى المعبود الواحد[2].

ويرى الإمام النسفي أن الحياة الطيبة الواردة في هذه الآية وهي وعد من الله بثواب الله في الدنيا والآخرة وهي نظيرة قوله تعالى: ﴿**فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة**﴾[3].

وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسرا كان أو معسرا، يعيش عيشة طيبة، إن كان موسرا فظاهرا - وعوامل إسعاده كثرة - وإن كان معسرا فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بالقسمة والنصيب، أما غير المؤمن فأمره العكس فإن كان معسرا فأمره ظاهر وإن كان موسرا فالحرص الشديد أو التكالب لايدعه يهنأ بعيشته الطيبة، وقيل الحياة الطيبة هي القناعة والرضا، أو تذوق حلاوة الطاعة بمعرفة وعود الله ورحمته[4].

والإيمان هو القاعدة الصلبة الأصلية التي ترتكز عليها حياة الناس، وتنبثق عنها سلوك البشر، وتجمع الشتات، وتلم الناس برابطة واحدة وتحت راية واحدة. والإيمان والعمل الصالح جزاؤهما حياة طيبة على الأرض، ورحمة في الآخرة، وهذا وعد من وعود الله المبثوثة في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾[5].

ومعنى الآية أن الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن والتزموا الطاعات بينهم وبين ربهم لهم مغفرة لذنوبهم في الدنيا، "وأجر عظيم" يعني ثواب وافر في الجنة[6].

---

(١) سورة النحل ، الآية ٩ .
(٢) تفسير القاسمي ، النحل ٩٧ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٤٨ .
(٤) انظر تفسير النسفي ، الأنعام ١٤٨ .
(٥) سورة المائدة ، الآية ١٠ .
(٦) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٨٩ .

العبـــــادة

إن العبادة عهد قديم أخذه الله على بنى آدم فقـال تعـالى: **﴿ألم أعهـد إليكـم يـابنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم﴾**(١).

والعهد هو الوصية، وعهد الله إلى البشر هو ماركز فيهم من أدلة العقل وأنزل إليهـم من دلائل السمع، "وأن اعبدوني" أي وحدوني وأطيعوني(٢).

فلا عجب أن يكون المقصود الأعظم من بعثة النبيـين وإرسـال المرسلين هـو تذكـير الناس بهذا العهد القديم(٣).

ولقد تكررت الدعوة إلى العبـادة والاستغفار والتقـوى في القـرآن كثـيرا، ولايكـرر الأمر في القرآن إلا لأهميته، وكانت هذه الأشياء والمفاهيم الثلاثة محـور الرسـالات الـتي دعا إليها الأنبياء والرسل، لتحقيق غاية واحدة. وهي العبادة بمفهومها العام. فعن دعـوة إبراهيم – عليه السلام – قال تعالى: **﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾**(٤).

فبينت الآية أن الخيرية للأمة مكفولة باتباع نبى الله إبراهيم وعبادة الله وحده وتقـواه ذلك إذا علمت الأمة هذا.

وعن نوح عليه السلام قال تعالى: **﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون﴾**(٥).

وفي عاد قوم هود قال تعالى: **﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مـالكم من إله غيره أفلا تتقون﴾**(٦).

وفي ثمود قوم صالح قال تعالى: **﴿وإلى ثمـود أخـاهم صالحـا قـال يـاقوم اعبـدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم﴾**(٧).

وفي مدين الذين أرسل إليهم شعيب قـال تعـالى: **﴿وإلى مديـن أخـاهم شـعيبا قـال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾**(٨).

---

(١) سورة يس ، الآيتين ٥٩ – ٦٠ .
(٢) تفسير النسفى، يس ٥٩/٦٠ .
(٣) العبادة في الإسلام ص ٢٢ د/ يوسف القرضاوى.
(٤) سورة العنكبوت ، الآية ١٥ .
(٥) سورة المؤمنون ، الآية ٢٣ .
(٦) سورة الأعراف ، الآية ٦٤ .
(٧) سورة الأعراف ، الآية ٧٢ .
(٨) سورة هود ، الآية ٨٣ .

وما خلت أمة إلا دعاها رسولها إلى عبادة الله وحده، قال تعالى يبين هذه السنة والقانون الرباني: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾[1].

وقال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾[2] وجاء الأمر بالعبادة في القرآن الكريم على ألسنة الرسل بصيغة الجمع حوالي واحد وعشرين مرة[3].

وهكذا كانت العبادة إحدى الغايات التي دعا إليها الرسل والغاية الكبرى التي من أجلها خلق الإنس والجن، فقال تعالى: ﴿**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين. فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون**﴾[4].

وإن مهمة الرسل هي التذكير مهما أعرض المعرضون، وكذب المكذبون، وأن هذا النص القرآني الصغير الذي بين أيدينا ليحتوى حقيقة ضخمة هائلة، لاتسعد حياة البشر في الأرض إلا بها، وهي الغاية من وجود الإنس والجن، وهي وظيفة العبادة والتي مدلولها أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر، حتى وظيفة الاستخلاف في الأرض وعمارتها داخلة في مدلول العبادة، ليتحقق هذا المدلول بأوسع معانيه فلابد من أمرين رئيسيين:-

- استقراره في النفس حيث ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود.

- مقتضيات هذه العبادة أي أثرها في الحياة على كافة مستويات الأمة النفسية والاجتماعية... فيكون كل تحرك وتوجه إنساني بسم الله ولله، فلابد أن يكون حافز الإنسان المؤمن للعمل وبذل القوة والجهد هو تحقيق معنى العبادة، لا الحرص على تحصيل الرزق، وحين يستقر معنى العبادة بهذا المفهوم فإنها تغدو واسطة لبلوغ الغايات[5].

فهذه الآية تبين أن غاية الوجود الإنساني كله المحصور في العبادة والنفي والاستثناء هما أقوى أساليب الحصر والقصر، فهي الغاية الوحيدة من خلق الجن والإنس، فإذا صح

---

(١) سورة النحل ، الآية ٣٦ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٢٥ .

(٣) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة (عبادة) .

(٤) سورة الذاريات ، الآية ٥٥ إلى ٥٩ .

(٥) انظر في ظلال القرآن م٦ ص ٣٣٨٦ - ٣٣٨٩ .

هذا المعنى فكيف يقوم الإنسان بالتكاليف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية وغيرها وقد استغرقت الآية وجود الإنسان كله حسب ظاهرها، وهنا يتضح المعنى الحقيقي للعبادة الذي ضاع من كثير المسلمين في العصور الأخيرة.

فالإنسان بإمكانه أن يحول كل حياته إلى عبادة، إذا توفر له شرط القصد والنية في التحرك والعمل والسلوك والاعتقاد... فطلب العلم عبادة وتدريسه عبادة والشغل من أجل الكسب المالي عبادة والنفقة على الأهل عبادة وعمارة الأرض ماديا ومعنويا عبادة والحكم بين الناس بالحق عبادة وهكذا تتحول سائر تحركات الإنسان إلى عبادة بشرط توافر النية[1].

هذا عن جانب النية والاعتقاد وهى أمر داخلي تصوري، أما كيف يحقق الإنسان غاية وجوده هذه عمليا وهى محصورة فيكون ذلك أولا بتوحيد الله سبحانه في الأولوهية والربوبية قال تعالى: ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا هو**﴾[2].

﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا**﴾[3].

وبعد الإقرار بهذا تأتي الشعائر التعبدية التي لها أهميتها ودورها في بناء الأمة في كل النواحي الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والسياسية إلخ.. فهى التي تربط الإنسان بالله ربطا دائما متجددا، والصلة بين الله والإنسان هى التي يتوقف عليها تطور الأمم وازدهار المجتمعات، ومن يقرأ تاريخ بنى إسرائيل في القرآن وكيف تقلبوا بين الخير والشر وبين السعادة والشقاء وبين التحضر والانحطاط، فكانوا أهل نعيم وهناء وأكلوا المنى والسلوى، وظلتهم الغمامة، وأحاطتهم الرعاية الربانية، وتاهوا حينا آخر في الصحراء وتحولوا قردة وخنازير وعبدة الطاغوت وأذلتهم الأمم، وبعث الله عليهم القادة والطغاة فأسموهم سوء العذاب فكل هذا نالوه على قدر ما كانوا عليه من صلة بالله، الصلة بالله الحقيقة العظيمة التي لم يوضع لها عنوان، ولم يتنبه إليها القادة والزعماء من الأمم الضالة، والتي على أساسها تكون حياة السعادة والهناء أو حياة الشقاء والغبن، وعندما ضاق مفهوم دائرة العبادة وانحصر في الشعائر التعبدية، وغدت حتى الشعائر غايات مقصودة لذاتها لا أثر لها في الحياة ولا توابع لها ومستلزمات، بينما لكل شعيرة من الشعائر التعبدية بعد نفسى ذاتي وعملي واجتماعي يشملان ساحة الحياة بكافة مستوياتها.

ولايوجد في الدنيا شئ محايد، منفصل عن الحياة لايؤدى دورا فيها سلبا أو إيجابا،

---

(١) انظر مفاهيم ينبغي أن تصحح ص ١٩١ محمد قطب.

(٢) سورة محمد صلى الله عليه وسلم، الآية ١٩ .

(٣) سورة النساء، الآية ٣٦ .

لأن الله سبحانه لم يخلق شيئا عبثا باطلا، وهذا ما يتنافى مع غاية خلق الكائنات وسننه في المخلوقات، ولقد كان للفكرة الدينية[1] دور كبير عبر مختلف العصور، و لم تقف عند حد معين بالنسبة للإنسان والمجتمع بل تحل المشكلات النفسية والاجتماعية وتدعم كل القوة البناءة في الأمة، والمجتمع لا يمكنه مجابهة الصعوبات التي يواجهه بها التاريخ ما لم يكن على بصيرة جلية من هدف وجوده في الحياة، غير أن النشاط لايكون مثمرا فعالا وقابلا للبقاء والاستمرار إلا مع وجود سبب معين يكون من شأنه أن يشرط الطاقات التي يحركها هذا السبب بغاية معينة[2].

والأصل في العبادات أن تودى امتثالا وطاعة لأمر الله، وأداء لحقه على الإنسان، وشكرا لنعمائه، ولكن ضرورة العصر وطبيعة الدراسة والبحث العلمي تقتضي بحث علل الأشياء والحكمة منها والغاية من وراء الأيام بأي عمل أو حركة معتبرة وأحسب أنه لاحرج من الناحية الشرعية وذلك كما قال تعالى في موضوع الاعتقاد بملائكة النار **﴿... ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا، ولايرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون. وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾**[3].

ومعجزات الإسلام قائمة على الحجة والاقتناع، لا على الجبر والقهر، ومن طبيعة الإنسان أن الأمر لاينزل منه منزلة الاحترام والوقار إلا إذا عرف قدره وقيمته وأسبابه ونتائجه وغاياته، وهذا ما نسعى إلى تداركه في هذه الدراسة، لنقف على سنن الله في الحياة من صلاة وصوم وزكاة وحج وأن هذه الشعائر التعبدية عوامل تربوية وإعداد للإنسان وهى التي تحدد شهواته وتنظم غرائزه الفطرية التي جبل عليها هذا المخلوق وهى من لوازم وسنن تحقيق سنة الاستخلاف وإستعمار الأرض، تدفع الإنسان إلى الحركة الفعالة والعمل والانتاج[4].

وهى وسيلة تعليمية وتثقيفية تربط الإنسان بكل جوانب الحياة المادية والطبيعية والروحية فبالصلاة يعرف الإنسان المؤمن حقائق ومعلومات فلكية، حيث يتابع المصلى طلوع الفجر وتحرك أوقات النهار والليل، وكيفية النظافة والغسل ولابد لتحقيق هذا من علم ودراسة، ولإيتاء الزكاة لابد من معرفة المقدار الواجب إخراجه وأنواع المال المزكى ومعرفة شرائح الناس ومستوياتهم المالية بمعرفة الفقير والمسكين وابن السبيل وغيرهم أنصاب الأخذين أو المستحقين للزكاة، ولابد لهذا من دراسة اجتماعية ونفسية

---

(١) يقصد بالفكرة الدينية هنا كل ما كان عن طريق الوحي، ويؤمن به الإنسان ويرجو الجزاء عليه من ا لله.

(٢) انظر شروط النهضة ص ٧٢ مالك بن نبي.

(٣) سورة المدثر ، الآية ٣٠ .

(٤) انظر مفاهيم ينبغي أن تصحح ص ٧٤ محمد قطب .

ومالية وحسابية تجرى على مستوى الفرد والمجتمع والاقتصاد والمحاسبة المالية، وكذلك الصوم والحج حيث يتطلب معرفة بالزمان والمكان والمناطق الجغرافية وطرق المواصلات..[1].

وهكذا تعد فرائض الإسلام برنامج حياة، ولقد وقت الله الكثير من العبادات بمواقيت محددة، فلا يجوز التقدم عليها، ولا التأخر عنها، ليعلمنا بذلك أن الشئ لايقبل قبل أن يحين أوانه، ولا بعد أوانه، قال تعالى في شأن الصلاة وهى أول ركن من أركان العبادة بعد الشهادة: ﴿**إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا**﴾[2].

وعن الصوم قال تعالى: ﴿**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾[3].

وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون. أياما معدودات**﴾[4].

وعن الزكاة قال تعالى: ﴿**وآتوا حقه يوم حصاده**﴾[5]. وعن الحج قال تعالى: ﴿**الحج أشهر معلومات**﴾[6].

وتبقى العبادة هى الوحدة المركزية في كل تحركات البشر، وهى الغاية الكبرى من وجود الإنسان والجن، وسائر وحدات الحياة الأخرى تدور في فلكها ومحيطها في نظام وتوافق وانسجام، والخروج عن هذه الغاية - العبادة لله - يوقع الإنسان في عبادة غير الله، وذلك هو الفسوق والانحراف والفساد والسقوط وأداء الشعائر على وجهها الصحيح المطلوب هو الذي ينشئ التوافق التام والانسجام الكامل في أفكار الإنسان وتصوراته وإرادته وعقيدته وأعماله وسلوكه والانسجام والتناسق ينفى الاضطرابات الداخلية والقلاقل النفسية ويجعل كل حواس الإنسان في اتجاه واحد وفي عمل واحد متوافق متوازن فلا تضارب بين المطالب المادية والمطالب المعنوية الروحية حتى يصير الإنسان كيانا واحدا فلا تضارب بين ما نسمع وما يقول ولا بين ما يعتقد ويعمل (٧) ودعا الله الناس إلى توحيده بالعبادة وبين سبحانه موجبات وأسباب ذلك له وحده فقال تعالى: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من**

---

(١) انظر منهج القرآن في إثارة الأرض وعمارتها ص ٢٤٤ - رسالة ماجستير، فريد مصطفى سليمان.

(٢) سورة النساء ، الآية ١٠٢ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٨٤ .

(٤) سورة القرة ، الآية ١٨٢ .

(٥) سورة الأنعام ، الآية ١٤٢ .

(٦) سورة البقرة ، الآية ١٩٦ .

(٧) انظر الحضارة الإسلامية أسسها ومبادؤها ص ٧٠ ، ٧١ أبو الأعلى المودودي.

الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾[1].

والمراد بطلب العبادة من الناس كل المكلفين كافرهم ومؤمنهم، وطلبها من المؤمنين طلب زيادة والثبات عليها، وطلبها من الكافرين ابتداؤها، وبذلك تتحول حياة الناس كلها إلى عبادة وطاعة وإمتثال لأمره تعالى حين قال: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياى ومماتي لله رب العالمين. لاشريك له. وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء﴾[2].

إنه التجرد الكامل لله بكل خالجة في القلب، وبكل حركة في الحياة، بالصلاة المفروضة وبالاعتكاف والمحيا والممات بالشعائر التعبدية كلها، إنها "تسبيحة التوحيد المطلق والعبودية الكاملة المخلصة لله وحده رب العالمين"[3].

والنسك جمع نسيكة وهى الذبيحة والمعنى ذبحي في الحج والعمرة ومحياى وكل ما أعمله في حياتي، ومماتي أي ما أوصى به غيري بعد وفاتي "لله رب العالمين" أي أفرده بالتقرب بها لله[4].

وبهذه الآية يتبين أن العبادة تعنى الاستقامة على الحق والتزام العدل، وبهذه الاستقامة وعد الله أهلها بالخير والأمن في الدنيا والآخرة. فقال تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا. فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾[5].

هذه الآية تحتوي جملة حقائق، أولها أنها تقرر أن الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى الله، وبين إغداق النعم التي أول أسبابها توافر الماء، ولقد كان العرب يعيشون في شظف حتى استقاموا على الطريقة ففتحت لهم الأرض فأكلوا من خيراتها في الشام والمدائن ثم حادوا عن الطريق فأسلبت منهم خيراتها وكثير من أرضها كالأندلس وكثير من مناطق شرق آسيا ومازال مسلوب منهم حتى اليوم أرزاق أرضهم من بترول وغاز، والحقيقة الثانية أن الابتلاء بالرخاء فتنة للعباد والحقيقة الثالثة أن الإعراض عن ذكر الله مؤد إلى عذاب الله[6].

وفسر الإمام القرطبي الاستقامة بالإيمان فقال: إن الآية تعنى لو آمن هؤلاء الكفار لوسعنا عليهم في الدنيا وبسطنا لهم في الرزق وماء غدقا أي واسعا كثيرا، ونقل عن

(١) سورة البقرة الآيتين ٢١ ، ٢٢ .
(٢) سورة الأنعام ، الآيتين ١٦٤ - ١٦٥ .
(٣) انظر في ظلال القرآن م٣ ص ١٣٤٠ .
(٤) انظر أحكام القرآن للقرطبي ، م٧ ص ١٥٣ .
(٥) سورة الأحقاف ، الآية ١٢، ١٣ .
(٦) انظر في ظلال القرآن م٦ ص ٣٧٢٣ .

السلف أنه قال: أينما كان الماء كان المال، وأينما كانَ المال كانت الفتنة.

وكذلك جعل الله الاستغفار سنة من سنن بناء الحياة اقتصاديا واجتماعيا ونفسيا لتوفر أسباب الازدهار الحضارى والتقدم العمراني فقال تعالى: **﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا مالكم لاترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا﴾**[1].

بما أن المال والأولاد من أشد الأشياء حبا للنفس، فقد حرك الله بهما كوامن القدرة العملية في الإنسان ودعاه إلى الاستغفار والإنابة إلى الحق، فإن كان المدعو كافرا فهى دعوة إلى ترك الشرك إلى الإيمان، وإن كان المدعو مؤمنا فهى دعوة إلى التوبة من الذنوب والمعاصى.

ومعنى الآيات أنها وعد من الله إلى الذين آمنوا واستغفروا أن يرسل عليهم أمطارا وغيثا غزيرا، ويزدهم في الأموال والأرزاق والأولاد، ويجعل لهم بساتين وأنهارا جارية لتلك البساتين والمزارع[2].

ولعل هنا يثور سؤال على ألسنة الكثير حول ما نشاهده اليوم من الكثيرين من المستغفرين التأبين المضيق عليهم في العيش في الحياة الدنيا، ولمعرفة الإجابة عن هذا الإشكال يجدر بنا أن ننظر إلى القضية من زاوية أوسع وفي محيطها الأشمل وألا يقتصر النظر على زاوية ضيقة، وإن كان هذا السؤال حقا واقعيا، وذلك لأن العدل والاستغفار لايسود كل قطاعات الأمة، ومن ناحية أخرى نجد المستغفرين المضيق عليهم في العيش والكسب المادي يعيشون حياة طيبة حياة الطمأنينة القلبية التي فقدها ذوى الثروات المالية من أبناء الحضارات المادية والمجتمعات الثرية عبر العصور، وهى أساس سعادة المرء وهنائه، والتي بها يعوض الإنسان شظف المتاعب والنقائص المالية، ويكفى في اعتقاد وحسن المؤمن أن الله وعد المستغفرين بالمتاع الحسن في الحياة الدنيا اقتصاديا ونفسيا ووعده الصدق العدل[3].

وفي قوله تعالى: **﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا. إلى أجل مسمى﴾**[4].

وفسر الإمام محمد بن جرير الطبري المتاع الحسن بأنه بسط الرزق في الحياة الدنيا وتزينها[5].

---

(١) سورة نوح ، الآيات ١٠ – ١١ – ١٢ – ١٣ – ١٤ .
(٢) انظر تفسير النسفي ، نوح ١١ ، ١٤ .
(٣) انظر في ظلال القرآن م٤ ص ١٨٥٤ .
(٤) سورة هود ، الآية ٣ .
(٥) انظر تفسير الطبري م هود ٣ .

وقضى الله وأعلن أن يزيد الشاكرين خيرا، فقال تعالى: **﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد. وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد﴾**[1].

ولقد خوطب بنوا إسرائيل بهذه الآية والمعنى هو أن الله سبحانه أعلن وأعلم إعلاما بليغا البشر أن الشكر عامل من عوامل زيادة الخير والهناء[2].

وفي هذه الآيات نقف على حقيقة كبرى فاتت الفكر المادي وجهلتها أو تجاهلتها المناهج الوضعية، وهي زيادة الخير وازدهار الحياة الحضارية بشكر الله، وهي وعد من الله الصادق القادر، وللإنسانية أن تبحث هذه القضية وتجربها في حياتها فستجد نفسها تعيش على مقاييس خاطئة خططتها لها عقول ظالمة بعيدة عن هدى الله والشكر يربي النفوس على الاستقامة، وفي الاستقامة إتقان للعمل وصبر وعدل وحق وهذه كلها عوامل نافعة في حياة الأمم، تؤدى إلى رغد العيش وازدهار الحضارات ومن أراد بحث الأسباب الطبيعية المادية فسيجد أن لكل نتيجة عامل ولكل عامل دافع داخلي، وفي النهاية يقف على حقائق الأشياء في كون النتائج المادية دائما لها أسباب روحية ومعنوية عملت على إيجادها وتوفيرها، لأن الإنسان وراء كل بناء وهدم وهو روح قبل أن يكون جسما وتدرك هذه السنة في الحضارة الإسلامية التي قامت على أبسط الماديات وأقلها وكان رصيدها الأكبر هو الروح التي أنطلقت بفعل مؤثرات القرآن الكريم الذي أنشأ العقول المفكرة المدبرة، وحرر النفوس المظلومة المقهورة فأبدعت واخترعت حين شعرت بالعزة والكرامة[3].

ومهما وصلت الإنسانية من معرفة أسرار الكون واختراعات مادية وطب أبدان فإن مسيرتها ستظل عرجاء غير معتدلة وستبقى حضارتها حضارة أسماء وأشياء لا حضارة مبادئ وقيم، إن لم تصل بالقدر نفسه والمستوى ذاته في الناحية المعنوية والروحية ذلك أن البشرية لم تستطع بعد أن تمتلك مفاتيح سعادة الإنسان النفسية والاجتماعية وتكتسب مصادر الطاقة المحركة التي تبني الإنسان قبل أن تنشئ المصانع والعمارات وتغرس الإيمان في النفوس والعقول بدلا من أن تزرع بها الإلحاد والجحود.

ومازالت المناهج والأساليب المادية عاجزة على أن تقدم حلا سليما لمشكلات الإنسان المتصاعدة بطغيان المادة، وحتى الآن لم يبرق في الأفق ما يزرع الأمال في حل مشكلات الإنسانية الحضارية، وحتى تستأنف الأجيال رسالتها الإنسانية لابد أن تتحرك داخلها طاقات العقيدة البناءة وتسير في ظل الوحي ودعوة الرسل.

---

(١) سورة إبراهيم ، الآيات ٩ ، ١٠ .

(٢) انظر تفسير القاسمي – إبراهيم ٩ ، ١٠ .

(٣) انظر في ظلال القرآن م٤ ص ٢٠٨٨ .

ولقد علقت سعادة الإنسانية في الدارين على أساس من التزام القيم والمبادئ وانتهاج العبادة طريقا إلى البناء الاجتماعي الحضاري والاستقرار النفسي، وجاءت آيات القرآن تترى لتبين للإنسانية آثار هذا كقوة بناءة في حياة الأمم، ولقد خوطب أهل الألباب بالتقوى في القرآن فقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾**(1) وقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾**(2).

والفرقان هو النصر لأنه يفرق بين الحق والباطل، والكفر بإذلال حزبه، والإسلام بإعزاز أهله(3).

وقال الله: **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه. إن الله بالغ أمره. قد جعل الله لكل شئ قدرا﴾**(4).

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾ هذه جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق، والمعنى أن من يطلق على السنة ولم يضار المعتدة ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد: يجعل الله له مخرجا مما هو فيه من المضايق في شأن الزواج خاصة ويتق الله في العمل بما أنزل الله عامة يتولى الله أمره(5).

والمخرج من الضيق في الدنيا والآخرة، ورزقا من حيث لايقدر ولا ينتظر وهو تقدير عام وحقيقة دائمة، ولكن إلصاقها هنا بأحكام الطلاق يوحي بدقة انطباقها وتحققها عندما يتقي المتقون الله في هذا الشأن بصفة خاصة، فكل شئ مقدر بمقداره وبزمانه وبمكانه وبملابساته وبنتائجه وأسبابه، وليس شئ هناك في الحياة مصادفة وجزافا(6). ومع كل هذا الدور العظيم للعبادة في بناء الحياة الحضارية نجد نظرية التفسير المادي تعلل التدين وكثرة التعبد برده إلى ضعف في الإنسان، وترى أنه عندما يعجز البشر عن مواجهة الطبيعة وظروف الحياة التي تقف أمامه قوة قاهرة تحول دون تحقيق رغباته، فإن الإنسان يلجأ إلى عبادة هذه الطبيعة خوفا ورهبة منها وترى التدين بصفة عامة هو سلوك انعكاسي لظاهرة الخوف المستقرة في أنفس الضعفاء من البشر(7).

---

(1) سورة الحديد، الآية ٢٧.

(2) سورة الأنفال، الآية ٢٩.

(3) انظر تفسير النسفي، الأنفال ٢٩.

(4) سورة الطلاق، الآيتين ٢ – ٣.

(5) تفسير النسفي، سورة الطلاق ٢، ٣.

(6) في ظلال القرآن م٦ ص ٣٦٠١.

(7) انظر التفسير المادي للتاريخ م٣ ص ١٧٧ محمود الشرقاوي.

ولقد أثبت التاريخ وتاريخ الحروب خاصة أن العابدين هم من أقوى البشر جأشا وإرادة ومن أشدهم صبرا ومراسا، وظلت العقيدة عبر عصور تقدم الأمم وانحطاطها هى القوة الحية والعامل الأساسي في تكوين الأجيال وثبات الأمم وبعث روحها في الشدائد ولولا عقيدة الخوف والرجاء من الله لتحول الإنسان إلى وحش مفترس لأخيه، وما كانت الحياة تسير سيرها الطبيعي، ولكانت المجتمعات أقفاصا للوحوش الضارية، يلتهم القوى الضعيف فيها، لأن القانون أو العامل الخارجي لايمكن أن تسير عليه أو به الحياة سيرا صحيحا كما هو ثابت اليوم في حياة الناس، وها هم المتمردون عن عبادة الله يقفون صفوفا منتظمة وغير منتظمة أمام عيادات الأطباء النفسانيين وأمام محلات الاستهلاك ويتفرقون إلى نوادى اللهو والمجون هروبا من الواقع وطردا للقلق وإماتة للوقت الذي ضاقوا به ذرعا، ويعتكفون للتفكر في أحدث وسائل الانتحار، ولقد كان الوجوديون من أكثر الناس تفكيرا في الحرية حتى صاروا قادة لها، وفلسفوا سبيل الوصول إليها وأصبحوا الآن يعالجون أمراضا نفسية قاتلة كاليأس والقنوط والإحباط وما صاروا إلى هذه المآسى إلا لأنهم خرجوا عن سنن الله في الوجود، وهي سنة التوازن التي هى القاعدة الأساسية التي أقام الله عليها حياة كل حي وعلق عليها بقاء الحياة واستمراريتها، وحاجة الإنسان إلى التوازن كحاجته لأية ضرورة من ضرورات العيش والبقاء، والتوازن في الحياة الإنسانية هو العدل ذو الطرفين: الداخلي المتصل بأغوار النفس البشرية والخارجي المنسجم مع واقع الكون ونظامه[1].

والعبودية لله هى الحرية، هى الوقاية التي تحرر الإنسان وتقيه من كل تطرف ونقص فالذي نمت في كيانه العواطف الإيمانية والأفكار العقلية وربيت أحاسيسه يعيش منهج الاعتدال والوسط، ويظل هذا الإنسان كميزان الذهب لاتميل إحدى كفتيه فلا يركن إلى الخنوع والذل للآخرين مهما تجمعت عليه أسباب الضعف، ولا يطمح إلى الطغيان والظلم مهما أتيحت له الأسباب والمناسبات وتفتحت أمامه سبلها، وما أدركت أمة من الأمم هذه السنة، وعملت إلا سادت وبلغت درجة عليا وعلا قدرها وقادت الإنسانية إلى ساحة النجاة.

والخلاصة أن العبادة قضية شاملة لكافة مناكب الحياة والغاية التي خلق من أجلها الإنس والجن، وبأداء شعائرها يقام الحق وينصر ويحارب الباطل وينهزم، فالصلاة والصيام والزكاة والحج عوامل بناء للنفوس ووسائل تعمير الأرض وتحقيق للاستقامة على الطريقة التي بها تطارد العوامل والأسباب المدمرة للأمم والحضارات كالحزن والخوف واليأس... وبها ينفذ الله وعده.

ولابد أن تسود حياة الأمم الحضارية الأخلاق الفاضلة لتواصل تلك الحياة استمرارها وتحفظ تماسكها وتزين كافة جوانبها.

---

(١) انظر الإسلام ملاذ المجتمعات ص ٢٢ ، د/ محمد سعد رمضان البوطى

السلوك الإسلامي

لسنا نريد دراسة الأخلاق من الزاوية التاريخية أو الفلسفية، ولكن نسعى إلى بيان أثرها ودورها في الناحية النفسية والاجتماعية لتكوين الأمة، وإعدادها للبناء الحضاري.

ولنتصور لو انطلق كل واحد في الحياة يسعى ويجرى لإرضاء نزعاته وشهواته وتحقيق منافعه الخاصة دون قيد أخلاقي من حياء أو توبيخ ضمير، فلاشك أن الحياة تتحول إلى فوضى ويتعذر أو يستحيل قيام أية بادرة حضارية أو تكوين وحدة أمة، ومن هنا جاءت ضرورة سيادة الروح الأخلاقية بين أفراد الأمة والمجتمع وأفراد الإنسانية عامة.

ولا أريد كما ذكرت أن أخوض في الحديث عن نشأة الأخلاق، وما مصدرها ونسبيتها فهذه دراسة تاريخية فلسفية وصفية ليست من مقاصدنا في هذه الرسالة وإن كان فيها كل خير.

وأول ما يمكن أن نثبته من دور الأخلاق في البناء الحضاري هو أن الروح الأخلاقية منحة من السماء إلى الأرض تأيتها مع نزول الأديان، عندما تولد الحضارات ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض كما يشير إلى ذلك في القرآن[1].

﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم. ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾[2].

والمعنى أن الله ألف أي جمع بين قلوب الأوس والخزرج بعد تعاديهم مائة وعشرين سنة، وبلغت عداوتهم مبلغا لو أنفق منفق في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال لم يقدر على التأليف بين تلك القلوب الشاردة المتعادية، ولكن الله جمع بين كلمتهم بقدرته، فأحدث بينهم التواد والتحاب ونزع التباغض والتماقت من بينهم[3].
لا بالقوة وقهر القانون ولكن برضاء وطواعية داخلية، تلك هي الأخلاق الربانية التي يأتي بها الوحي ويغرسها الأنبياء بقدوتهم الأخلاقية ذاتها ويبرزوا دورها في توحيد الشعوب، والاتحاد قوة معنوية ومادية، والقوة الأخلاقية من أكبر الوسائل في تطوير الأمم وأشدها أثرا في بناء المجتمعات وقيام الحضارات وتماسكها، وكل القيم الأخلاقية قوة فالصبر قوة وصفة للأبطال والرواد، والضعيف لا يستطيع أن يتحمل ويجزع وينهزم أمام الأحداث، والشجاعة قوة لأن صاحبها يرفض الجبن والذل ويقاوم الظلم، والعدل قوة لأنه يمثل غلبة نوازع الحق والخير على نوازع الباطل والشر داخل الإنسان ذاته،

---

(١) انظر شروط النهضة ص ٨٨، مالك بن نبي.

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٦٤ .

(٣) انظر تفسير النسفي ، الأنفال ٦٤ .

والعفة قوة لأنها تقاوم الشهوات والأهواء والإغراءات، وهكذا تقاس كل القيم الأخلاقية الحميدة على هذا القياس وتثبت أنها عناصر بناء وصنع للتاريخ الحضاري[1].

ولابد أن تصدر القيم الأخلاقية عن عقيدة صحيحة قائمة على أساس من الوحي وإلا تحولت هذه القوة إلى طيش وتجبر وصار صاحبها كالآلة تملؤها بالوقود فتنطلق في كل حدب وصوب تخبط خبط عشواء تهشم وتكسر وتنقلب القيم إلى أضدادها فتصير الشجاعة تهورا والصبر جبنا والعفة زهدا وترهبنا سلبية، وبالتالي تؤدى دورا سلبيا في الحياة ولابد لصحة التوجه الأخلاقي من غاية محددة مقصود تحقيقها من مصدر الوحي، فالقوة بهذا التصور هى التي تؤلف الحضارة المنشودة، ونحن بين أيدينا تجربة قرون لا عدد لها حواها القرآن الكريم، تثبت للبشرية أن كل الحضارات قامت على روابط أخلاقية لا قانونية – ولسنا ضد القانون العادل – حيث الفرق بينهما، هو أن السلوك يقوم على الإقناع والتزامه عن رضا وطواعية، والعمل القانوني عادة ما يكون قائما على القهر والجبر، وستبقى الأخلاق تحتل الدرجة الأولى والقانون الدرجة الثانية في السلوك الاجتماعي لدى الأمم المتحضرة حقا إلى أبد الآبدين.

والباحث في تاريخ الحضارات والدارس لطبيعتها وسنن قيامها وازهارها يتبين له أن جوهر الحضارة الأخلاق، وإن كان تقرير هذه الحقيقة يدهش الذين اعتادوا التعلق بالاعتبارات المادية بل قد يثير الاشمئزاز في نفوسهم من الذين يؤمنون بدور الأخلاق في التماسك والازدهار الحضاري، وجوابنا لهم هو أنه شهد شاهد من أهل الذين جعلوهم قدوة لهم في تصورهم الحضاري وسلوكهم الاجتماعي، ولاشك أن هذا حجة بالغة بالنسبة لهم[2].

ويتوقف الجوهر الأخلاقي على قدرة الاستعدادات النفسية والعقلية لدى الأفراد والجماعات، والتي هى من سنن التحضر التي ذكرتها وشرحتها، في هذه الدراسة.

والتاريخ الحضاري صريح وواضح عند الحديث عن الأوضاع الاجتماعية والقضايا الحضارية العامة، فهو يبين بالأمثلة والحقائق الصارخة أن الأسس الأخلاقية مبادئ النبل والشرف والتضحية وتجنب الإباحية ووجوب الأخذ بإملاءات الوجدان الأخلاقي وقواعد الحكمة والاعتدال ونبذ العدوان والاستغلال وما أشبه ذلك من معان وشمائل كانت دعائم تحضر عبر التاريخ وأركان تقدم الفلاح في كل الأمم، وكانت الأخلاق ميزة صفوة الشعوب من الأبطال والعظماء والعلماء، وأي إنسان لاتكون له قيمة حقيقية وشخصية إنسانية إلا إذا كان ذو أخلاق حسنة وخلال طيبة، وتحت تأثير القيم

---

(١) انظر فلاسفة القرآن ص ٢٠٥ عباس محمود العقاد.

(٢) انظر فلسفة الحضارة ص ٣ ألبرت شفتسر، ترجمة عبدالرحمن بدوى.

الأخلاقية تكونت العلاقات الإنسانية على مستوى الجماعات والأمم، وما اضمحل المبدأ الأخلاقي في النفوس إلا وتداعت الحضارة[1] وهذه سنة من سنن الله ستظل قائمة وإن كان دور المبدأ الأخلاقي محل احتقار في نظر أهل الحلول المادية لقضايا التحضر، ويكون نظرة غريبة لدى كثير من الدارسين والمثقفين فإن هذا لاينفي دوره ولا يوقف تأثيره في الحياة، والذين تعرضوا للضعف والانحلال وأصيبت مدنياتهم بالانهيار والسقوط إما في الماضي القريب أو البعيد، إنما سلكوا خلاف سنن الله، وما تقتضيه أبسط قواعد العدالة ونبذوها وراء ظهورهم وسخروا منها ومن الداعين إليها، فتلك هي قصة عاد وثمود والرومان والإغريق، منذ انتشرت فيهم الإباحية والنفعية والجرائم وغيرها من سنن السقوط الحضاري، وتلك هي قصة الدول التي أخذت تنحدر في كل من أوربا وأمريكا، إنها القصة التي تنتهي دوما بالنتيجة المأساوية المعروفة[2].

والأخلاق قاعدة عريضة تشمل كل أعمال الإنسان فلا يوجد شئ في الحياة في عرف الإسلام وتصوره خارج عن دائرة الأخلاق، سواء كان هذا الشئ سلوكا فرديا أو نشاطا سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا أو ثقافيا أو فنيا، فالعنصر الأخلاقي يجب أن يوظف في كل المجالات، ويغطى سائر جوانب الحياة الحضارية[3].

ويبدو أنه من أكبر منزلقات الحضارات المادية انسلاخها عن المبدأ الأخلاقي، التي لاتكاد تفارقه قليلا حتى تلقى حتفها، وقد امتد أثر الانسلاخ في العصور الحديثة حتى مس الحياة كلها في بسط جزئياتها إلى حد أن أصبحنا نشاهد حتى الملتزمين بأداء الشعائر التعبدية المسلم منهم يصلي ويكذب أو يصوم ويسرق ويخون الأمة و...... وإذا كانت قد انتشرت اليوم في أوربا بعض الأخلاق النفعية المادية كأخلاق التجار ورجال السياسة فهي ليست أخلاقا صحيحة ولايمكن أن تودى دورا في تماسك المجتمعات ونهضة الأمم، لكونها قائمة على أساس المنافع المادية والمصالح الشخصية الأنانية وتزول بزوالها وتسير بقيامها كما أنها ليست لها حوافز ودوافع عقيدية إيمانية، فهي مرتبطة بالأرض ولأجل أهداف أرضية مادية، وإن كان أهلها يسمونها قيما حضارية.

ومن أراد أن يعرف القيم الحضارية الحقه التي دعا إليها الإسلام، ويكشف سوأة الغرب الحضارية في هذا الجانب الأخلاقي بالذات يرى ذلك جليا في الفرق بين حركة الفتح الإسلامي للعالم، وحركة الاستعمار الأوربي الغربي الحديث، ومازال يشاهد حتى اليوم في المعاملات اليومية عندما تلتقي المصالح الخاصة، وما نشاهده في العلاقات

---

(١) انظر فلسفة الحضارة ص ٤ إلبرت شفيتسر ترجمة عبدالرحمن بدوي.

(٢) انظر الفكر التاريخي في الإسلام ص ٨٣ عبداللطيف شرارة.

(٣) انظر مفاهيم ينبغي أن تصحح ص ٢١٤ محمد قطب.

الشخصية بين القوى والضعيف والأبيض والأسود خارج إطار العلاقات المادية الخاصة الأنانية.

ونجد الأخلاق الاقتصادية في الإسلام قائمة على الالتزام بما أحل الله، وتحريم ما حرم الله من ربا وغش وسلب وسرقة، وقائمة على تطهير المال بأداء الزكاة، والصدقة والإنفاق في سبيل الله، وعدم الإنفاق في ترف أو إسراف أو معصية إلى غير ذلك من الأوجه المحرمة، والأخلاق الاجتماعية قائمة على التواد والتحاب والتكافل والتعاون وحرمة الدم والعرض والشرف واللمز والغمز والتجسس والاطلاع على غيبات الآخرين ولايكون ترك هذه المساوئ من قبائح الأعمال والتصرف وإبقاء فضائل الأخلاق إلا بدافع عقيدى وهو رضاء الله. فهذه هى الغاية الكبرى والوحيدة من خلق الإنسان وما عداها فهى وسائل وأهداف جزئية قريبة، وبهذه الشمولية وعلى هذه القاعدة العريضة تفهم الأخلاق في الإسلام وتؤدى دورها في بناء الحياة[1].

وتبقى الترجمة الأخلاقية في النفس والمجتمع منوطة بمجموعة من العوامل الأدبية والمادية والملبس والحركة والقول الطيب. إحدى تلك العوامل والترجمات للمبدأ الأخلاقي، إذ اللباس يضفى على صاحبه روحه وأفكاره واعتقاده وتصوره على الوجود ومن المشاهد أن الشخص حين يلبس لباسا رياضيا يشعر بخفة النفس وأن روحا رياضية تسرى في كيانه، حتى وإن كان ضعيف البنية وحين يلبس لباس الشيخ فإنه يشعر بما يناسب لباسه ويظهر أثر ذلك في مشيته وفي سلوكه حتى ولو كان شابا قويا وإن كمال أتاتورك لم يكن بسيط التفكير عندما دعا إلى نزع الطربوش واستبداله بالقبعة، بل كان يسعى إلى تحطيم الأخلاق في النفوس فكانت القبعة - على رأي البعض القنبلة التي انفجرت في ذلك المجتمع [2]. ودعا إلى السفور والتبرج فذهب الحياء وذابت شخصية الحضارة الإسلامية في النفوس، ومن هنا تتجلى حكمة الإسلام في دعوة المرأة إلى لبس الجلباب، وسنة لبس العمامة، والعباءة، وطلق اللحية بالنسبة للرجال، وإن كانت فوائد أخرى قصدها الإسلام من وراء دعوة المسلمين إلى التميز الحضاري في الظاهر، ولعل الحكمة نفسها انتبهت إليها النظم المعاصرة عندما خصت الجيوش بالبدلات العسكرية التي توحى بالخشونة وتحسين الهيئة، خصت المدارس تلاميذها والمؤسسات والمصانع عمالها بألبسة خاصة تناسب الوظيفة والدور الحضاري الذي يقومون به في الأمة.

وبقى اللباس شيئا ظاهريا يعبر عن حالة نفسية واعتقاد وتصور عن الحياة، ولقد أثبتت التجارب التاريخية أن المجتمع لايقوى على البقاء بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب لأن الروح والروح وحدها هى التي تتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم فحيثما

(١) انظر مفاهيم ينبغى أن تصحح ص ٣٤٣ محمد قطب.

(٢) انظر شروط النهضة ص ١٢٣ مالك بن نبى.

فقدت الروح سقطت الحضارة وانحطت، لأن من يفقد القدرة على الصعود لايملك إلا أن يهوى بتأثير جاذبية الأرض[1].

وتبقى الأخلاق مبدأ ضروريا لنشأة الريادة والقدوة الإنسانية، ولا يقوم صرح المجد والملك إلا على أساس من الأخلاق والآداب القويمة، ولذا أمر الله المؤمنين بالتحلي بمكارم الأخلاق ونبذ كل مايؤدى إلى تدهور القيم، وفك روابط المجتمع فقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن. ولاتلمزوا أنفسكم. ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾**[2].

إن المجتمع الفاضل الذي يدعو إليه القرآن، ويبين معالمه هو مجتمع له أدب رفيع وقيم نبيلة ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس، وفي الآية إيحاء خفي بأن القيم الظاهرة التي يراها الناس في أنفسهم ليست هي القيم الحقيقية بل هناك قيم أخرى يعلمها الله ويزن بها أفعال العباد.

وأخيرا أود أن أؤكد سنة من سنن الله وهي أن الإحاطة بقوانين الفلك في أمر ما كالكسوف والخسوف تنبؤ بوقوعه قبل فترة من حدوثه، فلا جدال إذن في معرفة مآل أحداث الأمم ومصائر الدول والحضارات بدراسة ومعرفة قوانين وسنن الاجتماع البشري، ومن السنن الثابتة في هذا الموضوع، موضوع مصائر الحضارات أن تفشى الظلم، وسعى الناس في الأرض فسادا مؤذن ومؤشر بخراب الأمم والدول... وعن طريق المقابلة نعرف أن الاستقامة والالتزام بموجبات الصلاح والحق والعدل والأخلاق والعمل المخلص سنن لازدهار الحضارات وسيادة الأمم.

---

(١) انظر وجهة العالم الإسلامي ص ٢٦ مالك بن نبي.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١١ .

الجمـــال

الجمال في القرآن تعبير موح عن قيم إنسانية وحقائق علمية ومن العبث تجريد الحضارات من الصور الجمالية، ولو كان ذلك لغدت المدن ساحات مظلمة والحضارات كتلا صماء ومناظر كالحة، والصور الجمالية في الحياة تدفع الإنسان إلى الإنشاء والإبداع والانطلاق والارتفاع والنمو في كافة مجالات الحياة الإنسانية، وتؤكد الصلة بين الخالق والمخلوق وبين مفردات الوجود، لأن الجمال يولد الشوق والحب في النفوس، وكل شوق وحب هو قوة إلى تحقيق غاية أو نيل هدف ومن ثم فنظرية الجمال في ظلال القرآن لاتملأ فراغ مشاعر الإنسان بأطياف اللذائذ الحسية أو بالتشهي الذي يخلق القلق والحيرة، وإنما تهتف للإنسان بأشواق الاستعلاء والطلاقة وتملأ فراغ حياته ومشاعره بالأهداف الإنسانية التي تطور الحياة وترقيها، وليست وظيفة الجمال هي تزوير الشخصية الإنسانية، وإبراز البشرية في صور مثالية لا وجود لها في دنيا الإنسان، وإنما الصدق في تصوير القدرات الكامنة والظاهرة في الأنفس والآفاق من أهم مقاصد الجمال(1).

ولقد حدث انحراف في تصور دور الجمال حين خروج الفنون عن إطارها الأخلاقي فتحولت إلى عوامل فساد ونشر للرذيلة والفواحش، داخل المجتمعات فأدت إلى تدمير مقومات الأمم الأخلاقية والنفسية عن طريق نشر صور النساء العاريات في دور السينما وشاشة التليفزيون وعلى واجهات الشوارع، وتحلل الفنانون والرسامون من القيم الأخلاقية والعقيدية، فغدوا أدوات إفساد وحربا على القيم والمبادئ، ولبوا مطالب النفس وأهوائها وغرائزها الشهوانية بدلا من تهذيبها وتقويمها، وعبدوا الأجسام والأبدان، واهتموا بظواهرها بدلا من بواطنها، ونصبوا التماثيل وجسدوها في أشكال بشرية بالنقش والنحت، وادعوا أنها نماذج إنسانية في الطهر والكمال، وانفقوا عليها الأموال الطائلة فأفسدوا العباد والبلاد بصرف الناس عن عبادة الله الواحد الأحد، إلى عبادة البشر فتكررت مأساة الأمم الخالية التي أفسدت نفسها برسم تماثيل لزعمائها وصلحائها(2). وعبدوهم وأقاموا حولهم الآهات والأساطير، فتعلق الناس بالرموز والخرافات فكان ذلك من أكبر عوامل الهدم في تلك الأمم والشعوب، وكان ينبغي على أهل المواهب الفنية والأذواق الجمالية عبر القرون أن يدلوا الناس على مناظر الطبيعة التي أودعها الله في الحياة وعلى ما فيها مما خلق الله من آيات وعبر دليلا على إتقان صنعه وإحسان خلقه، لتكون للإنسان هادية إلى حسن استخدام طاقاته في كافة جوانب الحياة

---

(1) انظر التاريخ فكرة ومنهاج ص ١٨ سيد قطب .

(2) أقصد ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا﴾ نوح ٢٣/٢٤ .

العقيدية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية لتكوين حضارة تحركها العقيدة، وتحفظ تماسكها الأخلاق ويزينها الجمال.

ولعل من أكبر أخطاء الفكر البشري العقلي هو عدم الاعتراف بالعجز أي عجز[1] وعدم معرفة قوته أين ينبغي استعمالها، حيث تبقى وسائله ناقصة ولغته عاجزة لفقده التصور الصحيح عن الإنسان والحياة والوجود كله.

وإذا نظرنا إلى التصوير الجمالي في القرآن والفكر البشري نجد أن أساليب بلاغة القرآن وصورها الجمالية، تستحضر عوالما سحرية ذات معالم لا وجود لها في واقع الإنسانية وخارجا عن مألوف البشر، وتقرب صوره حتى كأنها واقع معاش، فيما تبقى بلاغة لغة البشر العادية ترتبط بطبيعة الزمان والمكان والمزاج النفسي فامرؤ القيس حين وصف فرسه بقول:

مكر مفر مقبل مدبر معا .. كجلمود صخر حطه السيل من عل

فإنه رسم صورتين مقتبستين من حياة الصحراء وإطارها فالعناصر تحتوي الوسط الجغرافي والحالة النفسية، ولكن جمال بلاغة القرآن ليست دائما انعكاسا لواقع قائم نزل فيه القرآن، بل قد يستمد عناصره وتشبيهاته من بيئات وأجواء ومشاهد جد مختلفة فصور القرآن النبات والشجر وأنواع الرياض تبين لنا طبيعة أرض كثيفة الزرع طيبة الهواء تخترقها المروج الخضراء، وهذه الصور البعيدة الأفق تولد لدى الإنسان الشوق إلى القيم والجمال، وإلى كل كمال وإبداع وإلى الجنة التي وصفها الله أوصافا إشارية لتقريب نعيمها إلى الإحساس، كما تولد في الإنسان حب كشف المجهول والتطلع إلى ما وراء المحسوس، وبالإضافة إلى هذا نجد في القرآن الكريم صورا ذهنية جمالية تحمل الدعوة والحث على التدبر والتفكر في اكتشاف سنن الحياة، وعلل الظواهر الاجتماعية والأشياء المادية[2].

ولسنا نريد بهذا دراسة المجاز للغوى وإنما نريد الوقوف على أثر هذا الجمال البلاغي في النفس وفي المجتمع، ونبين أهميته في البناء الحضاري وزينة الحياة الدنيا، والله تعالى يقول: **﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءا حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه. والله سريع الحساب. أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها. ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾**[3].

---

(١) بجال الروح والنفس .

(٢) انظر الظاهرة القرآنية ص ٢٨. .

(٣) سورة النور ، الآيتين ٣٨ - ٣٩ .

تمثل هاتان الآيتان صورا لأعمال الكفار أحدهما مستنبطة من واقع صحراء الجزيرة العربية – الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء وبقية الصور الجمالية لا علاقة لها بالوسط الجغرافي لبلاد جزيرة العرب، وإنما هى صور لبلدان يلفها الضباب ثم تحمل الآية إشارة إلى الأمواج البحرية وإشارة إلى الظلمات المكثفة في أعماق البحار، وهاتان الإشارتان تستلزمان معرفة علمية بالظواهر الخاصة بقاع البحار، وغني عن البيان أن قول أن العصر الذي نزل فيه القرآن كان لايعرف تراكم أمواج البحر وظاهرة امتصاص الضوء واختفائه على عمق معين في الماء[1].

وعندما دعانا القرآن إلى السير في الأرض والنظر في الطبيعة، لم تكن دعوته هذه تنصب على الجانب التجريبي العملي، من أجل إدراك عظمة الله، واكتشاف كنوز الأرض فقط بل رافق هذا التوجيه إلى الجانب الانفعالي الجمالي من أجل تهذيب الإحساس البشري ورفعه إلى مستوى السمو الروحي والأخلاقي للإنسان باعتبار هذه الدعوة المزدوجة والنظرة الثنائية تحرك في الإنسان كل مكوناته الفطرية، ولقد كان هذا أسلوب القرآن حتى في عرض وبيان القوانين والسنن الاجتماعية، وكل هذا يقود الإنسان إلى تكوين حاسة الإيمان بالله وعدالته ورحمته وجبروته وبطشه.

وقد شاء سبحانه أن تكون الطبيعة مصدر عطاء لبناء الإنسان سواء كان عالما أو فنانا، فالعالم يتفحص ويجرب ويكتشف ويبدع من أجل الرقي الاجتماعي، والفنان يتذوق ويتأثر ويحس ويعاني فيهز المشاعر حبا وعشقا، فتحدو العواطف العزائم وتشحذ القدرات فتنطلق إلى ماوراء الأشياء للتعامل مع خبايا النفس، ومكونات الوجود بالحب والتعاون والتعاطف، لا بالصراع والتحارب، كما تصور الحياة بعض المذاهب الفكرية[2].

وإن جمال الطبيعة لايقف أثره عند إحداث الهزة الروحية في نفس الإنسان فحسب ولكنه يدفعه دفعا إلى تحويل تأمله وإحساسه إلى عمل وفعل وإبداع وكشف ومن ذا الذي يرى أن هزة الفرح أو الأسى التي تحدثها مناظر الطبيعة تبقى محبوسة في جوانب النفس، ولا تحال إلى أعمال أدبية ذات كلمات فعالة أو صور منحوتة أو عمارات منصوبة بل هناك ارتباط جدلي بين الباطن والواقع الخارجي وهناك أثر يجئ عن طريق التأمل الهادئ العميق والاستغراق في الكون، وهناك أثر يأتي عن طريق الانفعال الجمالي، والحضارة أكبر مشتقات الطبيعة ومحاكاة في شكلها المعماري لصورها ومناظرها الطبيعية[3].

---

(١) انظر الظاهرة القرآنية ص ٢٨١ .

(٢) انظر المسلمون والعصر – ص ١٤٥ كتاب العربي العدد ١٤ .

(٣) انظر نفس المرجع ص ١٤٩ كتاب العربي العدد ١٤ .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تعبر عن حقائق علمية، وعقيدية في صور تفيض بالروعة والجمال، ولنتأمل هذه الآيات مركزيا على الجانب الجمالي يعرف هذه الحقيقة قال تعالى: **﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي. ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم. وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون. وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكما ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾**[1].

تعرض هذه الآيات بعض مظاهر الحق والخلق في الحياة، فتوجه الأنظار إلى كيفية الخلق وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، والسمة البارزة المهيمنة على هذه الحقائق هى الجمال، وكل المدلولات تدل على حقيقة من الزاوية الجمالية فتبدو الحقيقة ذاتها وكأنها تتلألأ، ومما يوحى بالسمت الجمالي الصابغ لذلك التوجيه الرباني إدراك دور الجمال في ازدهار الحياة" انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه" و "إن الله فالق الحب والنوى" ..

إنها معجزة الخالق في تزيين الحياة وهى الظاهرة التي يجب أن تقتدى في صنع الحضارات[2].

---

(١) سورة الأنعام، الآيات ٩٦ - ١٠٠ .

(٢) انظر في ظلال القرآن م٢ ص ١١٥٣ .

الفصل الرابع

سنن القرآن في سقوط الحضارات

الفصل الرابع
سنن القرآن في سقوط الحضارات

معنى السقوط الحضارى فى القرآن:

والسؤال المطروح فى هذا الفصل للإجابة عنه هو كيف يمكن الوصول إلى نظرة أو رؤية إسلامية لنعلل فى ضوئها كيفية سقوط الحضارات وزوال الأمم والإمبراطوريات ونعلل أسباب تقلبات التاريخ، وأعتقد أنه كما تبحث خصائص الجوانب المادية فى الحياة فتوجد لها العلل والقوانين التى تؤدى إلى تفاعلها وتغييرها وبمعرفة تلك القوانين والخصائص يتوصل إلى النتائج والأهداف المرجوة، فكذلك التاريخ الذى من مباحثه الحضارة هو دائماً من صنع الأسباب والعلل(١).

ولعل ما يقصد بالسقوط الحضارى من خلال القرآن ليس هو دائماً زوال الأمم من الوجود وفناء أفرادها فى العدم ولكن ما يعنى بالسقوط الحضارى هو الانهيار الداخلى للمجتمعات وذهاب قوة الأمم وعزتها وهوانها على الأمم الأخرى، ذلك عندما تذوب فى غيرها وتنمحى شخصيتها المعنوية والروحية وهذا ما هو كائن فى حياة الأمم التى سقطت حضاراتها. والثابت فى تاريخ الإنسانية أن الأمم التى شهدت تلك الإمبراطوريات والحضارات الغابرة لم ينقرض نجمها ويندثر كيانها البشرى كلية، وإنما ضعفت واستكانت وغاب تأثيرها المباشر فى مسرح الحياة الاجتماعى والسياسى والاقتصادى، فاستوعبتها حضارات أمم أخرى هى أشد وأبقى حتى صارت جزءاً منها لا ينفصل، وأنشئت على أنقاض كيانها الحضارى حضارات جديدة تسلمت علم الريادة ووساد السيادة(٢).

ولعل أوضح مثال تطبيقى فى هذه النقطة هو حضارة العرب البائدة كعاد وثمود الذين بلغوا شأناً عظيما فى التحضر حكى القرآن الكريم بعضه للاعتبار ودلت عليه بقايا الدهر وأبحاث التاريخ، والثابت أن هؤلاء العرب العاربة وغيرهم من الأمم الهالكة لم يستأصلوا استئصالاً كلياً تاماً وإنما أهلك الله الظالمين والكافرين منهم وأنجا رسلهم والذين آمنوا منهم ليستمروا فى عمارة الحياة.

وقد جرت سنة الله أن يعامل البشر حسب ما عملوا، وهذا بصريح قوله تعالى ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾(٣).

وهذه الآية تمثل المحور الكبير الذى تدور حوله أو عليه قضايا الحضارة الإنسانية فى

(١)انظر الغزو الفكرى للتاريخ والسيرة بين اليمين واليسار، ص٨٠،٨١، سالم البهنسى.
(٢)انظر الإسلام والتاريخ – الاسم فى نظرة إلى الله والإنسان والمجتمع والتاريخ، ص١٦٠، عمر فروخ.
(٣) سورة الرعد، الآية ١١.

القرآن، وكذلك قوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله لم يكن مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾[1].

فالله عز وجل لا يزيل ما بقوم من العافية والنعمة، والرخاء، والهناء ويبدلها بالآلام والأمراض والنوازل والفتن والأحداث وغيرها من ضروب العقاب الرباني حتى يزيلوا هم ويغيروا فيجحدون النعمة ويعلنون الكفر والمعاصى ويتمردون عن سنن الله فى إسعاد البشر ويتظاهرون بالفحش والمنكر والفساد، فتكون النتيجة أن تحل بهم قوارع الدهر، وينزل بساحتهم عذاب من الله[2].

وآفة الحضارات الجانحة التى نقرأ عنها فى بطون التاريخ، أو نجد بقاياها وأطلالها منثورة على جنبات الأرض هى الفساد أو الإفساد فى الأرض بكافة أشكاله وأنواعه فساد العقيدة – الشرك – فساد العلاقات بين أفراد الأمة بترك التوادد والتعاون، مما يؤدى إلى العداء والتباغض ثم الظلم، وفساد النفوس بالغرور والتكبر والعجب وهذا هو الفساد الذى ظل القرآن الكريم يكرر الحديث عنه، ويكثر التحذير منه ويلفت نظر الإنسان إلى مغبات التورط فى أسبابه وينبه إلى الرزايا والمصائب التى لابد أن يتحملها الإنسان على أعقابه وما فسدت هذه الأرض يوماً ما بعادية من عوادى الطبيعة ولا بسوء آخر ألم بها من هياج الحيوانات والوحوش، وإنما استشرى فيها الفساد وألم بها البلاء يوم تاه بنو الإنسان وخرجوا عن هواياتهم وطبيعتهم وحقيقة خصائصهم البشرية. فتأله الأقوياء وذل الضعفاء، وخرج بذلك كل فريق عن حدود إنسانيته، ذلك نحو التعالى والتجبر فى الأرض وذاك نحو الخنوع، فتمت بذلك قصة الفساد فى الأرض وهى قصة قديمة تتكرر أسبابها أو عواملها فى الإنسان ذاته[3].

كيفية السقوط الحضارى فى القرآن:

أما عن كيفية سقوط الحضارات ودمار الأمم والمجتمعات فنجد أن أدق العلل وأصغرها، قد تؤدى إلى أعظم النتائج وأخطرها، ويعد عدم وجود صلة ظاهرة منظورة بين صغير العلل وعظيم النتائج من أكثر الحوادث نجاحاً فى حياة الأمم وتبدل ظروفها الحضارية سياسياً واجتماعياً، ذلك أن عيون المراقبة والملاحظة عادة ما تغفل الجزئيات وتهمل صغائر الأمور وأدقها، ولعل هذا ما يمكن أن نفسر به تلك المفاجئات فى التقلبات السياسية وتبديل القيادات العسكرية فى الدول والحكومات، وكثير ما يدخل التاريخ من هذا الباب أناس لا حساب لهم فى حس المراقبين واهتمامهم، وقد كانوا يتحركون ويعيشون فى منأى عن أنظار خصومهم، وإياكم ومحتقرات الأمور، وأن فى

(١)سورة الأنفال، الآية ٥٣.

(٢)انظر أسباب هلاك الأمم وسنة الله فى المنحرفين والمجرمين، ص ٢٢.

(٣)انظر منهاج الحضارة الإنسانية فى القرآن، ص ٥١.

الخوافي قوة للقوادم، وفي القرآن الكريم إشارات وتنبيهات إلى هـذا، قـال تعـالى: ﴿**إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم**﴾[(1)].

وللتذكير فإن الآية نزلت في قذف عائشة، وقد حسب بعض المؤمنين ذلك هيناً وعقوبته عند الله شديدة[(2)].

ولذا كان مبدأ العلة أو السببية من أكبر القضايا الفلسفية التي شغلت المفكرين. وفلاسفة التاريخ والاجتماع، والعلة هي حادث يؤدي إلى حادث آخر أو مجموعة من الحوادث تتراكم في شبكة واحدة ذات اتجاه معين حتى تؤلف عاملاً قد يكون له دور في تغيير وجه من أوجه الحياة أو تغيير مسار التاريخ كله.

والثابت تاريخياً انه ما انتصرت أمة أو انهزمت إلا بفعل العوامل والأسباب الداخلية. وما العوامل الخارجية إلا متممة ومكملة للداخلية، ولعل هذا ما كان يطلق عليه مالك ابن نبي- رحمه الله- القابيلة للاستعمار، ويرى أنه العامل الأكبر في هزيمة المسلمين في العصر الحديث[(3)].

وإن كان كثير من المؤرخين والمفكرين يميلون إلى الاهتمام بدور الأسباب المباشرة والعوامل الخارجية الظاهرة في دراسة الأحداث التاريخية والتبدلات الاجتماعية والسياسية والتقلبات الحضارية.

وقليل من أولئك المؤرخين والمفكرين والعلماء الذين غاصوا في أعماق الأحداث وتقصوا أبعادها داخل النفوس، ليميط اللثام عن الأسباب الداخلية الكامنة والعوامل الخفية اللامباشرة، والعوامل الخارجية المباشرة ما هي إلا نتيجة للعوامل الذاتية الداخلية ونقطة أخيرة في سلسلة من الحوادث والتأثيرات، وهي الحادث المعجل لحدوث الأمر الأخير كما يعمل سقوط عود الثقاب الكبريتي على كومة من الحطب هشة قابلة للاشتعال[(4)].

ومن سنة الله في البشر أن كل ما يصيبهم من بلاء وأذى في الأنفس والأبدان وشئون الملك والسلطان إنما هي آثار للأعمال ونتائج للسلوك الفاسد، مع وجود عفو الله الكثير كما قال تعالى: ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير**﴾[(5)].

---

(1) سورة النور، الآية ١٥.
(2) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص ٣٩٣.
(3) يراجع شروط النهضة وغيره من مؤلفات مالك بن نبي.
(4) انظر كيف نفهم التاريخ "مدخل تطبيق المنهج التاريخي،" ص ٢٤٣.
(5) سورة الشورى، الآية ٢٨.

ولذا نجد القرآن لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها و لم يترك الله ذرة من أعمال الإنسان إلا وسجلها يوم القيامة: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه. ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً﴾[1].

وتبقى سنة الله ثابتة تعمل عملها في حركة التاريخ، والله يتخذ من الظالمين والمترفين وأهل الشرك والضلال وغيرهم من كل ذوى الفساد والانحراف أدوات ووسائل يسوق بها القرى والدول والحضارات والأمم والمجتمعات نحو الفواجع والمصائر الكالحة[2].

والقرآن الكريم يطرح على الإنسانية قضية السقوط الحضارى من أوسع الأبواب وأكثرها شمولا، بصيغ عديدة واصطلاحات كثيرة كلها تؤدى إلى حالة واحدة بالأمة وهى الهلاك والسقوط.

فالظلم مثلا عامل من أكبر عوامل سقوط الحضارات وله مفهوم شامل وعريض يؤدى إلى فقد التوازن فى كافة مجالات الحياة، وعلاقات الإنسان مع نفسه ومع الله ومع غيره، وعن هذا تنبثق حالات وظواهر نفسية واجتماعية واقتصادية مرضية وتصورات فاسدة عن الوجود كله، فيعم الفساد الحياة الإنسانية كافة، كما قال الله تعالى: ﴿ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون. قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين. فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون﴾[3].

"ظهر الفساد فى البر والبحر" نحو القحط والجدب، وقلة البركة فى الزراعة والتجارة، وكثرة الحرائق والغرق، "بما كسبت أيدى الناس" أى بسبب معاصيهم وذنوبهم، وأن الله أفسد بعض أسباب دنياهم ليذيقهم وبال بعض أعمالهم فى الدنيا قبل الآخرة والحكمة "لعلهم يرجعون" بمعنى لكى يرجعون عما هم عليه وحتى ينجو من عذاب الآخرة، وهو العذاب الأكبر، ثم أمر الله الأمم أن تسير فى الأرض وتنظر لترى كيف أهلك الله إنما كانت على الظلم وأذاقها سوء العاقبة بمعاصيهم. ودل قوله تعالى ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ على أن الشرك لم يكن هو السبب الوحيد لتدمير القرى والأمم بل هو سبب إلى جانب أسباب أخرى[4].

---

(١) سورة الكهف، الآية ٤٩.

(٢) انظر التفسير الاسلامى للتاريخ، ص ٢٧٦، د. / عماد الدين خليل.

(٣) سورة الروم، الآيات ٤١،٤٣.

(٤) انظر تفسير الكشاف، سورة الروم، ٤١،٤٣.

وتكشف الآيات عن ارتباط أحوال الحياة وأوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية عامة، بأعمال الناس وسعيهم، وأن فساد قلوب الناس وعقائدهم، وأعمالهم يوقع في الأرض الفساد، ويملأها برا وبحرا به، فظهور الفساد في البلاد واستفحال شره لا يتم عبثاً، ولا يقع صدفة، وإنما يكون وفق سنة جارية وحكمة مدبرة، وهي ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ من الشر والفساد والمنكر والباطل والظلم، وما إلى ذلك، والله يذيقهم بعض أعمالهم وليس كل أعمالهم ذلك لأنه رحمن رحيم يعفو عن كثير، وها هم أهل القرى الظالمة والحضارات الفاسدة يكتوون بنار أعمالهم وتصرفاتهم ويتألمون لما يصيبهم، بما فكرت عقولهم وصنعت أيديهم و"لعلهم يرجعون" لكي يرجعوا إلى الله بالعمل الصالح والتوبة، ويعزموا على مقاومة الفساد والظلم، وفي هذا تحذير لمن جاء من الأمم من بعد، وهي تعرف عاقبة السابقين وترى آثارهم وتمر بها، وفي العاقبة وآثار الباقين من الهالكين عبر وعظات تستخلص منها التجارب والدروس وتستقرأ منها السنن والقوانين التاريخية والحضارية[1].

وإننا نجد صورة متكاملة لسنن الإقبال والإدبار الحاضرين في قصص الأمم في القرآن كقصة فرعون وبني إسرائيل ذلك أن أهل مصر من آل فرعون لما وصلوا إلى الرقي والازدهار أخلدوا إلى الأرض ومارسوا الظلم و العدوان كمنهج سياسي واجتماعي وجعل فرعون يذبح أبنائهم ويستحي نسائهم، ولما بلغ ظلمه نهايته جاءت سنة الله وقضى رب الملك أن يخفض هذا الفرعون ويزول ملكه ويرفع تلك الأمة المستضعفة أمة بني إسرائيل. وإذا أراد الله أمرا هيأ له أسباباً حيث ولد موسى عليه السلام وتربى في قصر فرعون كما تربى كثير من العظماء في قصور الطغاة وتلك سنة من أعظم سنن الله، ولما كبر موسى عليه السلام آتاه الله الوحي والعلم والحكمة كما هو شأن كل الأنبياء.

فنصح فرعون بلطف و لم ينتصح له كعادة الظالمين والمتجبرين في كل العصور.

ثم جاءت النذر والإنذارات لفرعون وآله فتعاقبت عليهم المجاعات والسنون ونزل عليهم الدم وأذتهم كثرة القمل والضفادع وأكل حرثهم الجراد ومسخوا مسخاً غريباً متى كان منهم الخنازير والقردة وعبدة الطاغوت وحتى أخذهم الطوفان وأغرقوا في اليمّ وهو مليم.

ولما تمت الحجة و لم يبق للظالمين عند الله عذر سقطت الحضارة الفرعونية وفق نفس السنن التي سقطت بها غيرها من الحضارات سقوطا لم تنهض منه إلى الأبد وهلك فرعون وآله هلاك استئصال وتلك هي عاقبة الظالمين[2].

---

(١) انظر في ظلال القرآن، م ٥، ٣٧٧٣، سيد قطب.

(٢)انظر نحن والحضارة الغربية، ص ٧٤،٧٥، أبو الأعلى المودودي.

وسارت حركة التاريخ ودارت الحضارة دورتها وجاءت نوبة أو دورة بنى إسرائيل وفق سنن الاستخلاف والوراثة أو التداول والاستبدال الحضارى. وبعد أن نصرهم الله على فرعون بهلاكه آتاهم الملك وأورثهم الأرض(١). ولكن هذه الوراثة والاستخلاف كانا منوطين بسنة الاستقامة بالاعتقاد السليم والعمل الصالح وهذه سنة وشرط للاستمرار وللاستخلاف، ليس خاص ببنى إسرائيل وحدهم فى التاريخ بل يجب أن تلزمه كل أمة تمنح حكومة الأرض.

ولما كان انحراف بنى إسرائيل فى تاريخ الإنسانية كانحراف الفراعين أو أشد نزعت من أيديهم الوراثة، وسلبوا التمكين والملك بنفس السنن العادلة وسلطت عليهم سهام المؤمنين تارة وسهام الجبابرة أمثالهم تارات أخرى(٢)، وأخرجوا من ديارهم وشردوا فى الأرض مرات ومرات فى بؤس وشقاء، وضربت عليهم الذلة والمسكنة إلى يوم القيامة ولن يرفعها عنهم الله إلا إذا عادوا للحق وحكموا بالعدل، وإن كانوا تمكنوا فى الأرض هذه الأيام فما تلك إلا فترة استثنائية فى تاريخ القوم، ومن باب وسنة تسليط الظالمين على ظالمين مثلهم أو أشد.

وكان القرآن قد وعى قصص الأولين مع أنبيائهم وجدد على الناس ذكراهم بعدما طوت الليالى أصحابها لكى يداوى عللا متشابهة تتكرر فى الأمم، وكثرت القصص لتحصى جملة أو جملاً كثيرة من الأمراض الاجتماعية والسياسية وتستأصل جرثومتها.

---

(١) انظر التفصيل فى الفصل الخامس والأخير.

(٢) انظر سورة الإسراء الآيات من ٤ إلى ٨ وكتاب زوال بنى إسرائيل حتمية قرآنية للشيخ سعد التميمى.

صيغ السقوط الحضارى فى القرآن

ومن خلال ما عرفنا عن القاعدة الكلية والسنة الشاملة العامة عن ظاهرة السقوط الحضارى فى القرآن الكريم، أحسب يقينا علمياً واطمئناناً إلى عدالة الله فى الحياة بين كل الخلق، أن الله تعالى ما ذكر أمة أصيبت بالدمار والهلاك، إلا وقد ذكر بجانب ذلك جريمتها وفسادها فى الأرض وانحرافها وفسوقها عن أمر ربها، حتى يعلم الناس أن ما يصيبهم من حسنات وسيئات، أو فرح وقرح أو سعادة وشقاء فبما كسبت أيديهم، قال تعالى: **﴿ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾**[2].

كما أنه لا يكون باعث الدمار والهلاك فسادا فرديا بل هو الفساد الجماعى والظلم العام الذى يشمل كل العلاقات الإنسانية الشخصية والعلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وحتى على مستوى الاعتقاد والإيمان الذى يسوده الظلم بالشرك بالله. والتناقض الداخلى بالتظاهر بالإيمان والعمل الصالح واستبطان غيره وهو النفاق. ومعنى هذا أن ظلم الإنسان لنفسه بفساده العقيدى والعملى والأخلاقى ليس مدعاة للهلاك وسبب للدمار والسقوط ما دام قاصرا على الأفراد والأمة محتفظة بكيان استمراريتها وصلاحية ديمومتها وبقائها، ولكن إذ تجاوز الظلم والفساد مستوى الأفراد الذين لا يشكلون القاعدة أو الظاهرة العامة إلى مستوى دائرة الأمة أخذت تلك الأمة فى الهبوط من علياء الكرامة والعز إلى درك الذل والهوان حتى تحين ساعة الدمار والسقوط[3].

ولقد بين الله فى القرآن الكريم أن الأمم التى أهلكت كان أكثر أفرادها غير مؤمنين فقال الله يبين هذه السنة فى قوم نوح عليه السلام **﴿فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين. إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾**[4].

وعن ثمود قوم صالح: **﴿فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾**[5].

ولا يظن أحد أن الصيغة الوحيدة لسقوط الحضارات وهلاك الأمم هى فى ذلك الأسلوب الذى تحدث عنه القرآن وهو الدمار المباشر الذى حاق بعدد من القرى عبر

---

(١) سورة الروم، الآية ٤ .

(٢) سورة المطففين، الآية ١٤ .

(٣) انظر نحن والحضارة الغربية، ص ٢٢٢.

(٤) سورة الشعراء، الآيات ١١٩-١٢٠-١٢١.

(٥) سورة الشعراء، الآية ١٥٨.

عصور تاريخية متقدمة بسبب مواقفها الجائرة من دعوات الأنبياء والرسل، كلا إن الأمم الظالمة المنحرفة والمجتمعات الفاسدة غير الصالحة للبقـاء التى أخـذت الجزاء مـن جنـس عملها، والتى ما زالت هى أمام قوتين: سخرهما مالك الملك لتحقيق أمره وتنفيذ سنته، القوة المادية المنظورة والقوة الروحية غير المنظورة، والنـاس فـى الأولى يمـرون فـى الآثـار الباقية ويقرءون فى التاريخ نماذج شتى من تسخير الله للطبيعة فى إحقاق الحق وإزهـاق الباطل، وذلك كالسيول الجارفة والرياح العاصفة والهزات العنيفـة والصيحـة والرجفـة، والغرق، وإن اختلفت التعليلات والتصورات لأسباب حدوث هذه العوامل المدمرة بين الاتجاهات والمذاهب التفسيرية.

أما صيغة القوة الثانية اللامرئية غير المنظورة فهى صيغة روحية معنويـة أكـثر شمولية وأشد خطراً، وهى التى تحتضر بها الأمة المصابة كثيراً، وسنة الله أن تنشأ أضرارهـا مـن داخل النفس الإنسانية، وهى أن كل فرد يحيد عن الاستقامة ويزيغ عن أمر ربـه يصـاب باليأس والإحباط والقنوط وفشل الإرادة أو بالغرور والتجبر والظلم والعـدوان، وأخـف الأمراض من هذه أشر من الآخر[1].

وحتى لا يحسب الإنسان المعاصر نفسه أنه أصبح بمفازة ومناعـة مـن هـذه الأمـراض والمهالك مـع أنـه يـأتي أسبابها ويمـارس عواملهـا - لمجرد انتمائه لعصر التكنولوجيـا والازدهار الطبى وتقدم وسائل العلاج، فليقرأ عن هذه الأمـراض فـى الحضـارة الغربيـة المعاصرة وما تفعله فى أكبر عواصمها وما يعانيه أبناؤها من دمار وانتحار، ولأمر بسيط جدا وهو أنهم زاغـوا عـن أمـر الله فحق عليهـم قولـه تعـالى: ﴿**فلمـا زاغـوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين**﴾[2].

ويقيناً فى عدالة الرحمن انه سيحيق بهؤلاء ما حاق بـأهل تلـك القـرى الظالمـة التـى سبقتهم فى التاريخ والتى قال الله فى أهلها: ﴿**فما زالت تلك دعواهم حتـى جعلنـاهم حصيداً خامدين**﴾[3].

وسنة الله سائرة، شاملة، ثابتة، باقية ببقاء الخلق، ومـن عـدل الله فـى الإنسـانية ألا يخص الأمم بنوع واحد أو صيغة واحدة مـن الدمـار والسـقوط بـل جـرت سـنته تعـالى بتنويع العذاب وكثرة ألوانه واختلافها بطرق عديدة ﴿**وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر**﴾[4].

---

(١) انظر التفسير الإسلامى للتاريخ، ص ٣٢٠، د. / عماد الدين خليل.

(٢) سورة الصف، الآية ٥.

(٣)سورة الأنبياء، الآية ١٥.

(٤)سورة المدثر، الآية ٣١.

وبحسب فساد الأمة وانحرافها كما ذكرنا يكون الهلاك والتعذيب الذى قد يجئ صاعقة، أو غرقاً، أو فيضاناً، أو ريحاً، أو خسفاً أو قحطاً، أو مجاعة وارتفاعا فى الاسعار، أو امراضا، وأوجاعا، أو ظلما وجورا أو فتنا واختلافا بين الناس، أو مسخا فى الصور والأشكال كما فعل ببنى إسرائيل، أو ضعفا فى القلوب ووهنا فى النفوس كما هو حالة الأمة الأسلامية[1].

فعن هلاك قوم نوح عليه السلام يقول تعالى: **﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾**[2].

وعن عاد قال تعالى: **﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون﴾**[3].

وعن ثمود قال تعالى: **﴿وأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾**[4].

والطاغية هى الصاعقة.

وهكذا كل الأمم آتاها ما يناسب إجرامها، ففى الغرق يقول الله: **﴿فأغرقناهم فى اليم﴾**[5].

ويقول **﴿فأغرقناهم أجمعين﴾**[6].

وفى الريح يقول تعالى: **﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾**[7].

وفى الصاعقه يقول تعالى: **﴿فأخذتهم الصاعقه وهم ينظرون﴾**[8].

ويقول فى الخسف **﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾**[9]، وهو قارون.

ويقول تعالى فى القحط والمجاعات والارتفاع فى الأسعار وانتشار الأمراض **﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾**[10].

---

(١) انظر أسباب هلاك الأمم وسنة الله فى المنحرفين والمجرمين، ص ٤٣.
(٢) سورة العنكبوت، الآية ١٣.
(٣) سورة فصلت، الآية ١٥.
(٤) سورة الحاقة، الآية ٥.
(٥) سورة الأعراف، ١٣٥.
(٦) سورة الزخرف، ٣٥.
(٧) سورة الحاقة، الآية ٦.
(٨) سورة الذاريات، ٤٤.
(٩) سورة القصص، ٨١.
(١٠) سورة الأعراف، ١٦٨.

ويقول الله: ﴿فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون﴾[1].

والسيئات تعم كل ما يسوء الإنسان، والبأساء هو الفقر والشـدة والجوع والقحط والضراء الأمراض والآفات[2].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ولقـد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون﴾[3].

وقوله تعالى : ﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾[4].

ويقول تعالى فى الفتن بين الناس والتشيع للأفراد: ﴿قل هـو القـادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾[5].

وقيل إن العذاب من فوق قد يكون هو القذف بالقنابل على الناس من الطائرات والعذاب من تحت قد يكون هو الألغام التى اعتاد المقاتلون استعمالها فى الحروب، وقيل ليس الشيع هي كثرة الفرق والمذاهب المتناحرة والمتخاذلة[6].

ويقول تعالى عن مسخ الصور: ﴿فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾[7].

ويقول تعالى: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل﴾[8].

وهذا المسخ حدث لبنى اسرائيل، وكان مسخا وتغييرا حقيقيا وتحويلا من الصور الآدمية إلى صور قردة وخنازير وهذا هو ظاهر النص القرآني.

أما مسخ القلوب فقد حصل للكثير من ذلك قارون وابن باعوراء[9]، الذى قال الله فيه: ﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من

---

(١) سورة الأنعام ٤٣.
(٢) انظر أسباب هلاك الأمم وسنة الله فى المنحرفين والمجرمين ص ٤٤.
(٣) الأعراف ١٢٩.
(٤) النحل ١١٢.
(٥) سورة الأنعام الآية ٦٦.
(٦) انظر أسباب هلاك الأمم وسنة الله فى المجرمين والمنحرفين ص ٤٤.
(٧) سورة الأعراف الآية ١٦٦.
(٨) سورة المائدة ٦٣.
(٩) انظر أسباب النزول ص ١٣٠ تأليف أبي الحسن على بن أحمد الواحدي فى النيسابورى.

الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض وأتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾[1].

وعن إمطار الحجارة على قوم لوط قال تعالى: **﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾**[2].

ولقد أنذر الله الذين كذبوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم من أن ينزل بهم ما نزل بتلك الأمم السابقة التي خرجت عن سنن الاستقامة وحدود الامتثال لأمر الله فقال تعالى: **﴿... وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين. وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم. ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**[3].

وفي هذه الآيات إشارات لها تفصيل في آيات أخرى كثيرة كما هو في سورة الأعراف، وهود، العنكبوت، والكهف والحاقة، فعاد أهلكت بريح صرصر عاتية، كما عرفنا، وكذلك ثمود فقد أهلكت بالصيحة المزلزلة وبقت مساكنهم عبرة للسواح والمارة وخاصة العرب الذين عرفوا هذه المناطق في رحلتهم التجارية في الشتاء والصيف ورأوا البقايا والأطلال بعد الغز والتمكين، وهم أول من خوطب بالقرآن الكريم أفلا يتدبرونه ليؤمنوا به ويتبعوا النور الذي جاء فيه.

وكانت الإشارة الأخرى إلى قارون وفرعون وهامان الذين جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض، فهؤلاء وأولئك قد كانوا أصحاب قوة ومال وغلبة وسلطان، ونالوا ملكا وجاهاً فظنوا أن تلك عوامل بقاء وخلود وأسباب حصانة ومناعة فأتاهم الله بسبب ذنوبهم من حيث لم يحتسبوا. قال تعالى: **﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا[4] ومنهم من أخذته الصيحة[5] ومنهم من خسفنا به الأرض[6] ومنهم من أغرقنا[7] وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**.

---

(١) سورة الأعراف الآيتين ١٧٥،١٧٦.

(٢) سورة هود الآية ٨٢.

(٣) سورة العنكبوت الآيات ٣٨،٣٩،٤٠.

(٤) قوم عاد.

(٥) قوم ثمود.

(٦) قارون.

(٧) إشارة إلى فرعون وهامان.

فهذه مصارع بعض العتاة الطغاة على مدار التاريخ الذين بقوا عبرا ودروسا للإنسانية[1].

أما ما عوقب به الظالمون العرب بسبب تكذيبهم برسول الله عليه الصلاة والسلام فقد كان يوم بدر الذى أخذ الله فيه رؤوس الكفر والشرك ونصر المسلمين عليهم وهم أذلة وهو نوع من أنواع عقوبات الأمم السابقة بل لعله أشد وأشقى لأن تلك الأمم استؤصلت بالعذاب ثم الموت أما هم فلم يموتوا فيها كلية و لم يحيوا حياة طيبة[2].

وبقت سنة الله واحدة لا تتبدل تعامل بها القرون الحاضرة بمثل ما عملت بها القرون الذاهبة الخالية[3].

سنن الابتلاء والنذر فى القرآن:

من عدل الله أنه ما من بقعة على ظهر الأرض إلا جاء أهلها نذير أي نبى أو رسول من عند الله العلى العظيم خالق السموات والأرض قال تعال **﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾**[4].

فالآية الكريمة تؤكد حقيقة كبيرة وسنة ثابتة. هى أنه ما من أمة من أمم الأرض إلا وعرفت رسولا أو نبيا دعاها إلى عبادة الله وقال تعالى: **﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا إن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾**[2].

وقد يسأل سائل فما بالنا لا نعرف رسلا غير رسل بنى اسرائيل أو الذين بعثوا فى بلاد العرب الحالية وذلك كبلاد الصين والهند واليابان وأمريكا وأوروبا وغيرها ولعل الجواب يكمن فى قوله تعالى: **﴿ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك﴾**[3].

ولعل هذه البلاد المذكورة كانت مجهولة تاريخيا وجغرافيا لدى العرب والمجاورين لهم من أهل الكتاب وهم الذين خصو بالقرآن قبل غيرهم من الأمم والله تعالى يقول: **﴿لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الالباب﴾**[4].

---

(١) انظر فى ظلال القرآن، م ٥ ص ٢٧٣٦ سيد قطب.

(٢) انظر الأساس فى التفسير، سعيد حوى، العنكبوت ٣٨،٣٩،٤٠.

(٣) انظر تفسير المنار، العنكبوت ٣٨-٣٩-٤٠.

(٤)سورة فاطر الآية ٢٤.

(٢) سورة النحل الآية ٣٦.

(٣) سورة النساء ١٦٣.

(٤) سورة يوسف ١١١.

أى الفائدة من قصص الأنبياء والأمم الاعتبار بمعناه الواسع الدقيق، وكيف يعتبر الإنسان بشئ يجهله وبأمر لا يعرفه، وهذه هى واقعية القرآن وحكمته فى مخاطبة الناس[٥].

ولقد اختبر الله الذين خلوا من قبل وبعث فيهم الرسل مبشرين ومنذرين وسلط عليهم البأساء فأصابهم بالفقر والجوع والحاجة وقلة المؤونة لعلهم يتضرعون ويستغفروا ويتوبوا، فما عقل أكثرهم ما اراد الله وما فهموا حكمة الابتلاء، ثم قلب الله عليهم الحال وأبدلهم بالشدة رخاء، وبالمرض والسقم صحة وعافية، وبالفقر والحاجة غنى وثراء، ليشكروا فما فعلوا وما اتعظوا، فاستكبروا وأصروا على الكفر، وازدادوا عنادا وعتوا، حتى كثرت أموالهم وأولادهم وطابت عيشتهم وأرزاقهم، واعتبروا الحالتين المختلفتين عاديتين و لم يدركوا حكمة الله فيهما، وظنوا ألا دخل لله لما أصابهم ولما هم فيه ولا علاقة لما جرى لهم بما فى أنفسهم من تكذيب وظلم وشرك وجحود، فما نفع هذا ولا ذاك وقالوا إنما الدهر والأيام تارات وتارات، وقد مس هذا وذاك آباءنا وأجدادنا، حتى إذا أعذروا وقامت عليهم الحجة من أنفسهم ومن حولهم أخذهم الله بالعقوبة فجاءة وبغتة من غير مقدمات سابقة إلا ما عرفوه من سنن الاملاء والاستدراج[١].

وفى هذا بيان للأمم لتتعظ وتعتبر الخلف بالسلف واللاحق بالسابق من الأجيال فى عقلاء الإنسانية، وذكر سبحانه نماذج من الأقوام السابقة التى لم تستقم على طريق الحق فحق عليها القول، وذكر أن هذه قاعدة عامة وسنة ثابتة عرفها قوم نوح عليه السلام حين دعاهم نبيهم إلى عبادة الله وحده والالتزام بتعاليم الكتاب فما كان موقفهم تكذيبه واتهامه بالضلال، وتعجبوا من أن ينزل الله على أحد خلقه وحياً، فعوقبوا بالغرق وأنجى الله نوحا والذين آمنوا معه.

وعرفها عاد الذين دعاهم نبيهم إلى عبادة الله وحده وتقواه وذكرهم نعمه سبحانه عليهم فاتهموه بالسفه والطيش، وكذبوه وتعجبوا من أن ينزل الله عليه وحيا، وأصروا على ما كانوا فيه من الشرك والضلال، فعوقبوا بتسليط الريح الصرصرة عليهم فأستأصلتهم وأنجى هود والذين آمنوا.

والابتلاء بالأخذ بالبأساء والضراء سنة من سنن الله ترافق الرسالات وتختبر بها الأمم، والأقوام، قال تعالى: **﴿وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون. ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا، وقالوا قد مس**

(٥) انظر الأنبياء فى القرآن، ص ١٧، محمود الشرقاوى.

(١) انظر الأساس فى التفسير، يوسف ١١١.

آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾[٢].

فى الآيتين يعرف صاحب المنار القرية بأنها هى المدينة الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها، وهى التى تسمى فى عرف مصطلحات العصر الحديث بالعاصمة وكان الأنبياء يبعثون فى هذه القرى الجامعة لأن سائر البلاد والشعوب تتبع الكبار وأهل العواصم وإن هم آمنوا كان ذلك فتحاً كبيراً، والبأساء والضراء هما الشدة والمشقة كالجدب والفقر والأزمات والنكبات بلغة العصر، وكل ما يضر الإنسان فى نفسه وبدنه ومعيشته والأخذ بهذه الظروف والأحوال يكون وسيلة تربوية وتجربة نافعة لمن يعتبر ويتعظ، وقد جعلها الله سنة من سننه للتوبة والإنابة قبل الهلاك والبوار.

ومن سنة الله كما بينا ان يبدل السيئة الحسنة كما فعل بقوم شعيب عليه السلام، اصحاب الحجر قال تعالى: "ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة أى بلوناهم بضد ذلك فجعلنا الحالة الحسنة فى مكان الحالة السيئة، كاليسر بدل العسر، والغنى مكان الفقر، وهكذا "متى عفوا" أى نسوا وكثروا، وقد قال شعيب عليه السلام لقومه: **﴿واذكروا إذ كنتم قليلا فكثرتم. وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾**[١].

ولكن لم تزد هذه الذكرى هؤلاء الضالين إلا بطرا وبغيا فى الأرض، وقالوا : **﴿وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء﴾** عقدة الإبائية فى كل شئ إضافة إلى كل الجرائم والانحرافات أنهم جهلوا سنن الله فى السعادة والشقاء فأعرضوا عن كل نافع ومفيد وكأنهم عادوا أنفسهم وحاربوها من حيث لا يشعرون، حتى كانت العاقبة الكالحة **﴿فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾** فأخذوا فجأة من غير إحساس ولا شعور منهم[٢].

وليس للعبث وتحصيل الحاصل يأخذ الله العباد بالشدة والنقص فى الأموال والأنفس. كلا وهو سبحانه فى غنى عن العالمين لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين، وإنما يأخذ الله المكذبين برسله بالبأساء والضراء لصالحهم ولحكمة وهى لكى يتضرعو إلى الله ويعودوا عن غيهم وضلالهم إلى الله، ومن طبيعة الشدة توليد القوة فى النفوس وتقوية روح المقاومة لدى الأمم والشعوب، ولذلك اقتضت مشيئة الله أن يأخذ أهل كل قرية يرسل إليها رسولا أو نبيا فتكذبه بالبأساء فى أنفسهم وأرواحهم والضراء فى أبدانهم وأرزاقهم، وذلك استحياء للقلوب واعتصار للأمراض منها، والشدائد والآلام خير مهذب للأرواح وخير مربى للنفوس فى معادن الأحرار، وخير مفجر لينابيع الخير الكامنة "ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة" فإذا الرخاء بدل الشدة،

---

(٢) سورة الأعراف الآيتين ٩٣،٩٤.

(١) الأعراف ٨٦.

(٢) انظر تفسير المنار، سورة الأعراف ٨٦.

والعافية مكان الضر، والأمن مكان الخوف، حتى إذا الحياة نعماء، وخير على خير، وهو ابتلاء واختبار، وحتى إذا كان هذا كله رأيت القوم يأتون البيوت من نوافذها ويفهمون الحقيقة معكوسة وخاطئة، ويقولون قد مس هذا الضراء والسراء آباءنا، وما هي إلا الحياة الدنيا وتقلباتها، والحياة تسير سيرة عادية وراحوا يتلذذون في اليسر ويتذمرون في العسر، و لم يفطنوا إلى سنن ا لله فى الحياة وحسبوا الوجود يسير عفويا، والتاريخ يمضى جزافاً ولا قصد مرسوم له ولا أجل معلوم يحدده وقد أخذوا دورهم فى التاريخ وحظهم من الحياة بالضراء والسراء كآبائهم وغيرهم من السابقين وكفى أوعندئذ وفى ساعة نشوة النعمة والغفلة السادرة، تأتى سنة ا لله الجارية "فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون" جزاء بما اغتروا وبعدوا عن ا لله وعطلوا الحواس عن التدبر والتأمل والاعتبار، وأطلقوا لشهواتهم العنان فما وعوا وماعادوا يتحرجون من منكر ومعصية، ولا يستلذون بمعروف وطاعة فتساوى عندهم القبح والجمال، والحلال والحرام، والطيب والخبيث، كما نعاهد اليوم هذا فى الأمم الضالة والمجتمعات المنحرفة الغاوية، وسنن ا لله تمضى والتاريخ يتحرك ويجرى دون توقف ولا رجوع[1]، وكان الأجدر بالأمم الضالة والمجتمعات الظالمة أن تتضرع إلى ا لله وتتوب إليه بمجيئ بأسه وظهور الآيات والنذر فى الأنفس والآفاق ولكن العمى عن الحق وقساوة القلوب هى طابع هذه الأمم وسمتها عبر العصور والدهور، وتبقى سادرة فى غيها حتى يأتيها أمر ا لله.

ثم قال تعالى: **﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون. أفأمنوا مكر ا لله فلا يأمن مكر ا لله إلا القوم الخاسرون﴾**[2].

والاستفهام فى الآية للتذكير والتعجب من أمر ليس من شأنه أن لا يقع والمعنى أغر أهل القرى ما كانوا فيه من نعم حين كذبوا الرسل واتبعوا غير منهجهم ووجود النعم وكثرتها ليس دليلاً على دوامها وكم من نعمة غزيرة ومدنيات عاتية وحضارات زاهية انهمت وزالت بسبب كفر أهلها، بعد أن ظنوا خلودها وبقاءها لا لشئ إلا لكثرة عدتها وعدد أبنائها، وكثير من الأمم من يجهل التدبير الخفى لله القائم على سنن فى الخلق وقوانين في الوجود، لا تختلف ولا تحيد، اغتر الغافلون عنها بظواهر القوة المادية كالغنى والسلطان وفى كل يوم يذل ا لله أقواما أعزاء أقوياء ويعز أناسا ضعفاء كانوا أذلاء منبذين عند أهل الجاه والمال، ولكن الجهل والغفلة عن سنن ا لله فى الحياة ينسى الناس كل شئ فيغدوا يعملون وفق خطط جائرة ويقيمون الحقائق بتقديرات ومقاييس

---

(١) انظر فى ظلال القرآن، م ٣، ص ١٣٣٧ و ١٣٣٨.

(٢) الأعراف الآيات ٩٤ إلى ٩٨.

خاطئة حتى يتبين لهم الحق حين لا ينفع الندم[1].

وبعد أن قرر الله خلال الآيات السابقة مصير تلك القوى الظالمة وبين سننه الجارية عبر القرون بما يشهد به تاريخ تلك الحضارات السادرة والمجتمعات الثاوية التى غدت بقاياها مناظر يرتعش منها الوجدان وتتحصر عليها القلوب، وآثار تستخلص منها العبر والعظات، وتقرأ فيها سنن الله فى الظالمين المكذبين الذين لم يؤمنوا ويتقوا، بل كذبوا، وأشركوا وغرهم ما كانوا فيه أنذر الأمم اللاحقة.

وفى هذا الموضوع موضوع الابتلاء والإملاء للاتعاظ والاعتبار وترك فرصة التوبة للرجوع، والإنابة قال تعالى عن بنى اسرائيل الذين ملئوا تاريخ الإنسانية القديم والحديث ظلما وعدوانا ومحاربة الحق وأهله **﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون. فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه إلا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين. فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين. ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل. فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون، فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾** [2].

والمعنى لقد اختبرنا قوم فرعون بالجدب سنة بعد سنة والقحط بذهاب الغلات والثمار الا القليل عظة لهم وتذكيرا لينزجروا ويتوبوا وكانوا إذا جاءتهم العافية والخصب والرخاء وكثرة الثمار ورأوا ما يحبون "قالوا لنا هذه" ونحن أولى بها "وإن تصبهم سيئة" يعنى جدوب وقحوط وبلاء "يطيروا بموسى ومن معه" ويتشاءموا ويقولون ذهبت حظوظنا من الرخاء والخصب منذ جاءنا موسى "كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا" والأمر ليس بأيديهم ولا بأيدي موسى ومن معه بل هو عند الله، ألا نما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون، وقالوا لموسى عليه السلام "مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين" وحيث لا ينفع العلاج يجب الاستئصال، فجاءهم الطوفان وهو الغرق على أرجح الأراء[3].

و"مهما" اسم شرط يدل على العموم، والمعنى إنك يا موسى إن تجيئنا بكل أنواع الآيات للاستدلال بها على حقيقة دعوتك "فما نحن لك بمؤمنين فأتاهم الله العاقبة المرة

---

(١) انظر تفسير المنار سورة الأعراف الآيات ٩٦، ٩٨.

(٢) سورة الأعراف الآيات ١٣٠-١٣٦.

(٣) انظر تفسير الطبرى، سورة الأعراف، الآيات ١٣٩-١٣٥.

وسوء الختام، قال سبحانه "فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين" أى أنزل الله عليهم هذه الآيات والعبر وهى مصائب ونكبات لعلهم يتوبوا ويتضرعوا ولكنهم أصروا واستكبروا على أن لا يؤمنوا بأية آية مهما كانت، وكانوا قوما ترددوا على المعاصى والآثام : وتطبعوا على الفسوق والإجرام. أما عن معانى هذه الآيات فإن الطوفان هو ما يطوف الناس من كل جانب كالأمطار المغرقة، وقد يكون الطوفان شئ له معنى آخر كالأمراض والأوجاع، ولعل هذا هو الأقرب إلى الحقيقة فى هذه الآية، لأنه لو كان الطوفان يعضى المطر الغزير المغرق كالذى أغرق قوم نوح، كما يرى ذلك الطبرى فى هذه الآية وإلا فكيف يتبعه بإرسال الجراد والقمل، على القوم وقد أغرقوا بالماء فيكون الأمر من باب تحصيل الحاصل والجراد حشرات معروفة تهلك الحرث من الزرع والشجر. وقد ذكر بعد الطوفان ويقال إنه ملأ بيوت فرعون ملأه حتى غطى كل أرض مصر المغضوب على أهلها يومذاك[1].

والضفادع هى الكائنات المعروفة التى كانت تخرج من الأنهار وتنتشر فى الأرض على فرش فرعون وملئه.

والدم فسره بعضهم بالرعاف وأغلب المفسرين يرون أن مياه عيون وأنهار بنى اسرائيل تحولت إلى دم دام سبعة أيام، والذى لا مراء فيه أن هذه الآيات كما سماها الله كانت قد وقعت ما دامت ثابتة بنص القرآن وقد سلطها الله على بنى اسرائيل عقابا لهم على ما أجرموا وأفسدوا فى الأرض، ولكن كيف كان وقوعها وكيف حدثت فهذا للمفسرين فيه أراء ومذاهب، فالوقوع ثابت بالقرآن والعلة فى ذلك معروفة أيضا بنص القرآن والكيفية يعلمها الله.

ويبدو أن الله لم يهلك القوم بهذه الآيات هلاك استئصال وكشف عنهم العذاب إلى أجل هم بالغوه، قال تعالى: ﴿**ولما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون**﴾ والنكث هو نقض العهد، وكان العذاب يكشف عن بنى إسرائيل مرة بعد مرة إلى أجل هم بالغوه وهو الغرق فى اليم الذى أهلك المكذبون الظالمون من بنى اسرائيل هلاك استئصال، قال الله تعالى : ﴿**فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**﴾ فبينت الآية الحد والنهاية التى أهلكوا عندها، وعلة الهلاك والانتقام بأنها التكذيب بآيات الله والغفلة عن نذره[2].

وتسجل هذه الآيات مواصفات فترة من فترات تاريخ الأقوام، وهى مرحلة النذر

(١) انظر تفسير المنار، سورة الأعراف ١٣٨-١٣٤.

(٢) انظر تفسير المنار، سورة الأعراف ١٣٥.

التى تسبق هلاك الأمم، أو تربيتها، ومن سنة الله وعدالته فى خلقه أن جعل هذه الفترة التاريخية فى حياة الأمم فرصة للتوبة والتضرع لمن أراد ذلك، وجعل سبحانه أعراضها ومظاهرها ظواهر للاعتبار والاتعاظ.

وظاهر الآية التى بين أيدينا يبين أن فرعون وملأه لم يتعظوا بتلك الأعراض والظواهر وغرهم ما كانوا فيه وتمادوا فى جبروتهم وطغيانهم يعمهون وظنوا أنهم بمفازة من عذاب الله وقد أفلتوا وغادروا مرحلة السقوط ما يعتقد بذلك اليوم بعض فلاسفة الحضارة الغربية ونفذ فرعون تهديده ووعيده فقتل الرجال واستحى النساء ومضى موسى وقومه فى دعوتهم وصبروا على الأذى وراحوا يتحملون المشاق. وينتظرون وعد الله ونصره وكادت تنتهى فرصة التوبة وفترة الإملاء والإمهال التى قال الله فيها : ﴿**ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون**﴾ أى الحكمة من كل هذا لكى يتذكر القوم، وكون السنين وهى الجدب والقحط فى أرض مصر الخصبة المثمرة فى عهد يوسف عليه السلام وغيره تصير قاحلة جدباء فى عهد فرعون ظاهرة تلفت الانتباه وتشد الأنظار وتدعو إلى اليقظة والتفكير. ولكن المكذبين الظالمين فى غفلة ساهون، فلا يرون العلاقة الوثيقة بين الاعتقاد القلبى وسلوك الأفراد والجماعات وواقع الحياة لأنها علاقة غيبية لا تدرك بحاسة السمع أو البصر والظالمون والماديون منهم خاصة أغلظ حسا وأغبى خلق الله فى فهم حقائق الغيب وإن ظهرت نتائجها فهم لا يبصرونها، فلا يفطنوا إلى السنن الجارية السائرة وفقها حياة المجتمعات، بل يوعزون كل التقلبات الحضارية إلى أيام الدهر ويعللونها تعليلات مادية، ونحن مؤمنون فلا نفسر القضايا إلا تفسيراً إيمانيا، قائما على الحجة والإقناع، لا على الخرافة والميتافيزيقا أو الاجحاف والجحود.

ولعل ما نراه اليوم فى تفسيرات المفكرين الملاحدة وفى الدول الشيوعية خاصة لظاهرة الجفاف ونقص الغلات والثمار دليل على هذه النظرة المادية ذات البعد التاريخى والتى تبناها أسلاف هؤلاء المعاصرين الجاحدين لحقيقة الألوهية فى تصريف شئون البلدان الاقتصادية والنفسية والاجتماعية وفق أعمال البشر وسلوكاتهم فى الحياة.

ويرى الماديون الملاحدة أن نزول الجوائح الاقتصادية والعلل الربانية بالأمم والتى يسمونها كوارث طبيعية أو مشكلات اجتماعية لها أسباب ذاتية وترجع إلى عوامل فى طبيعة الأشياء ولا دخل للممارسات السياسية والاجتماعية من الأفراد والأمم فى حدوثها، ذلك أن هذه نظرة تحليلية لحدوث الظواهر، أما أسبابها الحقيقية فمصدرها الإنسان وإن كان الله سبحانه قد اوجد أسباب هذه الظواهر فيها، فذلك لأن الله يجرى حياة البشر وفق السنن المادية وإذا إراد الله أمرا هيأ له أسباباً فى ذاته إلا ما كان من سنن خارقة، ولهذا ما زالت كثير من الأمم لم تنتبه إلى تلك العلاقات بين عقيدة

الشرك والإعراض عن دعوة الحق وسلوك الاستكبار وجفاء الحياة وجدبها وقلة الغلات وفقرها الاقتصادى وسيادة القلق والاضطراب واليأس والقنوط فى النفوس والإجرام والظلم وجفاء العلاقات الروحية والمعنوية بين الناس فى المجتمع.

هذه العوامل التى أقعدت كثيرا من الأمم عن الإنتاج والإبداع والعمل والاختراع المعنوى والروحى، وأعجزت الإنسان على أن يقدم ما يخدم به ذاته المعنوية أى فى جانبها الروحى، وعلى هذه الحالة كان وضع تلك الأمم الظالمة فى العصور التاريخية الماضية وانتهى بها إلى البوار والسقوط، وكذلك كان فرعون وملؤه وقد جهل سنن الله فى الحياة ورفض اتباع الحق وراح يتطير بموسى ومن معه، كما قال تعالى: **﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذا. وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾** وهذه طبيعة وعادة فى النفس الإنسانية حين تنحرف عن الحق، وتذر الاستقامة والاعتدال فإنها لا تبصر قدرة الله فى تصريف شئون الوجود، وتبديل أحوال الأمم والشعوب وفق أعمال البشر ولذا راح فرعون وقومه يعللون الآيات والنذر، فيرون الحسنة من حظهم وفى السيئة يطيروا بموسى ومن معه، والحق أن مصدر ذلك كله أنفسهم وأن تلك التبديلات والتحويلات أجراها الله وفق سننه فى الحياة ولكن أكثرهم لا يعلمون "بمعنى أن هناك قلة تعلم الحكمة من هذه التقلبات وإن كانت الكثرة لا تعلم ثم يزيد الله الإنذار قوة من المصير النهائى التاعس، بحيث تصبح هذه النذر ظاهرة للعيان وفى مستوى إدراك الجميع إلا من طبع الله على قلبه فقال تعالى : **﴿فأرسلنا عليهم الطوفان، والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات﴾** أى مفرقات على فترات من الوقت الواحدة تلو الواحدة. وفى كل مرة يدعون موسى عليه السلام لينقذهم منها ويعدوه أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بنى اسرائيل، ولكن يخلفوا العهد والوعد عند رفع العذاب عنهم، وكان تأخير العذاب ورفعه عن القوم سنة من سنن الإمهال وليس إهمالاً كما قد فهم القوم، وسيأتى اليوم الذى لا مرد لعذاب الله فيه، حيث ليس هناك استثناء فى سنن الله.

وفى العصر الحديث نرى الجفاف والقحط يحل بالأرض، ونرى الآفات فى الزرع والضرع، وحتى إذا أحس الفلاحون والمزارعون فى البلاد الإسلامية خاصة بفطرتهم الإيمانية العقيدية أن ذلك حل بهم لانحرافهم وكثرة الفواحش والذنوب وتفشى الظلم والمعاصى بينهم فتضرعوا إلى الله بالتوبة والاستغفار وطلبوا الغيث بالاستسقاء، رأينا الذين ظلموا ينظرون إلى هؤلاء التائبين الآيبين إلى الله نظرة السخرية والسذاجة وحسب هؤلاء الظالمون أصحاب النظريات المادية والتفسيرات الوضعية أن لا دخل لسلوكهم وعقيدتهم وأخلاقهم لما حل بهم من ضيق فى الأرزاق ونكد فى العيش، وهكذا بعد النذر والإمهال إلى أجل هم بالغوه تتحقق سنة الله فى الظالمين، قال تعالى

فى تكملة الآية التى نحن بصددها ﴿**فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم. بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**﴾. وقد أسند الفعل المضارع إلى الضمير المتكلم "النون" وهو الله فى كلا الفعلين "فأغرقنا" ولهذا دلالته لما نحن بصدده من الشرح والبيان، وسمى الفعل انتقام أى رد فعل سببه تصرفهم واعتقادهم، وكان الإغراق فى اليم ظاهر أمام كل الناس ثم حصر سبحانه أسباب الانتقام بأنها التكذيب بآيات الله والغفلة عنها، فقال: بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا غافلين" أى أن التكذيب والغفلة كانا هما السببين المباشرين فى الغرق[1].

الظلــم:

وأصل الظلم هو وضع الشئ فى غير موضعه وهو الميل عن القصد[1].

والظلم أنواع فقد يكون بمعنى الشرك كقوله تعالى : ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾[2].

وكقوله تعالى: ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾[3].

والظلم هنا بمعنى الشرك[4].

ولقد سئل النبى عليه الصلاة والسلم عن معنى هذه الآية ففسر الظلم، بمعنى الشرك[5].

ولقد كان الظلم أول ما حذر الله منه آدم وزوجه، فقال تعالى: ﴿**وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما. ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾[6].

ومن هنا تقرر سنة الله أن لا سعادة إلا فى اتباع هدى الحق والشقاء فى تركه[7].

وغدا الظلم سنة من سنن الله فى إهلاك الاجيال وتقرر سببا فى سقوط الحضارات وإبادة المدنيات وإزالة الدول والحكومات فقال الله: ﴿**وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة**﴾[8].

---

(١) انظر فى ظلال القرآن م٣ ص ١٣٤٤ إلى ١٣٦١ بالتصرف.
(١) لسان العرب مادة ظلم.
(٢) سورة لقمان الآية ١٢.
(٣) الأنعام الآية ٨٣.
(٤) انظر تفسير النسفى، سورة الأنعام الآية ٨٣.
(٥) انظر تفسير المنار، سورة الأنعام ٨٣.
(٦) سورة البقرة، الآية ٣٤.
(٧) سورة هود الآيتين ١١٥.
(٨) سورة هود الآيتين ١١٧،١١٨.

لقد جاء الحديث فى هذه الآيات تكملة فى التعقيب على مصارع القرى الثاوية والقرى الغابرة يشير من طرف خفى إلى أنه لو كان فى هذه القرون أى الأجيال أولوا بقية يحافظون على دعوة الأنبياء فينهون عن الفساد فى الأرض ويصدون الظالمين عن الظلم فى حق الله والعباد وأنفسهم، ما أخذت تلك القرى بعذاب الاستئصال الذى حل بأمم كثيرة كعاد وثمود وسبأ، ومن سنن الله وعدله ألا يأخذ القرى بظلم إن كان أهلها مصلحين، أى كانوا على الاستقامة.

ولما كانت القلة المستضعفة على الصلاح والعدل، فأنجاها الله، وأهلك الكثرة الظالمة المترفة، وهذه الآية واحدة من جملة الآيات التى تكشف عن سنة من سنن الله فى الأمم والحضارات والتى حل بها عذاب الله فأهلكها هلاك استئصال لو حدث انحلال واختلال[1].

وقال تعالى: **﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شئ لما جاء أمر ربك. وما زادوهم غير تتبيب. وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾**[2].

ذلك إشارة إلى ما قص من أنباء الأمم الهالكة، وهذه الآيات خاتمة وإشارة إلى قرى بائدة وحضارات سادرة كثيرة ما زالت أنباؤها باقية، وكثير من آثارها معروضة مشاهدة تزحم النفس والخيال فمنهم الغارقون بالطوفان، ومنهم بالعاصفة المدمرة، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفت به وبداره الأرض ومنهم من يقدم قومه يوم القيامة، فيرد النار وما كان للناس من علم بهذه الحضارات وأنبأهم القرآن الذى يستهدف بذلك تربية الأمم والشعوب، ومعرفة سنن الله فى الحضارات، فما زال منها قائم ترى آثاره وتشهد على ما بلغ أهلها من القوة كبقايا عاد فى الأحقاف، وثمود فى الحجر، ومنها حصيد أى كالزرع المحصود "وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم" وظلم النفس هو تعطيل وسائل الإدراك والتدبر فيها، وهى الحواس، وذلك بالتولى عن الحق والتكذيب به والاستهزاء بالوعيد وعدم استعمال العقل الاستعمال الصحيح وعند ذلك حق بهم ما كان به يستهزءون "فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شئ لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب، وها هى العاقبة تصدق النذر والآلهة التى تشبثوا بها وعبدوها من دون الله، فلم تزدهم إلا خسارة ودمارا "وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة" وبهذا الظلم يأخذ ربك القرى والظلم هنا بمعنى الشرك : أى يكون الأخذ وله طرق شتى بحيث تكون الأمة مشركة تدين لغير الله بالطاعة

---

(١) انظر فى ظلال القرآن م٤ ص ١٩٣٣.

(٢) سورة هود الآيات ١٠٠،١٠١،١٠٢.

والامتثال ويكون الأخذ بعد الإمهال والابتلاء والاستدراج والنذر وإقامة البراهين والأدلة واجراء السنن الخارقة، وبهذا تقاد حضارات الأمم الظالمة إلى مصيرها الكالح الذى قدره الله وفق سنة حكيمة عادلة لا تتخلف على مدار الزمان وذلك الأخذ الأليم في الدنيا علامة على العذاب الشديد في الآخرة، "إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة"(١).

إن فى ذلك لآية "أى فيما قص فى هذه السورة أو فى أخذ الظالمين "لآية" لعبرة يعتبر بها عن موجبات الهلاك(٢).

وكثيرة تلك القرى التى أهلكها الظلم فها هى عروشها أى سقوفها ساقطة وآبارها معطلة، فكانت منظرا موحشا كئيباً مؤثرا في المارين داعيا إلى التأمل فى الصور الخالية والمنجزات الذاهبة، قال تعالى: **﴿فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد. أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها. فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾**(٣).

أى فكم من أهالى قرية أهلكناهم بسبب الظلم وهو الشرك والكفر، وهذه بقاياهم وآثارهم على الأرض تدل على ما وصلوا إليه من تقدم وعمران أفلم يسر غيرهم من مشركى مكة فى تجارتهم ليكون لهم ما شاهدوه اعتبار وتدبر فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور، أى ليس الخلل فى حواسهم وجوارحهم ولكنها فى مشاعرهم وعقولهم باتباع الهوى والغفلة(٤).

ولقد ظلت أخبار مصارع الغابرين وعواقب الظالمين على مر العصور وكر الدهور شاخصة قائمة فى أذهان أولى الألباب تتحدث بالعبر وتنطق بالعظات وهى أبلغ من دموع الباكين، ولكن أين العقول المدبرة والقلوب المتعظة، وسنة الله سائرة لا تتبدل ولا تتحول وما زال الظالمون فى كل زمان يطلبون العذاب والهلاك بلسان القول أو الحال(٥).

وقال الإمام الزمخشرى: إن هذه القرية هى بلد بمدين أمر عليها صالح عليه السلام أحد المؤمنين به فقتلوه، فأهلكهم الله وعطل بئرهم وخرب قصورهم "فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة..." أى كم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين وقد أنذرتهم حينا ثم

---

(١) انظر فى ظلال القرآن، م٤ ص ١٩٣٧،١٩٣٨.

(٢) انظر تفسير القاسمى محاسن التاويل سورة هود الآية ١٠٣.

(٣) سورة الحج ٤-٤.

(٤)انظر تفسير القاسمى محاسن التأويل سورة الحج الآيتين ٤٣-٤٤.

(٥) انظر فى ظلال القرآن م٤ ص ٣٤٣٩.

أخذتهم بالعذاب الشديد[1].

وفى اليمن قامت حضارة عربية ذات مجد باذخ وعز تليد ولكن بددها الظلم وأهلكها الاعراض، وفى حديثنا عن هذه الحضارات لا نخرج عن شواهد القرآن الكريم حيث قال تعالى : **﴿لقد كان لسبأ فى مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾**[1].

وإن التعبير البشرى ليعجز عن تبسيط هذه الأوجه البلاغية القرآنية المعجزة التى تنطوى عليها هذه الآيات التى استوعب مناظر تلك الحضارات وذكر علل بوارها ودمارها، وحوت اطوارا تاريخية مرت بها أمم وشعوب هذه المنطقة من الجزيرة العربية، حتى إذا عرف الباحث مصير هذه الحضارة هاله وأدهشه من وصفها واجهه قوله تعالى: **﴿فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق﴾** وأدركهم الغرق والهلاك بسبب الإعراض والظلم والكفر بالنعم.

والآيات صريحة أن مدينة سبأ كانت حاضرة زاهرة مستكملة الأدوات وأن مدنها ذاخرة بالأشجار عامرة بالبساتين عن اليمين والشمال، وكان أهلها مهرة فى العمارة والنحت يدلنا على ذلك ما خلفوه من سدود وقصور وحصون ومدائن ومعابد والحياض لخزن المياه، وعرفوا التجارة والزراعة فزرعوا السهول المنبسطة وسفوح الجبال وعنوا بمسائل الرى عناية خاصة، وكانت سبأ كلها أعجوبة من أعاجيب الزمان التى لم يجد بها الدهر إلا قليلاً[2].

ويشهد التاريخ أن شعوب الحضارات اليمنية القديمة كانت من أسبق الأمم إلى بناء السدود وحصر المياه والانتفاع بها فى المسقى، ومن البداهة أن أقامة هذه المنجزات الحضارية لا تكون إلا بفكر راق ولا تنتج إلا بمعرفة علوم هندسية وعلوم عمران ومعارف غزيرة بشئون الحياة، وما قام السبئيون سد مارب – وهو حائط ضخم به منافذ يتسرب منها الماء إلى الجنتين عن يمين وشمال حتى بلغوا فى معرفة علوم العمران مبلغاً عظيماً تجاوزا فيه غيرهم[3].

---

(١) انظر تفسير الكشاف سورة الحج الآية ٤٣.

(٢) سورة سبأ الآيتين ١٥-١٦.

(١) سورة سبأ الآية ١٩.

(٢) انظر قيم حضارية جـ ١ ص ١٩٦ محمد توفيق السبع.

(٣) نفس المرجع، جـ ١، ص ٢٠٣.

والظاهر أن هذه العلوم والمعارف استعملها أهل سبأ في غير الحق، بل فيما فيه سخط الله في كثير من مجالات الحياة، فكانت أسبابا خربت ديارهم وأذهبت حضارتهم وقوتهم، وذلك في قوله تعالى : "فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم" وقصة سيل العرم قصة طريفة طويلة وعريضة، دخلتها أقلام شتى وليس هنا مجال الخوض في تفاصيلها، وفي قوله تعالى: ﴿**وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة**﴾: يعني أن عمرانهم لم يكن محدوداً، وإنما كان مفصلاً فالمسافر لا يكاد يخرج من مدينة حتى تبدو له أعلام الأخرى وهذا هو معنى الظهور في الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿**سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين**﴾ يرشدنا إلى سعة العمران وامتداده مسافات الليالي والأيام، وأن الأمن قد مد ظلاله ورواقه على هذا العمران حيث لا يتم التحضر إلا في ظل الأمن والاستقرار.

أما في قوله تعالى: ﴿**فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا**﴾ فالتعبير على سبيل المجاز والمعنى أن اعمالهم وعقيدتهم ومواقفهم هي التي طلبت جزاءهم اللازم لهم وهو من جنس ما فعلوه والمباعدة هي كناية عن محو العمران وخراب القوى المادية الظاهرة وفي هذا ما يشبه الدعاء بلسان الحال لا بلسان القول، وبعد العمران المتلاحم الذي يرتاح فيه المسافر ويأنس في نعيمه السائح، حل بالقوم الخراب الموحش والدمار المخيف الذي صنعه الظلم والإعراض، وهكذا بدل القوم النعم والخيرات بالنقم والمضرات وذلك جزاء الظالمين وعاقبة المعرضين سنة قائمة لا تتبدل ولا تتحول"(١).

ولقد فات هؤلاء كغيرهم من ذوي الحضارات الهالكة أن يحصنوا هذه المدنيات الزاخرة والحضارات الزاهية بالإيمان وحبل الاعتصام بالله ويزينوها بالفضيلة ويزرع فيها روح الاستقامة والعدل للاستمرارية ومن سنة الله أن كل حضارة أو مدنية لا تحصن بهذه العوامل والقيم الكريمة، فمصيرها الدمار والخراب العاجل وعاقبة أهلها العذاب والهلاك.

ولقد جعل الله قرى أهلكت بسبب الظلم وهو الكفر بالنعم مثلا في التعذيب وحلول بأس الله، فقال تعالى: ﴿**وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون**﴾(٢).

ومعنى "وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة..." أي جعل الله القرية التي هذا حالها

---

(١) انظر مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص ٤٣٥،٤٣٦، الشيخ عبد الحميد بن باديس.

(٢) سورة النحل الآية ١١٢،١١٣.

مثلا لكل قوم في كل زمان ومكان أنعم ا لله عليهم بنعمه التي لا تعد ولا تحصى كنعمة الأمن، والاطمئنان وكثرة الأموال ورغد الرزق والعيش، فكفروا وتولوا عن الحق، فأنزل ا لله عليهم نقمه، ويدخل في هذ المثل أو التحذير أهل مكة وهم أول المخاطبين بالقرآن ولأن قريتهم مكة كانت آمنة مطمئنة لا يزعجها خوف ولا يقلقها قلة عيش.

وهذه القرية التي أذاقها ا لله لباس الجوع والخوف أي زرع القلق والخوف ونزع منها الأمن والاستقرار وأبدلها السيئة بالحسنة بسبب ما صنع أهلها من الاعتقاد بالباطل والعمل الفاسد، هذه القرية لم تحدد في القرآن بالاسم أو حتى بالإشارة[1].

ومما ذكر يتبين أن حال هذه القرية كان يشبه حال مكة وهي البلد الأمين الذي كانت تجبى إليه الثمرات من كل مكان، ويأتيه الناس من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم، كما قال تعالى: **﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾**[2].

أي يحمل إليه ألوان كل شئ من الثمرات رزقا من عند ا لله[3].

ولم يذكر اسم القرية تعميما للأمر واطلاقا للمفهوم والسبب، وعبر بلفظ الذوق وللباس عن الجوع والخوف، لأن الذوق وللباس أشد حرا، وأعمق أثرا في النفس من اللمس أو البصر، أو السمع[4].

ولا تزال سنة ا لله جارية في القوم الفاسقين الظالمين، ومما يتنافى مع عدل ا لله أن يعاقب الأمم الماضية بأسباب ثم تتكرر الأسباب ذاتها في الأمم اللاحقة ولا يعاقبها في الدنيا والآخرة كما فعل بأشياعها من الأولين وقال تعالى : **﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد ا لله إن ا لله لا يخلف الميعاد. ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب﴾**[5].

أي ما زال الذين كفروا من أهل مكة وغيرها من أهل البلدان والعصور الأخرى تصيبهم القوارع، بما كفروا ما صنعوه من الفكر والتمادي فيه، والقارعة هي الداهية والمصيبة العظمى التي تقرع الأسماع وتقلق القلوب، والمراد هو التعبير على ما كان يصيب أهل تلك البلدان من أنواع البلايا والرزايا، أو يحل قريبا من دارهم أي من

---

(١) انظر محاسن التأويل سورة النحل الآية ١١٣.

(٢) سورة القصص الآية ٥٧.

(٣) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص ٣٣٨.

(٤) انظر في ظلال القرآن م٤، ص ٢١٩٩.

(٥) سورة الرعد الآية ٣١،٣٢.

بلدانهم فيفزعون منها ويتطاير شررها إليهم، حتى يأتى وعد الله" الذى يراد به هنا فتح مكة، "إن الله لا يخلف الميعاد" أى لا ينقض وعده لرسله بالنصر والتمكين، كما قال تعالى: **﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾**[1].

والإمهال لا يعنى الإهمال وهو سنة من سنن الله كما عرفنا، قال تعالى "ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا "أى أمهلتهم وقتا من الزمان وفترة من الوقت للتوبة ومراجعة النفس "ثم أخذتهم فكيف كان عقاب" وفى هذا التعبير دلالة على فظاعة العقاب الذى يحل بالأمم بسبب الظلم والكفر[2].

ومن أنواع الظلم ظلم النفس الذى منه النفاق الذى إذا تولى أهله عاثوا فى الأرض فسادا، وإذا ملكوا تجبروا ورفضوا كل نصيحة قال تعالى عنهم: **﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾**[3].

لما ذكر الله الذين قصرت همتهم على الدنيا، والمؤمنين الذين سألوا خير الدارين، ذكر سبحانه المنافقين لأنهم أظهروا الإيمان وأسروا الكفر، فقال الله عن المنافق الذى يعجبك ظاهره فى الصفة والقول "وهو ألد الخصام" والألد الشديد الخصومة، والمعنى أشد المخاصمين خصومة، أى هم ذو جدال وإذا كلمك رأيت لكلامه حلاوة وطلاوة، وباطنه باطل ومر، "وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل"، والمراد أن الظالم يفسد فى الأرض فيمسك الله المطر عليها فيهلك الحرث والنسل، هذا ولأن النفاق يؤدى إلى تفريق الكلمة ووقوع القتال بين الناس فيهلك الخلق من البشر وغيره، "والله لا يحب الفساد، والآية لفظها تعم كل فساد كان فى الأرض أو وقع عليها "وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم" هذه صفة الكافر والمنافق الذاهب بنفسه زهوا وعلوا يكره إهداء عيوبه له كما يكره النقد ويوقعه فى الحرج، وحسبه وكفاه معاقبة أن جزاءه جهنم وبئس المهاد[4].

وإن النموذج المرئي الشرير لحديث هذه الآية يجعل شخصه محور الحياة كلها وسلوكه ونفسيته فوق كل نقد وتجريح، وإذا دعى إلى الاصلاح والتقوى لا يرجع إلى الحق ولا يحاول إصلاح نفسه بل تأخذه العزة بالاثم ويستنكف أن يوجه إلى الحق والخير، ويمضى فى طريقه يهلك الحرث والنسل بلسان الحال أو القول، هذا المخلوق

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٤٧.

(٢) انظر محاسن التأويل تفسير القاسمى، سورة الرعد الآية ٣٣.

(٣) سورة البقرة، الآيات من ٢٠٤ إلى ٢٠٦.

(٤) انظر تفسير القرطبى سورة البقرة، الآيات ٣٠٢،٣٠٣،٣٠٤.

يتحدث فيصور نفسه خلاصة من الخير ومن الإخلاص ومن التجرد ومن الحب "ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام" زيادة فى التأثير والإيحاء وتوكيد تلك الصفات الطيبة التى يتظاهر بها، وداخله يزدحم باللدد والخصومة وفساد الاعتقاد وحتى إذا جاء دور العمل ظهر المخبوء وانكشف المستور، وفضح ما بداخله من حقائق الشر والبغى والحقد والفساد، وتجسدت فى أعماله ومواقفه. قال تعالى : وإذا تولى سعى فى الأرض فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا انصرف إلى العمل وخاصة "إذا كانت بيده الأوامر والقيادة كانت سياسته ووجهته الفساد وزرع الأغلال يتمثل هذا فى إهلاك الحرث والنسل وإهلاك الحياة على هذا النحو كناية عما يحمل فى كيان هذا المخلوق النكد من الحقد والغدر والخداع مما كان يستره بحلاوة اللسان، والتظاهر بالخير والبر والسماحة والصلاح، "والله لا يحب الفساد": أى لا يحب المفسدين الذين ينشتون فى الأرض الفساد، ولا يخفى عليه حقيقة أمرهم ولا يجوز عليه الدهان فى القول الذى قد يجوز على الناس فى الحياة الدنيا، ولذلك وعد أهل النفاق بأن لهم جهنم وبئس المهاد[1].

وهذه الآية دلت على ان سلامة الاعتقاد أساس الأعمال الصالحة والأقوال الصائبة والعكس صحيح.

﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾[2].

كما دلت على أن المنافق إذا كانت له ولاية على شئ " وصار وليا وله حكم ينفذ. وعمل يسير وقول يسمع له، استبد برأيه وإفساده فى الأرض حينئذ يكون بظلمه لغيره، والظلم مؤذن بخراب الأمم وذهاب العمران وهو آفة العباد والبلاد وإهلاكه للحرث والنسل هو فساد اقتصادى وإنسانى وهو مصادرة الأموال والقطع من أجور العاملين ومن فوائد مكاسبهم، ولا حرث ولا نسل إلا بالعمل الصالح.

وفى ظل العدل والصلاح يزدهر الاقتصاد ويسعد الإنسان، ولقد شرحت هذه الآية حوادث الزمان وسير الظالمين فيوم أن تولى الظالمون المفسدون تسيير شئون البلاد سعوا فى الأرض فسادا ففشا الظلم وهلك الزرع وقلت الغلات والثمار وتبعتها الماشية، فقتلت ذرياتها وأجهضت النساء الحوامل وحملت الأبكار بغير حق وهذا هو الفساد والهلاك الظاهران وفشا الجهل وسوء الأخلاق والغش فى الأعمال، حتى كان الأخ لا يثق فى أخيه والابن لا يطمئن إلى أبيه والعكس كائن موجود فكان بأس الأمة بين

---

(١) انظر فى ظلال القرآن، م١، ص ٣٣، ٢٠٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية " ٥٧ .

أفرادها ومؤسساتها شديد وهذا هو الفساد والهلاك المعنيان فى التاريخ الذاهب والحاضر، ومن الآيات ما فيه مزدجر وعبر، فكان دور المنافقين فى تقويض الحضارات وإذهاب مجد الأمم وإقلال النعم والخيرات ظاهر الأثر فى الوجود التاريخى والاجتماعى لحياة الشعوب.

والآية ترشد إلى عدم الاغترار بمعسول أقوال الناس وزخرفة أساليبهم وفصاحتها، وقد ذكر ا لله فى هذه الآية من صفات المنافقين ما يميزهم عن غيرهم، فقال تعالى : "وإذا قيل له اتق ا لله أخذته العزة بالإثم "أى إذا أمر بمعروف ونهى عن منكر أسرع إليه الغضب حتى يكاد المذنب يقول خذونى ووعد ا لله المفسد أو المنافق الذى لا يقبل النصيحة ويرفض النقض فقال "حسبه وبئس المهاد" أى مصيره وجزاؤه على تلك الصفة والحمية الباطنية، جهنم وبئس المرجع والمآل[1].

ولقد هدد ا لله المنافقين بكشف اسرارهم وخططهم للمؤمنين فقال تعالى: ﴿**ام حسب الذين فى قلوبهم مرض ان لن يخرج ا لله أضغانهم ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول وا لله يعلم أعمالكم**﴾[2].

وشاء ا لله أن يجعل الترف وهو جزء من الظلم فى جانبه المالي سنة من سنن سقوط الحضارات وإهلاك القرى قال تعالى: ﴿**وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى امها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون**﴾[3].

وما كان من سنة ا لله أن يهلك القرى فى كل وقت "حتى يبعث فى أمها رسولاً" أى فى أصلها وعاصمتها وما كان فى حكم ربك وسابق قضائه أن يهلك القرى حتى يبعث فى أم القرى رسولاً "لتنذر أم القرى ومن حولها"[4].

اتفق المفسرون على ان المراد بأم القرى فى هذه الآية هى مكة عاصمة العالم العربى آنذاك، وفى هذه السنة بيان لعدل ا لله وتقدسه عن الظلم حيث أخبر بأنه لا يهلك القرى إلا إذا استحق أهلها الهلاك بظلمهم ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة عليهم ببعثة الرسل ولم يجعل سبحانه علمه بأحوالهم واسرارهم الداخلية حجة عليهم لأنهم قد لا يعلمون أن ا لله يعلم أحوالهم[5].

---

(١)انظر تفسير المنار سورة الأعراف الآية ٥٧.

(٢) سورة محمد صلى ا لله عليه وسلم – الآية ٢٩.

(٣) سورة القصص الآيتين ٥٨،٥٩.

(٤) سورة الأنعام الآية ٩٣.

(٥) انظر تفسير الزمخشرى سورة الأنعام، الآية ٩٣.

وكم حرف استفهام يفيد الكثرة وهاتان الآيتان تعتبران تعقيب وتعليق على تلك القرى الظالمة التي سبق الحديث عن أممها الغابرة وكيف استقبلت دعوات الأنبياء، وما نزل بالظالمين من أهلها من السخط والعذاب ولمن كانت العاقبة ثم يأتي التعقيب هنا في بيان أسباب الهلاك وعوامل النجاة، وأن بطر النعمة وعدم الشكر عليها من أكبر العوامل وأشد الأسباب اهلاكا للقرى، فلتحذر الأمم اللاحقة في سلسلة التاريخ، ان تبطر ولا تشكر فإن سنة الله نافذة لا تتخلف، وقد يحل باللاحقين التالين ما حل بالسابقين من الدمار والهلاك إن انحرفوا ولم يستقيموا ويعتبروا بمن كان قبلهم ممن سلك منهجا غير سبيل المؤمنين. فحل بقراهم ما يرونه من آثار ويعرفونه من أخبار، وهذه مساكن الدائرين ما زالت باقية آثارها خاوية "لم تسكن من بعدهم إلا قليل" وما زالت تروى قصتهم للأجيال للاعتبار، وتحكي حكاية بطر النعمة وقد فنا أهلها ولم تقع لهم قائمة وكان الله الوارث لها "وكنا نحن الوارثين".

على أن الله لم يهلك تلك القرى إلا بشرط وهو "حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا".

فهذا قانون وسنة كتبها الله وأحقها على نفسه رحمة بالعباد، ولعل من حكمته سبحانه في بعث الرسل والأنبياء في أم القرى وهي العواصم والمدن الكبيرة لأن تكون هذه المدن مركزا تبلغ منه الرسالة إلى الأطراف الأخرى فلا تبقى حجة ولا عذر لأحد وهي مكان ملتقى وتجمع للناس أكثر من غيره، وهكذا كانت مكة أم القرى العربية آنذاك هي المنطقة الفاضلة المزدحمة بالناس والتي حوت مقدسات العرب، وهي مكان "استراتيجي" حاول كثير من قادة الأمم وطغاة الدول والمجتمعات غزوها والاستيلاء عليها، لا لعوامل اقتصادية، كما تعلل بعض الفلسفات والمذاهب الوضعية تدخل الأمم الظالمة في مناطق من العالم الاسلامي كما هو شأنها اليوم.

وفي مكة عرض الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه على الحجاج ومنها ومن يثرب بلغ دعوة الله رب العالمين.

"وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون" أي ظالمون لأنفسهم بالتكذيب بآيات الله عن معرفة ويقين منهم[1].

دلت الآية السابقة على أنه لا هلاك ولا تعذيب إلا بعد الرسالة وتدل الآية الآتية على أنه من سنة الله إذا أراد أن يهلك قرية بعد ظهور أسباب الهلاك بين أهلها جعل مترفيها أمراء وقادة وسفهائها سادة وحكاما، وذلك بعد أن علم إرادة ونوايا أهلها السيئة، وعلم الله يسبق إرادته، وأنه لا يريد بقوم امر شر حتى يريدوا لأنفسهم بلسان

---

(١) انظر في ظلال القرآن م ٥ ص ٢٧٥.

الحال أو القول، والقرية إنجاز حضارى لعل هو أرقى ما وصلت إليه الأمم السابقة فى تاريخها من تقدم وازدهار، وقانون وتنظيم[1].

وقال الله تعالى "وإذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا[2].

والمعنى إذا أردنا أن نعذب قوما عذاب استئصال أمرنا مترفيها يعنى متنعميها بالطاعة على لسان الرسول المبعوث إليهم والكتاب المنزل فيهم، ففسقوا فيها أى في قريتهم بمخالفة أمره تعالى بالخروج عن الطاعة "فحق عليها القول" أى فوجب عليهم لمعصيتهم وذنوبهم وعيد الله الذى أعده لكل ظالم ومتكبر "فدمرناها تدميرا" أى خربناها تخريبا عظيما لا يوصف هوله و أهلكنا من كان فيها إهلاكاً هائلاً. وخص المترفون وهم الجبارن والملوك والرؤساء والوجهاء الظالمون بالذكر مع توجه الأمر إليهم وإلى غيرهم لأن هؤلاء المذكورين هم الأصل فى الخطاب والذين بيدهم زمام الأمور والباقى تبع لهم، "وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح"، أى كثيرا ما أهلكنا من الأمم الظالمة المكذبة من بعد زمن نوح كعاد وثمود وفرعون. والقرون جمع قرن ويطلق على زمن معين بقدر بجيل أو اكثر كما يطلق على كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد. وخص نوح بالذكر و لم يذكر آدم أو نبي آخر لأن نوح عليه السلام هو أول نبى آذاه قومه وظلموه فاستأصلهم الله بالعذاب، الغرق بالطوفان وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا "اى لا يخفى عليه شئ منها فيدرك سرهم وعلانيتهم[3].

ولقد جعل الله للحياة دستورا هو عبارة عن مجموعة سنن لا تتبدل فهى فى اللاحقين كما فى السابقين.

فحين توجد الأسباب أو العوامل تتبعها الغايات والنتائج وتنفذ إرادة الله وتحق كلمته التى استحقها القوم وطلبوها بلسان القول أو الحال، قال تعالى: **﴿ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد﴾**[4].

لأن الظلم يتنافى مع عدله سبحانه وصفاته، والظلم من شيم النفوس إلا ذى علة... فوجود المترفين ذاته دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها السياسى والاجتماعى والنفسى، وفسقت عن أمر ربها وسيصيبها الهلاك والدمار جزاءً وفاقاً، والإرادة الإلهية

---

(١) معنى الحضارة فى القرآن - الفصل الأول من هذه الدراسة.

(٢) سورة الإسراء الآيتين ١٦، ١٧.

(٣) انظر تفسير القاسمى، سورة الإسراء الآيتين ١٦، ١٧.

(٤) سورة ق من الآية ٢٩.

هنا ليست إرادة التوجيه القهرى الذى ينشئ الأسباب فى النفس الإنسانية، ولكنها ترتب النتيجة على السبب الذاتي الإرادى القائم على الحرية والاختيار، وإلا كان الأمر عبثا وهو أن يقيم الله قرية وحضارة بجهود الإنسان ثم يبيدها ويهلك حرثها ونسلها بأسباب خارجة عن إرادة هذا الإنسان واختياره، وحريته.

والأمر فى الآية ليس توجيها للفسق ولكن انشاء لنتائجه الطبيعية التلقائية المترتبة على إمارة المترفين الفاسقين، مع أن لو شاء الله لأبطل النتيجة وأوقف مفعول العوالم والأسباب، وهذه سنة خارقة والأصل فى الحياة أن تسير وفق السنن العادية التى مضت فى الأولين وتسر فى اللاحقين من بعد نوح وقرون بين ذلك كثيرة وكلما فشت الذنوب فى الأمم وكثر الفسق والظلم والالحاد فيها كانت هذه السنة سنة الهلاك، وقد انتهت بهذه العوامل والأسباب ووفق هذه السنن والقوانين مصائر أمم وأجيال كثيرة، **﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا﴾**(١).

هذا ولقد مرد المترفون على الكفر بالرسل والمبادئ التى جاءوا بها والفخر بكثرة الأموال والأولاد، وظنوا أنها ستنجيهم من العذاب وهذا ما قاله ربنا عنهم **﴿وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون. وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا. وما نحن بمعذبين قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون﴾**(٢).

موقف الكفر والاستكبار موقف متكرر من ملأ الأمم، وهم الأشراف والأكابر والمترفون، حيث ما أرسل رسول فى قرية إلا عانده المترفون وكذبوه لأن الغنى كثير ما يغلظ القلوب ويفقد أصحابها الحساسية ويفسد الطبائع والنفوس فلا ترى دلائل الحق فتتكبر وتطغى كما قال تعالى: **﴿كلا إن الإنسان ليطغى إن رآه استغنى إن إلى ربك الرجعى﴾**(٣).

وعادة ما تخدع المترفين القيم الفانية والمظاهر الزاهية وتغرهم كثرة الأموال والأولاد فيحسبون ذلك مانعا من العذاب فى الدارين ومنجى من العقاب ودليلا على رضاء الله عليهم كما قالوا : "وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين"، وقال الله عنهم: "أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون"(٤).

---

(١) انظر فى ظلال القرآن م ١ ص ٢٢١٢٧،٢٢١٨.
(٢) سورة سبأ الآيات ٣٤،٣٥،٣٦،٣٧.
(٣) سورة العلق الآيات ١،٧،٨.
(٤) سورة المؤمنون الآيتين ٥٦،٥٧.

فالترف أو الغنى وكثرة الأولاد ليست دائما علامة رضاء من ا لله ولا عامل خلود ونجاة من العذاب، كما أنه ليس علامة سخط دائما وإن العذاب يأتى وفق سنة مطردة ليس لها من دون ا لله كاشفة إلا بالعدل والاستقامة ومسألة البسط والقبض لحكمة يعلمها ا لله ولغاية ارادها سبحانه ولكن أكثر الناس لا يعلمون، قال تعالى : "قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون " فهذا هو الاعتدال والتوازن ولو كانت إحداهما دون الأخرى لكان البغى والفساد[1].

وهذا نموذج من كبار الظالين المترفين فى تاريخ الإنسانية ذلك هو قارون الذى حوى القرآن الكريم أخباره، وحفظ سلوكه ومواقفه وهو واحد من الباغين الذين يرون المال أساس الحياة وغاية الدنيا والآخرة ومثل فى وعيهم وحسهم قيمة كبرى تضخمت بها شخصياتهم وانتفخت ذواتهم فشعروا بالغرور والزهو، فكذبوا بالحق واستكبروا عن أهله، و لم يعودوا يرون الحياة إلا من خلال المال والمصالح المادية، ومن خلال الحوار بين قارون والطليعة المؤمنة من قوم موسى تتجلى صفات المترفين وملامح الفئة المؤمنة الآثرة للحق على غيره والتى لا تحس بالضعف والهوان أمام زينة الحياة الدنيا ولا أمام كثرة المال وقوة الجاه والسلطان، وأن كانت ترى أن المال والولد إذا أحسن استخدامها كانا عاملين من عوامل التحضر والتقدم وإسعاد الإنسانية بتعمير الأرض وحسن الاستخلاف فيها، وقال تعالى عن قارون: **﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن ا لله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك ا لله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن ا لله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن ا لله لا يحب المفسدين. قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن ا لله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون. فخرج على قومه فى زينته. قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم. وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب ا لله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون ا لله وما كان من المنتصرين. وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن ا لله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن ا لله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾**[2].

قيل إن فرعون ملك قارون على بنى اسرائيل فبغى عليهم، والبغى التبذخ ومجاوزة الحدود، والكبر على الغير وكانت تحمل مفاتيح خزائن ملكه العصبة أى الجماعة الكثيرة القوية من الرجال فتتعب. وبالغ بعض المفسرين فى هذا حتى قالوا يكفى الكوفة مفتاح

---

(١) انظر فى ظلال القرآن م ٤ ص ٢٤٧٣.

(٢) سورة القصص الآيات ٧٦،٧٧،٧٨،٧٩،٨٠،٨١،٨٢.

واحد من مفاتيح قارون للاستغناء[1]، ونصحه أهل الإيمان كما ينصحون غيره فى كل عصر فقالوا له كما جاء فى القرآن الكريم "وابتغ فيما آتاك ا لله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن ا لله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن ا لله لا يحب المفسدين" وصية تحفظ التوازن وتحث على أداء الشكر. وترك الفساد فى الأرض وتجعل المال وسيلة تقرب إلى ا لله ولكن من طبع الطغاة الظالمين فى كل عصر لا يسمعون لمن ينصحهم ولا يقبلون النقد وقيل إن الذى يخاطب قارون وينصحه هو موسى عليه السلام.

وكان قارون من أعلم بنى اسرائيل بالتوراة و لم ينفعه علمه، كما لم ينفع ابليس قبله ولذلك قال عن ماله "إنما أوتيته على علم عندى" ولكن" أو لم يعلم أن ا لله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً، " فخرج على قومه فى زينته"، كما ما زال يخرج الظالمون والمتجبرون فى الحشم والحرس وجاءت أوصاف كثيرة فى بيان زينته لا أريد الخوض فيها، ولذلك فتن به الذين يريدون الحياة الدنيا وتمنوا أن يكون لهم مثل ماله حيث قالوا: "يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون" واعتبر ما هو فيه حظاً عظيما له، وكانت عاقبته كعاقبة كل الظالمين المترفين أفرادا وأمما " فخسفنا به وبداره الأرض"[2].

و لم يحدد القرآن الكريم زمان حدوث قصة قارون ولا مكان وقوعها، ولعل فى ذلك ما يحدد من طلاقة معانيها وعبرها وبيان سنن ا لله منها، وكل ما جاء عنه من اخبار أنه كان من قوم موسى، وكل التساؤلات عن القصة من الناحية التاريخية والجغرافية لعلها لا تزيد فى بيان أهمية الموضوع شيئا، ما دام القرآن لم يذكر ذلك ومن أساليب القرآن القصصية أنه يهتم بالناحية العملية وبيان آثار الأشياء فى الحياة لاستخلاص العبر واستنباط السنن. وذكر قارون فى القرآن الكريم كنموذج للإنسان الباغى الظالم وتشير الآيات إلى أن سبب هذا البغى هو الترف ووصف ا لله هذا الغنى فقال : "وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة" وفى هذه الآية إخبار عن المال المكنوز وهو المخبوء المدخر فى باطن الأرض الزائد عن الاستعمال والتداول، وأن مفاتيح هذه الكنوز تعيى المجموعة من الرجال الأقوياء و لم تحدد الآية فيما كان البغى وطرقه كثيرة يبتدعها الظالمون، هل كانت فى غصب الأرض من قوم موسى وأخذ أموالهم كما هى عادة الطغاة، أم كانت فى انتهاك الأعراض والحرمات والحرية الفردية، وعلى أية حال فقد وجد فى قومه من حاول تقويمه وإرشاده إلى منهج الاعتدال والتوازن، وهو منهج يحرم الثراء الفاحش الذى لا يحسن الاستفادة من المال والتصرف

---

(١) انظر تفسير الزمخشرى سورة القصص الآية ٧٦،٧٧.

(٢) انظر تفسير الزمخشرى سورة القصص، الآية ٧٩،٨٠.

فيه، قال تعالى عن قومه: إذ قالوا له "لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين" وفى هذه الآية خلاصة المنهج الإلهى القويم والتصور الإسلامى للحياة الذي يأخذه متبعه بمتاع الدنيا بغير ضرر، ولا ضرار فلا يزهد فى الحياة الدنيا الزهد السلبى الذى يحرم طيبات ما أحل الله، ولا يتجبر فينسى الدار الآخرة، والمراد بالفرح فى الآية هو الاعتزاز بغير حق والاغترار بالمال والسلطان بالتطاول على العباد، ولذلك لا يحب الله هؤلاء الفرحين الزاهين المستخفين على الناس، ولا المفسدين ولعل من أشد أنواع الفساد جرما وإثما واخطرها على الأمم هو البغى والظلم.

ولم يكن هارون وحده هو الذى طغى بماله وأفسد فى الأرض، بل ذكر الله أنه أهلك قبله أجيالا كثيرة اغترت بمالها وأفسدت فى الأرض، ولقد كانت هذه الأجيال أشد منه قوة وأكثر مالا فقال تعالى: **﴿أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾**، ولقد هانت هذه الأجيال المجرمة الهالكة على الله حتى إنه لم يسألهم عن ذنوبهم وفى هذا إنذار من نذر الله للظالمين فى كل تاريخ وفي كل بلاد وحضارة، حتى يتعظوا ويعتبروا من الذى حل بالسابقين لهم الأكثرهم مالا وأولادا، وهم الذين أصيبوا بالاغترار والزهو ونمت فى نفوسهم تلك الأمراض حتى خرجت آثارها السيئة إلى واقع الحياة فى أخلاقهم وأعمالهم فكانت بذور انحلال وتفكك فى المجتمعات ثم غدت عوامل هلاك للأمم وأسباب سقوط لحضارتها.

ومن سنة الله فى تسيير الوجود وتدبير حياة الأمم أن تتدخل يد الله أى قدرته عندما تتعفن الحياة لتضع حدا لفتنة الناس، فترحم الضعفاء وتقصم الطغاة والجبابرة. وتعيد الحياة الاجتماعية إلى موازنها لئلا يطغى أحد على أحد ولا يبغى أحد على آخر، وتدل الآية التى أخبرت عن نهاية قارون وذهاب قوته وبجده أن عوامل هلاكه كانت من نفسه، قال تعالى : "فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين".

وقضى الأمر فى لحظات حيث ابتلعته الأرض وابتلعت داره التى كان يدعى أنه حصنها، وذهب إلى باطن الأرض ذليلا ضعيفا، بعد ان كان على ظهرها متكبرا عزيزا، وحق الله الحق وأبطل الباطل، "وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر "وأدركوا أن" لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون" وعرف الذين تمنوا أن يموتوا مثل ما أوتى قارون حقيقة الأمر وعرفوا رحمة الله بعباده، واعتبروا بمصير قارون واصبحوا يحمدونه سبحانه، ثم قال

تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين﴾ جعل الله الدار الآخرة ذات الرتبة العالية والمكانة الرفيعة للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا، والعاقبة للمتقين بهذا قضى الله وهى سنة ثابتة فى مصائر ومآل الجماعات والأمم(١).

ويبقى الترف فسادا وطغيانا والفقر غبنا وضعفا واليد العليا خير من اليد السفلى، وتبقى أخبار المترفين عبر ومادة تستنبط منها سنن الله.

التكذيب:

يكاد التكذيب فى أشمل معانيه أن يساوى معنى الإلحاد فى لغة العصر الحديث، وهو أنواع: تكذيب بالله وعدم الاقرار والإشهاد له بأنه هو الخالق المستحق للعبادة وحده دون سواه، وتكذيب بالأنبياء والرسل وعدم الاعتراف والإشهاد لهم بالرسالة وبنزول الوحى عليهم وبالتالى إنكار دورهم فى خدمة الإنسانية وتكذيب بالآخرة وإنكارها. وقبل أن أتحدث عن بيان دور هذه الآفة الإنسانية فى تقويض صروح الحضارات، فلابد لنا من كلمة عن أمم تلك الحضارات التى كان بها حضارات عربية ذكرت للاعتبار , وبيان سنن لله فى الأمم، وللاستنهاض بتلك الأمة العربية للقيام بدورها الحضارى فى قيادة الشعوب.

ويرى المفكر والعلامة عبد الحميد بن باديس أن العرب مظلومون فى التاريخ، فجل الشعوب تعتقد أنهم ناس كانوا همجا لا يصلحون لدين ولا دنيا، حتى جاء الإسلام فاهتدوا به فأخرجهم من الظلمات إلى النور، والحق أن هذه نقطة فى حاجة إلى بيان وتوضيح والقرآن وحده هو الذى أنصف العرب، والتاريخ ينبغى ألا ينظر إليه من جهة واحدة بل من جهات وجوانب متعددة وهذه هى طريقة النظرة التفسيرية فى القرآن للتاريخ، فالقرآن يعيب من العرب رذائلهم النفسية كالفخر بالأنساب والأحساب. والعقيدية كالوثنية وعبادة الأصنام واتخاذ الأرباب من دون الله، كما يعيب نقائصهم الفعلية كالقسوة وقتل الموؤدة، وبالمقابل ينوه القرآن الكريم بصفاتهم الإنسانية التى شيدوا بها تلك الحضارات السابقة واستحقوا بها دخول التاريخ الحضارى من أشرف أبوابه(٢).

ولقد تحدث القرآن الكريم طويلا فى عرض نماذج من حضارات كثيرة طواها الزمان وأتى عليها الدهر، وكانت قد اشتدت وامتدت وعلا نجمها، واتسع أفقها حتى

---

(١) انظر فى ظلال القرآن م ٥ ص ٢٧٤٠ إلى ٢٧١٤ بالتصرف.

(٢) انظر مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص ٤٣٠ الشيخ عبد الحميد بن باديس.

سادت وقادت، ثم انحرفت وخرجت عن سنن الله فى استمرار الحضارات ثم غوت، فبعث الله إلى أهلها وفى قراها رسلاً مبشرين ومنذرين أنزل معهم الكتاب والميزان ليحكموا بين الناس بالقسط ولكن الكثير منهم عليهم السلام كذبوا وقتلوا وشردوا فكانوا حججا على تلك الأقوام وكم طوى الدهر من حضارات ذكرها القرآن كما قال تعالى: ﴿**وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم. وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً. وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرة وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا**﴾[1].

ولنأخذ نموذجا من هذه النماذج التى بلغ القرآن ذروة الإعجاز فى تصويره وهما حضارة العمالقة الجبارين "عاد" قوم هود عليه السلام الذين سكنوا الأحقاف جنوبى الجزيرة العربية، وقد جعلهم الله خلفاء بعد قوم نوح عليه السلام، وزادهم بسطة فى الأجسام والأرزاق وهذا ذكر ووصف تلك الحضارة، قال تعالى: ﴿**أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الله الذى أمدكم بما تعلمون. أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين، إن هذا الا خلق الأولين، وما نحن بمعذبين، فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية. وما كان أكثرهم مؤمنين**﴾[2].

والريع هو المكان المرتفع من الأرض كانت تقيم فيه عاد أبنية شامخة للهو والعبث والمصانع هى القصور المشيدة والحصون الضخمة فى الآية "فى هذه الآيات هى برج حمام أو بناء كان ارتفاعه كعلامة للسخرية بمن يمر بهم.

والبطش هو السطو والأخذ بالعنف والقوة والمبالغة فى العقوبة قتلا بالسيف وضربا بالسوط والجبار هو الذى يقتل ويضرب عن الغضب[3].

وهذه مظاهر مشتركة ومتكررة فى المجتمعات والحضارات حين يمتلكها الظالمون ويعتصر دماء شعوبها المستضعفة المترفين، فتتكدس لديهم الأموال والثروات فيفنونها فى السفه بإقامة التماثيل والصور طلبا للخلود، وفى الحقيقة هذه عوامل دمار وذهاب لملكهم وتعجيل بكيانهم، والسؤال هل أغنت عنهم تلك القوة المادية والبدنية حين نزل بهم جزاء ما اقترفوا من أعمال وما خططوا من سياسات ومناهج وهل أغنت الوفرة المالية والأبنية الشاهقة والمعارف الهندسية عن دور الأنبياء والرسل كلا وعن المبادئ والقيم وهل حلت مشكلاتهم النفسية والاجتماعية والاقتصادية والحق أن هذه

---

(١) سورة الفرقان الآيات ٣٧-٣٩ .

(٢) سورة الشعراء الآيات ١٢٨-١٣٩.

(٣) انظر تفسير النسفى سورة الشعراء الآية ١٢٩.

الانحرافات الحضارية المروعة، قد اقتضت الإسراع ببعث الرسل واصطفاء القادة واجتباء العلماء لدرء الفساد ورد الأمم إلى حظيرة الصواب ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور.

وعاد هذه هي صاحبة إرم ذات العماد التي قال الله فيها **﴿إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾**(1).

ومن الصعوبة تحديد المكان والزمان الذى عاشت فيه عاد وأنشأت حضارتها فيه بدقة إلا أن القرآن الكريم قد أشار إلى أنهم كانوا بعد نوح عليه السلام أى بعد الطوفان فقال تعالى: **﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾**(2).

وذكر في القرآن أن عادا أهلكت قبل مجئ موسى عليه السلام، قال تعالى: **﴿وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم﴾**(3).

والظاهر أن عادا كانت أمة عظيمة أسست أقدم مدينة عرفها العالم القديم ويذكر التاريخ أن هذه الحضارة مدت ظلالها الوارفة على ساحة كبيرة من آسيا وأفريقيا، حيث كانت القارتان ميدانا لنشاطها وكانت القصور الضخمة والصروح العظيمة من أكبر مميزات ومظاهر التقدم فى حضارة عاد قوم هود، ومن الطبيعى أن يكون لقيام هذه الحضارة العظيمة وارتفاع شأن أهلها عوامل كما ان لأفولها وسقوطها أسباب وتلك هى السنن التى تقوم الحضارات وتسقط وفقها.

ومن الإنصاف أن يذكر أن الله لم ينكر على عاد فى القرآن واكتساب عوامل القوة، وإنما أنكر عليهم أن يجعلوها وسائل للظلم والتفاخر، وذرائع للباطل والبغى بدليل قوله تعالى: **﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين﴾**(4).

فالله يضمن لعاد قوم هود إن هم آمنوا وعملوا الصالحات وهو الأساس فهذه الآية إذن هى وعد من وعود الله لبشر إن هم استغفروا الله، ثم تابوا ولم يتولوا مجرمين فإنه يرسل عليهم مدرارا أى أمطارا وغيثا غزيرا، ويزيدهم قوة على قوتهم، قوة تمكين وبقاء، وهذا وعد مشروط لكل البشر لا لأمة أو شعب واحد دون غيره، والله هو داعى الأمم الصالحة إلى اكتساب القوة بما شرع، وأن تكون القوة مسخرة وموقوفة

---

(1) سورة الفجر الآيتين ٨،٧.

(2) سورة الاعراف ٦٨.

(3) سورة غافر ٣١،٣٠.

(4) سورة هود الآية ٥٢.

لحماية الحق ونشر العدل ومحاربة الظلم(١).

وفى المقابل نعى الله على عاد كغيرها من الأمم الأخرى تلك الصفات الذميمة والنوايا السيئة التى تكتسب القوة لأجلها، قال تعالى: **﴿فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة﴾**(٢).

فالنظرة إلى هذه الآية أن عادا بلغت من القوة والعظمة مبلغا لم تبلغه أمة من أمم الأرض قاطبة فى زمنها حتى أن الله جل شأنه، حيث قالوا من أشد منا قوة لم يتحداهم إلا بقوته الإلهية التى يذعن إليها كل مخلوق، ولو كان فى أمم الأرض آنذاك قوة أقوى من قوتهم فكان من الأبلغ أن يتحداهم الله بها كما تحدى سبحانه القرشيين فى قوتهم بقوة الأمم السابقة لهم فى الوجود والأشد منهم فى التحضر فقال تعالى: **﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولاداً. فاستمتعوا بخلاقكم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا﴾**(٣).

وإن أية أمة تقول كلمة عاد "من أشد منا قوة" لهى أمة معتدة بحضارتها وقوتها.

وإن الأسباب التى أدت إلى سقوط حضارة العمالقة عاد ترجع إلى ثلاثة عوامل، هى إعجابهم بقوتهم هذه حيث كانت حضارتهم فى ازدهار وكانوا فى زهو ونشاط، الجور والظلم "وإذا بطشتم بطشتم جبارين"(٤).

الكفر والتكذيب: التكذيب بالقيامة، قال تعالى : **﴿الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾**(٥).

ولقد جاءتهم النذر كغيرهم من أهل الحضارات فكذبوا بها فجاءهم بأس الله وعذابه فقال تعالى: **﴿كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابى ونذر﴾**(٦).

فهذا المشهد من مشاهد التعذيب العنيف قد جاء وفق سنة الإنذار للإخبار عن

---

(١) انظر مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص ٤٣١ الشيخ عبد الحميد بن باديس
(٢) سورة فصلت الآية ١٥.
(٣) سورة التوبة ٦٩.
(٤) سورة الشعراء ١٢١.
(٥) سورة الحاقة الآيات ١-٦.
(٦) سورة القمر الآية ١٧.

تكذيب عاد الذى كان جزاؤه أن أرسل الله عليهم ريحا صرصرا باردة شديدة الصوت، استمرت عليهم حتى أهلكتهم وشبهوا بالنخل، لأن الريح كانت تقطع رؤسهم وتبقى أجسادهم بلا رؤوس، فيتساقطون على الأرض أمواتا وهم جثث طوال كأنهم أعجاز نخل وهى على أصولها بلا فروع[١].

وكلمة الصرصر مأخوذة من شدة صوت هبوبها[٢].

والله تعالى يقول: **﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد﴾**[٣].

أى ألم تعلم على اليقين يا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم والذين جاءوا من بعده كيف عذب ربك عادا بسبب ما اعتقدت من الملل الباطلة وما عملت من فساد فى الأرض[٤].

وإرم ذات العماد وصف لمنجزات حضارة عاد قوم هود (وذات العماد أى ذات الخيام) ولقد ذهب المفسرون فى تفسير هذه الآية مذاهب كثيرة فقيل إن ذات العماد ذات التلال والمعالم على الطريق[٥].

وقيل إنها تطلق على مدينة تقع بين عدن وحضرموت، وذهب البعض على أنها دمشق أو الاسكندرية، ولعل ما دفع هؤلاء إلى هذه الاعتقادات والآراء هو وجود أعمدة أثرية قديمة بهذه المدن مما أوهم الباحثين على أنها بقايا من حضارة عاد[٦].

والمعروف فى كلام العرب أن العماد هو ما عمدت به الخيام من الخشب والسوارى التى يحمل عليها البناء أو لعل الأعمدة كناية عن علو المنزلة والشرف والقوة[٧].

أما ثمود فقد كانت على نهج وشاكلة عاد، فأبيدت بنفس العوامل التي حلت فيها نفس السنن الربانية، وذكرت فى كثير من آيات القرآن تابعة ومقرونة بعاد، وثمود هم قوم عاشوا بعد عاد وشيدوا مدينة باذخة ذات عز ومجد، قال تعالى: **﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا﴾**[٨].

---

(١) انظر تفسير النسفى، سورة القمر، الآية ١٧.
(٢) انظر تفسير الطبرى سورة القمر الآية ١٧.
(٣) سورة الفجر الآيات ٦،٧،٨ .
(٤) انظر تفسير القاسمى سورة الفجر، الآية ٦،٧،٨.
(٥) التاريخ الجغرافى للقرآن ص ١٣٦.
(٦) المفصل فى تاريخ العرب م ١ ص ٣٠٣.
(٧) انظر تفسير القاسمى، سورة الفجر، الآية ٧.
(٨) سورة الأعراف ٧٤.

ولقد اكتنف تاريخ ثمود كغيرها من الأمم الهالكة الغموض والأبهام، والثابت في القرآن أنه قد ارتفع شأنها بعد هلاك عاد وسادت القسم الشمالي الغربي من بلاد العرب الذي عرف بوادي القرى(1).

وهو الذي أشار إليه القرآن ﴿**وثمود الذين جابوا الصخر بالواد**﴾(2).

وسادت ثمود على طريقة عاد حذو النعل بالنعل فكذبت بالنذر والقارعة وهي اليوم الآخر وبالرسل والمعجزات فقال تعالى: ﴿**كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر سيعلمون غدا من الكذاب الأشر إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتظر فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر، فكيف كان عذابي ونذر، إنا أرسلناهم عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**﴾(3).

فيسبب هذا التكذيب المتكرر الصادر عن الكبرياء والاستعلاء عن الحق فقد أرسلت على القوم صيحة واحدة، فصاروا كالأعواد اليابسة حين تتحطم وتصبح هشيما تذروه الرياح. فهو مشهد مفزع مفجع يعرض ردعاً وجزاء على التعالي والتكبر والتكذيب فإذا القوم هشيم مهين.

وعن تكذيب ثمود المرسلين وبيان عاقبة ذلك قال تعالى: ﴿**كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى على إلا رب العالمين، أتتركون في ما ها هنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهية. فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض لا يصلحون، قالوا إنما أنت المسحرين، ما أنت إلا بشر مثلنا فات بآية إن كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين، فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية، وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم**﴾(4).

ومحل الشاهد هو الآية الأولى والأخيرة من الآيات التي بين أيدينا وهو أن التكذيب سبب من الأسباب الموجبة لعذاب الله، وهي السنة التي أهلك الله بها أمما أخرى كثيرة لم تغن عنهم كثرة ثرواتهم وأولادهم وخيراتهم التي كانوا فيها فاكهين، وقال تعالى

---

(1) التاريخ الجغرافي للقرآن ص ١٨٧.

(2) سورة الفجر الآية ٩ .

(3) انظر في ظلال القرآن م ٦ ص ٣٤٣٢، ٣٤٣٣.

(4) في ظلال القرآن م ٦ ص ٢٤٣٢، ٣٤٣٣.

لهم: ﴿أتتركون في ما ها هنا آمنين﴾ والاستفهام إنكارى أى لابد من جزاء على العمل ولا يمكن أن تتركوا مخلدين فى الجنات والنعيم، و"فى ها هنا" إشارة إلى الذى استقر فى ذلك المكان من جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم والهضيم هو الطيب اللطيف من ثمار النخيل، والفارهين من الفراهة وهى الكياسة والنشاط[1].

فتمرد أمة عربية نذكرها بما ذكرها به القرآن من قوة تعمير وحضارة، فصالح عليه السلام رسول إلى هذه الأمة يقول فى تذكيره لقومه وتعريفهم بنعمة الله عليهم: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾[2] أي جعلكم عمارها، والأمة لا يمكن أن تعمر الأرض إلا إذا ملكت القدرة والوسائل لذلك وهذه الوسائل كثيرة وهى سنن التحضر، ومن هذا التعمير أو الاستعمار الثمودى تنكشف عدة آيات حضارية بليغة الوصف، لعل أبلغها وصفا وأدقها تصويرا ما جاء فى قوله تعالى: ﴿أتتركون في ما ها هنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾[3].

ومن هذا نعرف الحالة والمستوى الذى كانت عليه ثمود من التحضر وتعمير الأرض، وهى حالة بلغت فيها الأمة الجذوة والنهاية آنذاك فى الحضارة المادية وفنونها من حسن البناء وتزين الأرض بأصناف الزرع والأشجار وتوزيع المياه. وكل هذا كان نتيجة علم ومعرفة، علم بحال الأرض وطبائعها وأحوال الأشجار وتلقيحها وأحوال الفصول وتقلباتها وذوق جمال راق للتمتع بمناظر ومجالس، ومقامات العمران والإنجاز الحضارى[4].

وإلى جانب ما وصلت إليه ثمود من إبداع حضارى وتقدم عمرانى مدنى فقد كان القوم مفسدين طاغين ظالمين مكذبين.

ولقد بين الله للأمم اللاحقة سننه فى تلك الأمم الخالية للاعتبار وخوف مصيرها الكالح فقال تعالى"عن مشركى قريش": ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب لئيكة أولئك الأحزاب إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب، وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق﴾[5].

هذه أمثلة ممن سبقوا قريشا إلى التكذيب فى التاريخ، فماذا كان من شأنهم وهم طغاة بغاة متجبرون ؟ "فحق عقاب" وكان ما كان من أمرهم وذهبوا فلم يبق منهم غير

---

(١) انظر تفسير الزمخشرى، الشعراء ١٤٢ – ١٤٩.

(٢) سورة هود ٥٨.

(٣) سورة الشعراء الآيات ١٤٦ – ١٤٩.

(٤) انظر مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص ٤٣٤ عبد الحميد بن باديس

(٥) سورة ص الآيات ١٢ – ١٦.

آثار تنطق بالهزيمة والاندحار.

ذلك كان شأن الأحزاب الغابرة فى التاريخ، فأما هؤلاء القرشيين فمتروكون إلى الصيحة التي تنهى الحياة فى الأرض قبيل يوم الحساب، "وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق".

هذه الصيحة إذا جاءت لا تتأخر ساعة ولو فترة قصيرة مقدار فواق ناقة، وهى المسافة بين حلبتى الناقة على ظهرها، لأنها تجيئ فى موعدها المحدد، وكان هذا رحمة بهم من ا لله، ولكنهم لم يعرفو قدر هذه الرحمة فاستعجلوا جزاءهم وطلبوا أن يوفيهم ا لله حظهم ونصيبهم قبل اليوم الذى أنظرهم ا لله إليه"[(١)].

والآيات تبين أن هؤلاء المكذبين من قوم محمد صلى ا لله عليه وسلم هم جزء من الأحزاب المتقدمين الذين تحزبوا على أنبيائهم، ولقد كانوا أقوى وأغنى من هؤلاء المعاصرين وأهلكوا ووصف فرعون بأنه ذو الأوتاد والمعنى أن ذو البناء المحكم "أولئك الأحزاب" إشارة إلى أنهم موصوفون بالقوة والكثرة، "كل كذب الرسل فحق عقاب "أى فنزل بهم العذاب بسبب ذلك التكذيب"[(٢)].

والهزيمة والدمار صفة لازمة للمكذبين المتجرمين الظالمين على مدار القرون الماضية واللاحقة وهى سنة ثابتة، ويضرب ا لله الأمثلة بفئة من هؤلاء المهزومين فيقول تعالى:

﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب لئيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد﴾[(٣)].

"كذبت قبلهم" أى قبل قريش قوم نوح، و"أصحاب الرس" وهو بئر سكن عنده قوم يقال إنهم قوم شعيب عليه السلام، وثمود وعاد وفرعون، وإخوان لوط وهم الذين جادلوا لوطا عليه السلام وسكنوا قرى سدوم وكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء فأهلكوا بالصيحة "وأصحاب لئيكة" هم الذين جادلوا شعيبا فى الكيل والميزان وكانوا مطففين، وسكنوا مدين ما بين الحجاز وفلسطين، وأهلكوا يوم الظلة بعذاب أليم، "وقوم تبع" هم قوم جادلوا علماءهم فى العقيدة والدين وكانوا مجرمين سكنوا اليمن، كل هذه الأمم والأقوام كذبت بالرسل وألحدت فى الدين وفق سنة ا لله فى المكذبين "فحق وعيد"[(٤)].

وجاءت هذه الآيات تقلب صفحات تاريخهم الأسود، وتنطق بمآل المكذبين الذين

---

(١) فى ظلال القرآن، م ٦، ص ٣٠١٤.

(٢) انظر تفسير الطبرى الآيات من ١٢ إلى ١٦.

(٣) سورة ق الآية ١١.

(٤) انظر تفسير القاسمى، سورة ق الآية ١١.

ماروا فى قضية البعث وكذبوا به، كما كذبوا بالرسل والغرض من هـذه الإشارة ليس هو تفصيل أمر هذه الأقوام، ولكنه ايقاع على القلوب بمصارع الغابرين الذين كذبوا الرسل "كل كذب الرسل فحق وعيد" فكل من كذب برسول فقد كذب بالرسل اجمعين، لأنه كذب بالرسالة الواحدة التى جاءوا بها[1].

فهذا كتاب ربنا يتطق بالحق ليرينا نهاية المكذبين وعاقبة المنحرفين وهذا هو دور آثار التكذيب فى تقويض صروح الحضارات وفى إذهاب بمجد الأمم والأجيال، ولقد كان هذا الدور الخطير للتكذيب، لأن أهله يبطلون دور الرسل فى إصلاح أحوال الأمم.

المعاصى والفساد الاجتماعى فى القرآن:

ومن أسباب الهلاك والسخط ظهور المعاصى وانتشار الفواحش فى المجتمعات مع سكوت الناس عن تغييرها، ذلك أن المعصية إذا صدرت من فرد وأتى بها خفية كمن ابتلى بشئ فتستر كان ضررها قاصرا عليه ولا يتعداه إلى غيره، أما إذا أصبح المجرمون والمنحرفون يعلنون إجرامهم ويتظاهرون بفسوقهم ولم يوجد من يأخذ على أيديهم ويردهم عن عصيانهم دب حينئذ ضرر الفاحشة إلى العامة والخاصة ولم يبق وبالها مقصورا على مرتكبيها وبذلك جاءت نصوص القرآن قال الله عزل وجل: ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**﴾[2].

وقول الله عز وجل : "واتقوا" هو خطاب للمومنين عامة و"فتنة" المراد بها هنا العذاب الدنيوى كالقحط والغلاء وتسلط الظلمة ورعب العامة والخاصة وغير ذلك "لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة" اي تتعدى الظالم وتصيب الصالح والطالح ولا تختص أصابتها بمن يباشر الظلم منكم، واتقاء الفتنة يكون بالكف عن الإسراف فى الذنوب والأخذ على يد المجاهرين بها[3].

ولعل من أكبر الأمم التى ولغت فى الفاحشة ومارستها أبشع ممارسة جهارا ونهاراً، فكتب الله لها الهلاك والدمار بسببها والدمار بسببها قوم لوط عليه السلام : قال تعالى ﴿**قال ما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين، إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين فلما جاء آل لوط المرسلون قال إنكم قوم منكرون قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وإنا لصادقون**

---

(١) انظر فى ظلال القرآن م ٦. ص ٣٣٦١.

(٢) سورة الانفال الاية ٢٥.

(٣) انظر أسباب هلاك الأمم وسنن الله فى المجرمين والمنحرفين ص ٧٧.

فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين وجاء أهل المدينة يستبشرون. قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون، قالوا أو لم ننهك عن العالمين. قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون، فأخذتهم الصيحة مشرقين، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل. ان في ذلك لآيات للمتوسمين﴾(١).

قال ابراهيم عليه السلام للملائكة بعد أن ذهب عنه الروع ما أمركم الخطير الذى لأجله أرسلتم، "قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين" لاهلاكم وهم قوم لوط وإن امرأته ستهلك مع الكافرين "فلما جاء آل لوط المرسلون قال إنكم قوم منكرون أى لا أعرفتكم ولا أدري من أي الأقوام أنتم وما أمركم والظاهر أنه قال لهم ذلك بعد معاناته الشدائد من قومه لأجلهم، "قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون" أى بالعذاب الذى كنت تتوعدهم به فيمرون به ويكذبونك، "وأتيناك بالحق "بمعنى اليقين مع هلاكهم "وإنا لصادقون" فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم" فاذهب بهم فى الليل وكن على آثارهم ولا ينظر منكم أحد وراءه حتى لا يرى من الهول ما لا يطيقه وامضوا حيث تومرون "وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هولاء مقطوع مصبحين" أى سيستأصلون عن آخرهم حال كونهم داخلين فى الصبح، وجاء أهل مدينة لوط "سدوم" "يستبشرون" بتلك الضيافة طمعا فى الضيوف، واصر القوم على فعلتهم الشنيعة، ولما لم يسمعوا النصيحة أسمعهم الله الصيحة المهلكة لهم "فأخذتهم الصيحة مشرقين" أى صيحة العذاب مشرقين داخلين فى وقت شروق الشمس، فجعلنا بتلك الصيحة المحركة للأرض عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، إن فى ذلك لآية للمتوسمين" أى للناظرين نظرة التفرس فى الآيات وفى هلاك هولاء عبرة للمؤمنين(٢).

غالبا ما يأتى الحديث فى القرآن الكريم عن قوم لوط عليه السلام بعد الحديث عن إبراهيم عليه السلام، ذلك لمعاصرته ومجاورته له ولروابط القرابة والنسب زيادة عن رابط العقيدة والانخراط فى سلك النبوءه،وبعد جدال لوط لقومه ودعوته إياهم إلى سبيل الرشد والحلم، وترك السفاهة والنذالة، كما هو دأب الأمم الضالة نجد أنفسنا فى نهاية القصة امام مشهد الدمار والخراب الخسف والهلاك المناسب العادل لأهل تلك الطبائع والمفاسد الخارجة عن الفطرة الإنسانية،قال تعالى: "فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل"، ولقد خسفت قرى قوم لوط بظاهرة

---

(١) سورة الحجر الآيات ٥٧: ٧٥.

(٢) انظر تفسير القاسمي، سورة الحجر الآيات ٥٧: ٧٥.

أو حادثة تشبه ظاهرة الزلزال أو البراكين وما يصاحب ذلك من تناثر الأحجار والتراب وسباح الماء وتبدل وجه المنطقة جغرافيا.

وقد يعلل أصحاب التفسير المادى للتاريخ تلك الحادثة بأنها زلزال أو بركان عادى كالذى ما زال يحدث فى الأرض نتيجة تفاعلات جيولوجيا أو عوامل جغرافية ومناخية، ولكن التفسير الإيمانى الإسلامى يبعد هذه التأويلات وإن كان قد يقبل تعليلاتها فإنه يرجع أسبابها إلى عصيان القوم وانحرافهم.

وبينت الآيات الآتية الأسباب المباشرة التى أدت إلى هلاك القوم والذهاب بمجدهم وعزهم ولقد كانت قديما أرض الشرق بساتين حضارية وجنات فى التمدن والعمران ولكن أهلكها الفساد، ودمرها الظلم والبغى فى الأرض وكثرة الفواحش والعصيان، قال تعالى : ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون، وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين"[1].

لوط هو ابن أخى إبراهيم الخليل عليهما السلام وقد آمن مع عمه إبراهيم وهاجر معه إلى الشام وتوطن فلسطين، ثم نزح لوط عليه السلام إلى وادى الأردن وسكن مدينة "سدوم" فبعثه الله إلى أهلها وإلى من جاورها نبيا، فصار يدعوهم إلى الإيمان والتقوى وترك فاحش الأعمال والسلوك ويبدو ان القوم كانت قد انتشرت بينهم تلك الفعلة.

والعجيب ان اصحاب هذه الفعلة كانوا يرون فى أنفسهم استقامة وفى سلوك غيرهم انحرافا ويسعون لإخراج غيرهم من قريتهم، حيث قال تعالى عن جواب قوم لوط عليه السلام لما دعاهم إلى ترك الفاحشة قال تعالى : وما كان جواب قومه إلا إن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون"، ونظرا لقذارة التصرف وشذوذ الفعلة حتى فى الشذوذ والانحراف والفساد نفسه، فقد جاء أمر الله سريعا وكانت النتيجة فورا، قال تعالى : "فأنجيناه وأهله إلا امراته كانت من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين" وكانت النتيجة لمن هددهم العصاة بالإخراج، وجاء الفصل على أساس الاعتقاد وأسلوب الحياة[2].

وما حاق بهذه الأمم وكان سببا فى هلاكها وسقوط حضارتها وذهاب مجدها فسيكون هو السبب سببا نفسه فى تدمير حضارات الظالمين فى كل العصور وسينتهى

---

(١) انظر تفسير القاسمى، سورة الحجر الآيات ٥٧ إلى ٧٥.

(٢)انظر ظلال القرآن م ٣ ص ١٣١٦ سيد قطب.

دور الحضارات القائمة بنفس السنن الربانية، إن اهلها حادوا عن الاستقامة وكما انتهى دور آل عاد وثمود، وفرعون وهامان وجنودهما وقارون.

ومن أسباب هلاك الأمم وسقوط حضارتها ظهور النقص والتطفيف فى الكيل والميزان ولقد مارس هذه الخطايا أهل مدين قوم شعيب عليه السلام، فاستحقوا غضب الله، وسخطه ثم ذهب بمجدهم وأبيدت حضارتهم ويبدو أن القوم إلى جانب هذا كانوا على شرك با لله فدعاهم نبى ا لله شعيب إلى إفراد ا لله بالعبادة وتوحيده فى الربوبية والتوبة والاستغفار من كل خطيئة، قال تعالى: ﴿**وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط، ويا قوم أوفو المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين. وما أنا عليكم بحفيظ، قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد. قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه. إن أريد إلا الإصلاح مااستطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه انيب ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد. واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود. قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك ومأأنت علينا بعزيز.قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط. ويا قوم اعملو على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب. ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا. واخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين. كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود**﴾[1].

عددت هذه الآيات الخطايا التى انفرد بها أهل مدين دون غيرهم من أمم الانحراف والضلال، هذه الخطايا هى نقص الكيل والميزان، بخس الناس أشياءهم، إلاعثاء فى الأرض فسادا، وهذه كلها مفاسد اقتصادية فى الأسواق التجارية والمالية ومدين بلد تقع ما بين الحجاز والشام، وأهلها قوم من العرب عمروا هذه الأرض دهرا طويلا وأرسل اليهم أخوهم شعيبا، فدعاهم إلى عبادة ا لله واستغفاره وترك تلك المفاسد التى امتازوا بها ويبدو أن القوم كانوا فى نعمة وخير ولذلك ذكرهم نبيهم عليه السلام، وقال ا لله: "إنى أراكم بخير" أى ذو نعمة وثروة فى رزقكم ومعيشتكم وناداهم شعيب عليه السلام، نداء الأخوة فقال: "يا قوم أوفوا الكيل والميزان بالقسط " أى اعدلوا"، ولا

---

(١)سورة هود الآيات ٨٣-٩٥.

تبخسوا الناس أشياءهم" ولاتنقصوهم حقوقهم بطريق من الطرق والبخس هو النقص والهضم، وكان قوم شعيب يأخذون من كل شيء يباع كما تفعل السماسرة فى العصر الحديث، فنهاهم عن ذلك شعيب ولقد تعجب القوم مما نهاهم عنه." قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما كان يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد"، وخصوا الصلاة بالذكر لما رأوا من كثرة الصلاة لشعيب ولعلهم كانوا يعرفون أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والفساد فى الأرض، فكيف تقول هذا أيها الموصوف بالحلم والرشد، وتواصل الحوار بين الحق والباطل بين شعيب وقومه، وحذرهم من أن يؤدى هذا الشقاق بينهم إلى نهاية مأساوية،كما حاق بكثير من الأمم السابقة، فقال عليه السلام "يا قوم لا يجرمكم شقاقي" أى لا يكسبنكم عدائى "أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح" من الغرق،والريح،والصيحة" وماقوم لوط منكم ببعيد"، فإن منازلهم قريبة منكم، وقد علمتم ما نزل بهم من قلب الأرض وامطار الحجارة وذلك لأن مخالفة الرسل تقتضى أحد هذه الامور؛ وأستغفروا ربكم" من عبادة الأصنام والشرك به ثم "توبوا إليه" بالتوحيد وترك المفاسد،"إن ربى رحيم" للمستغفرين التائبين "ودود" أى مبالغ فى المحبة لهم "قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول" أى من الدعوة إلى عبادة ا لله وتوحيده وحرمة البخس "وإنا لنراك فينا ضعيفا" أى لاقوة لك ولا تستطيع أن تمتنع منا إن أردنا بك سوا "ولولا رهطك" أى قومك لرجمناك وقتلناك ولا تعز علينا، وبعد هذا قال لهم شعيب: "ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل" أى سيروا إلى غايتكم واستطاعتكم إنى سائر على مكانتى وطريقى وهو الإسلام سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب" فلابد أن تكون نهاية واحدة لهذا الإجرام والظلم". لما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا واخذت الذين ظلموا الصيحة" تلك سنة ثابتة من سنن ا لله فى الحياة، والصيحة هى العذاب "فأصبحوا فى ديارهم جاثمين" أى ميتين"كأن لم يغنوا فيها" أى لم يقيموا بهذه الأرض ويعمروها دهرا طويلا بالظلم والمفاسد "ألابعدا لمدين كما بعدت ثمود" شبههم ا لله بهم لأن عذابهم كان أيضا بالصيحة وكانوا قريبا منهم فى الزمن والمنزل ونظرائهم فى الكفر والشرك والظلم وقطع الطرق وأعراب مثلهم[1].

هذا دور من أدوار الرسالة النبوية الواحدة يمثل مرحلة من مراحل التاريخ فى أرض مدين لتقوم هذة الأمه بنهضة حضارية تضاف إلى سلسلة الحضارات التى شيدها الأنبياء على أرض الجزيرة العربية.

ولقد دعا شعيب كغيره من الرسل والأنبياء قومه إلى الأخذ بسنن التحضر كما هى مبينة فى هذه الآيات وهى عقيدة التوحيد، وعبادة ا لله الواحد والإيمان بوحدانيته ورسله

---

(١) تفسير القاسمى سورة هود الآيات ٨٣-٨٥.

واليوم الآخر والأخذ بمنهج العدل والاستقامة والعقيدة هي القاعدة الأولى فى كل بناء حضاري اقتصادي أو اجتماعى أو سياسى وترك المعاملات المالية، ويبدو أن القوم كانت قد فسدت معاملاتهم فى البيوع وأسواقهم التجارية، فاضطربت الموازين الاقتصادية وتدهورت، وهذه نقيصة تمس نظافة القلب والعقيدة وسلامة الحس الإنسانى، كما تمس المروءة والشرف الإنسانى قبل أن تمس الواقع الاقتصادى والاجتماعى.

ولقد مارس كذلك القوم الإغارة والحرابة بحكم موقع بلادهم الجغرافى وكانوا يقطعون الطريق على القوافل التجارية الذاهبة والآيبة بين شمال الجزيرة وجنوبها وهى رحله الشتاء والصيف ويفرضون عليها مايشاءون من المعاملات الجائرة مع انهم كانوا على مستوى من العيش لم تكن هناك دواعى اقتصادية تدفعهم إلى هذا الجور والنهب والغصب.

ولقد كان شعيب عليه السلام يعلم بوحى ا لله أن هذه المفاسد والنقائص عوامل تدمير وهلاك لاتقتصر على خيرات البلاد الاقتصادية فحسب بل تتعدى أضرارها إلى القوم أنفسهم، فحذرهم عليه اسلام نتائج هذه الجرائم فقال: "إنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط" ويتضاعف خطر هذه الجرائم حين العلم أنها لاتكلفها دواعى مالية وظروف أو حالات احتماعية لان السارق إذا سرق ليحيا فلا حد ولا إثم عليه، كما أن الجائع أو المضطر إذا أكل أو شرب للاضطرار وليقتات حفاظا على روحه فلا إثم عليه ولا حد أيضا.

أما كيف كانت هذه المفاسد عوامل وأسباب تدمير فى الأمة، فلانها تولد الأحقاد والبغضاء وتشيع مشاعر اليأس والقنوط فى النفوس وتفقد الثقة وتتفكك الروابط الاجتماعية والعلاقات الشخصية بين الناس وتقوى الغرائز الذاتية وحب الأنانية، هذه العوامل والصفات التى ما كانت فى أمة إلا حل بديارها الخراب وانهارت مقوماتها الحضارية.

ويحاول شعيب عليه السلام بمنهج التربية أن يوقظ الوجدان الإنسانى ويحرك بقايا الإيمان الفطرية فى قومه لينتهوا عما نهوا عنه، فيقول: "بقية ا لله خير لكم إن كنتم مؤمنين" وحيث لم ينفع أسلوب الدعوة ومحاولات الرشد فيبدو أن أمر ا لله قد قرب وأن شعيبا سيخلى بين القوم وخالقهم وهو أعلم بحالهم ومايستحقونه وأعدل بهم وفى تخلى الأنبياء عن أقوامهم سنة من سنن النذر وموقف الخطر الذى يلقى بثقل المسؤولية على الأمم.

وهكذا عندما تفرغ النفوس من العقيدة الصحيحة والقيم الروحية الرفيعة فإن العقول لا تعقل والقلوب لا تعظ، وتتعطل الحواس عن التدبر والادراك فتأتى لحظة

المفاصلة ونقطة المفارقة ويسدل الستار على حياة تلك الأمة الضالة لتصير جزءا من التاريخ قال تعالى: "ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة، فاصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود "وهكذا رفع الستار على مصرعى القوم وهم جثث هامدة وطويت صفحة من صفحات تاريخ الأمم الضالة المنحرفة والحضارات المادية الظالمة[1].

وكانت هذه الصفحة الأخيرة من صفحات الأقوام المكذبة في تلك الحقبة من التاريخ وهى صفحة مدين، ولذا نلاحظ إطالة لهذه القصة فى هذا الموضوع على غير سابقتها.ذلك لأنها تتضمن زيادة على قضية العقيدة والعباده والاستغفار وحوارات الأنبياء مع أقوامهم بدعوتهم بالنصح والارشاد والبيان وإقامة الحجة عليهم بالآيات والمعجزات. شيئا من المعاملات المالية التجارية، والأمن الاجتماعى ولعل هو أعز ما تمتلكه الأمة. هو ما افتقدته مدين، كما قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام لهم "فأوفوا الكيل والميزان،ولا تبخسوا الناس أشياهم، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها. ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين، ولاتقعدوا بكل صراط توعدون الناس وتصدون عن سبيل ا لله من آمن به وتبغونها عوجا وانظروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين"[2].

وقوم هذا شأنهم لاشك أنهم من أكابر المجرمين والمنحرفين، ومع شدة هذا الانحراف حاول نبى ا لله شعيب أن يصلح حالهم و يعيدهم إلى الطريق المستقيم فدعاهم ونصحهم، وذكرهم بنعم ا لله عليهم، وأنذرهم سخطه وعذابه والاستحالة برأ القوم من هذه الأمراض، فقد وقف معهم نبيهم شعيب عند آخر نقطة لايملك أن يتراجع عنها وترك الكل وما اعتنق حتى يحكم ا لله وهو خير الحاكمين، وكان أمرا لله مع مدين قوم شعيب كأمر ا لله مع آية أمة ضالة لله سنن فى خلقه، وهو قدر مقدر قال تعالى: "فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين" وفى ومضة قضى إمر ا لله وأصبح القوم فى دارهم جاثمين، فلاحركة ولاحياه وكأن لم يعمروا هذه الديار من قبل و لم يكن لهم فيها صولة ولا جولة"[3].

واستؤصلوا وصاروا كأنهم لما أصابتهم النقمة والعذاب لم يقيموا بديارهم و لم يكن لهم وجود إلا مابقى من آثار واطلال[4].

هذه هي سنة ا لله فى سقوط الحضارات وهلاك الأمم.

---

(١) انظر فى ظلال القرآن م٤ ص ١٩٨٧ إلى ١٩٢٣.

(٢)سورة الأعراف الآيات ٨٤،٨٥.

(٣) انظر فى ظلال القرآن م٣ ص ١٣٢٠، ١٣٢٢.

(٤) تفسير القاسمى سورة الأعراف الآية ٨٥.

الفصل الخامس

سنن التجدد والاستبدال الحضارى فى القرآن

سنن النشوء والتجدد الحضاري في القرآن:

تحدثنا في الفصل السابق عن سنن سقوط الحضارات في القرآن وعرفنا أن الحضارة لا تسقط الا بفعل أسباب داخلية وعن إرادة الإنسان بانيها الأول وبآثار اعتقاده. وسلوكه، وعمله، وسيبقى الإنسان يحرك المجتمعات والأمم والعنصر الفعال المؤثر في صياغة الواقع الحضارى سواء بالسلب أو الإيجاب وقلنا إن السقوط لا يعني دائما الانقراض والإبادة وهلاك الاستئصال للأفراد، بل قد يحدث أن تتحلل المجتمعات وتنهار قوى الأمم، ويمحى أثرها الاجتماعى والسياسى في حياة الناس القائمة، ومع ذلك فإن عدد أفرادها ونسبة سكان مجتمعات هذه الأمة لا يتغير بل قد يزيد، ويحتفظ كل فرد بغريزة حب البقاء والعيش في جماعة أكثر من ذى قبل، وبهذا يغدوا هؤلاء الأفراد أنقاضا ومعالم كيان إنسانى باهت وواقع حضارى آفل، مهيأة لأن تدخل في بناء تجديد حضارى[1].

وإن كان أهل الحضارة لما تسقط يسبقون مدة من الزمان وفترة من الوقت حيارى يطلبون القديم بحنان نفسى وشوق روحى فلا يستطيعون الوصول إليه لاستعادة مجدهم وتوظيفه في خدمة واقعهم الحاضر وهو أنقاض وخراب، ويتطلعون إلى المستقبل للإسراع باستدعائه واستحضاره فلا يعرفون إليه سبيلا ولا يجدون في ذلك بارقة أمل تنعش أرواحهم وتغذى واقعهم وتخدمه، وكأنى بالقوم كأهل ميت يرونه يحتضر فلا قوة ولا حيلة لهم، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ليل عبوس وأيام نحسات وظلام حالك وواقع حائر وكل شئ قد تفتت إلى جزئياته الأولى وأمست الأمة كأن لم تغن بالأمس شيئا، هذه بعض ملامح أحوال الأمم بعد سقوط حضارتها وقد أنزل الله عليها ألوانا من الهموم. وألواناً من العذاب، والجزاء والطرق التى أهلك الله بها الأمم الخالية قسمان.

١ - هلاك استئصال وإبادة كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود وقوم شعيب وأصحاب الحجر وقوم لوط وغيرهم كثير ممن ذكر القرآن ومن لم يذكر، وهذه الأقوام هى المعاندة للرسل المكذبة بالآيات الربانية المسرفة في الذنوب والمعاصى والمظالم.

٢ - والقسم الثانى من المهلكين هم المصابون بالمجاعات والبرائح والزلازل وتبديل الأشكال والأحوال كما فعل ببنى اسرائيل، وتغيير الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وتسليط أنواعا من الأمراض النفسية والبدنية كاليأس والقنوط والذل والهوان ونفاذ الصبر والإرادة هذا الذى كثير ما أدى إلى الانتحار والاقتتال، والأمراض المستعصية على الاستطباب والعلاج كالإيدز والسرطان.

---

(١) انظر ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، ص ١١، مالك بن نبى.

كما هو فى عصرنا الحاضر، وخاصة فى عواصم التمدن التى أفرغت من لدى الأنبياء وروحيات الإنسانية الفطرية[1].

وبعد هذا الشقاء والنكد والتعفن يدور الزمان دورته، ومن سنة الله أن جعل تغييره الرباني مبنيا ومتوقفا على التغيير الإرادى والنفسي واستحضار نية الخير والقصد الجميل الطيب لدى الإنسان حتى يغير واقعه الحضارى، وتأتى الأيام بتلك النفحات الروحية لتعيد للإنسانية أو لهذه الأمة البائسة الاطمئنان بعد القلق والثقة بعد اليأس، وتتحقق وعود الله على يد جيل أو أجيال أهلته القدرة الربانية، ويتم استبدال الله قوما بقوم آخرين مهيئين للاستخلاف والتمكين ومؤهلين للإمامة والقيادة الإنسانية لوراثة الأرض. وكل هذا لا يكون إلا وفق سنن ربانية ارتضاها الله لعباده وأجراها بإرادة الإنسان وعن تقبل وطواعية منه، إذا كان سقوط الحضارة معناه زوال سلطة الأمة وسلطانها وضياع رسالتها فى تاريخ البشرية وواقع الإنسانية دون ذهاب أفرادها وشعوبها، فإن القرآن قد ذكر عددا من الآيات تبين هذه السنة وهى قيام دول وحضارات تأخذ بزمام القيادة الإنسانية الحضارية بدل أو مكان تلك الأمم الذاهبة أو تجدد حضارتها، ومن ذلك قوله تعالى: **﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين﴾**[2].

فهذه الآية تقص قصة أهل قرية نحو اليمن يقال لها "حضور" بعث الله إليهم نبيا فقتله اهلها فكان لون من ألوان العذاب وهو أن سلط الله عليهم "بختنصر" فقتلهم و لم يترك فيهم عينا تطرف، وأنشأ الله بعدهم قوما آخرين سكنوا ديارهم وورثوا أرضهم[3].

وقال تعالى بين سنة النشأة واستبدال الهالكين بقوم أو أقوام أو جيل أو أجيال، **﴿إن فى ذلك لآيات وان كنا لمبتلين ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾**[4].

جاء الحديث فى الآيتين أن الهالكين هم قوم نوح عليه السلام، وأن ما فعل الله بهم بسبب ما فعلوه فى أنفسهم، آيات وعبر لأهل مكة وغيرهم ليهتدوا وأن قوم نوح عليه السلام قد جاءتهم سنن النذر والابتلاء "وإن كنا لمبتلين" أى قد كنا بلوناهم كما بلونا غيرهم بالبلايا والعقوبة المختيرة ولكنهم كذبوا فأنشأ الله بعدهم قوما آخرين.

وهكذا أجرت سنة الله أنه ما أهلك قوما إلا أنشأ من بعدهم آخرين يعمرون

---

(١) انظر أسباب هلاك الأمم وسنة الله فى المنحرفين والمجرمين، ص ٢٣.

(٢) سورة الأنبياء الآية ١١.

(٣) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص ٢٦٩ .

(٤)سورة المؤمنون ٣٠،٣١.

الأرض، وقال تعالى فى بيان هذه السنة عند الدهريين الذين يرون أن الحياة عبارة عن موت الأباء وحياة الأبناء وهكذا دواليك، قال تعالى : **﴿فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين. ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾**[1].

إن هؤلاء الدهريين قد أخذتهم الصيحة بالعذب فكانوا بعد الهلاك غثاء يابسا ثم أنشأ الله من بعد هلاكهم قرونا أخرى، أى أجيالاً أخرى كثيرة فى قرن بعد قرن والقرن قيل ثمانون سنة "ما تسبق من أمة احلها وما يستأخرون" أى وما تهلك أمة قبل أجلها المحدد وما تستأخر عنه، ذلك تقدير العزيز العليم[2].

وإن ذهاب إمة ونشأة أخرى ليس عبثا ولا مجرد انتقام من قوم دون آخرين.

ولكنها سنة الله فى الأمم لتجدد خلايا الإنسانية وتداول الحياة الحضارية بين البشر ليستمر العالم قائما، على عقيدة سليمة وأسس صحيحة صالحة للبقاء، والحضارة التى ترقى فى إحدى حوانبها دون الأخرى تترك نقائص ومساوئ فى مجتمعاتها ضارة بأفراد الأمة ومؤسساتها، والأمل فى إصلاح الإنسانية واستقامة حياتها مكفول باتباع سنة الرسل واقتفاء حياتهم الشخصية.

ومن هذا نخلص إلى أنه كما للحضارات سنن قيام وسقوط، لها سنن تجدد وانبعاث وسنن تداول واستبدال.

ومن الأمور المنطقية فى قضايا الحضارات أن الحضارة لا تتجدد وتقوم مرة أخرى الا فى اطار منطلقها الأول وخصائصها الذاتية واستحضار ماضيها وربطه بحاضرها أى الاعتزاز بالماضى وتوظيفه فى خدمة الواقع لأن الانسلاخ عن منجزات التاريخ أمر مستحيل، فالانبعاث أو التجدد الحضارى إذن عملية ذاتية داخلية قبل كل شئ ويحدث عن تفاعل عوامل وعناصر كثيرة، وإلا فقدت الحضارة الساعى تجديديها أصالتها وكان بها تحوير وتبديل باتجاه حضارى آخر، ومن رحمة الله أن التجدد سنة ثابتة فى كل الكائنات الحية، فالحيوانات تتجدد أشعارها وأوبارها والشجرة تتجدد أوراقها، والإنسان ذاته تتجدد خلايا جسمه باستمرار فى ضوء قانون الهدم والبناء والموت والحياة الذى يعترى كل خلية من خلايا الأجسام الحية، كما تتبدل أفكاره وأخلاقه وأحواله النفسية بين الحين والحين فقد يستحسن شيئا اليوم ويستقبحه غدا، ويلتزم بالأمر الأخلاقى اليوم ويخرج عنه غدا وهكذا والعكس صحيح، مع أنه يحتفظ بماهيته وبعض خصائصه الذاتية التى تميزه عن غيره كبشرة اللون وقامته فى الطول والقصر،

---

(١) سورة المؤمنون ٤١،٤٢،٤٣.

(٢) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٢٨٧.

وكذلك الحضارة إن أريد لها أن تحتفظ بشخصيتها وخصوصيتها الأولى كيلا يصيبها الانفصام الحاد بين حاضرها وماضيها وتنسلخ عن أصلها فلابد لها من الاحتفاظ بشخصيتها ومميزاتها الأولى(١).

ومن هنا فلابد للحضارة التى تريد المحافظة على أصولها ومنطلقاتها الأولى العقيدية والفكرية والتصورية أن يكون لها برنامج لإحداث عادة التجديد أو ما يسمى بالنظرية الكونية للحضارة(٢).

ويكون برنامج التجديد أو النظرية قائمة على أسس التصور أو المنطلق الأولى الذى كونته تلك الحضارة المتجددة لنفسها فى بدايتها بداية قيامها بالمرة الأولى عند الله والإنسان والعالم والعلاقة القائمة بين هذه الثلاث.

ولقد سنن الله فى القرآن للتجدد الحضارى والخروج من التخلف سنتين: التغيير الذاتى، والإعداد الذاتى وبدون الأخذ بهاتين السنتين لن تبدأ حركة التاريخ سيرتها. ولن تستأنف الحضارة دورها فى التعمير وتحقيق الاستخلاف والتمكين والدفع بالأمة إلى المواقع الأمامية التى تجاوزتها فيها قيادات الأمم الأخرى ذلك أن التعبير الذاتى يعنى التغيير الداخلى للأنفس، وهذه هى القاعدة الأولى الأساسية فى أى بناء حضارى، ويقف على هذه القضية التى هى محور سنن التغيير قوله تعالى: **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**(٣).

ولقد حمل كثير من المفسرين معنى التغيير فى الآية على جانب طرف واحد وهو بمعنى ان سلب النعمة من القوم أو الأمة لا يكون الا بعد أن تقوم تلك الأمة بأسبابه وهو ترك الشكر والكفر بنعم الله(٤).

وهذا التفسير يثبت عدالة الله فى هلاك الأمم وهو ما ترشد إليه آية سورة الأنفال فى قوله تعالى: **﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين﴾**(٥).

ذلك أى التعذيب الذى هو مؤاخذة بالذنوب لم يكن حتى استحقه القوم لما أحدثوا فى أنفسهم من موجباته من اعتقادات وأقوال وأعمال باطلة والمثال على هذا التغيير

---

(١) انظر تجديد الفكر الاسلامى ص ١١٠، د. / محسن عبد الحميد.

(٢) انظر فلسفة الحضارة ص ٦ وما بعدها ألبرت أشفيتسر ترجمة عبدالرحمن بدوى.

(٣) سورة الرعد، الآية / ١١.

(٤) انظر المقباس فى تفسير ابن عباس، ص ٢٠٦.

(٥) سورة الأنفال الآيتين ٥٤،٥٥.

على الحد السلبي هو فرعون وآله وكثير ممن سبقهم من الظالمين[1].

فالله لا يسلب نعمة عن قوم أنعمها عليهم ويستبدل بها نقمه إلا بعد ان يغير القوم ما بأنفسهم من نوايا ومقاصد داخلية تنتج عنها أخلاق وتصرفات في الأعمال والمواقف فتقلب الأوضاع وتتبدل الأحوال الخارجية الظاهرة للقوم، فسنة الله تجرى وفق هذا التلازم[2].

وأحسب أن التغيير في آية سورة الرعد التي نحن بصددها شامل عام يمتد إلى سائر المكونات النفسية والاجتماعية للأمة ويصدق على كافة مجالات الحياة والعلاقات بين ذات الفرد والآخرين، وما يفهم من الآية أنها سنة وقانون في التغيير بمنح الإرادة الإنسانية القدرة على إدراك حقائق الأنفس الداخلية، وبتدبر الآية وتقصى أبعادها وسير آثارها في النفس والمجتمع يمكن التوصل إلى اقامة قواعد لمنهج علم اجتماعي قرآني يتحدى به علماء الغرب والتوصل إلى سنن أو تقنين سنن تحضر الأمم، وتحريك طاقاتها الإنسانية على المستوى النفسي ثم الاجتماعي الحضارى، ولذلك ما لا تتهيأ إرادة الأمة للعمل والإبداع عن طريق شحذ القوة الداخلية الروحية العاطفية والنفسية والعقلية إلا كانت ذات قدرة وملك زمام المبادرة الحضارية.

وما يخلص إليه في هذه النقطة أن التغيير الذاتي للفرد عملية شاملة تمس كل مكوناته الروحية المعنوية والبدنية الجسدية مع الأخذ بقانون أو مبدأ الأولويات على قدر درجة الفعالية[3].

أما عن سنة الإعداد الذاتي وهي القانون الثاني في التجدد الحضارى فهي مستنبطة من قوله تعالى : **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾**[4].

فالآية نزلت بصيغة الأمر وهو طلب إعداد القوة لبني قريظة وسائر العرب ويقال العرب حتى الجن، آخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم[5].

وللآيتين ارتباط وثيق ببعضهما بعض وبين السنتين التي تقررهما تكامل قوى ذلك ان الإعداد الشامل لن يتحقق الا بوجود التغيير الشامل للإنسان ولتهيئته التهيؤ الكلي لأداء الدور المرتقب منه في تعمير الأرض والالتزام بسنن الاستخلاف والتمكين

---

(١) انظر محاسن التأويل - تفسير القاسمي - الأنفال ٥٤،٥٥.

(٢) انظر في ظلال القرآن م ٣ ص ١٥٣٦.

(٣) انظر العقل المسلم والرؤية الحضارية، ص ٤٣،٤٤ د / عماد الدين خليل وراجع حتى يغيروا ما بأنفسهم للأستاذ سعيد جودت، دار الثقافة للجميع، دمشق.

(٤) سورة الأنفال - الآية / ٦١.

(٥) انظر المقباس من تفسير ابن عباس.

بالوصول إلى التعبد الكامل لله وحده بالتحرر من كل المعبودات الذاتية والغيرية كالهوى والإعجاب بالرأى والمعوقات النفسية دون الوصول إلى السمو الروحي والمعبودات الغيرية كالاعتقاد بالأصنام والأوثان والكواكب وطاعة السلطان الظالم والقادة فى غير طاعة الله.

وللإعداد لابد من استخدام القدرات الذاتية الكامنة فى الأنفس والأدوات المادية الكامنة فى عالم الأشياء الذى هو تحت تصرف الإنسان واستخدام كل ما لا يتعارض مع مبادئ القرآن وأحكامه وتوجيهاته التى امتدت لتشمل كافة أطراف الحياة الدنيا والآخرة وكافة أبعاد النفس الإنسانية وغيرها، وتستخدم القوة المادية الغيرية وفق سنة التسخير والتوازن، والارتباط الدائم بين الأسباب والمسببات والشروط والمشروطات، والنتائج والمقدمات، والوسائل السليمة الصحيحة المؤدية إلى أهداف وغايات شريفة وهذا هو الإطار العام الذى يمكن للإنسان تنفيذه ما كلف به من سنن وما استحسن له تحقيقه فى الحياة، وهو الجانب المسخر له فى الحياة الداخل تحت قدراته إن استعمل قوته وطاقاته، دون بغى بغير حق وطلب المستحيل والمحال فيما هو فوق الطاقة الإنسانية فيما تسميه بعض المذاهب الصراع مع الطبيعة، وما هو مسخر وغير مسخر وفيما هو مكلف به الإنسان وغير مكلف[1].

وما نستنبطه من تأملاتنا لآيات القرآن وسننه فى التحضر هو بيان خطوط ومناهج التحرك فى كافة مناكب الحياة من سيرة الأمم الذاهبة، وإن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار، وأين أصابت وأين حادت عن الحق فاستحقت الجزاء أو ذاقت وبال أمرها.

كما تدلنا هذه الآيات وغيرها على مواطن القوة فى الإنسان ونقاط الضعف به وتدعونا إلى التبصر والتأمل بما بداخلنا **﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون وفى السماء رزقكم وما توعدون﴾**[2].

وفى الكون والطبيعة لاكتشاف سنن الله المبثوثة فى الوجود لاستخراج خيراته لتحقق الإنسانية إنسانيتها وغاياتها فى الدارين قال **﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شئ بصير﴾**[3].

وقال تعالى: **﴿فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير﴾**[4].

---

(١) انظر العقل المسلم والرؤية الحضارية ص ٤٦، ٤٧ .

(٢) سورة الذاريات الآيتين ٢٠،٢١.

(٣) سورة الملك – الآية ١٨.

(٤) سورة الملك، الآيتين ٣،٤.

ولكن مصيبة الفكر الإنساني الجامد هو ما ثبت بقوله تعالى: ﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين**﴾[١].

أى بما لم يدركوه بعلمهم ولم يروا ما وعدهم الله به[٢].

قال تعالى: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك انه على كل شئ شهيد**﴾[٣].

والمراد بالآيات هنا العلامات والعجائب الدالة على قدرة الله[٤].

وقال تعالى: ﴿**سأريكم آياتي فلا تستعجلون**﴾[٥].

هذا وقد يساور شك وعجب بعض المفكرين البعيدين عن ظلال الوحي فيقولون ما علاقة القرآن بقضايا الحضارة العلمية والتكنولوجيا النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي تتميز بالحداثة والمعاصرة وهي من مبتدعات العلم والتي حققها عبر مراحل تاريخية طويلة ومسيرة مضنية وبجهد كبير من الدرس والبحث، والتجارب، ولكن العجب يزول والشك يذوب إذا علمنا أن القرآن الكريم قد دل الإنسانية منذ قرون على أفضل السبل في الحياة وأصح المناهج بها، ودفع العقول إلى اكتشاف سنن الله في الوجود، ولكن أين العقول التي تتدبر والآذان التي تسمع، والعيون التي تبصر مع هذه الدعوة والدعوات الملحة المكررة في كثير من آيات القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو أذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾[٦].

ويبقى الشاهد معنا أن الآيتين تمثلا سنن التجدد والانبعاث الحضاري في أية أمة مسلمة أم كافرة، مؤمنة أم ملحدة فهما شاملاتان يدل على شموليتهما ورود الاسم الموصول في آية سورة الرعد "ما بقوم" وكلمة قوة في آية سورة الأنفال نكرة والنكرة تفيد العموم.

---

(١) سورة يونس، الآية ٣٩.
(٢) انظر المقباس من تفسير ابن عباس، ص ١٧٤.
(٣) سورة فصلت، الآية ٥٣.
(٤) تفسير ابن عباس ص ٤٠٥.
(٥) الأنبياء ٣٧.
(٦) سورة الحج، الآية ٤٤.

سنن التداول والاستبدال الحضاري في القرآن:

لقد عرف الإنسان منذ القدم ظاهرة تبدل أحوال الطبيعة وتعاقب الليل والنهار بانتظام وتغير فصول السنة وغياب الشمس والقمر وتبادلها على أطراف الأرض واستبدال بعضها ببعض بين كل فترة وأخرى من الوقت، وإن كان الفلاسفة والفلكيون قد تجادلوا حول كيفية حدوث ذلك منذ سالف الدهر وتفرقوا طوائف ومذاهب شتى فإن ذلك لبروز هذه الظواهر فى حياتهم ومعايشتهم لها، ولعل العامل فى هذا الاختلاف يرجع إلى الجهل بقوانين الطبيعة وسنن وأسباب تبدل أحوال الحياة.

والحديث عن فكرة أو ظاهرة التبدل أو الاستبدال أو التداول فى موضوعنا هذا يقتصر على الناحية الاجتماعية والتاريخية وهو المقصود عندنا بالاستبدال أو التداول الحضارى الذى يتضمنه معناه قوله تعالى: **﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين﴾**[(١)].

قال ابن عباس: بعد أن بين الله سننه التى مضت فى الأمم الخالية من قبل بالثواب والمغفرة والنصرة والتمكين لمن تاب، والعذاب والهلاك لمن عصى ودعا إلى النظر والتأمل كيف صارت أحوال المكذبين بالرسل قال تعالى: "هذا بيان للناس" أى القرآن بيان للحلال والحرام، والهدى والضلال ونهى المتقين عن الكفر والشرك، والفواحش، وقال ابن عباس: ثم عزى الله المسلمين (الصحابة) لما أصابهم يوم أحد فقال تعالى: "ولا تهنوا ولا تحزنوا" أى لا تضعفوا مع عدوكم ولا تحزنوا على ما أصابكم من القتل والجراح، وأنتم الأعلون" وآخر الأمر لكم بالنصر والدولة "إن كنتم مؤمنين" وإذا كنتم مؤمنين فإن النصر والدولة من الله وإن أصابتكم جروح يوم أحد "فقد مس القوم" أى أصاب أهل مكة يوم بدر جرح مثل ما أصابكم يوم أحد، "وتلك الأيام نداولها بين الناس" بالدولة نديل المؤمنين على الكافرين والكافرين على المؤمنين[(٢)].

وقيل نزلت هذه الآية "آية المداولة "لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم كئيبا حزينا يوم أحد "وجعلت المرأة تجئ بزوجها وابنها مقتولين وهى تلد فقال رسول الله، أهكذا يفعل برسولك فأنزل الله إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله... الآية[(٣)].

---

(١) سورة آل عمران ١٣٧ و ١٤٠.

(٢) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص ٥٧.

(٣) انظر أسباب النزول ص ٧١ تأليف أبى الحسن على بن محمد الواحدى النيسابورى.

وقال الإمام الزمخشرى: تلك مبتدأ والأيام بدل، ونداولها - خبره، وهى كما يقال هى الأيام تبلى كل جديد، وقال المراد بالأيام أوقات الظفر والغلبة ونداولها نصرفها بين الناس نديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء ومن أمثال العرب الأيام دول والحرب سجال[1].

ولقد خضعت آية المداولة لتفسيرات كثيرة، واجتهادات عديدة فى دراسة حركة التاريخ وتفسير الدورات الحضارية، شأن هذه الآية فى هذا شأن كثير من الآيات الأخرى كالآية الثانية عشرة من سورة الرعد[2] التى اتخذت كقاعدة فى تفسير وتعليل التغيير الاجتماعى والآية الثانية والخمسين من صورة فصلت[3] التى اتخذت قاعدة وقانون فى تفسير الابداعات والاختراعات العلمية من خلال القرآن.

وما يهمنا أكثر هو بعد أن عرفنا معنى هذه الآية - آية المداولة- ومن بعض مصادر التفسير المعتمدة كابن عباس والزمخشرى، وعرفنا سبب نزولها وأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا بأس من الاستزادة من معرفة أبعاد معانيها التى تمتد إلى أصول معانيها الأولى، كما هى فى المصادر المعتمدة "حتى تتضح وتتقصى حقائقها أكثر فى ضوء تفسيرها الأصولى وخاصة أن هذه الآية تقف فى الأحكام القرآنية على تعليل قضية من أكبر قضايا أبحاث التاريخ، وهى قضية الدورات الحضارية، فقد قيل إنها تلخص فى ألفاظها القليلة قصة التاريخ الإنسانى والتطور الاجتماعى منذ وجود الإنسان على ظهر الأرض، وأمكن من ابتداع تسجل ما تمر به من أحداث حضارات ازدهرت وحققت إنجازات ما زالت تدل الآثار عليها حتى اليوم، وقد ذوت تلك الحضارات وراحت تتساقط كأوراق الأشجار فى الخريف وفنيت قواها المادية بعد أن كانت تمثل بلدانا ونظما ودولا وحكومات، ولعل هذا التعاقب والتداول الحضارى بين الأمم يوحى بأكثر من معنى وتستنبط منه سننا وقوانين كثيرة منها أن لكل حضارة أجل محدد، ولا تهلك أية حضارة وتسقط حتى تستنفذ مبررات بقائها على يد الإنسان صانعها الأول، ويصبح لزاما أن تقوم حضارة أخرى أو تتجدد تلك، والشواهد من التاريخ على تفسير ظاهرة أو قضية التجدد والتداول والاستبدال الحضارى كثيرة ولعل فى تاريخ بنى اسرائيل مثال[4].

وأول من خوطب بهذه الآية طبعا هم الصحابة رضى الله عنهم، والمعنى هو أن الذى وقع يوم أحد وغيره من معارك انهزام المسلمين وفترات انحطاطهم ينبغى ألا يضعف عزائمكم، فإن السنن التى قد خلت من قبلكم تبين لنا أن مصارعة الحق للباطل

---

(١) انظر تفسير الزمخشرى، آل عمران الآية ١٤٠.

(٢) "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

(٣) "سنريهم آياتنا فى الآفاق، وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق".

(٤) انظر التفسير القرآنى للتاريخ ص ١٥٠،١٥١ د. / راشد البراوى.

سنة من سنن الله للبقاء واستمرارية الحياة، وكيف ابتلى أهل الحق أحيانا بالخوف والجوع والانكسار فى الحروب، ثم كانت العاقبة لهم وما دام الأمر كذلك فلا تهنوا ولا تحزنوا بما أصابكم، والله هو القائل: "بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق"[1].

وإن هذا كله قد مضى سنن فى الأمم الخالية، وفى القرآن بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين من هذا، ولا شك ان الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن عالمين بمراد الله من ذكرها، وكانوا يعملون بها، ويهتدون بها فى حروبهم وفتوحاتهم وسياساتهم للأمم التى قادوها إلى الخير والفلاح، وكانوا على درجة من العلم وتجارب الآخرين. وإن لم ينظروا هذه السنن ويبرمجوها ويدرسوها كعلم وإلا كيف حققوا ذلك النصر المبين، وهو لا يتحقق ولا يكون إلا بفقه سنن الله تبين الآيات للناس إن هم سلكوا سبيل الصالحين فعاقبتهم كعاقبتهم وإن سلكوا سبل المكذبين فعاقبتهم كعاقبتهم، وكل عواقب الطوائف والمذاهب والشيع والأحزاب أحصاها القرآن وسجلها وبين أسبابها وعللها.

وتثبت الآيات أن فى حياة الناس سننا يؤدى بعضها إلى الخير والسعادة ويؤدى بعضها الآخر إلى الشقاء والهلاك وكل من يتبع أيا منها، فلابد أن ينتهى إلى غاياتها سواء كان مؤمنا أم كافرا، لأن اجتماع الناس وتواصلهم واجتهادهم، وتعاونهم على طلب مصلحة من مصالحهم يكون مع الثبات على أسباب نجاحهم ووصولهم إلى مقاصدهم سواء كانوا ما اجتمعوا عليه حقا أم باطلا، وهذا ما يفسر سيادة أهل الباطل فى فترات من التاريخ ولابد أن يكون فى وسيلتهم إلى الخير شئ من الحق لأن التعاون، والاجتهاد، والمثابرة حق.

ولكن سنة الله أن الباطل لا يدوم، لأنه ليس له فى الواقع ما يؤيده ويؤازره وإذا جاء الحق فانه لا يثبت أن يدفع الباطل وتكون للحق العاقبة كما قال تعالى: **﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾**[2].

والحق هنا هو ظهور الإسلام وكثرة المسلمين، والباطل هو هلاك الشرك وأهله[3].

والباطل ذاته لا يحمل عوامل بقائه - ليس لديه قابلية الاستمرار كثيرا كما قال تعالى: **﴿... كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾**[4].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٨.

(٢) سورة الاسراء، الآية ٨١.

(٣) المقباس فى تفسير ابن عباس ص ٢٤٠ .

(٤) سورة الرعد، الآية ١٩.

ومعنى يضرب الله الحق والباطل أى يبين الحق والباطل، وكما يذهب الزبد جفاء لا ينتفع به، فكذلك الباطل فلا ينتفع به، ولا فائدة من وجوده ولا يمكن أن يكون فى الحياة شئ عبثا سدى، وما ينفع الناس من الماء الصافى والذهب والحديد والنحاس يمكث في الأرض لينتفع به كذلك يضرب الله الأمثال". فيتبين آل الحق والباطل(١).

وسنن الله حاكمة فى رسله وأنبيائه، كما هى حاكمة على سائر البشر والخلق أجمعين، ومن هنا فينبغي على الذين يسعون إلى التحضر والنصر أن يستنبطوا سنن الله من تاريخ الذاهبين ليعرفوا أحوال الأمم الهالكة ثم يعتبروا بها، ودراسة أحوال الأمم ومعرفة سنن وأسباب عزتها وثباتها وتمكينها "ولا تهنوا ولا تحزنوا" والوهن هو الضعف فى العمل والرأى، والحزن ألم يعوض النفس إذا فقدت ما تحب لأن تضعف على القتال وما يلزمه من تدبير "إن كنتم مؤمنين"، لأن الإيمان يقتضى الصبر والثبات.

وتلك الأيام نداولها بين الناس ومعنى نداولها نصرفها فيقال داولت الشئ بينهم فتداولوه فتكون الدولة فيه لهؤلاء مرة ولهؤلاء مرة، ودالت الأيام دارت.

وبهذا فالتداول سنة من سنن الله فى الاجتماع البشرى فلا غرو أن تكون الدولة مرة للمبطل ومرة للمحق، وإنما المضمون دائما لصاحب الحق وأن تكون له العاقبة، وانت أهل الحق يرثون أهل الباطل فى الأرض ولا عكس، وهذه سنة من تلك السنن التى خلت، والمداولة فى الواقع تكون مبنية على أعمال الناس ولا تكون لفريق دون آخر جزافا وإنما تكون لمن عرف أسبابها وفقه سننها ورعاها حق رعايتها فإذا عرفتم ذلك وهذا فلا تهنوا ولا تحزنوا و لله عاقبة الأمور(٢).

وكتب الله دوائر التداول على بنى اسرائيل فقال : **﴿وقضينا إلى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا. فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا اولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم. وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوأا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً﴾**(٣).

وكلمة قضينا اقتضت الإخبار، عما سيؤول إليه أمر بنى اسرائيل وما سيكشف التاريخ من فسادهم وظلمهم فى الأرض، وليس القضاء هنا قهرى جبرى يصم العقول عن التفكير ويجبرها على الفساد باقصاء الإرادة والاختيار لدى أصحابها بحيث لا تعمل

---

(١) المقباس من تفسير ابن عباس، ص ٢٠٧.
(٢) انظر تفسير المنار، سورة آل عمران الآية / ١٤٠.
(٣) سورة الإسراء، الآيات ٤-٧.

إلا شرا وباطلا وظلما، كلا إن هذا يتنافى مع عدالة الله، وإنما علم الله الأزلي المطلق الذى علم الله به ما تضمره نفوس بنى اسرئيل من طواعية وإرادة فقدر لها ذلك المآل والمصير الكالح وتغيرات الأحوال فى تاريخهم الطويل وعلاقاتهم بشعوب الأرض وكان تاريخهم عبارة عن عز وتمكين حينا، وذل وهوان أحيانا، وفترات حرب واقتتال فهم لم يموتوا ولم يحيوا حياة بقية الشعوب والأمم الأخرى سنة الله فى خلقه، والله يفعل ما يريد، وما ربك بظلام للعبيد.

وجرت عليهم دورات فعلوا فى الأرض المقدسة وكان لهم فيها سلطان وقوة ثم أفسدوا فيها فبعث الله عليهم عبادا له أولى بأس شديد، ثم كانت الغلبة لهم وأمدهم الله بأموال وبنين وكانوا أكثر نفيرا، وتنتهى هذه الدورة من تاريخهم، وقال الله لهم: "إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها" كما بينا وهذه هى القاعدة التى لا تتغير والسنة الباقية حيث يعامل الله البشر على قدر أعمالهم، وتحقق الإعجاز التاريخى فى القرآن وصدقت النبوة وسلط الله على بنى اسرائيل فى تاريخهم الممتد من قهرهم أول مرة. ثم سلط عليهم الله من شردهم فى الأرض دون خلق الله ولا ينص القرآن عن جنسية هؤلاء الذين بعثوا على بنى اسرائيل وسلطوا عليهم إنما وصفوا بأنهم أولي بأس شديد، ثم قال الله لهم: "عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا" فى أى زمان وفى أى مكان، فالجزاء حاضر والسنة ماضية[1].

ولقد عاد بنو اسرائيل إلى الفساد فى الأرض ومحاربة الحق، وظلموا الإنسانية فسلط الله عليهم المسلمين فى القرن السادس الميلادى فاخرجوهم من الجزيرة العربية، وعادوا إلى عادتهم فسلط عليهم عبادا آخرين وحتى كان العصر الحديث فسلطت عليهم أمم وقادة ظالمون مثلهم "كهتلر" وغيره وعادوا الآن إلى الفساد والظلم ونحن فى انتظار وعد الله فيهم[2].

وما إن تبلغ الأمة درجة من التقدم والرقى المادى وتطمئن لذاتها وتعتمد على قوتها وتعجب بحالها وتنسى أساسيات الحياة ومقومات البقاء والاستمرار، حتى يداهمها بأس الله ويحل بها سخطه بسبب هذه العوامل الداخلية ذاتها، ولكى تستأنف الإنسانية رسالتها وتحافظ على جنسها ونوعها البشرى، فإن الله من رحمته لا يعمم الفساد فى الإنسانية حتى لا يعم الهلاك وتبقى القلة على ما هي عليه لكى تكون فرصة استبدال قوم بقوم أو أمة بأمة كما يستبدل فرد بفرد في منصب من مناصب شئون الدول والحكومات، والأصل فى الاستبدال أو الإبدال جَعل شئ مكان شئ آخر، كإبدال حرف بحرف فى اللغة فى صيغة أحسن أو إبدال ثوب بثوب أجمل منه، أو إبدال قوم

---

(١) انظر فى ظلال القرآن م ٤، ص ٢١٢، ٢١٤.

(٢) للتفصيل انظر زوال اسرائيل حتمية قرآنية للشيخ أسعد التميمي إمام المسجد الأقصى.

بقوم صالحين[1].

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل، إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا. والله على كل شئ قدير﴾[2].

والمعنى انفروا، أى أخرجوا مع نبيكم فى غزوة تبوك، ولعل بعض الصحابة رضى الله عنهم تثاقلوا عن الجهاد فى هذه الغزوة واشتهوا الجلوس إلى متاع الحياة الدنيا، وإن لم تخرجوا أيها المخاطبون على مر العصور فإن الله يستبدل قوما غيركم خيراً منكم وأطوع لهذا الأمر وأمر الله كله ولن تضروا الله شيئا وهو على كل شئ قدير[3].

والله قادر على خلق جنس آخر جديد من البشر كل حياته طاعة ولا يعرف طريقا إلى المعصية ولكنها سنة الله فى الابتلاء والتجدد والاستبدال.

وهذا وعيد للذين لا يخرجون للجهاد فى سبيل الله يحمل إليهم تخويفا بالعذاب الأليم، ثم الاستبدال بقوم غيرهم.

أما عن الذين يبخلون بالإنفاق فى سبيل الله فقد قال لهم الله:﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء. وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾[4].

والمعنى إن تتولوا عن طاعة الله ورسوله وعما أمركم به من إنفاق فى سبيل الله ويهلككم الخالق سبحانه ويأتى بآخرين خيرا منكم وأطوع لله" ثم لا يكونوا أمثالكم لا فى المعصية ولا فى الطاعة، ولكن يكونون خيرا منكم وأطوع لله[5].

وقال القرطبى فى قوله تعالى: "لا يكونوا أمثالكم" أى فى البخل وبالإنفاق فى سبيل الله، وروى عن أبي موسى الأشعرى أنه لما نزلت هذه الآية فرح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "هى أحب إلى من الدنيا"[6].

وان اختيار الله للبشر لحمل رسالة الحق وأمانة عمارة الأرض تكريم منه سبحانه ومَن وعطاء، فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلا لهذا الفضل وإذا لم تنهضوا بتكاليف هذه

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور مادة بدل.
(٢) سورة التوبة الآيتين ٣٨،٣٩.
(٣) انظر المقباس، تفسير ابن عباس / ص ١٥٨.
(٤) سورة محمد، الآية ٣٩.
(٥) انظر المقباس من تفسير ابن عباس، ص ٤٣٠.
(٦) انظر تفسير القرطبى، سورة محمد، الآية ٣٩.

المكانة ويهون عليكم كل ما عداها، فإن الله يسترد ما وهب ويختار غيركم لهذه المنة من يقدر فضل الله سواء من البشر ذاته كاستبدال قوم بقوم أو يكون الاستبدال بخلق آخر من غير البشر، وإنها لنذارة رهيبة لمن ذاق حلاوة الإيمان والدعوى إلى الله. والعيش في أحضان العدل الإلهي، ثم تسلب منه هذه النعمة ويطرد من كنفها وتصد أمامه الأبواب ويستبدل بغيره من البشر أو من خلق آخر أصلح لعمارة الأرض(١).

ولعل هذا ما حدث في قصة استخلاف آدم عليه السلام في الأرض على رأي من يذهب إلى أن الأرض كانت سكنا قبل ذلك لخلق آخر ثم جعل آدم عليه السلام خليفة فيها بدلا من غيره(٢).

وهدد الله الذين آمنوا إن هم ارتدوا عن دينهم فسوف يأتي الله بقوم آخرين بدلا منهم فقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾**(٣).

حملت هذه الآية أنباء ممن أخبر عنه قبل وقوعه، وقد وقع المخبر به على وفقها حيث روى أن من قبائل العرب من ارتد عن الإسلام وتولى عنه بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخبار حروب الردة معروفة في تاريخ الإسلام وهذا من التولي الذي ورد ذكره في الآية(٤).

وذكر الطبري أن الآية حملت وعيدا لمن يرتد من أهل الإسلام عن دينه الحق ويرجع منه فيبدله ويغيره في الكفر إما في اليهودية أو النصرانية أو غير ذلك من صنوف الكفر والضلال، وإن هذا المرتد أو المرتدين لن يضروا الله شيئاً وسيبدلهم بقوم آخرين وردت نعوتهم وصفاتهم في هذه الآية وهي "محبة الله" والذلة على المؤمنين "والعزة على الكافرين" "والجهاد في سبيل الله ولا يخافون في ذات الله أحداً"(٥).

وقال القرطبي في قوله تعالى : "من يرتد منكم عن دينه" هذا من إعجاز القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم إذ أخبر عن ارتداد قوم بل أقوام، و لم يكن ذلك في عهده وكان ذلك غيبا فكان على ما أخبر بعده بمدة، وقال في قوله تعالى : "فسوف يأتي الله بقوم...، إنها نزلت في الأشعريين، وقيل الآية عامة في كل من يجاهد الكفار إلى يوم

(١) انظر في ظلال القرآن م ٦ ص ٣٣٠٣.
(٢) انظر المقباس من تفسير ابن عباس.
(٣) سورة المائدة، الآية ٥٦.
(٤) انظر محاسن التأويل، تفسير القاسمي، سورة المائدة، الآية ٥٦.
(٥) انظر الطبري، سورة المائدة، الآية ٥٦.

القيامة "وا لله واسع عليم" أى واسع الفضل عليم بمصالح الخلق(١).

يهدد من يرتد منهم عن دينه بالولاء أو بسواه من الأسباب بأن ليس له عند ا لله شئ، وليس بمعجز ا لله ولا ضار بدينه، وأن للدين أولياء وناصرون ومدخرون فى علم ا لله يخرجهم يوم يشاء وكيف يشاء، وإن ينصرف هؤلاء القائمين يجئ بأولئك. ويصور ا لله ملامح هذه العصبة المختارة المدخرة فى علمه لتكون أداة القدر الإلهى فى إقرار دين ا لله فى الأرض.

فيقول "فسوف يأتى ا لله بقوم يحبهم ويحبونه" فالحب والرضى المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم "أذلة على المؤمنين" وهى صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين. وما فى الذلة للمؤمنين من مذلة ومهانة وإنما هى الأخوة "أعزة على الكافرين" فيهم على الكافرين اباء واستعلاء" يجاهدون فى سبيل ا لله ولا يخافون لومة لائم"، فالجهاد فى سبيل ا لله صفة العصبة المؤمنة التى يختارها ا لله ليصنع بها فى الأرض ما يشاء وما يريد، وهم يجاهدون فى سبيل ا لله ولا يخافون لومة الناس، فهذه سنن ا لله وما يعلم جنود ربك إلا هو(٢).

سنن الاستخلاف فى الأرض:

ولقد سخر ا لله للبشر ما فى الأرض واستخلفهم فيها بمقتضى سنن وبقراره سبحانه فى قوله تعالى : **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾**(٣).

ولعل مجمل ما استخلف فيه البشر فى الأرض منذ آدم إلى آخر وريث له هو طاعة ا لله، والحكم بالحق والعدل وعمارة الأرض يزرع ويحصد ويبنى ويجرى ويجتبى الخيرات إلى نفسه(٤).

وسنحاول فى هذه الصحفات معرفة سنن الاستخلاف من خلال بيان القرآن لها.

فاستخلاف البشر فى الأرض سنة ثابتة لا تتغير منذ قال تعالى للملائكة : **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين. قالوا**

---

(١) انظر أحكام القرآن للقرطبى، سورة المائدة الاية ٥٦.

(٢) فى ظلال القرآن م ص ٩١٩، ٩٢٠.

(٣)سورة البقرة، الآية ٢٩.

(٤) انظر الخلافة فى الأرض ص ١٨ د. / أحمد حسن فرحات.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم : قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾[1].

وللمفسرين والفقهاء آراء كثيرة حول هذه الآية، أحاول أن أتتبع ما كان له صلة بموضوعنا، وأذر بقية الآراء والإستنباطات إلى كل من يهمه أمرها.

قال ابن عباس: أول من كان في الأرض قبل آدم عليه السلام هم الملائكة الذين خاطبهم الله بقوله "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة" بدلا منكم، فاحتجت الملائكة كيف يكون في الأرض من يسفك الدماء بالظلم ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال الله "إني أعلم ما لا تعلمون" واتخذ القرار وانتهى الأمر[2].

وقال الطبري: أول الأقوال بالتأويل أن الأرض كان يسكنها الجن فأفسدوا فيها وأسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضا، فبعث الله عليهم إبليس وجنده فقتلهم حتى ألحقوهم بالبحار، ثم خلق الله آدم فأسكنه إياها واستخلفه مكانهم[3].

وقال القرطبي: خاطب الله الملائكة لا للمشورة، ولكن لاستخراج ما فيهم من رؤية الحركات والعبادة والتسبيح والتقديس ثم ردهم سبحانه إلى قيمتهم فقال عز وجل: "اسجدوا لآدم" "فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر و كان من الكافرين"[4].

"إني جاعل في الأرض خليفة" والمقصود به هو آدم عليه السلام بدون خلاف، وهو خليفة في إمضاء أحكام الله وأوامره لأنه أول رسول إلى الأرض وأول بشر فيها "قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها" والمعنى أنهم لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن في بني آدم من يفسد في الأرض، وهذا الخليفة المقصود منه الإصلاح والعدل وترك الفساد والظلم. عمموا الحكم على الجميع بالمعصية، فبين الله أن في بني آدم من يفسد ومن يصلح فقال تطيبا لقلوبهم: "إني أعلم" وحقق ذلك بأن علم آدم الأسماء كلها، وكشف لهم عن مكنون علمه سبحانه "وعلم آدم الأسماء كلها" بمعنى عرف والتعليم المراد به هنا الإلهام العام، ويحتمل أن يكون تم التعليم بواسطة جبريل عليه السلام "إن كنتم صادقين" شرط والجواب محذوف تقديره إن كنتم صادقين أن ذرية آدم يفسدون في الأرض، فأنبئوني، ومعنى صادقين أي عالمين. "قالوا سبحانك" لا علم لنا وهذا هو جواب الشرط عن قوله

---

(١) سورة البقرة، ٢٩، ٢٣.

(٢) انظر المقباس من تفسير ابن عباس، ص ٦.

(٣) انظر تفسير الطبري، البقرى ٢٩، ٣٠، ٣١

(٤) البقرة الآية ٢٣.

تعالى أنبئونى : قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم " فأنبأهمْ آدم بأسمائهم بعد أن علمه ا لله إياها[1].

وكان ذلك أول موقف تعليمى وتكوينى فى حياة الإنسانية، أقره خالق الوجود يوم الوجود يوم جعل آدم خليفة فى الأرض، وكان العلم منذ ذلك اليوم مؤهلا من مؤهلات الاستخلاف فى الأرض وسنة من سننه.

وقال الإمام محمد عبده فى معنى هذه الآية: إن الأرض كان فيها عمار يعملون ما يعمل بنو آدم، وإن آدم عليه السلام مع بنيه كانوا فى عمارة الأرض كولده نوح، وإن الأرض كانت معمورة قبله بأقوام فيهم تلك الصفات البشرية، ثم انقرضوا وأخلفهم آدم كما تنقرض أية أمة وتخلفها أمة أخرى، ويهلك ا لله صنفا وينشئ خلقا جديدا خيرا منه، ولا يزال الهالك يترك أثرا للآتى يحدث فيه فكرة ويثير فى نفسه عبرة ويكون ذلك سلما له إلى رقى وهناء[2].

وقال القاسمى فى قوله تعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة" أى قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن، وخصت الملائكة بالخطاب لأنها كانت سكان الأرض وفى قوله تعالى: " أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك" تعجب وهو كيف يا رب تستخلف فى الأرض لعمارتها وإصلاحها من يفسد فيها ويسفك الدماء، وإن كان المراد من الاستخلاف عبادتك فنحن نعبدك فنسبح بحمدك ونقدس لك فأجاب ا لله "إنى أعلم ما لا تعلمون"[3].

هناك إذن سر من وراء الاستخلاف فى الأرض زيادة على العبادة بمفهومها الضيق عند الناس، وتجئ قصة استخلاف آدم عليه السلام فى الأرض ومنحه حقا مقاليدها على عهد من ا لله وشرط وإعطائه العلم الذى يسير به شئون هذه الخلافة ويحسن الاستفادة بما فى الأرض من كائنات وموجودات حية مسخرة، كما أن هذه القصة هى القاعدة التى قامت عليها سنن الاستخلاف لبنى آدم.

"وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة" إذن من ا لله بتسليم هذا الكائن الجديد فى الوجود زمام الأرض وتطلق بين يديه شئونها وتوكل إليه مشيئة ا لله أمر استكشاف ما فى هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز لخدمة الإنسان نفسه... "قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك "إن الملائكة بفطرتهم البريئة يرون التسبيح بحمد ا لله والتقديس له هو وحده الغاية المطلقة

---

(١) انظر احكام القرآن للإمام القرطبى.

(٢) انظر المنار، البقرة ٢٩، ٣٠، ٣١.

(٣) انظر محاسن التأويل تفسير القاسمي، نبذة ٢٩، ٣٠، ٣١.

للوجود، وهو وحده العلة الأولى للخلق ولقد خفيت عليهم حكمة مشيئة ا لله العليا، فى بناء الأرض وعمارتها وفي تنمية الحياة وتنويعها واستغلال خيراتها على يد هذا الخليفة فيها هذا الذى يفسد أحيانا وقد يسفك الدماء أحياناً، ليتم من وراء هذا الشر الجزئى خير أكبر وأمثل وأنفع "قال إنى أعلم ما لا تعلمون" إنه القرار من العليم بكل شئ والخبير بمصائر الأمور "وعلم آدم الأسماء كلها" وها نحن نشهد طرفا من ذلك السر الربانى العظيم الذى اصطفى ا لله به هذا الكائن البشرى وأودعه تلك القوة، وهو يسلمه مقاليد الخلافة فى الأرض، ذلك هو سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات وإن الحياة ما كانت لتمضى فى طريقها لو لم يودع ا لله هذا الكائن القدرة على الرمز بالاسماء للمسميات[1].

واستخلاف البشر فى الأرض نوعان : استخلاف عام "واستخلاف خاص فالاستخلاف العام هو تولية البشر الأرض باعتبارهم مستعمرين ومسلطين فيها وفق شرع ا لله الذى جاء به الأنبياء، وفى هذا المعنى قال ا لله عن ثمود قوم صالح: ﴿**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾[2].

أى عمركم فى الأرض وجعلكم سكانها[3].

وهذه خلافة كونية تقوم على مبدأ الصلاحية والأفضلية والخيرية وتشمل الجنس البشرى بكامله كافره ومؤمنه، غير أن سنة ا لله جرت فى إهلاك الظالمين المكذبين، وفى هذا المعنى ولبيان هذه السنة قال تعالى: ﴿**ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين. ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون**﴾[4].

بينت الآيات سنن الهلاك أى أسباب هلاك تلك القرون السابقة وهو كما تضمنت الآيات، الظلم، والتكذيب وعدم الإيمان، والإجرام، ثم جاء ا لله بأمم أخرى استخلفت بدل الهالكين والخطاب فى الآية موجه إلى أمة محمد صلى ا لله عليه وسلم، فماذا سيعمل هؤلاء المستخلفون فى الأرض، وقد علموا أن ا لله أهلك قرونا سابقة "لننظر كيف تعملون" أى هل تتخذون هؤلاء الهالكين مثلا تحتذونهم فتستحقون من العقاب ما أستحقوا أم تنهجون نهج الحق، فتستحقوا جزاء ا لله وثوابه فى الدنيا والآخرة[5].

ولقد كان مشركو العرب يستعجلون العذاب ويتحدون رسول ا لله صلى ا لله عليه

---

(١) انظر فى ظلال القرآن، م ٢ ٥٦،٥٧،٥٨.

(٢) سورة هود، الآية ٦٠.

(٣) المقباس من تفسير ابن عباس، ص ١٨٧.

(٤) سورة يونس، الآيات ١٣،١٤.

(٥) انظر الطبرى، يونس ١٣،١٤.

وسلم، وما حكاه الله عنهم فى القرآن قولهم "ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين"(١).

وقولهم: ﴿**اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم**﴾(٢).

هذا هو عناد العرب المشركين ولكن الله شاء أن يؤجل هلاكهم، فلا ينزل بهم العذاب ليهلكهم هلاك استئصال، كما حاق بالمكذبين والمعاندين من قبلهم وذلك لسببين أنه سبحانه أهلك الملأ القرشى المشرك من كبار القوم ووجهائهم يوم بدر وكان الله استدرجهم إلى هذه النهاية وقد علم أزلا أنه سيدخل أكثر المشركين فى هذا الدين الذى يحاربونه اليوم وما ذلك على الله بعزيز وسيخرج من بطونهم من يوحد الله وينطلق فى الأرض لنشر الإسلام وتحرير البلدان.

وإخبار الله بإهلاك القرون الظالمة المكذبة بآيات الله والتى ما زالت آثارها ماثلة فى الجزيرة العربية آنذاك أمام القوم، وهى مساكن عاد وثمود والمؤتفكة وقرى قوم لوط، فيه عبرة وموعظة لقلوب الذين يعيشون على هذه الأرض التى أهلك أصحابها وذهب ملكهم وأبيدت حضاراتهم وغدوا أثرا بعد عين(٣).

وفى قوله تعالى : "لننظر كيف تعملون" إشارة إلى مسئولية الاستخلاف ومقتضياته. والأصل فى الذين استخلفوا بدلا من قوم ظالمين مجرمين أن يكون هؤلاء مستقيمين صالحين يعمرون الأرض بالعدل والحق، وقال تعالى: ﴿**هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض فمن كفر فعليه كفره. ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا**﴾(٤).

أى أن الله هو الذى أسكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم الأرض بعد هلاك الأمم الماضية الكافرة بالله، وإن عاقبة كفرهم سوف لا تزيدهم عند الله فى الآخرة إلا نقصا وخسارة فى الدنيا(٥)، دلت الآية ٢٩ من سورة البقرة أن استخلاف آدم فى الأرض هو استخلاف عام وكان بدلا من عالم آخر سكن هذه الأرض فأفسد فيها وسفك الدماء، فلم يعد صالحا للبقاء واستؤصل من الحياة وهذا ما فهم من تعجب الملائكة حين قالت: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمار(٦).

---

(١) سورة يونس ٤٨.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٣٢.
(٣) فى ظلال القرآن م ٣ ص ١٧٧٠.
(٤) سورة فاطر، الآية ٣٩.
(٥) انظر المقباس من تفسير ابن عباس.
(٦) انظر الطبرى.

وقد رجح المفسرون أن العالم الذى سكن الأرض قبل آدم وافسد فيها هو عالم الجن[1].

ودلت الآيتان (يونس ١٢ وفاطر ٣٨) أن خلافة الأرض آلت إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم التى بعث فيها وهى أمة الدعوة كما تسمى، وليس المقصود بالأمة المحمدية هنا من استجاب لدعوته وآمن به فى العصور اللاحقة[2].

وانتهت خلافة الأرض عن الأمم كلها إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم أى إلى المسلمين عبر العصور الآتية كلها، وذلك باعتبار رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين وباعتبار المسلمين ورثة الأمم والرسالات السابقة، قال تعالى: **﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبولكم فى ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾**[3].

ويلاحظ فى هذه الآية أن التعبير فيها "جعلكم خلائف الأرض فى حين كان فى الآيات السابقة "خلائف في الأرض، وذلك يوحي بانتهاء خلافة الأرض كلها فيما بقى من الحياة الدنيا إلى هذه الأمة المسلمة[4].

وقال القرطبى فى قوله تعالى : "هو الذى جعلكم خلائف الأرض "أى جعلكم للأمم الماضية والقرون السابقة[5].

أما عن الاستخلاف الخاص فهو كذلك نوعان استخلاف دول وأمم واستخلاف أفراد وجماعات وأجيال.

ومن أمثلة الأمم المستخلفة المؤمنون من قوم نوح الذين استخلفوا بعد الكافرين الذين أهلكوا بذنوبهم فأغرقوا قال تعالى : **﴿فكذبوا فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾**[6].

ومعنى خلائف أى سكان الأرض التى أغرق أهلها واستأصلوا بسبب الشرك والجدل والتكذيب، وهى عوامل معروفة أهلكت بها كثير من أمم الأرض[7].

وهؤلاء قوم عاد وقوم هود وذرية من آمن من قوم نوح يستخلفو الهالكين وقال

---

(١) انظر نفس المصدر السابق.
(٢) انظر الخلافة ففى الأرض، ص ٢٩ ج / أحمد حسن فرحات.
(٣) سورة الأنعام ١٦٧.
(٤) انظر الخلافة فى الأرض ص ٢٩.
(٥) انظر احكام القرآن، سورة الأنعام ١٦٧.
(٦) سورة يونس، الآية ٧٣.
(٧) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص ١٧٧.

تعالى على لسان هود مذكرا قومه عاداً: ﴿**أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم. واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون**﴾[1].

وعاد هؤلاء هم الذين هددهم نبيهم من قبل إن هم تولوا فسيهلكهم الله ويستخلف بدلا منها قوما آخرين فقال تعالى: ﴿ **فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شئ حفيظ**﴾[2].

تولى القوم وأعرضوا عن الإيمان بالرسل والتوبة فتحققت فيهم سنة الله ووعيده واستخلفوا بقوم آخرين خيرا منهم وأطوع لله وهم ثمود[3].

وهذه ثمود كذلك قوم صالح ذكرها نبيها باستخلاف الله لها بعد عاد. فقال تعالى: ﴿**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾[4].

قال ابن عباس: مستخلفين فى الأرض من بعد هلاك عاد، أنزلكم الأرض، تتخذون من سهولها أى تبنون من طينها قصورا للصيف، وتنحتون من الجبال بيوتا للشتاء، فاذكروا نعمة الله ولا تعيثوا فى الأرض فسادا بعمل المعاصى[5].

أما ما وصف الله به عاداً بعد استخلافها بدل قوم نوح من زيادة في الخلق وبصطة أى قوة جسمية ومادية وفضائل أخرى، وكذلك ما وصفت به ثمود من تبوأ في الأرض واتخاذ القصور من الجبال وغير ذلك مما وصلت إليه حضارة عاد وثمود فهو دليل على صلاحيتهما للاستخلاف وتوفر شروطه فيهما، وهكذا ترى سنن التداول والاستبدال الحضارى تجرى بين هذه الأمم بعدل من الله وما زالت هذه السنن جارية حتى اليوم ولكنها لا تقدر بالأيام أو حتى بالأعوام ولذلك أكثر الناس لا يعلمونها ولا يدركونها حركة التاريخ فيها.

أما عن استخلاف الأفراد فى الرئاسة والحكم فقد يسمى المستخلف خليفة كما سمى آدم وداود عليهما السلام حيث قال الله: ﴿**يا داوود إن جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب**﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٦٩.

(٢) هود / ٥٦.

(٣) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ١٨٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٢٣.

(٥) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ١٣١.

(٦) سورة ص الآية ٢٥.

أى ملكناك لتخلف من كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين "فاحكم بين الناس بالحق" أى بالعدل وهو أمر على سبيل الوجوب ولا تنقد لهواك المخالف لأمر ا الله "فيضلك عن سبيل ا الله" أى هواك أن تبعته يكون سببا فى ضلالك عن طريق الجنة، إن الذين يضلون عن سبيل ا الله" إى يحيدون عن طريق الحق ويتركون مؤديات وموجبات رضى ا الله "لهم عذاب شديد" فى النار بما تركوا من سلوك طريق ا الله، هذا ما قيل لنبى ا الله داوود فما بال البشر العاديين وكثير منهم ظالمون فى الحكم(1).

وبينت هذه الآية سنن الاستخلاف فى الأرض وشروط المستخلف وكيف يجب أن يكون وما المؤهلات التى ينبغى أن تتوفر فيه.

ولعل المعنى الذى حملته الآية (٦٤) سورة النحل(2)، وهو ما ورد وعد مصرحا به ا الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقال تعالى: **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض. كما استخلف الذين من قبلهم. وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾**(3).

وعد ا الله الذين آمنوا يعنى أصحاب محمد صلى ا الله عليه وسلم إن هم عملوا الصالحات بينهم وبين ربهم ليستخلفنهم بعضا عن اثر بعض، كما استخلف الذين من قبلهم من بنى اسرائيل بعد أن أهلك عدوهم(4).

وقيل ليستخلفنهم بمعنى يجعلهم خلفاء متصرفين فيما استخلفوا فيه تصرف الملوك فى ممالكهم كما كان شأنه سبحانه فى استخلاف الأمم المؤمنة برسلها من قبل والتى أهلك ا الله عدوها وأورثها أرضه ودياره وهو ما فعل لبنى اسرائيل حين أورثهم ا الله فلسطين بعد هلاك الجبابرة على يد المؤمنين من الاسرائيلين(5).

وان الاستخلاف وعد من وعود ا الله التى لا تتخلف للذين آمنوا وعملوا الصالحات فى كل عصر، والإيمان والعمل الصالح من سنن الاستخلاف فى الأرض ويدخل فى الإيمان والعمل الصالح كل ما أمر ا الله به من توفير أسباب القوة، وإعداد العدة والأخذ بالوسائل والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى فى الأرض، أنه الاستخلاف التى وكلت إلى الإنسان منذ عهد آدم عليه السلام، حيث الاستخلاف هو القدرة على عمارة الأرض والإصلاح فيها، لا القدرة على الهدم والفساد، وقدرة على تحقيق العدل والحق والآمان

---

(١) انظر أحكام القرآن للقرطبى، سورة ص الآية ٢٥.

(٢)".... ويجعلكم خلفاء الأرض".

(٣) سورة النور، الآية ٥٣.

(٤) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ٢٩٨.

(٥) انظر الكشاف – تفسير الزمخشرى، النور ٥٣.

والطمأنينة فى الأنفس والمجتمع، لا القدرة على الظلم والقهر والترويع وهو القدرة على السمو الروحى والرقى الاجتماعى المادى والمعنوى، هذا هو الاستخلاف الذى وعده الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى كل زمان ومكان، وجرت سنة الله أن يكون للمؤمنين الصالحين العاملين يتوارثونه أمة عن أمة، فردا عن فرد، وجيلا عن جيل، ليحقق الله بتلك الأيدى المؤمنة ما شاء وأراد، من عدل وإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وتسير البشرية خطوات رشيدة نحو الكمال والسعادة، والهناء والحرية، وتحقيق القيم التى دعا إليها الرسل والأنبياء وأتباعهم العلماء الصالحون والمجاهدون المخلصون.

أما الذين يملوكون الأرض ليفسدوا فيها ويهلكوا الحرث والنسل، وينشرون البغى والجور، والرعب والخوف فينحدرون بتلك الأمم والمجتمعات التى تولوا عليها إلى مدارك الغبن والضنك، ويسوقونها إلى مهاوى الهلاك والدمار، فهؤلاء ليسوا مستخلفين فى الأرض وفق السنن التى ارتضاها الله بعباده فى الاستخلاف وهؤلاء الناس المستخلفون هم بلايا على هذه المجتمعات التى سلطوا عليها، لحكمة يعلمها الله وفق سنة عادلة مقدرة قضى بها العليم الحكيم[1].

ومن سنة الله فى استخلاف الدول والأفراد، والأمم والأجيال، أن يكون المستخلف أهلا وكفأ لما استخلف فيه أو عليه أما ما نراه من امتلاك أو استخلاف قائما على غير هذه السنن المبينة، فإنما هو اغتصاب لحقوق أخذت من أهلها وذويها قوة وعنوة ولأسباب ذاتية فيهم.

والاستخلاف بهذا المعنى هو أمر اختيارى كسبى يستطيع أهله الحصول عليه إن سلكوا سننه وقاموا بتكاليفه، وتحققت فيهم شروطه.

فالاستخلاف إذن هو حق من حقوق المؤمنين الذين يعملون الصالحات عليهم أن يسعوا لنيله واسترداده، من أمم الأرض المغتصبة له منهم.

وإذا تحقق الاستخلاف وفق سننه هذه وبشروطه الصحيحة، كان ذلك عاملا وسنة من سنن التمكين فى الأرض، حيث قرن الأمران فى الآية التى معنا، وجاء التمكين كنتيجة مطردة، وقضية حتمية بعد الاستخلاف، ولتلازم الأمرين فقد تحدث الله تعالى فى هذه الآية عن التمكين بعد الحديث عن الاستخلاف وعطف بينهم فقال تعالى : "... وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم"، ولعل اللامين فى "يستخلفهم" وفى "ليمكنن" لام الاستقبال والتوكيد، تدل على حتمية وضرورة الاستخلاف والتمكين إنما للذين سلكوا سنتهما، وعرفوا طريقهما، وذلك وعد من وعود الله للمسلمين.

---

(١) انظر فى ظلال القرآن م ٤، ص ٢٥٢٥.

وقال الإمام الزمخشرى: إن المراد بتمكين الدين المرتضى هو دين الإسلام وذلك ما يؤكده قول الحق سبحانه: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[1].

وتمكين الدين هو تثبيته وتوطيده فى النفوس، وان يأمن ويزيل على الذين آمنوا بالخوف الذى كانوا عليه، وسنة تحقيق هذا الأمن، هو عبادة الله وحده لا شريك معه "يعبدوننى لا يشركون بى شيئا" وهى جملة استثنائية، وقد تكون حالا أى حال كونهم يعبدوننى لا يشركون بى شيئا أمكن لهم[2].

"وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا" سنة الله أن تبدأ قلة مؤمنة حياتها مستضعفة خائفة، ثم يمكن الله لها ويؤمنها، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وكل متتبع لتاريخ الدعوات الربانية يعرف مقدار الخوف الذى أحاط بالمؤمنين على عقائدهم وعلى أنفسهم وأموالهم، والله وحده هو الذى يعلم مقدار خوف أم موسى على ولدها موسى عليه السلام حين قال الله لها: ﴿فإذا خفت عليها فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾[3].

وكذلك خوف والد يوسف عليه السلام قال لإخوته عليه السلام: ﴿قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾[4].

والأمثلة على خوف أهل الإيمان من كيد الأعداء كثيرة وهى قضية ظاهرة معروفة فى تاريخ دعوات الحق، ولكن تبديل الخوف بالأمن من وعود الله لعباده الصالحين إن هم عرفوا طريقه وفقهوا سننه، التى هى توحيد الله بالعبادة ولعل فى قوله تعالى خير مثال على هذا: ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾[5].

أسند إلى ابن عباس كلام جيد فى هذه السورة وهو أن الله أمر قريشا ليألفوا على التوحيد، كإيلافهم أى كما ألفوا وتعودوا رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام، ويقال إن التوحيد لا يشق على قريش، كما لا يشق عليها رحلة الشتاء والصيف، إن هم فقهوا وعلموا، إذن: فليعبدوا" أى يوحدوا رب هذا البيت وهو الكعبة "هذا الرب الكريم" الذى أطعمهم من جوع" أشبعهم من جوع سبع سنين وسنوات أخرى، من القحط حلت بديارهم، ويقال دفع عنهم مؤونة الجوع ومؤونة

---

(١) سورة المائدة، الآية ٤.

(٢) انظر الكشاف، سورة النور، الآية ٥٣.

(٣) سورة القصص، الآية / ٦.

(٤) سورة يوسف، الآية ١٣.

(٥) سورة قريش.

مشقة الرحلتين في الشتاء والصيف، وكانو يرتحلون فى كل سنة رحلتين واحدة إلى اليمن فى الشتاء والثانية إلى الشام فى الصيف" وآمنهم من خوف العدو بأن يدخل عليهم، ويقال من خوف النجاشى وأصحابه الذين أرادوا خراب البيت وهذه معطوفة على السورة السابقة التى قال الله فيها: **﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل...﴾**[1].

وأصحاب الفيل هم قوم النجاشى الذين أرادوا هدم البيت وتخريبه[2].

والقصة معروفة في التاريخ القديم، وعند عامة المسلمين، والجدير بالذكر أن الحبشة كانت وكرا من أوكار الظلم والبغى، وأن الأحباش كانوا من أعتى الأمم الاستعمارية فى التاريخ القديم، وقد استخلفت بأمم ظالمة أشد منها وأعتى ملأت الدنيا رعبا وخوفا.

وقد تولى الله بنفسه حرب النجاشى وأصحابه وأهلكهم ورد كيدهم وجعلهم هشيما تذروه الرياح، فقال تعالى: **﴿ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾**[3].

سنة الله أن تتدخل يد الله لصد الظلم والطغيان عندما تتعفن الحياة ويعجز أهل الإيمان والحق على رد العدوان.

والمتأمل فى سورة قريش يجد أن الله قد من على عباده بأن جعل توحيده بالعبادة طريقه وسنة إلى الوفرة الاقتصادية والأمان الاجتماعى.

والضعف الاقتصادى وفقد الأمان الاجتماعى من أشد الأزمات فى المجتمعات المعاصرة والتى تعانى منها شعوب العالم كله دون استثناء مع تفاوت فى المستوى والمقدار وسنة الله ثابتة إن أردنا اقتصادا مزدهرا ووفرة إنتاجية، وأمانا إجتماعيا تنعم بهما مجتمعاتنا، فما علينا إلا عبادة الله حق العبادة، وتقديره بالتوجيد حق قدره بالمعنى الذى أراده الله وللغاية التي شاءها سبحانه.

---

(١) سورة الفيل، الآية / ١ .

(٢) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص ٥١٩، ٥٢٠.

(٣) سورة الفيل، الآية ٢،٣،٤،٥.

سنن التمكين الحضارى فى القرآن:

انتهينا فيما سبق إلى أن الاستخلاف كبديل ذو صلاحية للبقاء والاستمرار الحضارى يتداول بين الاسم والعوالم. والأفراد والأجيال، له سنن وموجبات وتوابع ومقتضيات، ويبقى مجال سنن التقدم والازدهار الحضارى مفتوحا أمام الإنسانية للمزيد من الإبداع والرقى، والتمكين كمستوى ثانى بعد الاستخلاف فى التحضر هو الآخر له سنن وشروط لا يتحقق إلا وفقها ولا ينال إلا بمقتضاها، وهى نستقرئها من الآيات القرآنية التى هى موضوع دراستنا فى هذا البحث، حيث يقول الله تعالى مبينا قضية التمكين لمن خوطبوا بالقرآن عبر العصور من العرب وغيرهم، قال تعالى: ﴿**ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين**﴾[1].

والمعنى أو لم يخبر أهل مكة فى القرآن كم أهلكنا واستأصلنا من الأمم وقد ملكناهم وأمهلناهم فى الأرض ما لم نملككم ونمهلكم يا أهل مكة قدرة، وأرسلنا عليهم مطرا دريرا كلما احتاجوا اليه، وجعلنا لهم بساتين وزروعاً، وشجراً "فأهلكناهم بذنوبهم" بتكذيبهم بالأنبياء وأنشأنا أى خلقنا من بعدهم قوما آخرين خيرا منهم[2].

وقال القاسمى: "أو لم يروا" أى ألم يعلموا علما يشبه الرؤية بالبصر لما سمعوا بالتواتر من إتيان المستهزئين المكذبين قبلهم "كم أهلكنا من قبلهم من قرن" أى من الأمم فلم يبق منهم أحد مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من أصحاب تلك الحضارات التى شيدت فسادت ثم بادت وانقرض نحب أهلها وفق سنن ثابتة ما زالت تأتى على منجزات الحضارات بسبب فسوق الأمم نفسها وبعضها بعض "مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم" أى ثبتناهم قرونا حتى نالوا من السعة والرفاهية وألوان الاستمتاع وطول الأعمار ما لم تنالوه أنتم يا أهل مكة، وأنزلت عليهم الأمطار وجعلت لهم الأنهار والأشجار فعاشوا فى الخصب بين البساتين والزروع، والثمار ولأنهم جاءوا وارتكبوا الذنوب والجرائم "فأهلكناهم بذنوبهم" أى بسبب ذنوبهم وكفرهم وتكذيبهم وجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق، فما أغنى عنهم ما كانوا فيه[3].

أفلا تأخذون العبر من هذه القرون الخالية، وسنة الله ماضية لا تتبدل.

وفى الآية موقف تهديد يلفت المخاطبين إلى مصارع المكذبين من قبلهم وقد كانوا

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٧ .

(٢) انظر المقباس من تفسير ابن عباس ص ١٠٦.

(٣) انظر محاسن التأويل – تفسير القاسمى، الأنعام ٧.

يعرفون أخبار ووقائع تلك الأجيال الغابرة، وقد مكنها الله فى الأرض التى يعيش عليها هؤلاء، وأعطاهم من أسباب القوة والسلطان ما لم يعط مثله لقريش وأرسل عليهم المطر متتابعا ينشئ فى حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم الأرزاق، ثم عصوا ربهم فظلموا أنفسهم فأخذهم الله بذنوبهم، وأنشأ من بعدهم جيلا آخر، ومضوا هم لم تحفل بهم الأرض، فما أهون المكذبين المعرضين أصحاب القوة والتمكين من البشر حين الانحراف، قال تعالى : "فأهلكناهم بذنوبهم"، وقرر هذا النص حقيقة أن الذنوب تهلك أصحابها وأن هذه سنة ماضية تصير إليها الأمم حين تفشوا فيها الذنوب وما أمر الله من الظالمين فى كل العصور ببعيد أو بمجرد أن أصبح الإنسان ينتمى إلى عصر الذرة والصاروخ، ولمجرد كونه طبيبا عالما ببعض أسرار الأجسام والأبدان، أو لمجرد كونه رياضى مفتول العضلات يحسن السباق وتبادل الملاكمات[1].

والمراد بالرؤية فى الآية: الرؤية العلمية لا البصرية، والقرون أبسط الأقوال أنها سبعون سنة، وحدد البعض القرن بأنه الحالة الاجتماعية التى يكون عليها القوم أى أهل كل عصر يعتبرون قرن، إن ظهر فيهم نبي أو ملك، أو بطل أو عالم، ونحن نسمع عصر فلان من العلماء أو الحكام، فمعنى هذا يفيد أن قوم نوح قرن وإن امتد بهم الزمان دهرا طويلا، وقوم صالح وعاد قرن وهكذا.

ومعنى الآية أو لم يروا هؤلاء المكذبون على مر الدهور كم أهلكنا بالحق من أقوام وأجيال وأمم أعطيناها من التمكين فى الأرض بأن جعلنا لها مكانا بين الأمم الأخرى. وقدرا من الصرف فى شئون الملك. ويصدق هذا التمكين فى الآية على عاد وثمود، وقوم فرعون، وكثير غيرهم، وهذا يفيد ما أمرت به تلك القرون الخالية على كفار قريش. من الاستمتاع بخيرات الأرض والنعم الحضارية، حيث يقول تعالى: ﴿**وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم**﴾ وقال تعالى: "مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم"، ومع ذلك كانت عاقبتهم خسرانا كما كثرت ذنوبهم[2].

وعن تمكين تلك القرون الخالية تحدث الله عن عاد قوم هود، ولعلها خصت الحديث عن تمكينها دون غيرها من الأمم الخالية، على اعتبار ما وصلت اليه من قمة التحضر فى تاريخ الإنسانية القديم، وما بلغته من وسائل وأسباب التمكين.

وهى التى تثبت هنا صنع أرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد بالحسن والجمال[3].

---

(١) انظر فى ظلال القرآن، م٢، ص ١٠٣٨.

(٢) انظر تفسير المنار، سورة الأنعام الآية ٧.

(٣) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٥١٠.

وهم الذين قال الله عنهم : **﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون. وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾**[1].

والله تعالى لم ينكر على القوم ما وصلوا إليه من إبداع واختراع حضارى وإنما أنكر عليهم مقاصد وغايات ذلك التحضر والتمدن، ولذلك دعاهم الله فى نهاية هذه الآية إلى التقوى وهى التوبة إلى الله عما قصدوا وما عطلوه مما أتاهم الله من أسماع، وأبصار، وأفئدة، فلم تنفعهم فى شئ مما اراد الله من توحيده وعبادته.

وقال الله لقريش الذين يرون منازل عاد الجاحدة، وتلك القرى الأخرى الظالمة: **﴿ولقد مكناهم فيما ان مكناهم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصار وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾**[2].

"ولقد مكناهم" أى مكنا عاداً أو آتيناهم من كثرة الأموال والأولاد، وقوة الأجسام، ووفرة الأشياء، وهذا لم يمكنهم فيه الله يا أهل مكة، وعما نالته عاد قال تعالى:"كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض"[3].

"ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى"، أى ما حول قريتكم يا أهل مكة من القرى كحجر ثمود، وأحقاف عاد، وقرى لوط، وسد مأرب سبأ، فخربنا ديارهم فجعلناها خاوية على عروشها، "وصرفنا الآيات" أى وعظناهم بأنواع من العبر وبينا لهم آيات بالحجج والبراهين "لعلهم يرجعون" عن الكفر والظلم وتكذيب الرسل[4].

كل هذا البيان والأخبار لأحوال الأمم والأجيال السابقة، ليعتبر اللاحقون ويعرفوا أن سنن استمرار التمكين الحضارى فى الأرض ليست كما يعتقد الكثير من أنها عوامل ووسائل مادية تكمن فى كثرة الأموال والأولاد وشدة البأس وقوة الأبدان وإنما استمرارية التمكين تكمن فى النفس الإنسانية الشاكرة، كما قال تعالى: **﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد﴾**[5].

وفيما قال الله لبنى اسرائيل: **﴿وقولوا حطة يغفر لكم خطايكم وسنزيد المحسنين﴾**[6].

---

(١) سورة الشعراء ١٢٨،١٢٩،١٣٠.

(٢) سورة الأحقاف، الآية ٢٥،٢٦ .

(٣) سورة غافر ٨١.

(٤) انظر محاسن التأويل – تفسير القاسمى، الأحقاف الآية ٢٥،٢٦.

(٥) سورة ابراهيم / ٩.

(٦) سورة البقرة / ٥٧.

والإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليماً ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾[2].

وقد وعد هود بوحى من الله قومه عاد إن هم استغفروا الله وأنابوا إليه يزدهم قوة إلى قوتهم، فقال تعالى: ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين﴾[3].

إى يرسل عليكم مطرا دريرا، كلما تحتاجون إليه ويزيدكم شدة وقوة إلى قوتكم فى المال والبنين ولا تتولوا عن الإيمان والتوبة مشركين[4].

هذه بعض سنن وعوامل استمرارية العزة والتمكين وموجبات زيادة النعم والحياة السعيدة للبشر وغيرها كثير، كما هو مثبوت فى آيات القرآن الكريم، وكذلك موجبات حياة الضلال والشقاء والتعاسة والضنك كثيرة فى القرآن الكريم نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾[5].

هذا ما جرى لمشركى العرب الذين كذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن وصدوا الناس وأنفسهم عن دين الله، زدناهم عذاب الجوع والعطش والزمهرير وغير ذلك، هذا زيادة على ما كانوا يعيشون من حيرة فى أمر دينهم وقلق لفراغ قلوبهم من الإيمان بالله، وفوق أى زيادة أيضا على عذاب النار الذى ينتظرهم يوم القيامة، ذلك بما كانوا يفسدون أى يعملون من أعمال باطلة ويعتقدون من اعتقادات منحرفة[6].

وغير هذه الآية كثير فى القرآن الكريم، وكيف تطمع أمة اليوم أو غد بالاستخلاف والتمكين والتفوق والنصر والعزة، وهى مخالفة سنن ذلك، وحال أهلها يصد عن سبيل الله" ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا"[7].

ومعنى الآية يا ربنا لا تجعلنا بلية للذين كفروا بأن تسلطهم علينا فيغلبونا فيظنوا أنهم على الحق ونحن على الباطل فمكنوا منا فتزدهم بذلك جرأة على محاربة الحق

---

(١) النساء الآية ١٧٢.

(٢) سورة محمد، الآية ١٨.

(٣) سورة هود، الآية ٥٢.

(٤) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص ١٨٦.

(٥) سورة النحل، الآية ٨٨.

(٦) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ١٢٠.

(٧) سورة الممتحنة الآية / ٥ .

والتمادى فى الباطل[1].

وخاصة إذا عرفنا أن طرق الصد عن الحق وتشويه الحقائق عبر وسائل الإعلام وغيرها قد أصبحت فى عصرنا أخطر من أى وقت مضى، وإذا رجعنا لاستقصاء هذه القضايا الحضارية فى تاريخ بنى اسرائيل باعتباره أغنى تاريخ أمة بالتجارب مع الأنبياء والمعجزات، وأكثر تاريخ فى التقلبات والتحولات الحضارية نجد أن علاقتهم با لله كانت هى الأساس فى كل ما وصلوا إليه من عز وتمكين وذل وهوان حيث مسخوا مسخا كبيرا حتى أخرجوا من دائرة البشرية إلى عالم الحيوان وكان منهم القردة والخنازير، وسلطت عليهم الأمم والشعوب فذاقتهم ألوانا من الذل والعبودية لم يذقه أحد فى العالمين، وقال ا لله لهم : ﴿**عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا**﴾[2].

وهذا قانون يحاسب بمقتضاه ا لله البشر وسنة ثابتة ولن تجد لسنة ا لله تحويلا.

ولقد عاد اليهود إلى أفعالهم الرخيصة الشنيعة فسلطت عليهم دول أوروبا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، وسنت القوانين لذلك الاضطهاد واعتبر النصارى اضطهاد اليهود تقربا إلى ا لله وتكفيرا عن الخطيئة لأن اليهود هم الذين قتلوا المسيح عليه السلام فى زعم النصارى[3].

ولقد من ا لله على بنى اسرائيل واستخلفهم، وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين ومكن لهم فى الأرض فى فترة استيأس فيها الرسل وظنوا أنهم كذبوا، وشدت وطأة الفرعونية المصرية، وكان التدافع والصراع بين الأنبياء وملأ الأقوام وبين الأكابر الأقوياء والمستضعفين شديدا، واستخدم الضعفاء من بنى اسرائيل بأدوات ووسائل لتحقيق مطامع الظالمين، ومن سنة ا لله أن تتدخل القدرة الإلهية عندما تتعفن الحياة لا تبقى فى افق سماء الأمم بريقة أمل وخير يرجى منه نفعا، إلا بمعجزة أو أمر خارق من ا لله، وأراد ا لله العلى القدير فى هذه الفترة المظلمة والحالكة التعسة أن يمن على الذين استضعفوا فى الأرض. فقال تعالى: ﴿**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون**﴾[4].

بعد أن عتا فرعون فى الأرض فسادا يذبح أبناء بنى اسرائيل ويستحى نساءهم خوفا من أن يولد فيهم من يذهب بملكه، هذا ما أراده فرعون، وأراد ا لله أن يمن على بنى اسرائيل بالخلاص والتمكين فى الأرض، ويجعل منهم أئمة مقدمين فى الدين والدنيا.

---

(١) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص ٤٦٧.

(٢) سورة الاسراء، الآية / ٨.

(٣) انظر زوال اسرائيل حتمية قرآنية ص ٣٢ وما بعدها.

(٤) القصص ٤.

يتبع الناس اعقابهم ويقتدون بهم "الوارثين" يرثون ملك فرعون وقومه، وكل ما كان لهم بأن جعل لهم في الأرض مكاناً، بعد أن كانوا فى التيه مشردين، فمكثوا فى أرض مصر والشام وجعلت لهم ذات غلات وثمار وكانت أرضا مباركا فيها. "ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون "أى من ذهاب ملكه وهلاكهم على يد مولود جديد منهم هو موسى عليه السلام[1].

وسنة الله أن يأتي التمكين بعد الابتلاء، فبعد أن علا فرعون فى الأرض أى فى أرض مصر وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة من بنى اسرائيل ويذبح أبناءهم ويستبقى نسائهم لكى لا يتكاثر عدد الرجال الذين كان فرعون يتوجس منهم خيفة. فيكثر عدد النساء ويقل عدد الرجال فتضعف المقاومة الداخلية التى يخافها السلطان الظالم والتى عادة ما يقودها الرجال. فما كان من فرعون إلا أن نفذ هذه الخطة الخبيثة. وأراد استمرارية التمكين والخلود لنفسه بطرق خاطئة وهى استذلال الرقاب، وأراد الله أن يمن على المستضعفين الذين كان يتصرف فيهم فرعون بهواء بالتمكين ويجعلهم أئمة وقادة، لا عبيد تابعين وأن يورثهم الأرض المباركة ويجعلهم فيها متمكنين راسخى الأقدام مطمئنين، ويحقق عكس ما كان يريد فرعون وما كان يحذره[2].

وما زالت هذه الصورة الفرعونية تتكرر كنماذج فى المجتمعات التى يقودها الظالمون، مما ينذر بشر نهاية وأتعس عاقبة لهؤلاء المستولين، وينبئ عن موعد قريب لنهاية عهود المفسدين وما ذلك على الله بعزيز وقد قضى سبحانه ألا يدع الأرض تعبث فى أيدى المفسدين الظالمين دهرا طويلا، ولم يكن من السهل على بنى اسرائيل وهم يعيشون حالة استلاب وايلاغ بالحضارة الفرعونية المستبدة التى قامت على ظهور العبيد، والتى ما زالت حتى اليوم تستهوى عقول الكثيرين، ناسين جرائمها، لما روج الغرب لها، أن يؤمنوا بالتحول والتبدل، كما أنه ليس من السهل على الذين افتتنوا فى العصر الحاضر بالحضارة الغربية التى قامت مصانعها وعماراتها وزينت مدنها بغصب أموال العالم الفقير وخاصة الإسلامى منه.

هؤلاء المفتنون لايؤمنون بسهولة بالتغيير الحضارى لمجتمعاتهم على غير خطط ومناهج الغرب التى وضعها لتمرير أفكاره ومبادئه من خلالها لإبقاء وجوده ونيل مآربه الاقتصادية والسياسية العقيدية[3].

كما لم تكن عملية الانتقال الحضارى، وتحقيق التمكين فى الأرض لبنى اسرائيل وللإسلام فى عهد النبوة، سهلة تستوعب ببساطة، بل قد استغرقت وقتا طويلا

---

(١) انظر تفسير الزمخشرى، سورة القصص الآية ٥.

(٢) فى ظلال القرآن، م ٥ ص ٢٦٧٨.

(٣) انظر هذا الموضوع فى كتاب الاسلام والاستبداد السياسي، الشيخ محمد الغزالى.

واستلهمت جهدا كبيرا، فكذلك الأمر اليوم أمام أهل الحق الذين يسعون إلى التمكين لهذا الحق فى الأرض، وخاصة وأن الأمم فى العصر الحديث وأكثر من غير ذى قبل، قد دأبت ألا تؤمن بالقوة الروحية والعوامل الخفية المستترة فى تغيير المجتمعات وتحريك التاريخ وبناء الحضارات.

وإن كان التمكين منا وفضلا من الله يؤتيه من يشاء لتحقيق أمر من أموره فى الخلق سبحانه، كما من الله على بنى اسرائيل بالتمكين فقد مىن على أهل مكة وبالتمكين وغيرهم من الأنبياء والصالحين يوم أن كانوا أهلا للتمكين، كما سنعرف قصة تمكين يوسف وكما قال الله تعالى: **﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا. أو لم نمكن لهم حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون. وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين﴾**(1).

قال أهل مكة يا محمد إن نتبع طريق التوحيد الذي تدعونا اليه نتخطف من أرضنا مكة ونطرد منها وكأن القوم كانوا فى خوف من غيرهم إن هم آمنوا فقال الله لهم "أو لم نمكن لهم حرما آمنا تجئ إليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا" يعنى أن الله قد آتاهم ووعدهم بالتمكين وكانوا تجبى، يعنى تأتى اليهم الثمرات مع الحجاج والزوار من كل مكان رزقا من عند الله(2).

وفضل الله ومنه على أهل مكة كبير بينته كثير من الآيات حيث آتى سبحانه أهل هذا البلد الأمن والسلم وهو أعز ما تفتقده الأمم فى أطوار انحطاطها.

فقال تعالى : **﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً﴾**(3).

أى من دخله كان آمنا(4).

وقال تعالى: **﴿هو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً﴾**(5).

كف أيدى أهل مكة عن قتال المسلمين، وأيدى المسلمين عن قتال أهل مكة من بعد ما هزموهم المسلمون حتى دخلوا مكة(6).

---

(1) سورة القصص، الآيتين ٥٧،٥٨.
(2) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص ٣٢٨.
(3) سورة البقرة ١٢٤.
(4) نفس المصدر، ص ١٨.
(5) سورة الفتح، الآية ٢٤.
(6) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص ٤٣٣.

أما عن تمكين الأفراد فنجد أولى الناس بالتمكين عند الله هم الرسل والأنبياء ثم الأمثل فالأمثل وقد يمكن الله لأهل الباطل وفق سنن خاصة كما سنعرف.

ولقد مكن الله يوسف عليه السلام بعد أن عاش محنا شتى، فقال تعالى: **﴿وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا. وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره. ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين﴾**(١).

ومعنى "وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث" أى جعلنا له مثوى كريما فى قلب العزيز ومنزلة، وجعلنا له تصرفا بالأمر والنهى فى ملكه فى أرض مصر ووجاهة ومحبة فى قلوبهم لتكون عاقبة ذلك تعليمه تأويل الرؤى التى ستقع من الملك وتفضى بيوسف إلى الرياسة والحكم "والله غالب على أمره" أى لا يمنع عما يشاء، ولا ينازع فيما يريد ولكن أكثر الناس لا يعلمون، لا يعلمون هذه الحقائق وسنن التمكين، "ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلماً "حيث هما من لوازم التمكين الذى من سننه، كما تبين الآية التي بين أيدينا الصبر على الابتلاء والمجاهدة"(٢).

حيث مكن يوسف بعد محنة الرق والعبودية وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى أخرى. ومحنة كيد الأخوة، والخوف والترويع، ومحنة كيد امرأة العزيز ولعلها أشد محنة، أدت به إلى السجن.

وهذا تدبير الله الذى إن أراد أمرا هيأ له أسبابه، وبعد كل هذا أتته تباشير التمكين، وأوتى صحة الحكم وحسن تدبير شئون الملك، وأوتى علما ببصائر الأحاديث والرؤى، واللفظ أعم يشمل كل علم فى إمكان البشر(٣).

وكانت هذه المرحلة الأولى من التمكين وبعد ذلك قال تعالى: **﴿قال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم، وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾**(٤).

"وقال الملك أئتونى به استخلصه لنفسى" أى اختص به من دون العزيز، جريا على

---

(١) سورة يوسف الآيات ٢١،٢٢.

(٢) انظر محاسن التأويل – تفسير القاسمى، يوسف٢٢.

(٣) انظر فى ظلال القرآن، م ٤ ص ١٩٧٩.

(٤) سورة يوسف، الآيات ٥٤،٥٥،٥٦،٥٧.

عادة الملوك من الاستئثار بالنفيس العزيز، قال الملك لما علم وتحقق من براءته عليه السلام فيما نسب إليه، وعرف الملك كرم نفسه وسعة علمه عليه السلام قال الملك ليوسف إنك اليوم لدينا مكين أمين "أى ذو مكانة ومنزلة عندنا فى الملك ومؤتمن على كل شئ ولا تخف ظلما، فعند ذلك قال يوسف للملك: اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم أى ولينى خزائن أرضك إنى عالم بوجوه التصرف والتدبير، ولذلك ازدهر اقتصاد مصر فى عصره عليه السلام وعلى يده لحسن تصرفه وتخطيطه ازدهارا لعل مصر لم تعرف له مثيلا من ذلك الوقت وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء"وكان عليه السلام يطوف فىمصر، حيث أراد وكيف شاء فلا يخاف أحد"[1].

وكان هذا هو التمكين الثانى ليوسف عليه السلام فى أرض مصر بعد التمكين الأول الذى كان فى قلب الملك وفي قصره، وإن كان التمكين الأول تحقق بعد الرق فإن التمكين الثانى كان بعد الخروج من السجن والبراءة من التهمة، عندما قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين"[2].

وبدأ يوسف عليه السلام مرحلة جديدة، وهى مرحلة السيادة والرياسة بعد حياة الرق والعبودية. وتبين صبره وثباته، وجهاده ثم علمه وحكمته فى تسيير شئون البلاد - مصر - مع اعتبار أنها أعظم مماليك الأرض يومذاك، وتبوأ فيها كيف شاء وسادها العدل بعد الظلم، والوفرة بعد سنين القحط والاحتياج[3].

ومن تمكين يوسف فى الأرض تستخلص أهم سنن التمكين للمؤمنين لعلل أولها الصبر والثبات ثم العلم والحكمة، وفضل الله من قبل ومن بعد.

وعن التمكين للمؤمنين ذكر الله ما مكن فيه ذا القرنين الرجل المؤمن الذى قمع يأجوج ومأجوج المفسدين فى الأرض. فقال تعالى: **﴿ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا. إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شئ سببا. فأتبع سببا حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا. وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرى. ثم أتبع سببا حتى بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا. ثم أتبع سببا حتى إذا بلغ السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا قالوا ياذا القرنين إن يأجوج**

---

(١) انظر محاسن التأويل، تفسير القاسمى، يوسف ٥٦،٥٧.

(٢) سورة يوسف ٥١.

(٣) انظر فى ظلال القرآن، م ٤، ص ٢٠١٤

ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا. قال ما مكني فيه ربي خيرا فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما﴾[1].

لقد سأل سائلون رسول الله عن ذي القرنين فأوحى الله إليه بما هو وارد في هذه الآيات عن سيرته ورحلاته، حيث سجل عنه في القرآن ثلاث رحلات واحدة إلى المغرب والثانية إلى المشرق والثالثة إلى ما بين السدين. والحديث بالتمكين في الأرض وما أتاه سبحانه فقال تعالى: إنا مكنا له في الأرض وأتيناه من كل شئ سببا "، لقد مكن الله له في الأرض وأعطاه سلطانا ووهب له جاها قوى الدعائم ويسر له أسباب كل شئ من أسباب الحكم والفتح وأسباب العمران وأسباب الرزق والمتاع، وكل ما له شأن في حياة البشر فكانت له فتوحات عسكرية، ومنجزات عمرانية عظيمة، وأعلن دستور حكمه العادل في القوم الذين وجدهم عند عين الحمئة لا يكادون يفقهون قولا فقال كما بين تعالى: **﴿قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكراً. وأما من آمن وعمل صالحا فله جزءا الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرى﴾**[2].

ولا يمكن الجزم بدقائق ما ورد في النص القرآني من حصيلات عن حياة ذي القرنين وسيرته، وسلوكه، ومواقفه، وكيفية تطبيق ما رآه من أحكام "إلا بما يؤخذ من ظاهر النص. وهو أحسن تفسير عند أهل العلم، وذلك أن ذا القرنين وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين أو بين سدين صناعيين يفصلهما شئ فوجد هناك قوما مختلفين "لا يكادون يفقهون قولا" وعندما عرفوه رجلا عظيما وفاتحا وقائدا قويا توسموا فيه القدرة، فعرضوا عليه أن يقيم لهم سدا مانعا في وجه يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض. والذين كانوا يهاجمون القوم ويغيرون عليهم فيعثون في أرضهم فسادا، وذلك مقابل خراج من المال وهو أجر عمله، وتطوع ذو القرنين بإقامة السد، بأيسر وهو طريق ردم الممر بين الحاجزين الطبيعين وطلب من القوم أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية، فقال "فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما آتوني زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا فما استطاعوا أن يظهروه. وما استطاعوا له نقبا". وبذلك التحم الحاجزان وأغلقت الطريق في وجه يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض ويقال إن هذا السد ما زالت له بقايا حتى العصر الحديث وقد وقف عليها الباحثون قرب سمرقند بالجمهوريات الإسلامية المغتصبة من لدن الاتحاد السوفيتي، ومع كل ما عمله ذو القرنين لم يأخذه البطر والكبر والغرور، (وقال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا.

---

(١) سورة الكهف، الآيتين ٨٥،٨٦.

(٢) سورة الكهف، الآيتين ٨٥،٨٦.

وبهذا يسجل القرن الكريم صفحات مشرقة فى سيرة رجل من رجال العلم والعزم والتمكين، هو ذو القرنين الحاكم النموذجي والقائد القدوة[1].

وكان ذو القرنين من الذين قال الله فيهم "الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر و لله عاقبة الأمور"[2].

قال القاسمى: فى الآية تأكيد لما وعد الله من إظهار أهل الحق وإعلاء كلمتهم[3].

وعن سؤال قد يواجهنا قائلا كيف مكن لأهل الباطل والكفر فى حقب مختلفة من تاريخ الإنسانية إذا كان من سنن الله فى التمكين الإيمان والعدل فنجد الجواب فى قوله تعالى : "لا يغرنك الذين كفروا فى البلاد متاع قليل. ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاء من عند الله. وما عند الله خير للأبرار"[4].

الآية تبين سنة من سنن الاستدراج لأهل الباطل وهم الكفار، فلا حجة للمنافقين الذين قالوا عند الشدة "ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا[5].

وفى الآية نهى عن الاغترار بواقع الكفار، وبما هم فيه من نعيم ومتاع، فهو متاع سيذهب بعد قليل، ويرى الإمام محمد عبده أن فى الآية قولين الأول أن المخاطبين بالآية هم الناس وليس محمدا صلى الله عليه وسلم، لأنه عليه الصلاة والسلام ما اغتر بالكافرين لحظة، وحاصل معنى الآية كما بينا النهى عن الغرور بتقلب الكافرين فى البلاد وأمام ما هم فيه من متع الدنيا وزينتها[6].

ونظائر هذه الآية كثيرة فى القرآن الكريم كقوله تعالى : "ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد"[7].

والمعنى كما قال ابن عباس لا يغررك يا محمد ذهاب القرشيين ومجيئهم فى الأسفار بالتجارة فإنهم ليسوا على شئ.

وها هم أهل الغرب يعيشون اليوم حياة الضنك التى أنذروا بها وهو ضنك نفسى لا يخفف من آثاره التقدم المادى ولا التكنولوجى والاقتصادى، ولعل الذين يعيشون فى

---

(١) انظر فى ظلال القرآن، ج ٤ ص ٢٢٩٠، ٢٢٩٣.
(٢) سورة غافر، الآية ٣.
(٣) انظر محاسن التأويل – تفسير القاسى – سورة الحج الآية ٣٩
(٤) سورة آل عمران ١٩٦–١٩٧.
(٥) الأحزاب الآية ١٢.
(٦) انظر تفسير المنار، سورة الأحزاب الآية ١٢.
(٧) سورة غافر، الآية ٣.

بجتمع الوفرة والتخمة أكثر من غيرهم تعاسة وقلقا.

والله تعالى يقول: ﴿**فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون**﴾[1].

ولعل التمكين للغربيين في العصر الحديث وهم على ضلال يجري وفق سنتين من السنن الربانية في قوله تعالى: ﴿**فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين**﴾[2].

ومعنى الآية لما تركوا ما أومروا به في الكتاب فتحنا عليهم أبواب كل شئ من الخصب والنعيم حتى إذا فرحوا وأعجبوا بما أعطوا من خيرات أخذناهم فجأة بالعذاب فقطع دابرهم وأستؤصلوا بالهلاك[3].

والسنة الثانية في قوله تعالى: ﴿**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون**﴾[4].

فمن يريد الدنيا بعلمه الذى افترضه الله عليه زينة الحياة الدنيا وزهرتها، توفر لهم ثواب أعمالهم فى الدنيا ولا يبخسون وينقصون من ثواب أعمالهم وسعيهم.

ولقد كفرت أوربا والغرب عامة اليوم ونُسى الله، وفى الوقت ذاته رغبت فى الحياة الدنيا وزينتها وبذل فى سبيل ذلك جهود عظيمة وكبيرة جدا فمكن الله لأهل الكفر فى الأرض حسب هاتين السنتين[5].

ومضت سنة الله فى أن تظل الأرض عامرة بالأكثر صلاحية لاستعمارها وأنه لا يمكن التمكين للمستضعفين من المؤمنين لمجرد كونهم كذلك أو لكونهم يعبدون الله عبادة مجردة عن التأثير فى النفس والمجتمع.

---

(١) التوبة، الآية ٥٥.

(٢) الأنعام، الآيتين ٤٥،٤٦.

(٣) انظر تنوير المقباس، من تفسير ابن عباس، س ١٠٩.

(٤) سورة هود، الآية ١٥.

(٥) انظر مفاهيم ينبغى أن تصحح ص ١٦٤.

سنن وراثة الأرض في القرآن:

قال تعالى : **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين. وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**(١).

فى هذه الآيات وعد من وعود الله للبشر، بما قضى وكتب، أن الأرض سيؤول وراثتها للصالحين، والمخاطبون على وجه الخصوص هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الصالحون الموجودون يومذاك على وجه الأرض، والمراد بالذكر هو اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه كل شئ قبل أن يخلق الخلق ويوجد أقواته وأرزاقه. فحين ذلك سن الله سبحانه أن الأرض يملكها الصالحون من الإنسانية، وقد حقق الله ذلك الوعد فى الدنيا لأهل الإيمان والصلاح، وفتح سبحانه البلاد للمؤمنين من أمة محمد وأورثهم ملك قيصر وكسرى ومد ملكهم شرقا وغربا حتى وصلوا الصين وجنوب فرنسا، أولئك الذين كانوا فى ضعف وهوان على الناس وخوف يوم نزلت هذه الآية فى مكة وهم الذين شاهدوا ذلك النصر المبين يوم بدر وترأسوا ذلك الملك العظيم، وبقى هذا الوعد مشروطا ومعلقا بتحقيق سنة الاصلاح وهي العدل والإستقامة، وليعلم الناس أن وعد الله لاحق، ولتعلم كل أمة صالحة أنها نائلة حقها لا محالة.

وتبين من هذه السنة سنة أخرى وهى أن ضعف الحق يسير نحو القوة وأن قوة الباطل الوهمية الزائفة تسير نحو الضعف، ومن شأن الله فى الصلاح أن يكون أهل قلة مستضعفة فى بداية انطلاقه الحق، والذى له يقين فى وعود الله يزداد إيماناً وقوة وثباتا على الحق الذى هو عليه لأن سنة الله نافذة ولو كره المشركون(٢).

ولقد حقق الله وعده لبنى إسرائيل حين وعدهم على لسان موسى عليه السلام فقال تعالى: **﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾**(٣).

قضت سنة الله ألا يورث القوم أرضا حتى يهلك من سبقهم بعد أن يصيروا غير أهل لملك الأرض وقيادة الناس، لأنه ليس من عدالته سبحانه أن يفتك أرضا من قوم ليرثها لقوم آخرين محاباة أو تفضيلا، كما ظن بنو إسرائيل، أو لمجرد التوريث كغاية فى ذاته، وإن كان فى هذه الآية التوريث لبنى إسرائيل شرق الأرض المقدسة الشام وغربها

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦.

(٢) انظر مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ص ٢٠٧، ٢٠٩ عبد الحميد بن بادي

(٣) سورة الأعراف ١٣٦، ١٣٧.

جاء بعد هلاك فرعون وإغراقه في اليم، واستضعاف بنى إسرائيل فإن ذلك لم ينالوه لكونهم كانوا مستضعفين، وإنما بما صبروا أى سبب صبرهم والصبر صفة إنسانية حميدة وثقيلة لا يطيقها إلا الأقوياء وهى القوة المعنوية المؤهلة للأفراد والأمم للاستخلاف والتمكين والقيادة الحضارية، ومن هنا كان الصبر عاملا من عوامل البناء الحضارى فى حياة الشعوب، ولقد بدأت المرحلة التاريخية فى حياة بنى إسرائيل على الصبر على أنقاض الحضارة الفرعونية ذات البطش والقوة المادية الجبارة وتم وعد الله المؤمنين المستضعفين الصابرين، ودمر عروش الفراعنة وقصورهم وما كانوا يصنعون[1].

وقال تعالى يبين الحقيقة "فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناهم بنى إسرائيل"[2].

هذا وصف للحالة التى كان فيها الفراعنة ثم أخرجوا منها على حالها وهيئتها وورثها بنو إسرائيل، وفى آية أخرى قال تعالى: ﴿**كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين**﴾[3]. والحاصل أن أمجاد فرعون وحضارته لم تذهب إلا يوم نخرتها عوامل الفساد كالظلم والشرك والتجبر والطغيان، وإن كانت جوانبها المادية ولا شك قوية ومزدهرة، وهنا ما يفهم من هذه الأوصاف التى خلفها القوم وهى البساتين والعيون والزروع والمقام الكريم أى المنازل والجنة التى كانوا فيها فاكهين، اى معجبين[4].

ثم نزع هذا كله من القوم الظالمين وورثه قوم آخرون هم بنوا إسرائيل وذهب هؤلاء الطغاة الذين كانو ملء الأعين والنفوس، ذهبوا فلم يأس ذهابهم أحد ولم ينظروا، ويؤجلوا عندما حل الميعاد والأجل المحدد ولو عرف الجبارون ما فى هذه الكلمات من ايحاء لأدركوا هوانهم على الله وعلى الوجود كله، وأدركوا أنهم يعيشون فى الكون منبوذين(٥).

وكان موسى عليه السلام يفقه سنن الله فى وراثة الأرض ولذلك كان يقول لقومه كما قال تعالى: ﴿**قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**﴾[6].

---

(١) انظر فى ظلال القرآن، م ٣، ١٣٦٠.

(٢) سورة الشعرء ٥٧،٥٨،٥٩.

(٣) سورة الدخان ٢٥-٢٩.

(٤) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٤١٨.

(٥) انظر فى ظلال القرآن الكريم، ٥، ص ٣٢١٤.

(٦) سورة الأعراف الآية ١٢٧.

سنن الوراثة من خلال هذه الآية ثلاث هي الاستعانة با لله، والصبر وأنها تكون لعباد ا لله، و لله الأمر من قبل ومن بعد "يورثها من يشاء"، وكان موسى عليه السلام يخاطب قومه بفقه هذه السنن التى لم تتبدل وما زالت حتى اليوم هى عوامل النصر والتمكين والظفر والعزة، ويبث فيهم روح الثبات وعوامل الصمود، فى المحن والشدائد التى كان يعيشها القوم آنذاك وكشف لهم عليه السلام عن حقيقة كبرى وهى أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده وليست لفرعون كما ادعى ولعل البعض، صدقه بذلك واستقر فى قلبه لما رأى من قوة مادية فى يد فرعون، وسلطان وجبروت مسلط على هؤلاء الصابرين، والعاقبة للمتقين سنة ثابتة وشأن من شئون ا لله لا يتغير ولا يتبدل[١].

وإن هؤلاء المستخلفين الذين ورثوا الأرض من بعد أهلها الظالمين أنها لن تطول بين أيديهم إن هم لم يلتزموا سنن استمرارية الوراثة والتمكين، ولذلك قال تعالى ينبه إلى هذه القضية: **﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾**[٢].

أى ألم يتبين للذين يستخلفون فى الأرض بالتوارث من بعد هلاك آخرين قبلهم "أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم" أى لو نشاء فعلنا بهؤلاء المستخلفين كما فعلنا بمن قبلهم ممن ورثوهم وهكذا كلما انحرفت أمة وأصبحت غير صالحة للاستخلاف وغير قادرة على تسيير شئون الحياة ورثتها أمة اخرى. ثم قال تعالى: **﴿ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾** أى يختم عليها فلا تسمع موعظة ولاتتدبر آية من آيات ا لله[٣].

والمراد أنه ينبغى للمستخلفين فى الأرض والوارثين لها جيل بعد جيل أن يتقوا ا لله ولا يكونوا من المفسدين الظالمين، ولا من المترفين الفاسقين، ويعلموا أن سنة ا لله فى الأمم ماضيه وأن ما يجرى من رفع لأمم ليس على سبيل المصادفات بل هى السنن المطردة بمشيئة ا لله فلا هوادة فيها ولا ظلم ولا محاباة[٤].

ولا يريد ا لله من هذا أن يعيش الناس مفزعين قلقين يرتجفون من الدمار والهلاك أن يأخذهم فى أى لحظة من ليل أو نهار فيدب فى قلوبهم اليأس والقلق من المجهول فتشل الطاقات ويعجزون عن عمارة الأرض، وإنما يريد ا لله تربية الأجيال من خلال أحداث الأمم السابقة، وكيف يرون حركة التاريخ وصيرورة المجتمعات فيحرصون على إدامة الاتصال با لله، وعدم الاغترار بالقوة المادية والتجبر على الآخرين[٥].

---

(١) انظر فى ظلال القرآن.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٩٩.
(٣) انظر الطبرى، الأعراف، الآية ٩٩.
(٤) انظر تفسير المنار، الأعراف الآية ٩٩.
(٥) انظر فى ظلال القرآن، م ٣، ص ١٣٤١.

مصير الحضارات وآجال الأمم في القرآن:

إن فكرة المصير والتنبؤ بمستقبل الحياة فكرة شغلت الفلاسفة وأرقت المفكرين منذ قديم العصور وهم يرون الأفراد والأمم تتوارى في التراب وتغيب وراء الشمس، والمجتمعات والحضارات تنسحب عن مسرح الحياة الواحدة تلو الأخرى ثم تستبدل بغيرها والكل يسير نحو نهاية واحدة هي الفناء والموت، والعاقبة للتقوى والعاقبة للمحسنين، هذا ما بينه الله في القرآن بصريح آياته: فقال تعالى "كل نفس ذائقة الموت"[(1)].

وقال تعالى ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾[(2)]،وقال تعالى: ﴿أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ يا معشر الناس من المنافقين والمؤمنين أينما تكونوا في البر أو البحر في سفر أو في حضر تموتون ولو كنتم في قصور حصينة[(3)].

هذه الحقيقة الفناء والموت لكل حي مخلوق آكدها القرآن الكريم بما لا يدع مجالا للشك، وفي القرآن آيات أخرى تصرح بموت الأمم كما يموت الأفراد ومن ذلك قوله تعالى : لكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون"[(4)].

أي لكل قوم ميقات لانقضاء مدتهم وأجلهم في الحياة فإذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم لا يستأخرون ساعة والامداد بالساعة اقل مدة من الزمن ولا يتقدمون بالقدر نفسه لأن الله قضي بذلك حين قدر.

والأجل المقدر للأمم السعيدة ينتهي بالشقاء والمهانة والاستعباد إن لم ينته بالفناء والزوال، وهذا نوع من الهلاك منوط بسنن الله تعالى في الاجتماع والحضارات وعوامله محصورة في مخالفة هدى الله والخروج عن منهج الاستقامة وخط التوازن، واتباع الظلم والفواحش، فما من أمة ارتكبت المفاسد والمظالم والضلالات إلا سلبها الله عزها وسعادتها وسلط عليها من استذلها وسلب ملكها وأمامنا أمثلة تطبيقية كثيرة في تاريخ الإنسانية القديم والحديث وذلك كاليهود والرومان والفرس والعرب وغيرهم.

وهذا النوع من آجال الأمم وان عرفت أسبابه وسننه فلا يمكن لأحد أن يحدد وقته بالأيام ولا بالسنين وهو محدد في علم الله بالساعات التي هي أقل وحدة في الزمان –

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

(٢) سورة الرحمن، الآية ٢٥.

(٣) سورة النساء، الآية ٧٧.

(٤) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٤٤٨.

لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون - والأمة التي ترتكب أسباب الهلاك تكون طالبة له بلسان حالها وسلوكها، والأمة قادرة أن تصرف بأمر الله عنها هلاكه لها عن طريق التوبة ومراجعة النفس وبترك الظلم والفساد بكافة أنواعه ثم الاستقامة على طريق الحق(١).

ولنا مثال عن هذا في قوم يونس كما قال تعالى: **﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانهم إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾**(٢).

ومن قوله تعالى ومتعناهم إلى حين "يتبين لنا الفرق بين الهلاك والسقوط والموت. لأن الأجل المذكور في الآية قد ينتهي بالهلاك الحسى هلاك الاستئصال وهو الموت أو الفناء كما وقع لكثير من الأمم الخالية كعاد وثمود حيث قال تعالى: **﴿وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى﴾**(٣).

أى فلم يترك منهم أحداً(٤).

وقد ينتهى الأجل بالهلاك المعنوى هلاك الهزيمة الحضارية والضياع والتيه بين مناهج الحياة والتبعية للأمم، وهو ما وقع لكثير من الأمم كذلك وأما أن تدوم هذه الفترة وتعود الأمة الضائعة إلى عزتها وقوتها وهو ما نسميه بالتجدد الحضارى، وإما أن يستمر هذا الضياع ويستفحل فتضمحل قوة الأمة أكثر وتنمحى شخصيتها وتنتمى إلى الاندثار وإن بقت قائمة من الناحية المادية كأفراد وأرض وبناء، وكل هذا لا يكون إلا وفق سنن لا تتبدل، ولا مكانة للمحاباة والمصادفات(٥).

وقال تعالى: **﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم، ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾**(٦).

بينت الآية أن كل القرى الهالكة كان لها أجل مقدر في أسباب هلاكها وذلك لما أقام الله الحجة على أهلها بتقدم النذر وفرص الامهال وسنن الاستدراج(٧).

فإن قيل أن معنى الآية جاء بالجزم غير المشروط للاستنجاد والاستنقاض، كان

---

(١) انظر تفسير المنار، يونس ٤٩.

(٢) سورة يونس الآية ٩٨.

(٣) سورة النجم الآية ٤٩، ٥٠.

(٤) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٤٤٨.

(٥) انظر فى ظلال القرآن، م ٣ ص ١٧٩٧.

(٦) سورة الحجر، الآيتين ٤، ٥.

(٧) انظر محاسن التأويل، تفسير القاسمى، الحجر ٤، ٥.

الجواب أن ذلك كان بالنسبة لله وما علمه وأثبته في كتابه لأن علم الله لا يتبدل وسنته لا تتحول ولذلك لا يمتنع التأخير أو الرد وطلبه على من طلبه عن طريق أسبابه، ويطلب صرف بأس الله عن طريق سنة النجاة وهي التوبة والاستقامة بتحقيق العدل والصلاح والأمثلة كثيرة في مجال المحسوسات، كالجزم بوقوف محركات المركبات بعد نفاذ وقودها في الوقت المحدد والأجل المقدر له، بدون تأخير ولا تقديم، ولكن يمكن تغيير الأجل والوقت بالتدخل لزيادة الإصلاح والاستمرار في السير بتقديم الوقود قبل التوقف النهائي، وقس ذلك على الأمراض الخطيرة التي لو لم يتدخل الطبيب بالعلاج تهلك الأجسام وعلى قدر قوة المناعة الداخلية وكثرة العلاج وتركيزه، وحسن التغذية، يضعف خطر المرض حتى يشفى المريض، أو يهلك إن قدر له ذلك ولقد ثبت قطعيا أن من أسباب قلة الوفيات تحسين المعيشة والوقاية من أسباب الأمراض.

وكذلك شأن الأمم قد يبلغ فيها الفساد درجة تستعصي فيها المعالجة على أطباء الاجتماع وهم القادة والمصلحون والمفكرون، وقد يسارع العلماء والقادة إلى استئصال الأمراض وحسن تسيير شئون الأمم، تبرأ بظهور العدل والإصلاح فيها وكثير من الأمم بلغت فيها أسباب الهلاك مبلغا كبيرا وانتشر فيها الفساد طولا وعرضا ومع ذلك استطاع قادتها انتشالها من الدمار الكلي وعادت إلى قوتها وعزتها ولنا مثال في تاريخ الغرب خلال الحربين العالميتين وكيف استطاع اليوم بناء نفسه من جديد، وتاثير الفساد في الأمم يشبه تأثير الأمراض في الأفراد[1].

وتبقى سنة الله ثابتة، وهي أن هلاك الأمم مرهون بأجلها الذي قدره الله لها مرتب على سلوكها، وأعمالها، وعلى اعتقادها، وقصورها، ومن خلال هذا تنفذ مشيئة الله فلا يغر المكذبين تخلف بأس الله عنهم فترة من الوقت ومن عدل الله أن يذوق كل واحد جزاء عمله وتصرفه وسنة الله في طريقها المعلوم تمضي رويدا رويدا نحو الأجل المقدر الذي يمنحه الله لتلك القرى، وحتى لا تبقى بقية خير عند ذلك تبلغ الأمة أجلها وتنتهي إلى مصيرها[2].

وما من أمة عرفت الحياة ثم تمردت على الحق وتولت عن العدل إلا والله مهلكها قبل يوم القيامة أو معذبها، وهذا قدر مقدر في الكتاب المسطور، قال تعالى: **﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا﴾**[3].

قدر سبحانه أنه ما من قرية إلا والله مهلكها قبل يوم القيامة بوقوع العذاب بما

---

(١) انظر تفسير المنار، الحجر ٤، ٥.

(٢) انظر في ظلال القرآن، م ٤، ص ٢١٢٦.

(٣) سورة الإسراء الآية ٥٨.

ارتكبت من ذنوب فلا يبقى حى من القرى الا ويلقى نهايته على أحد الوجهين هلاك حتف واستئصال أو هلاك عذاب، واستبقاء حتى تفيئ إلى أمر الله، وما من أمة عرفت الخوارق المادية إلا هلكت بفناء، ولذلك ربما أن الله لم يقدر لأمه محمد صلى الله عليه وسلم هلاك الاستئصال بالفناء الكلي قبل يوم القيامة فإن الله لم يرسل النبي عليه السلام بالخوارق المادية الكبرى وحدها[1].

وإن قيل كيف غفل الفلاسفة عن هذه السنن والحقائق رغم أنهم بحثوا جزئيات كثيرة فى حياة الإنسانية وأحصوها وأعدوها إعداداً، والأمر بالنسبة لبعض المسلمين أغرب وهم الذين آمنوا بالقرآن ويقرأوه.

ولعل العلة فى ذلك الغفلة كالطبيب الذى يعرف أضرار الخمر ويحتسيه.

﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾[2].

أى ما فى القرآن من وعد ووعيد سيعلم أنه لحق بعد حين[3].

---

(١) انظر فى ظلال القرآن م ٢، ص ٢٢٣٧.

(٢) سورة ص، الآية ٨٦.

(٣) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٣٨٥.

الخـــاتمـــة

أحاول في الختام بيان بعض القضايا التى أثارها البحث والنتـائج التـى انتهـى إليهـا، فبعضها يتعلق بجانب المنهج القرآني فى الحضارة وبعضها الآخر يتعلـق بجـانب الحضـارة ذاته، ولعل من أهم هذه القضايا التى توصل إليها البحـث هـى بيـان أو معرفـة أسـلوب القرآن في تناول قضايا الإنسانية العقيدية والفكرية والاجتماعية والتاريخية... فالقرآن لا يعقـد فصولا أو أبوابـا، كمـا يفعـل المؤلفـون والكتـاب وإنما يـأتى الحديـث فيـه عـن مشكلات البشر مفروحا بين مبـادئ العقيـدة وقيـم التربيـة وفرائـض العبـادة والمعـارف التاريخية والظواهر الاجتماعية والمعاملات المالية التجاريـة وهكـذا يقـدم القـرآن الكريـم أقوى الحقائق وأدق المعارف فى أسلوب منفرد متميز حتـى يـؤدى كـل شـئ فيـه دوره فتتعلـم العقـول وتؤمـن القلـوب وتعتـبر وتطيـب النفـوس والمشـاعر وتسـتقيم الأخـلاق والسلوك، فالآيـة الواحـدة قـد تصلـح لأن تكـون قانونـا اجتماعيا أو سياسـيا ونظريـة اقتصاديـة حقيقيـة ومنهجـا تربويـا وخـبرا تاريخيـا وشـاهدا لغويـا و... فيتحقـق شمـول الإعجاز القرآني ويدرك العقلاء أنه وحي يوحى وليس بدعا من بشر.

ولقد دعا القرآن الإنسان إلى معرفة هذه الحقائق وكشف أسـرارها بـالتدبر والتـأمل والتعقل والنظر فى الأنفس والآفاق ليحقق بذلك التقدم والتحضر، ولقد خاطب القرآن فى سبيل معرفة سنن الحضارة أهل كل زمان بما يفهمون وأهل كل تخصص بما يعقلـون ولقد حاول كثير من المفكرين والفلاسفة سلب هذا الفضل مـن القـرآن واعتـبروه مجـرد مواعظ روحية لا أثره لها فى حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية، وبديهى أن لكل فعـل رد حيث رد فريق من المفكرين على هذا، وعدوا القـرآن كتـاب علـوم طبيعيـة وماديـة وحملوا آياته ما لم تحتمله ولعل هذا التعسف كان سببا صد كثيرا من الخلق عـن القـرآن ولهذا كان مصـدر شقاء الإنسانية فى كل فـترات انحطاطهـا وطغيانهـا صـادرا عـن فقـد التوازن فى النفس والقصور عن كل قضايا الإنسانية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وبسبب فقد التوازن فى الحياة نجد الإنسان فى العصر الحديـث بعـد أن بلـغ فـى ميـدان التقدم المادى الذى اخترعه عقله وصنعته يداه ولعل أكبر شاهد معنا فـى هـذا الموضـوع حوادث الحربين العالميتين وانفجار مصانع المفاعل النووية التـى سممـت كـل الموجـودات حولها حتى كاد الإنسان الذى أصابته نكباتها لا يجد ما يأكل ويشـرب وتركـت آلاف المعطوبين والمشوهين، أو يتجه الإنسان نحو الارتقاء بالوحى الروحـى والمعنـوى لتحقيـق التوازن وتعويض ما فاته فى هذا الجـانب، ولقـد انتهـى إلى الحـالتين كثـير مـن فلاسـفة الغرب ومفكريه وفنانيه حين وجدوا أنفسهم أمام اختيارين ولا طاقة لهم على العيش فى حياة التناقض وفقد التوازن وهذا ما يفسـر ظـاهرة الانتحـار فـى أهـل الغـرب وإسـلام علمائهم، إذن لقد وصل الغـرب إلى الاحتمـالين كـأفراد ولم يصـل إليهمـا كـأمم، وإن

كانت الإنسانية إلى الحالة الثانية وهى تحقيق التوازن أقرب لما وصل اليه الإنسان من قوة التفكر وقدرة على استعمال العقل.

إن قضية السنن فى منهج التحضر فى القرآن تقوم على أساسين : -

١ - اليقين بوجود ا لله ووحدانيته وتدبيره لشئون الخلق.

٢ - ونفى زعم المذهب المادى الإلحادى المرتكز على وهم الاكتفاء الذاتى للكون أو الطبيعة، والتطور التلقائى للكائنات الحية فيه.

وفى الوقت نفسه تنفى نظرية السنن فكرة الجبر التى ترى أن الإنسان ليس حرا فى الوجود، وبالتالى ليس له فعالية حقيقية فى الحياة، وأن كل شئ يقوم به مفروض عليه بقوة غيبية خارجية لا يدركها ولا يحسها، والحق أن الإنسان لا يقدر على فعل أى شئ ضد مشيئة ا لله، وا لله ذاته شاء أن يمنح هذا الإنسان قدرا من الحرية فى الاختيار والقدرة فى السلوك والعمل ليدبر شئونه، ولعل دليلنا على هذا هو إحساس الإنسان ذاته فى (قرارة نفسه) أنه حر يستطيع فعل ما يشاء وترك ما يشاء وكيف أراد، دون جبر داخلى أو قهر خارجى صادر عن غيره ولذا كان الإنسان مسئولاً مسئولية كلية عن حياته فى حاضره ومستقبله أمام الناس وأمام ا لله فى الدنيا والآخرة، وانتهت إلى وجود كثير من المفاهيم والتصورات عن الحضارة لعل أقربها إلى الحقيقة فى التصور الإسلامى هو أن الحضارة هى الوسيلة الوحيدة أو الطريقة المؤدية إلى تحقيق غاية الوجود الإنسانى فى الحياة. ولقد استوقفنى فى هذا المجال كثير من الآيات التى كنت أحس بضرورة الاستشهاد بها فى كثير من فقرات هذه الدراسة، وأصيب أن هذه الآيات تمثل مناهج ومعالم فى إطار البديل الحضارى القرآني الإسلامى أمام المفكرين المسلمين وذلك كقوله تعالى فى مجال التغيير والتربية "إن ا لله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" وفى مجال التكوين والاعداد قوله تعالى: "واعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو ا لله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم وا لله يعلمهم".

وفى مجال الاكتشافات والاختراعات العلمية قوله تعالى : "سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق". وبهذه الآيات وغيرها كثير وعد الإنسانية وعودا ربطها بتحقيق الإنسان غاية وجوده ومن هذه الوعود الوعد بالوفرة الاقتصادية فى قوله تعالى: "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض".

وانتهيت إلى أن الإنسان قد تمكن من العمل بسنن التحضر والأخذ بعوامله منذ قدم الدهر بوحي أو هدى من ا لله فاستطاع إنشاء القرى والمدن وإقامة الدول والامبراطوريات بدافع الفطرة والحاجة الإنسانية التى جعلها ا لله سنة من سنن البناء الحضارى، ثم ما لبث الإنسان يحقق رغباته وغاياته حتى غدت أعماله آيات وعلامات

حضارية اهتدت بما فيها الأجيال اللاحقة بالسابقة قرونا ثم مضت أطلالا دامسة دلت عليها الآثار البقاية وخرجت من أحشائها حضارات أخرى أقدر على البقاء والاستمرار وأنذوت الأولى وصارت كأن لم تكن بالامس شيئا.

ولقد بينت هذه الحقائق في القرآن الكريم بيانا بليغا وذكرت أسبابها وعللها وأنها جرت وفق سنن ربانية عادلة.

وفى ضوء ما بينا يبدو أن الطريق الحضارى الأمثل أمام الإنسانية، يتجلى فى العودة بالحياة كلها إلى المنهج الذى صوره القرآن ودعا الإنسان بالتدبر والتبصر لقيام أسسه ومعالمه، وإذا حقق المسلمون هذا يكونوا قد نجحوا فى البرهان عمليا على صحة وصدق القول بصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، وبصفة عامة فإن ما أثبتته هذه الدراسة فى كل فصولها وفقراتها أنه ما من شئ فى الوجود إلا ويسير وفق سنن تحكم تحركاته وتضبطها وأنه لا يمكن للانسانية أن تحقق انجازا حضاريا يريحها فى كافة جوانب حياتها إلا بالسير فى إطار السنن التى أقام الله عليها الحياة، وأن تصور بعض المفكرين من صراع الإنسان مع حركة التاريخ والطبيعة إنما هو وهم.

وأكدت الدراسة أنه لتحقيق أى شئ فى الحياة لابد من سلوك سبل الله فيه، وأن كل الحضارات التى عرضتها البشرية فى تاريخها الطويل وما حدث لها من تحولات وتغيرات كان وفق سنن.
هذا ولعلى وفقت فى هذه الدراسة إلى سلوك منهج التفسير الموضوعى التوحيدى لنصوص القرآن والذى يعنى بدأ الموضوع من الواقع الخارجى بجميع آياته ثم التوحيد بين مدلولاتها ببحث معانيها فى كتب التفسير المعتمد لاستخراج نظرية قرآنية إسلامية شاملة عميقة نحو قضية من قضايا الحضارة.

المصـــادر والمراجع

- مصادر التفسير :

-القرآن الكريم - رواية ورش

١ - تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: لابن طاهر بن يعقوب الفيروز أبادى(ابـن عبـاس ت ٨٦ هـ).

٢ - جامع البيان فى تفسير القرآن: لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت٣١٠هـ).

٣ - الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبدا لله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي (ت ٦٧١هـ).

٤ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل فى و جوه التأويل:لأبى القاسم محمود بن عمر الخوارزمى الزمخشري، (ت ٥٣٨هـ).

٥ - مدارك التنزيل و حقائق التأويل : لأبى البركات عبد ا لله بن أحمد النسفى(ت ٧٠١) وقيل (ت ٧١٠).

٦ - محاسن التأويل : محمد جمال الدين القاسمى، (ت ١٣٣٣ هـ - ١٩٦٦ م).

٧ - تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار : للسيد محمد رشيد رضا.

٨ - مجالس التذكير من كلام العليم الخبير : الشيخ عبد الحميد بن باديس(ت ١٩٤١ م) إصدار و زارة الشئون الدينية بالجزائر (عام١٤٠٣هـ-١٩٨٣م).

٩ - فى ظلال القرآن : لسيد قطب، دار الشروق، القاهرة.

١٠- الأساس فى التفسير:لسعيد حوى،دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى عام ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م.

- مصادر الحضارة و الفكر :

١١- مقدمة ابن خلدون : تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى، مطابع لجنة البيان العربى، القاهرة، الطابعة الثانية ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٤ م.

١٢-شروط النهضة : مالك بن نبى، ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، ١٩٧٦ م.

١٣- الظاهرة القرآنية : مالك بن نبى، ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، ١٩٧٩ م.

١٤- ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية : مالك بن نبى، ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، ١٩٦٢ م.

١٥- الحضارة الإسلامية أسسها و مبادئها : لابى الأعلى المودودى، دار الفكر الحديث، لبنان، بدون تاريخ.

١٦- نحن والحضارة الغربية: لأبى الأعلى المودودى، دار الفكر الحديث، لبنان، بدون تاريخ.

١٧- موجز تجديد الدين واحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم :لأبى الأعلى المودودى، ترجمة خليل الحامدى ومحمد عاصم الحداد،دار الفكر الحديث،لبنان،الطبعة الثالثة،عام ١٩٦٨م.

١٨-المادية التاريخية: كارل ماركس، انجلز لينين، دار الفارابى،بيروت ١٩٧٥م.

١٩- تدهور الحضارة الغربية: أزفالدو شبنجلر، ترجمة أحمد الشيباني،منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، عام ١٩٦٤م.

٢٠- مختصر دراسة التاريخ: أرنولد توينبى، ترجمة فؤاد محمد شبل،طبعة الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية، (القاهرة عام ١٩٦١).

٢١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: وضعه محمد فؤاد عبد الباقى.

٢٢-دائرة المعارف الإسلامية.

٢٣- لسان العرب :لابن منظور.

٢٤- المثلث: لابن السيد البطليموسى.

٢٥- أسباب هلاك الأمم و سنة الله فى القوم المجرمين و المنحرفين : لعبد الله التليدى، دار البشائر الإسلامية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٢٦- أسباب النزول : لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى، مطبعة مصطفى الحلبى و أولاده بمصر، عام ١٣٨٧ هـ - ١٩٨٦ م.

٢٧ -الأسس الإسلامية فى فكر ابن خلدون و نظرياته: للدكتور مصطفى الشكعة، دار الكتاب المصرى اللبنانى، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٧.

٢٨ - أسس مفهوم الحضارة الإسلامية : سليمان الخطيب، الزهراء للاعلام العربى، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٢٩- أسس الدعوة وآداب الدعاة: محمد السيد الوكيل، دار الوفاء، القاهرة، ١٩٨٦ م.

٣٠ - أبو الأعلى المودودى و الصحوة الإسلامية : الدكتور محمد عمارة، دار الشروق الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.

٣١ - ابن خلدون اسلاميا : الدكتور عماد الدين، المكتب الإسلامى، بيروت ودمشق، الطبعة الثانية، عام ١٩٨٥ م.

٣٢ - الإسلام و التاريخ: الإسلام فى نظره إلى الله و الإنسان و المجتمع و التاريخ عمر فروخ دار الفكر العربى، بيروت عام ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٣ م.

٣٣ - الإسلام و مستقبل الحضارة: الدكتور صبحي الصالح، دار الشورى بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

٣٤ - الإسلام و مستقبل البشرية : الدكتور عبدالله عزام، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

٣٥ - الإسلام ملاذ المجتمعات : الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى، دار الفكر، سوريا، الطبعة الأولى، عام ١٣٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

٣٦ - تفصيل آيات القرآن الحكيم، جون لابوم، نقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقى، مطبعة عيسى الحلبى و شركاه بمصر، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.

٣٧ - التفسير الإسلامى للتاريخ : الدكتور عماد الدين خليل، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، عام ١٩٨١م.

٣٨ - التفسير المادى للتاريخ : محمود الشرقاوى، دار الشعب، القاهرة بدون تاريخ.

٣٩ - التفسير القرآنى للتاريخ : الدكتور راشد البرارى، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، عام ١٩٧٦ م.

٤٠ - تفسير التاريخ علم إسلامى-نحو نظرية إسلامية فى تفسير التاريخ:للدكتور عبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر و التوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٤١ - التاريخ و المؤرخون: للدكتورحسين مؤنس، دار المعارف،القاهرة ١٩٨٤م.

٤٢ - تاريخ العرب قبل الإسلام : محمد مبروك نافع، مكتبة النهضة و القاهرة، مصر الطبعة الثانية، عام ١٩٥٢ م.

٤٣ - التاريخ الجغرافى فى القرآن: سيد مظفر الدين نادجى، ترجمة الدكتور عبد الشافى غنيم و راجعه حسن محمد جوهر، نشرته لجنة البيان العربى تحت إشراف وزارة التربية و التعليم بالقاهرة ١٩٥٦.

٤٤ - تأملات: مالك بن نبى، دار الفكر سوريا ١٩٧٦ م.

٤٥ - تجديد الفكر الإسلامى: الدكتور محسن عبد الحميد، دار الصحوة للنشر، القاهرة ١٩٨٥ م.

٤٦ - الجواب الإلهى أو الإسلام و العلم و الفلسفة : نديم الجسر، مطبعة مصر، عام ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.

٤٧ - الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية : الدكتور توفيق يوسف الواعى، دار الوفاء، القاهرة ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

٤٨ - الحضارة سلسلة كتابك : أحمد حمدى محمود، دار المعارف، القاهرة.

٤٩ - حركة التاريخ فى المفهوم الإسلامى : سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبنانى الطبعة الأولى، عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٥٠ - حتى يغيروا ما بأنفسهم : جودت سعيد، دار الثقافة للجميع، دمشق سوريا، الطبعة الثالثة، عام ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

٥١ - الحب و الحضارة : هرتوت، ترجمة مطاوع صفدى، دار الآداب، بيروت عام ١٩٧٥ م.

٥٢ - الخلافة فى الأرض : الدكتور أحمد حسن فرحات، دار الأرقم، الكويت الطبعة الأولى، عام ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٥٣ - الرؤية الحضارية للتاريخ قراءة فى التراث التاريخى العربى : قاسم عبده قاسم دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٥٤ - زوال بنى إسرائيل حتمية قرآنية : الشيخ أسعد التميمى، دار المختار الإسلامى، القاهرة، عام ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٥٥ - منهج الحضارة الإنسانية فى القرآن : الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى، دار الفكر، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

٥٦ - منهج القرآن فى إثارة الأرض و عمارتها، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين الازهر إعداد الطالب فريد مصطفى سليمان، ١٩٧٩ م.

٥٧ - منهج توينبى التاريخى : محمد فؤاد شبل، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، سلسلة الثقافة، العدد ٢٠٩، ١٩٦٨.

٥٨- مقاصد القرآن الكريم:حسن البنا، دار الشهاب، القاهرة، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

٥٩ - موازين القرآن والسنة :عز الدين بليق، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٦٠- مفاهيم ينبغي أن تصحح : محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م.

٦١- منطق ابن خلدون فى ضوء حضارته وشخصيته : على البدوى، مطبعة جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية، القاهرة، ١٩٦٢م.

٦٢- مؤشرات حول الحضارة الإسلامية : الدكتور عماد الدين خليل، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، بدون تاريخ.

٦٣ - مقالات راشد الغنوشي، باريس، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

٦٤ - معجم آيات القرآن الكريم : عبد الرؤوف المصرى،ج ا، مطبعة حجازى، القاهرة الطبعة الثانية،١٩٤٨م.

٦٥- معركة الحضارة : زريق قسطنطينى ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٤م.

٦٦-من روائع حضارتنا : الدكتور مصطفى السباعى،المكتب الإسلامى،دمشق الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٦٧-المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام : الدكتور على جواد، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، عام ١٩٧٨ م.

٦٨-نظام الإسلام العقيدة و العبادة : محمد المبارك، دار الفكر، سوريا، الطبعة الرابعة، عام ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

٦٩-نحو حضارة جديدة : أحمد حيدر، دار الفكر اللبنانى، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٩ م.

٧٠-الصراع فى الوجود : بوس سلامة، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.

٧١-العقل و الرؤية الحضارية : الدكتور عماد الدين خليل ، دار الحرمين للنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

٧٢-العالمية الإسلامية الثانية : محمد أبو القاسم حاج أحمد، دار السيرة، لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

٧٣ - العمل قدرة و إرادة، دار الثقافة للجميع، دمشق سوريا، الطبعة الأولى،١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م.

٧٤- العدالة الاجتماعية فى الإسلام : سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثامنة، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

٧٥ - عوامل فساد الأمم كما تصورها سورة الأعراف، رسالة ماجستير، اعداد الطالب فايز صالح الخطيب، جامعة الازهر، كلية أصول الدين، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

٧٦- على هامش التفسير: عبد القادر المغربى، المطبعة النموذجية، مصر، بدون تاريخ.

٧٧-العلوم فى القرآن: يوسف مروّ، مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى ٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م.

٧٨-على مشارف القرن الخامس الهجرى، دارسة للسنن الإلهية و المسلم المعاصر، على إبراهيم بن الوزير، دار الشروق ، القاهرة الطبعة الثالثة، ١٤٠٢ هـ-١٩٨٢م.

٧٩- الغزو الفكرى فى التاريخ و السيرة : سالم بهنسي، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦ م.

٨٠ - فى فلسفة الحضارة الإسلامية : الدكتور محمد عفت الشرقاوى، دار النهضة بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١ م.

٨١- فى التاريخ فكرة و منهاج : سيد قطب دار الشروق، الطبعة السادسة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٦ م.

٨٣- فلسفة الحضارة: ألبرت شفيتسر، ترجمة عبد الرحمن بدوى، مطبعة مصر ١٩٦٣م.

٨٤- فلسفة المصادفة : محمود أمين العالم، دار المعارف القاهرة، ١٩٧٠ م.

٨٥- فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تحليل ونقد، طه حسين و نقله إلى العربية محمد عبدالله عنان، مطبعة الاعتماد، الطبعة الأولى.

٨٦- فلسفة القرآن : عباس محمود العقاد، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، ١٣٦٩ هـ - ١٩٤٧ م.

٨٧- فلسفة التاريخ: أحمد صبحى، مؤسسة الثقافة الجامعية بالأسكندرية، عام ١٩٧٥ م.

٨٨- الفكر الإسلامى المعاصر دراسة و تقويم، توبة غازى، دار القلم الكويت، الطبعة الثالثة، عام ١٩٧٣ م.

٨٩- الفكر التاريخى فى الإسلام : الدكتور عبد اللطيف شرارة، دار الأندلس لبنان، الطبعة الثانية، عام ١٩٨٣ م.

٩٠- الفكرة الأفريقية الأسياوية : مالك بن نبي، ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين دار

الفكر، سوريا، ١٩٧٦ م.
٩١- قيم حضارية في القرآن، جزآن، توفيق محمد السبع، دار المنار، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.
٩٢- قصة السماوات و الأرض : الدكتور محمد جمال الدين الفندى و الدكتور محمد يوسف حسن، دار الشعب، القاهرة، بدون تاريخ.
٩٣- السنة الإسلامية بين اثبات الفاهمين و رفض الجاهلين : عبد الرؤوف شلبى، دار القلم، الكويت، الطبعة الثالثة، عام ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
٩٤- السنة و مكانتها فى التشريع الإسلامى : الدكتور مصطفى السباعى المكتب الإسلامى، دمشق، الطبعة الثانية، عام ١٢٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
٩٥- سنن الله فى المجتمع من خلال القرآن : محمد صادق عرجون، دار السعودية للنشر و التوزيع، السعودية، الطبعة الثالثة، عام ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.
٩٦- السنن النفسية لتطور الأمم : غستاف لوبون، ترجمة الدكتور عادل زعيتر، دار المعارف القاهرة، الطبعة الثانية، عام ١٩٥٧ م.
٩٧- الشخصية الإنسانية فى القرآن: أحمد عبد الحميد غراب، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة عام ١٩٨٥م.
٩٨- شبنجلر: عبد الرحمن بدوى، دار القلم، الكويت، عام ١٩٨٢م.
٩٩- وجهة العالم الإسلامى : مالك بن نبى، ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين دار الفكر، سوريا، عام ١٩٨١م.

جـ - الدوريـــات:

١٠٠- عبد الرحمن بن خلدون : حياته وآثاره ومظاهر عبقريته، الدكتور على عبد الواحد وافى، سلسة أعلام العرب، العدد الرابع إصدار وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
١٠١ - الفكر المنهجى عند المحدثين : الدكتور همام عبد الرحيم سعيد، سلسة كتاب مجلة الأمة، العدد السادس عشر،١٩٨٨م كانت تصدر كل شهر عن المحاكم الشرعية، دولة قطر.
١٠٢ - المسلمون والعصر : مجموعة من الكتاب سلسلة كتاب مجلة ا لعربى، العدد الرابع عشر، عام ١٩٨٧م.
١٠٣ - مجلة المسلم المعاصر : العدد الثالث عام ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، بيروت.
١٠٤ - مجاة المسلم المعاصر : العدد الثالث عشر، عام ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، بيروت.
١٠٥ - مجلة المنابر : العدد الثانى عشر عام ١٩٨٧م وهى مجلة شهرية تصدر فى بيروت.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المعهد العالمي للفكر الإسلامي مؤسسة فكرية إسلامية ثقافية مستقلة أنشئت وسجلت في الولايات المتحدة الأمريكية في مطلع القرن الخامس عشر الهجري (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) لتعمل على:

- توفير الرؤية الإسلامية الشاملة، في تأصيل قضايا الإسلام الكلية وتوضيحها، وربط الجزئيات والفروع بالكليات والمقاصد والغايات الإسلامية العامة.
- استعادة الهوية الفكرية والثقافية والحضارية للأمة الإسلامية، من خلال جهود إسلامية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومعالجة قضايا الفكر الإسلامي.
- إصلاح مناهج الفكر الإسلامي المعاصر، لتمكين الأمة من استئناف حياتها الإسلامية ودورها في توجيه مسيرة الحضارة الإنسانيَّة وترشيدها وربطها بقيم الإسلام وغاياته.

ويستعين المعهد لتحقيق أهدافه بوسائل عديدة منها:

- عقد المؤتمرات والندوات العلميّة والفكريّة المتخصصة.
- دعم جهود العلماء والباحثين في الجامعات ومراكز البحث العلمي ونشر الإنتاج العلمي المتميز.
- توجيه الدراسات العلميّة والأكاديمية لخدمة قضايا الفكر والمعرفة.

وللمعهد عدد من المكاتب والفروع في كثير من العواصم العربية والإسلامية وغيرها يمارس من خلالها أنشطته المختلفة، كما أن له اتفاقات للتعاون العلمي المشترك مع عدد من الجامعات العربية الإسلامية والغربيّة وغيرها في مختلف أنحاء العالم.

The International Institute of Islamic Thought
555 Grove Street (P.O. Box 669)
Herndon, VA 22070-4705 U.S.A
Tel: (703) 471-1133
Fax: (703) 471-3922
Telex: 901153 IIIT WASH